

المسيران

في
تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

الجزء التاسع عشر

المسيران
في
تفسير القرآن

الميزان في تفسير القرآن

الجزء التاسع عشر

تأليف: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق و التصحيح الكامل
واضافات و تغييرات هامة من قبل المؤلف

ملاحظة: تم تطبيق الصفحات مع طبعة الأعلبي الثالثة المطبوعة في سنة ١٩٧٣ م

(٥٢) سورة الطور مكية، وهي تسع وأربعون آية (٤٩)

[سورة الطور (٥٢): الآيات ١ الى ١٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالطُّورِ ١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠

(بيان)

غرض السورة إنذار أهل التكذيب والعناد من الكفار بالعذاب الذي أعد لهم يوم القيامة فتبدأ بالإنباء عن وقوع العذاب الذي أُنذروا به وتحققه يوم القيامة بأقسام مؤكدة وإيمان مغلظة، وأنه غير تاركهم يومئذ حتى يقع بهم ولا مناص.

ثم تذكر نبذة من صفة هذا العذاب والويل الذي يعمهم ولا يفارقهم ثم تقابل ذلك بشمة من نعيم أهل النعيم يومئذ وهم المتقون الذين كانوا في الدنيا مشفقين في أهلهم يدعون الله مؤمنين به موحدين له.

ثم تأخذ في توبيخ المكذبين على ما كانوا يرمون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وما أنزل عليه من القرآن وما أتى به من الدين الحق.

و تختم الكلام بتكرار التهديد و الوعيد و أمر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بتسبيح ربه. و السورة
مكية كما يشهد بذلك سياق آياتها.

قوله تعالى: **{وَالطُّورِ}** قيل: الطور مطلق الجبل و قد غلب استعماله في الجبل الذي كلم الله عليه موسى
(عليه السلام)، و الأنسب أن يكون المراد به في الآية جبل موسى (عليه السلام) أقسم الله تعالى به لما قدسه و
بارك فيه كما أقسم به في قوله: **{وَوَطُورِ سَيْنِينَ}** التين: ٢، و قال: **{وَوَادِيَّاتِهِ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ}** مريم: ٥٢،
و قال في خطابه لموسى (عليه السلام): **{فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}** طه: ١٢، و قال: **{ثُودَى مِنْ
شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ}** القصص: ٣٠.

و قيل: المراد مطلق الجبل أقسم الله تعالى به لما أودع فيه من أنواع نعمه قال تعالى: **{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ
مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا}** حم السجدة: ١٠.

قوله تعالى: **{وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ}** قيل: الرق مطلق ما يكتب فيه و قيل: هو الورق، و قيل:
الورق المأخوذ من الجلد، و النشر هو البسط، و التفريق.

و المراد بهذا الكتاب قيل: هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه ما كان و ما يكون و ما هو كائن تقرؤه
ملائكة السماء، و قيل: المراد به صحائف الأعمال تقرؤه حفظة الأعمال من الملائكة، و قيل: هو القرآن كتبه الله
في اللوح المحفوظ، و قيل: هو التوراة و كانت تكتب في الرق و تنشر للقراءة.
و الأنسب بالنظر إلى الآية السابقة هو القول الأخير.

قوله تعالى: **{وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ}** قيل: المراد به الكعبة المشرفة فإنها أول بيت وضع للناس و لم يزل معمورا
منذ وضع إلى يومنا هذا قال تعالى: **{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ}** آل عمران:
٩٦.

و في الروايات الماثورة أن البيت المعمور بيت في السماء بجذاء الكعبة تزوره الملائكة.
و تنكير {كِتَابٍ} للإيماء إلى استغائه عن التعريف فهو تنكير يفيد التعريف و يستلزمه.

قوله تعالى: **{وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ}** هو السماء.

قوله تعالى: **{وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}** قال الراغب: السجر تهيج النار، و في الجمع: المسجور المملوء يقال: سجرت التنور أي ملأته نارا، و قد فسرت الآية بكل من المعنين و يؤيد المعنى الأول قوله: **{وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}** التكويز: ٦، أي سعرت و قد ورد في الحديث أن البحار تسعر نارا يوم القيامة، و قيل: المراد أنها تغيض مياهها بتسجير النار فيها.

قوله تعالى: **{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ}** جواب القسم السابق و المراد بالعذاب المخبر بوقوعه عذاب يوم القيامة الذي أوعد الله به الكفار المكذبين كما تشير إليه الآية التالية، و في قوله: **{مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ}** دلالة على أنه من القضاء المحتوم الذي لا محيص عن وقوعه قال تعالى: **{وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}** الحج: ٧.

و في قوله: **{عَذَابَ رَبِّكَ}** بنسبة العذاب إلى الرب المضاف إلى ضمير الخطاب دون أن يقال: عذاب الله تأييد للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) على مكذبي دعوته و تطيب لنفسه أن ربه لا يخزيه يومئذ كما قال: **{يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}** التحريم: ٨.

قوله تعالى: **{يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}** ظرف لقوله: **{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ}**.

و المور - على ما في الجمع - تردد الشيء بالذهاب و المجيء كما يتردد الدخان ثم يضمحل، و يقرب منه قول الراغب: إنه الجريان السريع.

و على أي حال فيه إشارة إلى انطواء العالم السماوي كما يذكره تعالى في مواضع من كلامه كقوله: **{إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَ إِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ}** الانفطار: ٢، و قوله: **{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ}** الأنبياء: ١٠٤، و قوله: **{وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}** الزمر: ٦٧.

كما أن قوله: **{وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}** إشارة إلى زلزلة الساعة في الأرض التي يذكرها تعالى في مواضع من كلامه كقوله: **{إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا}** الواقعة: ٦، و قوله: **{وَ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}** النبأ: ٢٠.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ}** قال: الطور جبل بطور سيناء.

وفي المجمع **{وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ}** وهو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة يعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة: عن ابن عباس و مجاهد، و روي أيضا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: **و يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبدا.**

أقول: كون البيت المعمور بيتا في السماء يطوف عليه الملائكة واقع في عدة أحاديث من طرق الفريقين غير أنها مختلفة في محله ففي أكثرها أنه في السماء الرابعة وفي بعضها أنه في السماء الأولى، وفي بعضها السابعة. وفيه: **{وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ}** وهو السماء عن علي (عليه السلام).

وفي تفسير القمي **{وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ}** قال: السماء، **{وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}** قال: تسجر يوم القيامة.

وفي المجمع **{وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}** أي المملوء. عن قتادة، وقيل: هو الموقد المحمي بمنزلة التنور. عن مجاهد والضحاك والأخفش وابن زيد. ثم قيل: إنه تحمي البحار يوم القيامة فتجعل نيرانا ثم تفجر بعضها في بعض ثم تفجر إلى النار. ورد به الحديث.

[سورة الطور (٥٢): الآيات ١١ الى ٢٨]

{قَوْلٍ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً ۝١٣ هَذِهِ

النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ إِصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ

عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ

رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ
وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ
مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾
يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾
وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ
وَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

(بيان)

تذكر الآيات من يقع عليهم هذا العذاب الذي لا ريب في تحققه و وقوعه، و تصف حالهم
إذ ذاك، و هذا هو الغرض الأصيل في السورة كما تقدمت الإشارة إليه و أما ما وقع في الآيات من
وصف حال المتقين يومئذ فهو من باب التطفل لتأكيد الإنذار المقصود.

قوله تعالى: **{فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}** تفريع على ما دلت عليه الآيات السابقة من تحقق وقوع
العذاب يوم القيامة أي إذا كان الأمر كما ذكر و لم يكن محيص عن وقوع العذاب فويل لمن يقع
عليه و هم المكذبون لا محالة فالجملة تدل على كون المعذبين هم المكذبين بالاستلزام و على تعلق
الويل بهم بالمطابقة.

أو التقدير إذا كان العذاب واقعا لا محالة و لا محالة لا يقع إلا على المكذبين لأنهم الكافرون
بالله المكذبون ليوم القيامة فويل يومئذ لهم، فالدال على تعلق العذاب بالمكذبين

هو قوله: **{عَذَابَ رَبِّكَ}** لأن عذاب الله إنما يقع على من دعاه فلم يجبه و كذب دعوته.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ}** الخوض هو الدخول في باطل القول قال الراغب: الخوض هو الشروع في الماء و المرور فيه، ويستعار في الأمور و أكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه انتهى، و تنوين التنكير في **{حَوْضٍ}** يدل على صفة محذوفة أي في خوض عجيب.

و لما كان الاشتغال بباطل القول لا يفيد نتيجة حقة إلا نتيجة خيالية يزينا الوهم للخائض سماه لعبا - و اللعب من الأفعال ما ليس له إلا الأثر الخيالي -.

و المعنى: الذين هم مستمرين في خوض عجيب يلعبون بالمجادلة في آيات الله و إنكارها و الاستهزاء بها.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً}** الدع هو الدفع الشديد، و الظاهر أن **{يَوْمَ}** بيان لقوله: **{يَوْمَئِذٍ}**.

قوله تعالى: **{هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ}** أي يقال لهم: هذه النار التي كنتم بها تكذبون، و المراد بالتكذيب بالنار التكذيب بما أخبر به الأنبياء (عليه السلام) بوحى من الله من وجود هذه النار و أنه سيعذب بها المجرمون و محصل المعنى هذه مصداق ما أخبر به الأنبياء فكذبتم به.

قوله تعالى: **{أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ}** تفریع على قوله: **{هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ}** و الاستفهام للإنكار تفریعا لهم أي إذا كانت هذه هي تلك النار التي كنتم تكذبون بها فليس هذا سحرا كما كنتم ترمون إخبار الأنبياء بها أنه سحر و ليس هذا أمرا موهوما خرافيا كما كنتم تتفوهون به بل أمر مبصر معين لكم فالآية في معنى قوله تعالى: **{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ}** الأحقاف: ٣٤.

و بما مر من المعنى يظهر أن **{أَمْ}** في قوله: **{أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ}** متصلة و قيل: منقطعة و لا يخلو من

بعد.

قوله تعالى: **{أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}**، الصلي بالفتح فالسكون مقاساة حرارة النار فعنى اصلوها قاسوا حرارة نار جهنم.

وقوله: **{فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا}** تفريع على الأمر بالمقاساة، والترديد بين الأمر والنهي كناية عن مساواة الفعل و الترك، ولذا أتبعه بقوله: **{سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ}** أي هذه المقاساة لازمة لكم لا تفارقكم سواء صبرتم أو لم تصبروا فلا الصبر يرفع عنكم العذاب أو يخففه ولا الجزع و ترك الصبر ينفع لكم شيئا.

وقوله: **{سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ}** خبر مبتدأ محذوف أي هما سواء وإفراد **{سَوَاءٌ}** لكونه مصدرا في الأصل.

وقوله: **{إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** في مقام التعليل لما ذكر من ملازمة العذاب و مساواة الصبر و الجزع.

والمعنى: إنما يلازمكم هذا الجزاء السيئ و لا يفارقكم لأنكم تجزون بأعمالكم التي كنتم تعملونها و لا تسلب نسبة العمل عن عامله فالعذاب يلازمكم أو إنما تجزون بتبعات ما كنتم تعملون و جزائه.

قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ}** الجنة البستان تجنيه الأشجار و تستره، و النعيم النعمة الكثيرة أي إن المتصفين بتقوى الله يومئذ في جنات يسكنون فيها و نعمة كثيرة تحيط بهم.

قوله تعالى: **{فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}** الفاكهة مطلق الثمرة، و قيل: هي الثمرة غير العنب و الرمان، و يقال: تفكه و فكه إذا تعاطى الفاكهة، و تفكه و فكه إذا تناول الفاكهة، و قد فسرت الآية بكل من المعنيين فقيل:

المعنى: يتحدثون بما آتاهم ربهم من النعيم، و قيل: المعنى: يتناولون الفواكه و الثمار التي آتاهم ربهم، و قيل: المعنى: يتلذذون بإحسان ربهم و مرجعه إلى المعنى الأول، و قيل: معناه فاكهين معجبين بما آتاهم ربهم، و لعل مرجعه إلى المعنى الثاني.

و تكرار **{رَبُّهُمْ}** في قوله: **{وَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}** لإفادة مزيد العناية بهم.

قوله تعالى: **{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** أي يقال لهم: كلوا و اشربوا أكلا و شربا هنيئا أو طعاما و شرابا هنيئا، فهنيئا وصف قائم مقام مفعول مطلق أو مفعول به.

و قوله: **{بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** متعلق بقوله: **{كُلُوا وَاشْرَبُوا}** أو بقوله: **{هَنِيئًا}**.

قوله تعالى: **{مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ}** الاتكاء الاعتماد على الوسادة و نحوها، و السرر جمع سرير، و مصفوفة من الصف أي مصطفة موصولة بعضها ببعض، و المعنى: متكئين على الوسائد و النمارق قاعدين على سرر مصطفة.

و قوله: **{وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ}** المراد بالتزويج القرن أي قرانهم بهن دون النكاح بالعقد، و الدليل عليه تعديه بالباء فإن التزويج بمعنى النكاح بالعقد متعد بنفسها، قال تعالى: **{وَزَوَّجْنَا كَهَا}** الأحزاب: ٣٧ كذا قيل.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}** إلخ، قيل: الفرق بين الاتباع و المحوق مع اعتبار التقدم و التأخر فيهما جميعا أنه يعتبر في الاتباع اشتراك بين التابع و المتبوع في مورد الاتباع بخلاف المحوق فاللاحق لا يشارك الملحوق في ما لحق به فيه.

ولات و آلات بمعنى نقص فعنى ما ألتناهم ما نقصناهم شيئا من عملهم بالإلحاق.

و ظاهر الآية أنها في مقام الامتنان فهو سبحانه يمتن على الذين آمنوا أنه سيلحق بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان فتقر بذلك أعينهم، و هذا هو القرينة على أن التووين في **{بِإِيمَانٍ}** للتكثير دون التعظيم.

و المعنى: اتبعوهم بنوع من الإيمان و إن قصر عن درجة إيمان آبائهم إذ لا امتنان لو كان إيمانهم أكل من إيمان آبائهم أو مساويا له.

و إطلاق الاتباع في الإيمان منصرف إلى اتباع من يصح منه في نفسه الإيمان ببلوغه حدا يكلف به فالمراد بالذرية الأولاد الكبار المكلفون بالإيمان فالآية لا تشمل الأولاد الصغار الذين ماتوا قبل البلوغ، و لا ينافي ذلك كون صغار أولاد المؤمنين محكومين بالإيمان شرعا.

اللهم إلا أن استفاد العموم من تكثير الإيمان و يكون المعنى: و اتبعتم ذريتهم بإيمان ما سواء كان إيماننا في نفسه أو إيماننا بحسب حكم الشرع.

و كذا الامتنان قرينة على أن الضمير في قوله: **{وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}** للذين آمنوا كالضميرين في قوله: **{وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ}** إذ قوله: **{وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}** مسوق حينئذ لدفع توهم ورود النقص في الثواب على تقرير الإلحاق و هو ينافي

الامتنان و من المعلوم أن الذي ينافي الامتنان هو النقص في ثواب الآباء الملحق بهم دون الذرية.

فتحصل أن قوله: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا}** إلخ، استئناف يمتن تعالى فيه على الذين آمنوا بأنه سيلحق بهم أولادهم الذين اتبعوهم بنوع من الإيمان وإن كان قاصرا عن درجة إيمانهم لتقربه أعينهم، ولا ينقص مع ذلك من ثواب عمل الآباء بالإلحاق شيء بل يؤتيهم مثل ما آتاهم أو بنحو لا تراحم فيه على ما هو أعلم به.

و في معنى الآية أقوال أخر لا تخلو من سخافة كقول بعضهم إن قوله: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا}** معطوف على **{بِحُجُورِ عَيْنٍ}** و المعنى: و زوجناهم بحور عين و بالذين آمنوا يتمتعون من الحور العين بالنكاح و بالذين آمنوا بالرفاقة و الصحبة، و قول بعضهم: إن المراد بالذرية صغار الأولاد فقط، و قول بعضهم: إن الضميرين في **{وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}** للذرية و المعنى: و ما نقصنا الذرية من عملهم شيئا بسبب إلحاقهم بآبائهم بل نوفيهم أعمالهم من خير أو شر ثم نلحقهم بآبائهم.

و قوله: **{كُلُّ إِمْرِي بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}** تعليل لقوله: **{وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}** على ما يفيدته السياق، و الرهن و الرهين و المرهون ما يوضع وثيقة للدين على ما ذكره الراغب قال: و لما كان الرهن يتصور منه حبسه أستعير ذلك لحبس أي شيء كان. انتهى.

و لعل هذا المعنى الاستعاري هو المراد في الآية و المرء رهن مقبوض و محفوظ عند الله سبحانه بما كسبه من خير أو شر حتى يوفيه جزاء ما عمله من ثواب أو عقاب فلو نقص شيئا من عمله و لم يوفه ذلك لم يكن رهين ما كسب بل رهين بعض ما عمل و امتلك بعضه الآخر غيره كذريته الملحقين به.

و أما قوله تعالى: **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا الْأَصْحَابَ الْيَمِينِ}** المدثر: ٣٩، فالمراد كونها رهينة العذاب يوم القيامة كما يشهد به سياق ما بعده من قوله: **{فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ}** المدثر: ٤١.

و قيل: المراد كون المرء رهين عمله السيئ كما تدل عليه آية سورة المدثر المذكورة أنفا بشهادة استثناء أصحاب اليمين، و الآية أعني قوله: **{كُلُّ إِمْرِي بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}** جملة معترضة من صفات أهل النار اعترضت في صفات أهل الجنة.

و حمل صاحب الكشاف الآية على نوع من الاستعارة فرفع به التنافي بين الآيتين قال: كان نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به كما يرهن الرجل عبده بدين عليه فإن عمل صالحا فكها وخلصها وإلا أوبقها. انتهى.

و أنت خبير بأن مجرد ما ذكره لا يوجه اتصال الجملة أعني قوله: **{كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}** بما قبلها.

قوله تعالى: **{وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}** بيان لبعض تتماتهم و تمتعاتهم في الجنة المذكورة إجمالاً في قوله السابق: **{كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا}** إلخ.

و الإمداد الإتيان بالشيء وقتاً بعد وقت و يستعمل في الخير كما أن المد يستعمل في الشر قال تعالى: **{وَنُمِّدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا}** مريم: ٧٩.

و المعنى: أنا نرزقهم بالفاكهة و ما يشتهونه من اللحم رزقا بعد رزق و وقتاً بعد وقت من غير انقطاع.

قوله تعالى: **{يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ}** التنازع في الكأس تعاطيها و الاجتماع على تناولها، و الكأس القدح و لا يطلق الكأس إلا فيما كان فيها الشراب.

و المراد باللغو لغو القول الذي يصدر من شاربي الخمر في الدنيا، و التأيم جعل الشخص ذا إثم و هو أيضا من آثار الخمر في الدنيا، و نفي اللغو و التأيم هو القرينة على أن المراد بالكأس التي يتنازعون فيها كأس الخمر.

قوله تعالى: **{وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ}** المراد به طوافهم عليهم للخدمة قال بعضهم: قيل: **{غِلْمَانٌ لَهُمْ}** بالتنكير و لم يقل: غلمانهم لثلاثيهم أن المراد بهم غلمانهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فهم كالحور من مخلوقات الجنة كأنهم لؤلؤ مكنون مخزون في الحسن و الصباحة و الصفا.

قوله تعالى: **{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ}** أي يسأل كل منهم غيره عن حاله في الدنيا و ما الذي ساقه إلى الجنة و النعيم؟.

قوله تعالى: **{قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ}** قال الراغب: و الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه قال تعالى: **{وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ}**

مُشْفِقُونَ فإذا عدي بمن فعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بفي فعنى العناية فيه أظهر قال تعالى: **{إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ}**، انتهى.

فالمعنى: أنا كنا في الدنيا ذوي إشفاق في أهلنا نعني بسعادتهم ونجاتهم من مهلكة الضلال فنعاشرهم بحميل المعاشرة ونسير فيهم ببث النصيحة والدعوة إلى الحق.

قوله تعالى: **{فَمَنْ أَلَّهْ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ}** المن على ما ذكره الراغب الإنعام بالنعمة الثقيلة و يكون بالفعل وهو حسن، وبالقول وهو قبيح من غيره تعالى، قال تعالى: **{يَمُتُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُتُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** الحجرات: ١٧.

ومنه تعالى على أهل الجنة إسعاده إياهم لدخولها بالرحمة وتمامه بوقايتهم عذاب السموم.

والسموم - على ما ذكره الطبرسي - الحر الذي يدخل في مسام البدن يتألم به ومنه ريح السموم.

قوله تعالى: **{إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ}** تعليل لقوله: **{فَمَنْ أَلَّهْ عَلَيْنَا}** إلخ، كما أن قوله: **{إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ}** تعليل له.

وتفيد هذه الآية مع الآيتين قبلها أن هؤلاء كانوا في الدنيا يدعون الله بتوحيده للعبادة والتسليم لأمره و كانوا مشفقين في أهلهم يقربونهم من الحق ويجنبونهم الباطل فكان ذلك سببا لمن الله عليهم بالجنة ووقايتهم من عذاب السموم، وإنما كان ذلك سببا لذلك لأنه تعالى بر رحيم فيحسن لمن دعاه ويرحمه.

فالآيات الثلاث في معنى قوله: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}** العصر: ٣.

والبر من أسماء الله تعالى الحسنى، وهو من البر بمعنى الإحسان، وفسره بعضهم باللطيف.

(بحث روائي)

في الكافي، بإسناده عن أبي بكر عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}** قال: فقال: قصرت الأبناء

عن عمل الآباء فألحقوا الأبناء بالآباء لتقر بذلك أعينهم.

أقول: ورواه أيضا في التوحيد، بإسناده إلى أبي بكر الحضرمي عنه (عليه السلام).

وفي تفسير القمي، حدثني أبي عن سليمان الديلمي عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إن أطفال شيعتنا من المؤمنين تربيمهم فاطمة (عليها السلام)، وقوله: **{أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}** قال: يهدون إلى آباءهم يوم القيامة.

أقول: وروي في المجمع، ذيل الحديث عنه (عليه السلام) مرسلا.

وفي التوحيد، بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): إذا مات الطفل من أطفال المؤمنين نادى مناد في ملكوت السماوات والأرض ألا إن فلان بن فلان قد مات فإن كان قد مات والداه أو أحدهما أو بعض أهل بيته من المؤمنين دفع إليه يغذوه، وإلا دفع إلى فاطمة تغذوه حتى يقدم أبواه أو أحدهما أو بعض أهل بيته من المؤمنين فيدفعه إليه.

وفي الفقيه: وفي رواية الحسن بن محبوب عن علي بن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إن الله تبارك وتعالى كفل إبراهيم وسارة أطفال المؤمنين يغذوانهم بشجرة في الجنة لها أخلاف كأخلاف البقر في قصر من درة فإذا كان يوم القيامة ألبسوا وطيبوا وأهدوا إلى آباءهم فهم ملوك في الجنة مع آباءهم، وهذا قول الله تعالى: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}**.

وفي المجمع، روى زاذان عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، ثم قرأ هذه الآية.

وفي الدر المنثور، أخرج البزار وابن مردويه عن ابن عباس رفعه إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إن الله يرفع ذرية المؤمن إليه في درجته وإن كانوا دونه في العمل ثم قرأ **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}** قال: وما نقصنا الآباء بما أعطينا الأبناء.

وفيه، أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بالحاقهم به وقرأ ابن عباس: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ}** (الآية).

أقول: و الآية لا تشمل الآباء المذكورين في الحديث، و الأنسب للدلالة عليه ما ذكره تعالى في دعاء الملائكة {رَبَّنَا وَادْخُلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} (الآية) المؤمن: ٥٨.

و في تفسير القمي قوله: {لَا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ} قال: ليس في الجنة غناء ولا فحش، ويشرب المؤمن ولا يأثم {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} قال: في الجنة.

[سورة الطور (٥٢): الآيات ٢٩ الى ٤٤]

{فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ} ٢٩ أم يقولون شاعرٌ نترَبِّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ
٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ٣١ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قومٌ طاعونٌ ٣٢ أم
يقولون تقوله بل لا يؤمنون ٣٣ فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين ٣٤ أم خلقوا من غيرِ شيءٍ أم
هم الخالقون ٣٥ أم خلقوا السماواتِ والأرضِ بل لا يوقنون ٣٦ أم عندهم خزائنُ ربِّك أم هم
المضيطرون ٣٧ أم لهم سلمٌ يستمعون فيه فليأتِ مستمعهم بسُلطانٍ مبینٍ ٣٨ أم له البناثُ و لكم
البنون ٣٩ أم تسألهم أجراً فهم من مغرمٍ مُثقلون ٤٠ أم عندهم الغيبُ فهم يكتُبون ٤١ أم يريدون
كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ٤٢ أم لهم إلهٌ غيرُ الله سبحان الله عما

يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾

(بيان)

لما أخبر عن العذاب الواقع يوم القيامة وأنه سيصيب المكذبين، والمتقون في جنات و نعيم قريرة العيون أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يمضي في دعوته و تذكرته مشيرا إلى أنه صالح لإقامة الدعوة الحقّة، و لا عذر لهؤلاء المكذبين في تكذيبه و رد دعوته.

فنفى جميع الأعدار المتصورة لهم و هي ستة عشر أمرا شطر منها راجع إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لو تحقق شيء منه فيه سلب صلاحيته للاتباع و كان مانعا عن قبول قوله ككونه كاهنا أو مجنونا أو شاعرا أو متقولا مفتريا على الله و كسؤاله الأجر على دعوته و شطر منها راجع إلى المكذبين أنفسهم مثل كونهم خلقوا من غير شيء أو كونهم الخالقين أو أمر عقولهم بالتكذيب إلى غير ذلك و لا تخلو الآيات مع ذلك عن توبيخهم الشديد على التكذيب.

قوله تعالى: **{فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مُجْنُونٍ}** تفريع على ما مر من الإخبار المؤكد بوقوع العذاب الإلهي يوم القيامة، وأنه سيغشى المكذبين و المتقون في وقاية منه متلذذون بنعيم الجنة.

فالآية في معنى أن يقال: إذا كان هذا حقا فذكر فإنما تذكر و تنذر بالحق و لست كما يرمونك كاهنا أو مجنونا.

و تقييد النفي بقوله: **{بِنِعْمَةِ رَبِّكَ}** يفيد معنى الامتنان على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خاصة و ليس هذا الامتنان الخاص من جهة مجرد انتفاء الكهانة و الجنون فأكثر الناس على هذه الصفة بل من وجهه تلبسه (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنعمة الخاصة به المانع من عروض هذه الصفات عليه من كهانة أو جنون و غير ذلك.

قوله تعالى: **{أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ}** أم منقطعة، و التربص

الانتظار، و في جمع البيان: التربص الانتظار بالشيء من انقلاب حال له إلى خلافها و المنون المنية و الموت، و الريب القلق و الاضطراب. فريب المنون قلق الموت.

و محصل المعنى: بل يقولون هو أي النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) شاعر تنتظر به الموت حتى يموت و يخذ ذكره و ينسى رسمه فنستريح منه.

قوله تعالى: **قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ** {أمر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يأمرهم بالتربص كما رضوا لأنفسهم ذلك، و هو أمر تهديدي أي تربصوا كما ترون لأنفسكم ذلك فإن هناك أمر من حقه أن ينتظر وقوعه، و أنا أنتظره مثلكم لكنه عليكم لا لكم و هو هلاككم و وقوع العذاب عليكم.

قوله تعالى: **أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهِذَا** {الأحلام جمع حلم و هو العقل، و أم منقطعة و الكلام بتقدير الاستفهام و الإشارة بهذا إلى ما يقولونه للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و يتربصون به.

و المعنى: بل أ تأمرهم عقولهم أن يقولوا هذا الذي يقولونه و يتربصوا به الموت؟ فأني عقل يدفع الحق بمثل هذه الأباطيل؟.

قوله تعالى: **أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** {أي إن عقولهم لم تأمرهم بهذا بل هم طاغون حملهم على هذا طغيانهم.

قوله تعالى: **أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ** {قال في الجمع: التقول تكلف القول و لا يقال ذلك إلا في الكذب، و المعنى بل يقولون: افتعل القرآن و نسبه إلى الله كذبا و افتراء. لا بل لا يؤمنون فيرمونه بهذه الفرية.

قوله تعالى: **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** {جواب عن قولهم: **تَقَوَّلَهُ** بأنه لو كان كلاما للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) كان كلاما بشريا مماثلا لسائر الكلام و يماثله سائر الكلام فكان يمكنهم أن يأتوا بحديث مثله فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين في دعواهم التقول بل هو كلام إلهي لا تحة عليه دلائل الإعجاز يعجز البشر عن إتيان مثله، و قد تقدم الكلام في وجوه إعجاز القرآن في تفسير سورة البقرة الآية ٢٣ تفصيلا.

و يمكن أن تؤخذ الآية ردا لجميع ما تقدم من قولهم المحكي إنه كاهن أو مجنون أو

شاعر أو متقول لأن عجز البشر عن الإتيان بمثله يأبى إلا أن يكون كلام الله سبحانه لكن الأظهر ما تقدم.

قوله تعالى: **{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}** إتيان **{شَيْءٍ}** منكرا بتقدير صفة تناسب المقام و التقدير من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر.

و المعنى: بل أخلق هؤلاء المكذبون من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر فصلح لإرسال الرسول و الدعوة إلى الحق و التلبس بعبوديته تعالى فهؤلاء لا يتعلق بهم تكليف و لا يتوجه إليهم أمر و لا نهى و لا تستتبع أعمالهم ثوابا و لا عقابا لكونهم مخلوقين من غير ما خلق منه غيرهم.

و في معنى الجملة أقوال أخر.

ف قيل: المراد أم أحدثوا و قدروا هذا التقدير البديع من غير مقدر و خالق فلا حاجة لهم إلى خالق يدبر أمرهم.

و قيل: المراد أم خلقوا من غير شيء حي فهم لا يؤمرون و لا ينهون كالجمادات.

و قيل: المعنى أم خلقوا من غير علة و لا لغاية ثواب و عقاب فهم لذلك لا يسمعون.

و قيل: المعنى أم خلقوا باطلا لا يحاسبون و لا يؤمرون و لا ينهون.

و ما قدمناه من المعنى أقرب إلى لفظ الآية و أشمل.

و قوله: **{أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}** أي لأنفسهم فليسوا مخلوقين لله سبحانه حتى يربهم و يدبر أمرهم بالأمر و النهي.

قوله تعالى: **{أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ}** أي أم أخلقوا العالم حتى يكونوا أربابا آلهة و يجلوا من أن يستعبدوا و يكلفوا بتكليف العبودية بل هم قوم لا يوقنون.

قوله تعالى: **{أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ}** أي بل أ عندهم خزائن ربك حتى يرزقوا النبوة من شاءوا و يمسخوها عنم شاءوا فيمنعوك النبوة و الرسالة.

و قوله: **{أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ}** السيطرة و ربما يقلب سينها صاد الغلبة و القهر و المعنى: بل أ هم الغالبون القاهرون على الله سبحانه حتى يسلبوا عنك ما رزقك الله من النبوة و الرسالة.

قوله تعالى: **{أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}** السلم المراقبة ذات الدرج التي يتوسل بالصعود فيه إلى الأمكنة العالية، والاستماع مضمن معنى الصعود، والسلطان المحجة والبرهان.

والمعنى: بل أ عندهم سلم يصعدون فيه إلى السماء فيستمعون بالصعود فيه الوحي فيأخذون ما يوحى إليهم ويردون غيره؟ فليأت مستمعهم أي المدعي للاستماع منهم بحجة ظاهرة.

قوله تعالى: **{أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ}** قيل: فيه تسفيه لعقولهم حيث نسبوا إليه تعالى ما أنفوا منه.

قوله تعالى: **{أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ}** قال الراغب: الغرم - بالضم فالسكون - ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جنابة منه أو خيانة انتهى والإثقال تحميل الثقل وهو كناية عن المشقة.

والمعنى: بل أ تسألهم أجرا على تبليغ رسالتك فهم يتخرجون عن تحمل الغرم الذي ينوبهم بتأدية الأجر؟.

قوله تعالى: **{أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ}** ذكر بعضهم أن المراد بالغيب اللوح المحفوظ المكتوب فيه الغيوب والمعنى: بل أ عندهم اللوح المحفوظ يكتبون منه ويخبرون به الناس فما أخبروا به عنك من الغيب الذي لا ريب فيه.

وقيل: المراد بالغيب علم الغيب، وبالكتابة الإثبات والمعنى: بل أ عندهم علم الغيب فهم يثبتون ما علموه شرعا للناس عليهم أن يطيعوهم فيما أثبتوا، وقيل: يكتبون بمعنى يحكمون.

قوله تعالى: **{أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ}** الكيد ضرب من الاحتيال على ما ذكره الراغب، وفي المجمع: الكيد هو المكر، وقيل: هو فعل ما يوجب الغيظ في خفية. انتهى.

ظاهر السياق أن المراد بكيدهم هو مكرهم بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بما رموه به من الكهانة و الجنون والشعر والتقول ليعرض عنه الناس و يبتعدوا عنه فتبطل بذلك دعوته و ينطفئ نوره، وهذا كيد منهم و مكر بأنفسهم حيث يحرمون لها السعادة الخالدة و الركوب على

صراط الحق بذلك بل كيد من الله بقطع التوفيق عنهم و الطبع على قلوبهم.

وقيل: المراد بالكيد الذي يريدونه هو ما كان منهم في حقه (صلى الله عليه وآله وسلم) في دار الندوة و المراد بالذين كفروا المذكورون من المكذبين و هم أصحاب دار الندوة، و قد قلب الله كيدهم إلى أنفسهم فقتلهم يوم بدر، و الكلام على هذا من الإخبار بالغيب لنزول السورة قبل ذلك بكثير، و هو بعيد من السياق.

قوله تعالى: **{أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}** فإنهم إذا كان لهم إله غير الله كان هو الخالق لهم و المدير لأمرهم فاستغنوا بذلك عن الله سبحانه و استجابة دعوة رسوله و نصرهم إلههم و دفع عنهم عذاب الله الذي أوعده به المكذبين و أنذرهم به رسوله.

و قوله: **{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}** تنزيه له تعالى أن يكون له شريك كما يدعون، و ما في قوله: **{عَمَّا يُشْرِكُونَ}** مصدرية أي سبحانه عن شركهم.

قوله تعالى: **{وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ}** الكسف بالكسر فالسكون القطعة، و المركوم المتراكم الواقع بعضه على بعض.

و المعنى: أن كفرهم و إصرارهم على تكذيب الدعوة الحقة بلغ إلى حيث لو رأوا قطعة من السماء ساقطاً عليهم لقالوا سحاب متراكم ليست من آية العذاب في شيء فهو كقوله: **{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا}** الحجر: ١٥.

[سورة الطور (٥٢): الآيات ٤٥ الى ٤٩]

{فَدَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ} ٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ **{٤٦}** وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ **{٤٧}** وَإِصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ **{٤٨}** وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ **{٤٩}**

(بيان)

الآيات تختم السورة وتأمّر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يترك أولئك المكذبين و شأنهم ولا يتعرض لحالهم، وأن يصبر لحكم ربه ويسبح بحمده، وفي خلالها مع ذلك تكرار إيعادهم بما أوعدهم به في أول السورة من عذاب واقع ليس له من دافع، وتضيف إليه الإيعاد بعذاب آخر دون ذلك للذين ظلموا.

قوله تعالى: **{فَدَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ}** ذرهم أمر بمعنى اتركهم وهو فعل لم يستعمل من تصريفاته إلا المستقبل والأمر، و «يصعقون» من الإصعاق بمعنى الإماتة وقيل: من الصعق بمعنى الإماتة.

لما أذّر سبحانه المكذبين لدعوته بعذاب واقع لا ريب فيه ثم رد جميع ما تعلل به أو يفرض أن يتعلل به أولئك المكذبون، وذكر أنهم في الإصرار على الباطل بحيث لو عاينوا أوضح آية للحق أولوه وردوه، أمر نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يتركهم و شأنهم، وهو تهديد كئيب بشمول العذاب لهم و حالهم هذه الحال.

و المراد باليوم الذي فيه يصعقون يوم نفخ الصور الذي يصعق فيه من في السماوات والأرض وهو من أشرط الساعة قال تعالى: **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ}** الزمر: ٦٨.

و يؤيد هذا المعنى قوله في الآية التالية: **{يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}** فإن انتفاء إغناء الكيد والنصر من خواص يوم القيامة الذي يسقط فيه عامة الأسباب والأمر يومئذ لله.

و استشكل بأنه لا يصعق يوم النفخ إلا من كان حيا وهؤلاء ليسوا بأحياء يومئذ والجواب أنه يصعق فيه جميع من في الدنيا من الأحياء ومن في البرزخ من الأموات وهؤلاء إن لم يكونوا في الدنيا ففي البرزخ.

على أنه يمكن أن يكون ضمير **{يُصْعَقُونَ}** راجعا إلى الأحياء يومئذ، والتهديد إنما هو بالعذاب الواقع في هذا اليوم لا بالصعقة التي فيه.

وقيل: المراد به يوم بدر وهو بعيد، وقيل: المراد به يوم الموت، وفيه أنه لا -

يلائم السياق الظاهر في التهديد بما وقع في أول السورة وهو عذاب يوم القيامة لا عذاب يوم الموت.
قوله تعالى: **{وَأِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** لا يبعد أن يكون المراد به عذاب القبر، وقوله: **{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** مشعر بأن فيهم من يعلم ذلك لكنه يصر على كفره وتكذيبه عنادا وقيل: المراد به يوم بدر لكن ذيل الآية لا يلائمه تلك الملاءمة.

قوله تعالى: **{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}** عطف على قوله: **{فَذَرَهُمْ}** و ظاهر السياق أن المراد بالحكم حكمه تعالى في المكذبين بالإمهال والإملاء و الطبع على قلوبهم، و في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يدعو إلى الحق بما فيه من الأذى في جنب الله فالمراد بقوله: **{فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}** إنك بمراى منا نراك بحيث لا يخفى علينا شيء من حالك و لا نغفل عنك ففي تعليل الصبر بهذه الجملة تأكيد للأمر بالصبر و تشديد للخطاب.
و قيل: المراد بقوله: **{فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}** إنك في حفظنا و حراستنا فالعين مجاز عن الحفظ، و لعل المعنى المتقدم أنسب للسياق.

قوله تعالى: **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}** الباء في **{بِحَمْدِ}** للمصاحبة أي سبح ربك و نزهه حال كونه مقارنا لحمده.

و المراد بقوله: **{حِينَ تَقُومُ}** قيل هو القيام من النوم، و قيل: هو القيام من القائلة، فهو صلاة الظهر، و قيل: هو القيام من المجلس، و قيل: هو كل قيام، و قيل: هو القيام إلى الفريضة و قيل: هو القيام إلى كل صلاة، و قيل: هو الركعتان قبل فريضة الصبح سبعة أقوال كما ذكره الطبرسي.

و قوله: **{وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ}** أي من الليل فسبح ربك فيه، و المراد به صلاة الليل، و قيل: المراد صلاتا المغرب و العشاء الآخرة.

و قوله: **{وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}** قيل: المراد به وقت إدبار النجوم و هو اختفاؤها بضوء الصبح، و هو الركعتان قبل فريضة الصبح، و قيل: المراد فريضة الصبح، و قيل: المراد تسبيحه تعالى صباحا و مساء من غير غفلة عن ذكره.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}** قال: لصلاة الليل **{فَسَبِّحْهُ}** قال: صلاة الليل.

أقول: وروي هذا المعنى في مجمع البيان، عن زرارة وحمران و محمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام).

وفيه، بإسناده عن الرضا (عليه السلام) قال: **أدبار السجود أربع ركعات بعد المغرب وإدبار النجوم ركعتان قبل صلاة الصبح.**

أقول: وروي ذيله في المجمع، عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام)، والقمي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام).

وقد ورد من طرق أهل السنة في عدة من الروايات: **أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان إذا قام من مجلسه سبح الله وحمده ويقول: إنه كفارة المجلس** لكنها غير ظاهرة في كونها تفسيرا للآية.

(٥٣) سورة النجم مكية وهي اثنان و ستون آية (٦٢)

[سورة النجم (٥٣): الآيات ١ الى ١٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَى ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۝ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۝ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ

مَا رَأَى ۝ أَفْتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى ۝ وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۝ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۝ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۝ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ۝ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ۝ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ۝

(بيان)

غرض السورة تذكير الأصول الثلاثة: وحدانيته تعالى في ربوبيته و المعاد و النبوة فتبدأ بالنبوة فتصدق الوحي إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و تصفه ثم تتعرض للوحدانية فتفني الأوثان و الشركاء أبلغ النفي ثم تصف انتهاء الخلق و التدبير إليه تعالى من إحياء و إماتة و إضحاك و إبكاء و إغناء و إقناء و إهلاك و تعذيب و دعوة و إنذار، و تختتم الكلام بالإشارة إلى المعاد و الأمر بالسجدة و العبادة.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها و لا يصغي إلى قول بعضهم بكون بعض آياتها أو كلها مدنية، و قد قيل: إنها أول سورة أعلن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقراءتها فقرأها على المؤمنين و المشركين جميعا، و من غرر الآيات فيها قوله تعالى: **{وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى}** و قوله: **{وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}**.

و ما أوردناه من الآيات هي الفصل الأول من فصول السورة الثلاثة و هي الآيات اللاتي تصدق الوحي إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و تصفه، لكن هناك روايات مستفيضة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ناصة على أن المراد بالآيات ليس بيان صفة كل وحي بل بيان وحي المشافهة الذي أوحاه الله سبحانه إلى نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة المعراج فالآيات متضمنة لقصة المعراج و ظاهر الآيات لا يخلو من تأييد لهذه الروايات و هو المستفاد أيضا من أقوال بعض الصحابة كابن عباس و أنس و أبي سعيد الخدري و غيرهم على ما روي عنهم و على ذلك جرى كلام المفسرين و إن اشتد الخلاف بينهم في تفسير مفرداتها و جملها.

قوله تعالى: **{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}** ظاهر الآية أن المراد بالنجم هو مطلق الجرم

السماوي المضيء و قد أقسم الله في كتابه بكثير من خلقه و منها عدة من الأجرام السماوية كالشمس و القمر و سائر السيارات، و على هذا فالمراد بهوى النجم سقوطه للغروب.

و قيل: المراد بالنجم القرآن لنزوله نجوما، و قيل: الثريا، و قيل: الشعري، و قيل: الشهاب الذي يرمى به شياطين الجن لأن العرب تسميه نجما، و للهوى ما يناسب لكل من هذه الأقوال من المعنى، لكن لفظ الآية لا يساعد على شيء من هذه المعاني.

قوله تعالى: **{مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}** الضلال الخروج و الانحراف عن الصراط المستقيم، و الغي خلاف الرشد الذي هو إصابة الواقع، قال الراغب: الغي جهل من اعتقاد فاسد، و ذلك أن الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا و لا فاسدا و قد يكون من اعتقاد شيء فاسد، و هذا النحو الثاني يقال له غي، قال تعالى: **{مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}**. انتهى. و المراد بالصاحب هو النبي (صلى الله عليه وآله و سلم).

و المعنى: ما خرج صاحبكم عن الطريق الموصل إلى الغاية المطلوبة و لا أخطأ في اعتقاده و رأيه فيها، و يرجع المعنى إلى أنه لم يخطئ لا في الغاية المطلوبة التي هي السعادة الإنسانية و هو عبوديته تعالى، و لا في طريقها التي تنتهي إليها.

قوله تعالى: **{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ}** المراد بالهوى هوى النفس و رأيها، و النطق و إن كان مطلقا ورد عليه النفي و كان مقتضاه نفي الهوى عن مطلق نطقه (صلى الله عليه وآله و سلم) لكنه لما كان خطابا للمشركين و هم يرمونه في دعوته و ما يتلو عليهم من القرآن بأنه كاذب متقول مفتر على الله سبحانه كان المراد بقريئة المقام أنه (صلى الله عليه وآله و سلم) ما ينطق فيما يدعوكم إلى الله أو فيما يتلوه عليكم من القرآن عن هوى نفسه و رأيه بل ليس ذلك إلا وحيا يوحى إليه من الله سبحانه.

قوله تعالى: **{عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}** ضمير **{عَلَّمَهُ}** للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أو للقرآن بما هو وحي أو لمطلق الوحي و المفعول الآخر لعلمه محذوف على أي حال و التقدير علم النبي الوحي أو علم القرآن أو الوحي إياه.

و المراد بشديد القوى - على ما قالوا - جبريل و قد وصفه الله بالقوة في قوله: **{ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ}** التكويز: ٢٠، و قيل: المراد به هو الله سبحانه.

قوله تعالى: **{ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}** المرة بكسر الميم الشدة، و حصافة العقل

و الرأي و بناء نوع عن المرور و قد فسرت المرة في الآية بكل من المعاني الثلاثة مع القول بأن المراد بذى مرة جبريل، و المعنى: هو أي جبريل ذو شدة في جنب الله أو هو ذو حصافة في عقله و رأيه، أو هو ذو نوع من المرور بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و هو في الهواء.

و قيل: المراد بذو مرة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فهو ذو شدة في جنب الله أو ذو حصافة في عقله و رأيه أو ذو نوع من المرور عرج فيه إلى السماوات.

و قوله: **{فَاسْتَوَى}** بمعنى استقام أو استولى و ضمير الفاعل راجع إلى جبريل و المعنى: فاستقام جبريل على صورته الأصلية التي خلق عليها على ما روي أن جبريل كان ينزل على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) في صور مختلفة، وإنما ظهر له في صورته الأصلية مرتين أو المعنى: فاستولى جبريل بقوته على ما جعل له من الأمر. و إن كان الضمير للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فالمعنى فاستقام و استقر.

قوله تعالى: **{وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى}** الأفق الناحية قيل: المراد بالأفق الأعلى ناحية الشرق من السماء لأن أفق المشرق فوق المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء و هو كما ترى و الظاهر أن المراد به أفق أعلى من السماء من غير اعتبار كونه أفقا شرقيا.

و ضمير هو في الآية راجع إلى جبريل أو إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم)، و الجملة حال من ضمير **{فَاسْتَوَى}**.

قوله تعالى: **{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى}** الدنو القرب، و التدلي التعلق بالشيء و يكتنى به عن شدة القرب، و قيل: الامتداد إلى جهة السفلى مأخوذ من الدلو.

و المعنى: على تقدير رجوع الضميرين لجبريل: ثم قرب جبريل فتعلق بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ليعرج به إلى السماوات، و قيل: ثم تدلى جبريل من الأفق الأعلى فدنا من النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ليعرج به.

و المعنى: على تقدير رجوع الضميرين إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): ثم قرب النبي من الله سبحانه و زاد في القرب.

قوله تعالى: **{فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}** قال في الجمع: القاب و القيب و القاد و القيد عبارة عن مقدار الشيء انتهى. و القوس معروفة و هي آلة الرمي، و يقال قوس على الذراع في لغة أهل الحجاز على ما قيل.

و المعنى: فكان البعد قدر قوسين أو قدر ذراعين أو أقرب من ذلك.

وقيل: القاب ما بين مقبض القوس و سيتها ففي الكلام قلب و المعنى: فكان قابي قوس، و اعترض عليه بأن قابي قوس و قاب قوسين واحد فلا موجب للقلب.

قوله تعالى: **{فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ}** ضمير أوحى في الموضعين لجبريل على تقدير رجوع الضمائر السابقة إلى جبريل، و المعنى: فأوحى جبريل إلى عبد الله و هو النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ما أوحى، قيل: و لا ضمير في رجوع الضمير إليه تعالى من عدم سبق الذكر لكونه في غاية الوضوح. أو الضمائر الثلاث لله و المعنى: فأوحى الله بتوسط جبريل إلى عبده ما أوحى أو الضمير الأول لجبريل و الثاني و الثالث لله و المعنى فأوحى جبريل ما أوحى الله إليه إلى عبد الله.

و الضمائر الثلاث كلها لله على تقدير رجوع الضمائر السابقة إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و المعنى: فأوحى الله إلى عبده ما أوحى، و هذا المعنى أقرب إلى الذهن من المعنى السابق الذي لا يرتضيه الذوق السليم و إن كان صحيحا.

قوله تعالى: **{مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ}** الكذب خلاف الصدق يقال: كذب فلان في حديثه، و يقال: كذبه الحديث بالتعدي إلى مفعولين أي حدثه كذبا، و الكذب كما يطلق على القول و الحديث الذي يلفظه اللسان كذلك يطلق على خطأ القوة المدركة يقال: كذبت عينه أي أخطأت في رؤيتها.

و نفي الكذب عن الفؤاد إنما هو بهذا المعنى سواء أخذ الكذب لازما و التقدير ما كذب الفؤاد فيما رأى أو متعديا إلى مفعولين، و التقدير ما كذب الفؤاد فؤاد النبي النبي ما رآه أي إن رؤية فؤاده فيما رآه رؤية صادقة.

و على هذا فالمراد بالفؤاد فؤاد النبي (صلى الله عليه وآله و سلم)، و ضمير الفاعل في **{مَا رَأَىٰ}** راجع إلى الفؤاد و الرؤية رؤيته.

و لا بدع في نسبة الرؤية و هي مشاهدة العيان إلى الفؤاد فإن للإنسان نوعا من الإدراك الشهودي وراء الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة و التخيل و التفكير بالقوى الباطنة كما إننا نشاهد من أنفسنا أننا نرى و ليست هذه المشاهدة العيانية إبصارا بالبصر و لا معلوما بفكر، و كذا نرى من أنفسنا أننا نسمع و نشم و نذوق و نلص و نشاهد أننا

نتخيل و نتفكر و ليست هذه الرؤية ببصر أو بشيء من الحواس الظاهرة أو الباطنة فإننا كما نشاهد مدركات كل واحدة من هذه القوى بنفس تلك القوة كذلك نشاهد إدراك كل منا لمدرَكها و ليس هذه المشاهدة بنفس تلك القوة بل بأنفسنا المعبر عنها بالفؤاد.

و ليس في الآية ما يدل على أن متعلق الرؤية هو الله سبحانه و أنه المرئي له (صلى الله عليه وآله و سلم) بل المرئي هو الأفق الأعلى و الدنو و التدلي و أنه أوحى إليه فهذه هي المذكورة في الآيات السابقة و هي آيات له تعالى، و يؤيد ذلك ما ذكره تعالى في النزلة الأخرى من قوله: **{مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}**.

على أنها لو دلت على تعلق الرؤية به تعالى لم يكن به بأس فإنها رؤية القلب و رؤية القلب غير رؤية البصر الحسية التي تتعلق بالأجسام و يستحيل تعلقها به تعالى و قد قدمنا كلاما في رؤية القلب في تفسير سورة الأعراف الآية ١٤٣.

و ما قيل: إن ضمير **{مَا رَأَى}** للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و المعنى: ما قال فؤاده (صلى الله عليه وآله و سلم) لما رآه ببصره لم أعرفك و لو قال ذلك لكان كاذبا لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره، و محصله أن فؤاده صدق بصره فيما رآه.

و كذا ما قيل: إن المعنى أن فؤاده لم يكذب بصره فيما رآه بل صدقه و اعتقد به، و يؤيده قراءة من قرأ **{مَا كَذَبَ}** بتشديد الذال.

ففيه أن الذي يعطيه سياق الآيات تأييده تعالى صدق النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فيما يدعيه من الوحي و رؤية آيات الله الكبرى، و لو كان ضمير **{مَا رَأَى}** للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) كان محصل معنى الآية الاحتجاج على صدق رؤيته باعتقاده ذلك بفؤاده و هو بعيد من دأب القرآن و هذا بخلاف ما لو رجع ضمير **{مَا رَأَى}** إلى الفؤاد فإن محصل معناه تصديقه تعالى لفؤاده فيما رآه و يجري الكلام على السياق السابق الأخذ من قوله: **{مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} إخ.**

فإن قلت: إنه تعالى يحتج في الآية التالية **{أَفْتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى}** برؤيته (صلى الله عليه وآله و سلم) على صدقه فيما يدعيه فليكن مثله الاحتجاج باعتقاد فؤاده بما يراه بعينه.

قلت: ليس قوله: **{أَفْتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى}** مسوقا للاحتجاج برؤيته على صدقه بل توبيخ على مماراتهم إياه (صلى الله عليه وآله و سلم) على أمر يراه و يبصره و مجادلتهم إياه فيه، و الممارسة و المجادلة

إنما تصح - لو صححت - في الآراء النظرية و الاعتقادات الفكرية و أما فيما يرى و يشاهد عيانا فلا معنى للممارسة و المجادلة فيه، و هو (صلى الله عليه وآله و سلم) إنما كان يخبرهم بما يشاهده عيانا لا عن فكر و تعقل.

قوله تعالى: **{أَفْتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ}** الاستفهام للتوبيخ و الخطاب للمشركين و الضمير للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم)، و الممارسة الإصرار على المجادلة، و المعنى: أفتصرون في جدالكم على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يذعن بخلاف ما يدعيه و يخبركم به و هو يشاهد ذلك عيانا.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ}** النزلة بناء مرة من النزول فمعناه نزول واحد، و تدل الآية على أن هذه قصة رؤية في نزول آخر و الآيات السابقة تقص نزولا آخر غيره.

و قد قالوا: إن ضمير الفاعل المستكن في قوله **{رَآهُ}** للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم)، و ضمير المفعول لجبريل، و على هذا فالنزلة نزول جبريل عليه (صلى الله عليه وآله و سلم) ليعرج به إلى السماوات، و قوله: **{عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ}** ظرف للرؤية لا للنزلة، و المراد برؤيته رؤيته و هو في صورته الأصلية.

و المعنى: أنه نزل عليه (صلى الله عليه وآله و سلم) نزلة أخرى و عرج به إلى السماوات و تراءى له (صلى الله عليه وآله و سلم) عند سدرة المنتهى و هو في صورته الأصلية.

و قد ظهر مما تقدم صحة إرجاع ضمير المفعول إليه تعالى و المراد بالرؤية رؤية القلب و المراد بنزلة أخرى نزلة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) عند سدرة المنتهى في عروجه إلى السماوات فالمفاد أنه (صلى الله عليه وآله و سلم) نزل نزلة أخرى أثناء معراجه عند سدرة المنتهى فرآه بقلبه كما رآه في النزلة الأولى.

قوله تعالى: **{عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى}** السدر شجر معروف و التاء للوحدة و المنتهى كأنه اسم مكان و لعل المراد به منتهى السماوات بدليل كون الجنة عندها و الجنة في السماء، قال تعالى: **{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}** الذاريات: ٢٢.

و لا يوجد في كلامه تعالى ما يفسر هذه الشجرة، و كان البناء على الإبهام كما يؤيده قوله بعد: **{إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى}** و قد فسر في الروايات أيضا بأنها شجرة فوق السماء السابعة إليها تنتهي أعمال بني آدم و ستمر ببعض هذه الروايات.

و قوله: **{عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ}** أي الجنة التي يأوي إليها المؤمنون و هي جنة الآخرة فإن جنة البرزخ جنة معجلة محدودة بالبعث، قال تعالى: **{فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ}**

نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} السجدة: ١٩، وقوله: {فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} - إلى أن قال - {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} النازعات: ٤١ و هي في السماء على ما يدل عليه قوله تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} الذاريات: ٢٢ وقيل: المراد بها جنة البرزخ.

وقوله: {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} غشيان الشيء الإحاطة به، و {مَا} موصولة والمعنى: إذ يحيط بالسدر ما يحيط بها، وقد أبهم تعالى هذا الذي يغشى السدره ولم يبين ما هو كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} الزيع الميل عن الاستقامة، والطغيان تجاوز الحد في العمل، وزيع البصر إدراكه المبصر على غير ما هو عليه، وطغيانه إدراكه ما لا حقيقة له، والمراد بالبصر بصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

و المعنى: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يبصر ما أبصره على غير صفته الحقيقية ولا أبصر ما لا حقيقة له بل أبصر غير خاطئ في إبصاره.

و المراد بالإبصار رؤيته (صلى الله عليه وآله وسلم) بقلبه لا بجارحة العين فإن المراد بهذا الإبصار ما يعنيه بقوله: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} المشير إلى مماثلة هذه الرؤية لرؤية النزلة الأولى التي يشير إليها بقوله: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُنْمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى} فافهم ولا تغفل.

قوله تعالى: {لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} {مِنْ} للتبويض، والمعنى: أقسم لقد شاهد بعض الآيات الكبرى لربه، وبذلك تم مشاهدة ربه بقلبه فإن مشاهدته تعالى بالقلب إنما هي بمشاهدة آياته بما هي آياته فإن الآية بما هي آية لا تحكي إلا إذا الآية ولا تحكي عن نفسه شيئاً وإلا لم تكن من تلك الجهة آية.

و أما مشاهدة ذاته المتعالية من غير توسط آية و تخلل حجاب فمن المستحيل ذلك قال تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} طه: ١١٠.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: {وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَى} قال: النجم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) {إِذَا هَوَى} لما أسري به إلى السماء وهو في الهوي.

أقول: وروي تسميته (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنجم بإسناده عن أبيه عن الحسين بن خالد عن الرضا (عليه السلام)، وهو من البطن.

وفي الكافي، عن القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): قول الله عز وجل: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ} {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ} وما أشبه ذلك؟ قال: إن الله عز وجل أن يقسم من خلقه بما شاء، وليس نخلقه أن يقسموا إلا به.

أقول: وفي الفقيه، عن علي بن مهزيار عن أبي جعفر الثاني مثله.

وفي المجمع، وروت العامة عن جعفر الصادق أنه قال: إن محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) نزل من السماء السابعة ليلة المعراج ولما نزلت السورة أخبر بذلك عتبة بن أبي لهب فجاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وطلق ابنته وتفل في وجهه وقال: كفرت بالنجم ورب النجم، فدعا (صلى الله عليه وآله وسلم) عليه وقال: اللهم سلط عليه كلبا من كلابك.

نفرج عتبة إلى الشام فنزل في بعض الطريق وألقى الله عليه الرعب فقال لأصحابه أنيموني بينكم ليلا ففعلوا فجاء أسد فاقتصره من بين الناس.

أقول: ثم أورد الطبرسي شعر حسان في ذلك، وروي في الدر المنثور، القصة بطرق مختلفة.

وفي الكافي، بإسناده إلى هشام وحماد وغيره قالوا: سمعنا أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: حديث أبي و حديث أبي حديث جدي و حديث جدي حديث الحسين و حديث الحسين حديث الحسن و حديث الحسن حديث أمير المؤمنين و حديث أمير المؤمنين حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قول الله عز وجل.

وفي تفسير القمي، بإسناده إلى ابن سنان في حديث: قال أبو عبد الله (عليه السلام): وذلك أنه يعني النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أقرب الخلق إلى الله تعالى و كان بالمكان الذي قال له جبرئيل لما أسري به إلى السماء: تقدم يا محمد فقد وطأت موطنًا لم يطأه ملك مقرب و لا نبي مرسل، و لو لا أن روحه و نفسه كان من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه، و كان من الله عز و جل كما قال الله عز و جل: {قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ} أي بل أدنى.

وفي الاحتجاج، عن علي بن الحسين (عليه السلام) في حديث طويل: أنا ابن من علا فاستعلي فجاز سدرة المنتهى فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى.

أقول: وقد ورد هذا المعنى في كثير من روايات أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

وفي الدر المنثور، أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما أسري بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اقترب من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى. قال: ألم ترى القوس ما أقربها من الوتر؟

وفيه، أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى}** قال: هو محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) دنا فتدلى إلى ربه عز وجل.

وفي المجمع، وروي مرفوعاً عن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله: **{فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}** قال: **قدر ذراعين أو أدنى من ذراعين.**

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: **{فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ}** قال: وحي مشافهة.

وفي التوحيد، بإسناده إلى محمد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن (عليه السلام) هل رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ربه عز وجل؟ فقال: نعم بقلبه رآه، أما سمعت الله عز وجل يقول: **{مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ}**؟ لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد.

وفي الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي عن بعض أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **قالوا: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: لم أره بعيني ورأيت به فؤادي مرتين ثم تلا {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى}**.

أقول: وروى هذا المعنى النسائي عن أبي ذر - على ما في الدر المنثور - ولفظه: رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ربه بقلبه ولم يره ببصره.

وعن صحيح مسلم، والترمذي وابن مردويه عن أبي ذر قال: **سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هل رأيت ربك؟ فقال: نوراني أراه.**

أقول: «نوراني» منسوب إلى النور على خلاف القياس كجسماني في النسبة إلى جسم، وقرئ «نور إني أراه» بتنوين الراء وكسر الهمزة وتشديد النون ثم ياء المتكلم، والظاهر أنه تصحيف وإن أيد برواية أخرى عن مسلم في صحيحة وابن مردويه عن أبي ذر: أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): هل رأيت ربك؟ فقال: رأيت نورا.

و كيف كان فالمراد بالرؤية رؤية القلب فلا الرؤية رؤية حسية ولا النور نور حسي.

وفي الكافي، بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: سألتني أبو قرّة المحدث أن أدخله إلى

أبي الحسن الرضا (عليه السلام) فاستأذنته في ذلك فأذن لي فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام. إلى قوله: قال أبو قرّة: فإنه يقول: **{وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى}** فقال أبو الحسن (عليه السلام): إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال: **{مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}** يقول: ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه ثم أخبر بما رأى فقال: **{لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}** وآيات الله غير الله.

أقول: الظاهر أن كلامه (عليه السلام) مسوق لإلزام أبي قرّة حيث كان يريد إثبات رؤيته تعالى بالعين الحسية فألزمه بأن الرؤية إنما تعلقت بالآيات وآيات الله غير الله ولا ينافي ذلك كون رؤية الآيات بما هي آياته رؤيته وإن كانت آياته غيره، وهذه الرؤية إنما كانت بالقلب كما مرّت عدة من الروايات في هذا المعنى.

وفي تفسير القمي، حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): انتهيت إلى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظل أمة من الأمم فكنت من ربي كقاب قوسين أو أدنى.

وفي الدر المنثور، أخرج أحمد وابن جرير عن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): انتهيت إلى السدرة فإذا نبقها مثل الجراد، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحولت ياقوتا وزمردا ونحو ذلك.

وفي تفسير القمي، بإسناده إلى إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث طويل: فلما انتهى به إلى سدرة المنتهى تخلف عنه جبرئيل فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): في هذا الموضع تخذلني؟ فقال: تقدم أمامك فوالله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك فرأيت من نور ربي وحال بيني وبينه السبحة.

قلت: وما السبحة جعلت فذاك؟ فأومى بوجهه إلى الأرض وأومأ بيده إلى السماء وهو يقول: جلال ربي جلال ربي ثلاث مرات.

أقول: السبحة الجلال كما فسر في الرواية، والسبحة ما يدل على تنزهه تعالى من خلقه و مرجعه إلى المعنى الأول، ومحصل ذيل الرواية أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) رأى ربه برؤية آياته.

وفيه في قوله تعالى: **{وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى}** قال: في السماء السابعة.

و فيه في قوله تعالى: **{إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى}** قال: لما رفع الحجاب بينه وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غشي نور السدرة.

أقول: وفي المعاني السابقة روايات أخرى وقد تقدم في أول تفسير سورة الإسراء روايات جامعة لقصة معراج (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد نقلنا هناك في ذيل الروايات الاختلاف في كيفية معراج (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه كان في المنام أو في اليقظة وعلى الثاني بجسمه وروحه معا أو بروحه فحسب، ونقلنا عن صاحب المناقب أن الإمامية ترى أن إسراءه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بالروح والجسم معا على ما تدل عليه آية الإسراء، وأما من المسجد الأقصى إلى السماوات فقد قال قوم بكونه بالروح والجسم معا أيضا ووافقهم كثير من الشيعة و مال بعضهم إلى كونه بالروح و مال إليه بعض المتأخرين.

ولا ضير في القول به لو أيدته القرائن الحافة بالآيات و الروايات غير أن من الواجب حينئذ أن يحمل قوله تعالى: **{عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى}** على جنة البرزخ ليحمل كونها عندها على نحو من التعلق كما ورد أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، أو توجه الآية بما لا ينافي كون العروج في السماوات روحيا. و أما كون الإسراء في المنام فقد تقدم في تفسير آية الإسراء أنه مما لا ينبغي أن يلتفت إليه.

و أما تطبيق الإسراء إلى السماوات على تسييره (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلا في الكواكب الأخرى غير الأرض من منظومتنا الشمسية أو في منظومات أخرى غير منظومتنا أو في مجرات أخرى غير مجرتنا فما لا يلائمه الأخبار الواردة في تفصيل القصة البتة بل ولا محصل مضامين الآيات المتقدمة.

[سورة النجم (٥٣): الآيات ١٩ الى ٣٢]

{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا

قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنَّ

هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ
 وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴿٣٣﴾ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٣٤﴾ فَلِلَّهِ آلُ الْآخِرَةِ وَ
 الْأُولَى ﴿٣٥﴾ وَ كُمْ مِنْ مَلَكَ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ
 يَشَاءُ وَ يَرْضَى ﴿٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْاُنْثَى ﴿٣٧﴾ وَ مَا لَهُمْ بِهِ
 مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴿٣٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ
 ذِكْرِنَا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
 سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ﴿٤٠﴾ وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا
 عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٤١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْاِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ
 رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
 فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اِتَّقَى ﴿٤٢﴾

(بيان)

شطر من آيات الفصل الثاني من الفصول الثلاثة في السورة تتعرض لأمر الأوثان و عبادتها
 بدعوى أنها ستشفع لهم و الرد عليهم أبلغ الرد، و فيها إشارة إلى أمر المعاد و هو مقصد الفصل
 الثالث.

قوله تعالى: **{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ}** لما سجل في الآيات السابقة صدق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنه وحى يوحى إليه و ترتب عليه حقبة النبوة المبنية على التوحيد ونفي الشركاء، فرع عليه الكلام في الأوثان: اللات والعزى ومناة وهي عند المشركين تماثيل للملائكة بدعوى أنهم إناث أو بعضها للملائكة وبعضها للإنسان كما قاله بعضهم ونفي ربوبيتها وألوهيتها واستقلال الملائكة الذين هم أرباب الأصنام في الشفاعة وأنوثيتهم وأشار إلى حقائق أخرى تنتج المعاد وجزاء الأعمال.

واللات والعزى ومناة أصنام ثلاث كانت معبودة لعرب الجاهلية، وقد اختلفوا في وصف صورها، وفي موضعها الذي كانت منصوبة عليه، وفي من يعبدها من العرب، وفي الأسباب التي أوجبت عبادتهم لها، وهي أقوال متدافعة لا سبيل إلى الاعتماد على شيء منها، والمتيقن منها ما أوردها.

والمعنى: إذا كان الأمر على ما ذكرناه من حقبة الدعوة وصدق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في دعوى الوحي والرسالة من عند الله سبحانه فأخبروني عن اللات والعزى ومناة التي هي ثلاثة الصنمين وغيرهما - وهي التي تدعون أنها أصنام الملائكة الذين هم بنات الله على زعمكم - .

قوله تعالى: **{أَلَكُمْ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ}** استفهام إنكاري مشوب بالاستهزاء، و قسمة ضيزى أي جائزة غير عادلة.

والمعنى: إذا كان كذلك وكانت أرباب هذه الأصنام من الملائكة بنات الله، وأنتم لا ترضون لأنفسكم إلا الذكر من الأولاد فهل لكم الذكر والله سبحانه الأنثى من الأولاد؟ تلك القسمة إذا قسمة جائزة غير عادلة - استهزاء - .

قوله تعالى: **{إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}** إِنْخ، ضمير {هي} للات والعزى ومناة أو لها بما هي أصنام، و ضمير {سَمَّيْتُمُوهَا} للأسماء وتسمية الأسماء جعلها أسماء، والمراد بالسلطان البرهان.

والمعنى: ليست هذه الأصنام الآلهة إلا أسماء جعلتموها أسماء لها أنتم وآباؤكم ليست لهذه الأسماء وراءها مصاديق ومسميات ما أنزل الله معها برهاناً يستدل به على ربوبيتها وألوهيتها.

و محصل الآية الرد على المشركين بعدم الدليل على ألوهية آلهتهم.

و قوله: **{إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ}** ما موصولة و الضمير العائد

إليها محذوف أي الذي تهواه النفس، وقيل: مصدرية و التقدير هوى النفس و الهوى الميل الشهواني للنفس و الجملة مسوقة لدمهم في اتباع الباطل و تأكيد لما تقدم من أنه لا برهان لهم على ذلك.

و يؤكد قوله: **{وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى}** و الجملة حالية.

و المعنى: إن يتبع هؤلاء المشركون في أمر آلهتهم إلا الظن و ما يميل إليه أنفسهم شهوة يتبعون ذلك و الحال أنه قد جاءهم من الله و هو ربهم الهدى و هي الدعوة الحققة أو القرآن الذي يهديهم إلى الحق. و الالتفات في الآية من الخطاب إلى الغيبة للإشعار بأنهم أخط فهمًا من أن يخاطبوا بهذا الكلام على أنهم غير مستعدين لأن يخاطبوا بكلام برهاني و هم أتباع الظن و الهوى.

قوله تعالى: **{أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى}** أم منقطعة و الاستفهام إنكاري، و الكلام مسوق لنفي أن يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه أي ليس يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه حتى يملك المشركون ما يتمنونه بهوى أنفسهم من شفاعة الملائكة الذين هم أرباب أصنامهم و بنات لله بزعمهم أو يملكون ألوهية آلهتهم بمجرد التمني. و في الكلام تلويح إلى أنهم ليس لهم للدلالة على صحة ألوهية آلهتهم أو شفاعتهم إلا التمني، و لا يملك شيء بالتمني.

قوله تعالى: **{فَلِلَّهِ أَلْ آخِرَةٌ وَ الْأُولَى}** تفريعه على سابقه من تفريع العلة للمعلول للدلالة على التعلق و الارتباط ففيه تعليل للجملة السابقة، و المعنى: ليس يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد التمني لأن الآخرة و الأولى لله سبحانه و لا شريك له في ملكه.

قوله تعالى: **{وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَرْضَى}** الفرق بين الإذن و الرضا أن الإذن إعلام ارتفاع المانع من قبل الآذن، و الرضا ملاءمة نفس الراضي للشيء و عدم امتناعها فر بما تحقق الإذن بشيء مع عدم الرضا و لا يتحقق رضا إلا مع الإذن بالفعل أو بالقوة. و الآية مسوقة لنفي أن يملك الملائكة من أنفسهم الشفاعة مستغنين في ذلك عن الله سبحانه كما يروم إليه عبدة الأصنام فإن الأمر مطلقاً إلى الله تعالى فإنما يشفع من يشفع منهم بعد إذنه تعالى له في الشفاعة و رضاه بها.

و على هذا فالمراد بقوله: **{لِمَنْ يَشَاءُ}** الملائكة، و معنى الآية: و كثير من الملائكة

في السماوات لا تؤثر شفاعتهم أثرا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم أي من الملائكة ويرضى بشفاعته.

وقيل: المراد بمن يشاء ويرضى الإنسان، والمعنى: إلا من بعد أن يأذن الله في شفاعته من يشاء أن يشفع له من الإنسان ويرضى، وكيف يأذن ويرضى بشفاعة من كفر به وعبد غيره؟.

والآية تثبت الشفاعه للملائكة في الجملة، وتقيد شفاعتهم بالإذن والرضا من الله سبحانه.

قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى}** رد لقولهم بأنوثية الملائكة بعد رد قولهم بشفاعتهم.

والمراد بتسميتهم الملائكة تسمية الأنثى قولهم: إن الملائكة بنات الله فالمراد بالأنثى الجنس أعم من الواحد والكثير.

وقيل: إن الملائكة في معنى استغراق المفرد فيكون التقدير ليسمون كل واحد من الملائكة تسمية الأنثى أي يسمونه بنتا فالكلام على وزان كسانا الأمير حلة أي كسا كل واحد منا حلة.

قال بعضهم: في تعليق التسمية بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها في الشناعة والفضاعة واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأسا. انتهى.

قوله تعالى: **{وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}** العلم هو التصديق المانع من النقيض، والظن هو التصديق الراجح ويسمى المرجوح وهما، وقولهم بأنوثية الملائكة كما لم يكن معلوما لهم كذلك لم يكن مضمونا إذ لا سبيل إلى ترجيح القول به على خلافه لكنه لما كان عن هوى أنفسهم أثبتته الهوى في أنفسهم وزينه لهم فلم يلتفتوا إلى خلافه، وكما لاح لهم لائح خلافه أعرضوا عنه وتعلقوا بما يهوونهم، وبهذه العناية سمي ظنا وهو في الحقيقة تصور فقط.

وبهذا يظهر استقامة قول من قال: إن الظن في هذه الآية وفي قوله السابق: **{إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ}** بمعنى التوهم دون الاعتقاد الراجح وأيد بما يظهر من كلام الراغب: إن الظن ربما يطلق على التوهم.

وقوله: **{إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}** الحق ما هو عليه الشيء وظاهر أنه لا يدرك إلا بالعلم الذي هو الاعتقاد المانع من النقيض لا غير وأما غير العلم مما فيه احتمال

الخلاف فلا يتعين فيه المدرك على ما هو عليه في الواقع فلا يجوز لأن يعتمد عليه في الحقائق قال تعالى:

{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} إسرائ: ٣٦.

و أما العمل بالظن في الأحكام العملية فإنما هو لقيام دليل عليه يقيد به إطلاق الآية، و تبقى الأمور الاعتقادية تحت إطلاق الآية.

قال بعضهم: وضع الظاهر موضع المضمرة في قوله: **{إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي}** ليجري الكلام مجرى المثل.

قوله تعالى: **{فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** تفريع على اتباعهم الظن و هوى

الأنفس، فقوله: **{فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ}** إِنْخ، أمر بالإعراض عنهم وإنما لم يقل: فأعرض عنهم، و وضع قوله: **{مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا}** إِنْخ، موضع الضمير للدلالة على علة الأمر بالإعراض كأنه قيل: إن هؤلاء يتركون العلم و يتبعون الظن و ما تهوى الأنفس و إنما فعلوا ذلك لأنهم تولوا عن الذكر و أرادوا الحياة الدنيا فلا هم لهم إلا الدنيا فهي مبلغهم من العلم، و إذا كان كذلك فأعرض عنهم لأنهم في ضلال.

و المراد بالذكر إما القرآن الذي يهدي متبعيه إلى الحق الصريح و يرشدهم إلى سعادة الدار الآخرة التي وراء الدنيا بالحجج القاطعة و البراهين الساطعة التي لا تبقى معها وصمة شك.

و إما ذكر الله بالمعنى المقابل للغفلة فإن ذكره تعالى بما يليق بذاته المتعالية من الأسماء و الصفات يهدي إلى سائر الحقائق العلمية في المبدأ و المعاد هداية علمية لا ريب معها.

قوله تعالى: **{ذَلِكَ مَبْلُغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى}**

الإشارة بذلك إلى أمر الدنيا و هو معلوم من الآية السابقة و كونه مبلغ علمهم من قبيل الاستعارة كان العلم يسير إلى المعلوم و ينتهي إليه و علمهم انتهى في مسيره إلى الدنيا و بلغها و وقف عندها و لم يتجاوزها، و لازم ذلك أن تكون الدنيا متعلق إرادتهم و طلبهم، و موطن همهم، و غاية آمالهم لا يطمثون إلى غيرها و لا يقبلون إلا عليها.

و قوله: **{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ}** إِنْخ، تأكيد لمضمون الجملة السابقة و شهادة منه تعالى عليه.

قوله تعالى: **{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَ يُجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْحُسْنَى}**

يمكن أن يكون صدر الآية حالا من فاعل **{أَعْلَمُ}** في الآية السابقة و الواو للحال، و المعنى: أن ربك هو أعلم بالفريقين الضالين و المهتدين و الحال أنه يملك ما في السماوات و ما في الأرض فكيف يمكن أن لا يعلم بهم و هو مالِكهم؟.

و على هذا فالظاهر تعلق قوله: **{لِيَجْزِيَ}** إِنْخ، بقوله السابق: **{فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى}** إِنْخ، والمعنى: أعرض عنهم و كل أمرهم إلى الله ليجزيهم كذا و كذا و يجزيك و يجزي المحسنين كذا و كذا.

و يمكن أن يكون قوله: **{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ}** إِنْخ، كلاما مستأنفا للدلالة على أن الأمر بالإعراض عنهم لا لإهمالهم و تركهم سدى بل الله سبحانه يجزي كلا بعمله إن سيئا و إن حسنا، و وضع اسم الجلالة و هو ظاهر موضع الضمير للدلالة على كمال العظمة.

و قوله: **{لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}** إشارة إلى ملكه تعالى للكل و معناه قيام الأشياء به تعالى لكونه خالقهم الموجد لهم فالملك ناشئ من الخلق و هو مع ذلك منشأ للتدبير فالجملة دالة على الخلق و التدبير كأنه قيل: و لله الخلق و التدبير.

و بهذا المعنى يتعلق قوله: **{لِيَجْزِيَ}** إِنْخ، و اللام للغاية، و المعنى: له الخلق و التدبير و غاية ذلك و الغرض منه أن يجزي الذين أساءوا إِنْخ، و المراد بالجزاء ما يخبر عنه الكتاب من شئون يوم القيامة، و المراد بالإساءة و الإحسان المعصية و الطاعة، و المراد بما عملوا جزء ما عملوا أو نفس ما عملوا، و بالحسن المثوبة الحسنى.

و المعنى: ليجزي الله الذين عصوا بمعصيتهم أو بجزاء معصيتهم و يجزي الذين أطاعوا بالمثوبة الحسنى، و قد أوردوا في الآية احتمالات أخرى و ما قدمناه هو أظهرها.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ}** إِنْخ، الإثم هو الذنب و أصله - كما ذكره الراغب - الفعل المبطئ عن الثواب و الخير، و كبائر الإثم المعاصي الكبيرة و هو على ما في الرواية^١ ما أوعد الله عليه النار، و قد تقدم البحث عنها في تفسير قوله تعالى: **{إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}** الآية: النساء: ٣١.

و الفواحش الذنوب الشنيعة الفظيعة، و قد عد تعالى في كلامه الزنا و اللواط من الفواحش و لا يبعد أن يستظهر من الآية اتحادها مع الكبائر.

و أما اللمم فقد اختلفوا في معناه فقيل: هو الصغيرة من المعاصي، و عليه فالاستثناء منقطع، و قيل: هو أن يلم بالمعصية و يقصدها و لا يفعل و الاستثناء أيضا منقطع، و قيل:

^١ رواها في ثواب الأعمال عن عباد بن كثير النوا عن أبي جعفر عليه السلام.

هو المعصية حيناً بعد حين من غير عادة أي المعصية على سبيل الاتفاق فيكون أعم من الصغيرة والكبيرة و ينطبق مضمون الآية على معنى قوله تعالى في وصف المتقين المحسنين: **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ إِلَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** آل عمران: ١٣٥.

وقد فسر في روايات أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بثالث المعاني^١.

والآية تفسر ما في الآية السابقة من قوله: **{الَّذِينَ أَحْسَنُوا}** فهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ومن الجائز أن يقع منهم لم.

وفي قوله: **{إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ}** تطمئعهم في التوبة رجاء المغفرة.

وقوله: **{هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ}** قال الراغب: النشاء والنشأة إحداث الشيء و تربيته. انتهى. فأنشئوهم من الأرض ما جرى عليهم في بدء خلقهم طورا بعد طور من أخذهم من المواد العنصرية إلى أن يتكونوا في صورة المني ويردوا الأرحام.

وقوله: **{وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ}** الأجنة جمع جنين، والكلام معطوف على **{إِذْ}** السابق أي وهو أعلم بكم إذ كنتم أجنة في أرحام أمهاتكم يعلم ما حقيقتكم وما أنتم عليه من الحال وما في سرهم وإلى ما يتول أمرهم.

وقوله: **{فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ}** تفرغ على العلم أي إذا كان الله أعلم من أول أمر فلا تزكوا أنفسكم بنسبتها إلى الطهارة هو أعلم بمن اتقى.

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٣٣ الى ٦٢]

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۝٣٣ وَ أَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ۝٣٤ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ۝٣٥ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۝٣٧ أَلَمْ تَرَ وَازِرَةً وِزْرًا}

^١ ففي أصول الكافي عن ابن عمار عن الصادق عليه السلام: ألم الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه، وفيه بإسناده عن محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال: هو الذنب يلم به الرجل فيمكث ما شاء الله ثم يلم به بعد، وفيه بإسناده عن ابن عمار عن الصادق عليه السلام عليه قته الذي يلم بالذنب بعد الذنب ليس من سليقته أي من طبعه.

{أُخْرَى ٣٨} وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ٣٩ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى ٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ
الْأُولَى ٤١ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ٤٢ وَأَنََّّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَأَبْكَى ٤٣ وَأَنََّّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ٤٤
وَأَنََّّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ٤٥ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ٤٦ وَأَنْ عَلَيْهِ النِّشْأَةُ الْآخِرَى ٤٧ وَ
أَنََّّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ٤٨ وَأَنََّّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ٤٩ وَأَنََّّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ٥٠ وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى
٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ٥٢ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ٥٣ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى
٥٤ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكَ تَتَمَارَى ٥٥ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ٥٦ أَزِفَتِ آلَ آرِفَةَ ٥٧ لَيْسَ لَهَا مِنْ
دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ٦٠ وَأَنْتُمْ
سَامِدُونَ ٦١ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ٦٢}

(بيان)

سياق التسع آيات الواقعة في صدر هذا الفصل يصدق ما ورد في أسباب النزول أن رجلا من المسلمين كان ينفق من ماله في سبيل الله فلامه بعض الناس على كثرة الإنفاق و حذره و خوفه بنفاد المال و الفقر و ضمن حمل خطاياهم و ذنوبه فأمسك عن الإنفاق فنزلت الآيات.

أشار سبحانه بالتعرض لهذه القصة و نقل ما نقل من صحف إبراهيم و موسى (عليهما

السلام) إلى بيان وجه الحق فيها، وإلى ما هو الحق الصريح فيما تعرض له الفصل السابق من أباطيل المشركين من أنهم إنما يعبدون الأصنام لأنها تماثيل الملائكة الذين هم بنات الله يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله سبحانه وقد أبطلتها الآيات السابقة أوضح الإبطال.

وقد أوضحت هذه الآيات ما هو وجه الحق في الربوبية والألوهية وهو أن الخلق والتدبير لله سبحانه، إليه ينتهي كل ذلك، وأنه خلق ما خلق ودير ما دبر خلقا وتديرا يستعقب نشأة أخرى فيها جزاء الكافر والمؤمن والمجرم والمتقي ومن لوازمه تشريع الدين وتوجيه التكليف وقد فعل، ومن شواهد إهلاك من أهلك من الأمم الدارجة الطاغية كقوم نوح وعاد وثمود والمؤتفة.

ثم عقب سبحانه هذا الذي نقله عن صحف النبيين الكريمين بالتنبيه على أن هذا النذير من النذر الأولى الخالية وأن الساعة قريبة، وخاطبهم بالأمر بالسجود لله والعبادة، وبذلك تحتتم السورة.

قوله تعالى: **{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى}** التولي هو الإعراض والمراد به بقرينة الآية التالية الإعراض عن الإنفاق في سبيل الله، والإعطاء الإنفاق والإكداء قطع العطاء، والتفريع الذي في قوله: **{أَفَرَأَيْتَ}** مبني على ما قدمنا من تفرع مضمون هذه الآيات على ما قبلها.

والمعنى: فأخبرني عن عرض عن الإنفاق وأعطى قليلا من المال وأمسك بعد ذلك أشد الإمساك.

قوله تعالى: **{أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى}** الضمائر لمن تولى والاستفهام للإنكار والمعنى: أي يعلم الغيب فيترتب عليه أن يعلم أن صاحبه يتحمل عنه ذنوبه ويعذب مكانه يوم القيامة لو استحق العذاب. كذا فسروا.

والظاهر أن المراد نفي علمه بما غاب عنه من مستقبل حاله في الدنيا والمعنى: أي يعلم الغيب فهو يعلم أنه لو أنفق ودام على الإنفاق نفذ ماله وابتلي بالفقر وأما تحمل الذنوب والعذاب فالتعرض له قوله الآتي: **{أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}**.

قوله تعالى: **{أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}** صحف موسى التوراة، و صحف إبراهيم. ما نزل عليه من الكتاب والجمع للإشارة إلى كثرته بكثرة أجزائه.

والتوفية تأدية الحق بتمامه و كماله، وتوفيته (عليه السلام) تأديته ما عليه من الحق في العبودية

أتم التأدية و أبلغها قال تعالى: **{وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}** البقرة: ١٢٤ .

و ما نقله الله سبحانه في الآيات التالية من صحف إبراهيم و موسى (عليه السلام) و إن لم يذكر في القرآن بعنوان أنه من صحفهما قبل هذه الآيات لكنه مذكور بعنوان الحكم و المواعظ و القصص و العبر فمعنى الآيتين: أم لم ينبأ بهذه الأمور و هي في صحف إبراهيم و موسى .

قوله تعالى: **{أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}** الوزر الثقل و كثر استعماله في الإثم، و الوزرة النفس التي من شأنها أن تحمل الإثم، و الآية بيان ما في صحف إبراهيم و موسى (عليه السلام)، و كذا سائر الآيات المصدرة بأن و أن إلى تمام سبع عشرة آية .

و المعنى: ما في صحفهما هو أنه لا تحمل نفس إثم نفس أخرى أي لا تتأثم نفس بما لنفس أخرى من الإثم فلا تؤاخذ نفس بإثم نفس أخرى .

قوله تعالى: **{وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}** قال الراغب: السعي المشي السريع و هو دون العدو، و يستعمل للجد في الأمر خيرا كان أو شرا قال تعالى: **{وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا}** . انتهى و استعماله في الجد في الفعل استعمال استعاري .

و معنى اللام في قوله: **{لِلْإِنْسَانِ}** الملك الحقيقي الذي يقوم بصاحبه قياما باقيا ببقائه يلازمه و لا يفارقه بالطبع و هو الذي يكتسبه الإنسان بصالح العمل أو طالحه من خير أو شر، و أما ما يراه الإنسان مملوكا لنفسه و هو في ظرف الاجتماع من مال و بنين و جاه و غير ذلك من زخارف الحياة الدنيا و زينتها فكل ذلك من الملك الاعتباري الوهمي الذي يصاحب الإنسان ما دام في دار الغرور و يودعه عند ما أراد الانتقال إلى دار الخلود و عالم الآخرة .

فالمعنى: و أنه لا يملك الإنسان ملكا يعود إليه أثره من خير أو شر أو نفع أو ضرر حقيقة إلا ما جد فيه من عمل فله ما قام بفعله بنفسه و أما ما قام به غيره من عمل فلا يلحق بالإنسان أثره خيرا أو شرا .

و أما الانتفاع من شفاعة الشفعاء يوم القيامة لأهل الكبائر فلهم في ذلك سعي جميل حيث دخلوا في حضيرة الإيمان بالله و آياته، و كذا استفادة المؤمن بعد موته من استغفار المؤمنين له، و الأعمال الصالحة التي تهدي إليه مثوباتها هي مرتبطة بسعيه في الدخول في زمرة المؤمنين و تكثير سوادهم و تأييد إيمانهم الذي من آثاره ما يأتون به من الأعمال الصالحة .

و كذا من سن سنة حسنة فله ثوابها و ثواب من عمل بها، و من سن سنة سيئة كان له وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة فإن له سعيًا في عملهم حيث سن السنة و توسل بها إلى أعمالهم كما تقدم في تفسير قوله تعالى: **{ وَ نَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ }** يس: ١٢، و قد تقدم في تفسير قوله: **{ وَ لِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ }** النساء: ٩، و تفسير قوله: **{ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ }** الأنفال: ٣٧، كلام نافع في هذا المقام.

قوله تعالى: **{ وَ أَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى }** المراد بالسعي ما سعى فيه من العمل و بالرؤية المشاهدة، و ظرف المشاهدة يوم القيامة بدليل تعقيبه بالجزاء فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى: **{ يَوْمَ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ }** آل عمران: ٣٠، و قوله: **{ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }** الزلزال: ٨.

و إتيان قوله: **{ سَوْفَ يُرَى }** مبنيًا للمفعول لا يخلو من إشعار بأن هناك من يشاهد العمل غير عامله.

قوله تعالى: **{ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجُزَاءَ الْأَوْفَى }** الوفاء بمعنى التمام لأن الشيء التام يفي بجميع ما يطلب من صفاته، و الجزاء الأوفى الجزاء الأتم.

و ضمير **{ يُجْزَاهُ }** للسعي الذي هو العمل و المعنى: ثم يجزي الإنسان عمله أي بعمله أتم الجزاء.

قوله تعالى: **{ وَ أَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى }** المنتهى مصدر ميمي بمعنى الانتهاء و قد أطلق إطلاقًا فيفيد مطلق الانتهاء، فما في الوجود من شيء موجود إلا و ينتهي في وجوده و آثار وجوده إلى الله سبحانه بلا واسطة أو مع الواسطة، و لا فيه أمر من التدبير و النظام الجاري جزئيًا أو كليًا إلا و ينتهي إليه سبحانه إذ ليس التدبير الجاري بين الأشياء إلا الروابط الجارية بينها القائمة بها و موجد الأشياء هو الموجد لروابطها المجري لها بينها فالمنتهى المطلق لكل شيء هو الله سبحانه.

قال تعالى: **{ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ }** الزمر: ٦٣، و قال: **{ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ }** الأعراف: ٥٤.

و الآية تثبت الربوبية المطلقة لله سبحانه بإنهاء كل تدبير و كل التدبير إليه و تشمل

انتهاء الأشياء إليه من حيث البدء وهو الفطر، وانتهاءها إليه من حيث العود والرجوع وهو الحشر. ومما تقدم يظهر ضعف ما قيل في تفسير الآية أن المراد بذلك رجوع الخلق إليه سبحانه يوم القيامة، وكذا ما قيل: إن المعنى أن إلى ثواب ربك وعقابه آخر الأمر، وكذا ما قيل: المعنى أن إلى حساب ربك منتاهم، وكذا ما قيل: إليه سبحانه ينتهي الأفكار وتفقد دونه، ففي جميع هذه التفاسير تقييد الآية من غير مقيد.

قوله تعالى: **{وَأَنََّّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي}** الآية وما يتلوها إلى تمام اثنتي عشرة آية بيان لموارد من انتهاء الخلق والتدبير إلى الله سبحانه.

والسياق في جميع هذه الآيات سياق الحصر، وتفيد انحصار الربوبية فيه تعالى وانتفاء الشريك، ولا ينافي ما في هذه الموارد من الحصر توسط أسباب أخر طبيعية أو غير طبيعية فيها كتوسط السرور والحزن وأعضاء الضحك والبكاء من الإنسان في تحقق الضحك والبكاء، وكذا توسط الأسباب المناسبة الطبيعية وغير الطبيعية في الإحياء والإماتة وخلق الزوجين والغنى والقنى وإهلاك الأمم المهالكة وذلك أنها لما كانت مسخرة لأمر الله غير مستقلة في نفسها ولا منقطعة عما فوقها كانت وجوداتها وآثار وجوداتها وما يترتب عليها لله وحده لا يشاركه في ذلك أحد.

فمعنى قوله: **{وَأَنََّّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي}** إنه تعالى هو أوجد الضحك في الضاحك وأوجد البكاء في الباكي لا غيره تعالى:

ولا منافاة بين انتهاء الضحك والبكاء في وجودهما إلى الله سبحانه وبين انتسابهما إلى الإنسان وتلبسه بهما لأن نسبة الفعل إلى الإنسان بقيامه به ونسبة الفعل إليه تعالى بالإيجاد وكم بينهما من فرق.

ولا أن تعلق الإرادة الإلهية بضحك الإنسان مثلا يوجب بطلان إرادة الإنسان للضحك وسقوطها عن التأثير لأن الإرادة الإلهية لم تتعلق بمطلق الضحك كيفما كان وإنما تعلق بالضحك الإرادي الاختياري من حيث إنه صادر عن إرادة الإنسان واختياره فإرادة الإنسان سبب لضحكه في طول إرادة الله سبحانه لا في عرضها حتى تتزاحما ولا تجتمعا معا فنضطر إلى القول بأن أفعال الإنسان الاختيارية مخلوقة لله ولا صنع للإنسان فيها كما يقوله الجبري أو أنها مخلوقة للإنسان ولا صنع لله سبحانه فيها كما يقوله المعتزلي.

و مما تقدم يظهر فساد قول بعضهم: إن معنى الآية أنه خلق قوتي الضحك و البكاء، و قول آخرين: إن المعنى أنه خلق السرور و الحزن، و قول آخرين: إن المعنى أنه أضحك الأرض بالنبات و أبكى السماء بالمطر، و قول آخرين: إن المعنى أنه أضحك أهل الجنة و أبكى أهل النار.

قوله تعالى: **{وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَ أَحْيَا}** الكلام في انتساب الموت و الحياة إلى أسباب أخر طبيعية و غير طبيعية كالملائكة كالكلام في انتساب الضحك و البكاء إلى غيره تعالى مع انحصار الإيجاد فيه تعالى، و كذا الكلام في الأمور المذكورة في الآيات التالية.

قوله تعالى: **{وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى}** النطفة ماء الرجل و المرأة الذي يخلق منه الولد، و أمنى الرجل أي صب المني، و قيل: معناه التقدير، و قوله: **{الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى}** بيان للزوجين. قيل: لم يذكر الضمير في الآية على طرز ما تقدم - أنه هو - لأنه لا يتصور نسبة خلق الزوجين إلى غيره تعالى.

قوله تعالى: **{وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَى}** النشأة الأخرى الحلقة الأخرى الثانية و هي الدار الآخرة التي فيها جزاء، و كون ذلك عليه تعالى قضاؤه قضاء حتم و قد وعد به و وصف نفسه بأنه لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: **{وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَ أَقْنَى}** أي أعطى الغنى و أعطى القنية، و القنية ما يدوم من الأموال و يبقى ببقاء نفسه كالدار و البستان و الحيوان، و على هذا فذكر **{أَقْنَى}** بعد **{أَغْنَى}** من التعرض للخاص بعد العام لنفاسته و شرفه.

و قيل: الإغناء التمويل و الإقناء الإرضاء بذلك، و قال بعضهم: معنى الآية أنه هو أغنى و أفقر.

قوله تعالى: **{وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى}** كان المراد بالشعري الشعري اليمانية و هي كوكبة مضيئة من الثوابت شرقي صورة الجبار في السماء.

قيل: كانت الخزاعة و حمير تعبد هذه الكوكبة، و ممن كان يعبد أبو كبشة أحد أجداد النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) من جهة أمه، و كان المشركون يسمونه (صلى الله عليه وآله و سلم) ابن أبي كبشة لمخالفته إياهم في الدين كما خالف أبو كبشة قومه في عبادة الشعري.

قوله تعالى: **{وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى}** وهم قوم هود النبي (عليه السلام) و وصفوا بالأولى لأن هناك عادا ثانية هم بعد عاد الأولى.

قوله تعالى: **{وَأَثْمُودَ فَمَا أَبْقَى}** وهم قوم صالح النبي (عليه السلام) أهلك الله الكفار منهم عن آخرهم، وهو المراد من قوله: **{فَمَا أَبْقَى}** وإلا فهو سبحانه نجي المؤمنين منهم من الهلاك كما قال: **{وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}** فصلت: ١٨.

قوله تعالى: **{وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى}** عطف كسابقه على قوله: **{عَادًا}** والإصرار بالتأكيد على كونهم أظلم وأطغى، أي من القومين عاد و ثمود على ما يعطيه السياق لأنهم لم يجيبوا دعوة نوح (عليه السلام) ولم يتعضوا بموعظته فيما يقرب من ألف سنة ولم يؤمن منهم معه إلا أقل قليل.

قوله تعالى: **{وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى}** قيل: إن المؤتفكة قرى قوم لوط ائسفت بأهلها أي انقلبت و الائسفاك الانقلاب، و الأهواء الإسقاط.

و المعنى: و أسقط القرى المؤتفكة إلى الأرض بقلبها و خسفها فشملمها و أحاط بها من العذاب ما شملها و أحاط بها.

و احتمال أن يكون المراد بالمؤتفكة ما هو أعم من قرى قوم لوط و هي كل قرية نزل عليها العذاب فباد أهلها فبقيت خربة دائرة معالمها خاوية على عروشها.

قوله تعالى: **{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى}** الآلاء جمع إلى بمعنى النعمة، و التماري التشكك، و الجملة متفرعة على ما تقدم ذكره مما ينسب إليه تعالى من الأفعال.

و المعنى: إذا كان الله سبحانه هو الذي نظم هذا النظام البديع من صنع و تدبير بالإضحاك و الإبكاء و الإمامة و الإحياء و الخلق و الإهلاك إلى آخر ما قيل فبأي نعم ربك تتشكك و في أيها تريب؟.

و عد مثل الإبكاء و الإمامة و إهلاك الأمم الطاغية نعمًا لله سبحانه لما فيها من الدخل في تكون النظام الأتم الذي يجري في العالم و تنساق به الأمور في مرحلة استكمال الخلق و رجوع الكل إلى الله سبحانه.

و الخطاب في الآية للذي تولى و أعطى قليلا و أكدى أو للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) من باب إياك أعني و اسمعي يا جارة، و الاستفهام للإنكار.

قوله تعالى: **{هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى}** قيل: النذير يأتي مصدرا بمعنى الإنذار ووصفا بمعنى المنذر ويجمع على النذر بضمين على كلا المعنيين والإشارة بهذا إلى القرآن أو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

قوله تعالى: **{أَزِفَتِ آلَ آزِفَةَ}** أي قربت القيامة والآزفة من أسماء القيامة قال تعالى: **{وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ آلَ آزِفَةَ}** المؤمن: ١٨.

قوله تعالى: **{لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ}** أي نفس كاشفة والمراد بالكشف إزالة ما فيها من الشدائد والأهوال، والمعنى: ليس نفس تقدر على إزالة ما فيها من الشدائد والأهوال إلا أن يكشفها الله سبحانه.

قوله تعالى: **{أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ}** الإشارة بهذا الحديث إلى ما تقدم من البيان، والسمود اللهو، والآية متفرعة على ما تقدم من البيان، والاستفهام للتوبيخ.

والمعنى: إذا كان الله هو ربكم الذي ينتهي إليه كل أمر و عليه النشأة الأخرى و كانت القيامة قريبة و ليس لها من دون الله كاشفة كان عليكم أن تبكوا لما فرطتم في جنب الله، و تعرضتم للشقاء الدائم أ فمن هذا البيان الذي يدعوكم إلى النجاة تعجبون إنكارا و تضحكون استهزاء و لا تبكون؟.

قوله تعالى: **{فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا}** تفريع آخر على ما تقدم من البيان والمعنى: إذا كان كذلك فعليكم أن تسجدوا لله و تعبدوه ليكشف عنكم ما ليس له من دونه كاشفة.

(بحث روائي)

في الكشاف في قوله تعالى: **{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى}** إيلخ، روي أن عثمان كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح و هو أخوه من الرضاعة: يوشك أن لا يبقى لك شيء فقال عثمان: إن لي ذنوبا و خطايا، و إني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى و أرجو عفوه فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلتها و أنا أتحمل عنك ذنوبك كلها فأعطاه و أشهد عليه و أمسك عن العطاء فنزلت، و معنى: **{تَوَلَّى}** ترك المركز يوم أحد فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك و أجمل.

أقول: وأورد القصة في مجمع البيان ونسبها إلى ابن عباس والسدي والكلي وجماعة من المفسرين، و في انطباق «تولى» على تركه المركز يوم أحد نظر والآيات مكية.

و في الدر المنثور، أخرج الفارياي و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مجاهد: في قوله: **{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى}** قال: الوليد بن المغيرة كان يأتي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و أبا بكر فسمع ما يقولان و ذلك ما أعطى من نفسه، أعطى الاستماع **{وَأَكْذَى}** قال: انقطع عطاؤه نزل في ذلك **{أَعِنْدَهُ عِلْمٌ الْغَيْبِ}** قال: الغيب القرآن أ رأى فيه باطلا أنفذه ببصره إذ كان يختلف إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و أبي بكر.

أقول: و أنت خبير بأن الآيات بظاها لا تنطبق على ما ذكره.

و روي: أنها نزلت في العاص بن وائل، و روي أنها نزلت في رجل لم يذكر اسمه.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}** قال: وفي بما أمره الله به من الأمر و النهي و ذبح ابنه.

و في الكافي، بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبي إبراهيم (عليه السلام) قال: سألته عن الرجل يمج فيجعل حخته و عمرته أو بعض طوافه لبعض أهله و هو عنه غائب في بلد آخر؟ قال: قلت: فينتقص ذلك من أجره؟ قال: هي له و لصاحبه و له أجر سوى ذلك بما وصل. قلت: و هو ميت أ يدخل ذلك عليه؟ قال: نعم حتى يكون مسخوطا عليه فيغفر له أو يكون مضيقا عليه فيوسع له. قلت: فيعلم هو في مكانه أنه عمل ذلك لحقه؟ قال: نعم. قلت: و إن كان ناصبا ينفعه ذلك؟ قال: نعم يخفف عنه.

أقول: مورد الرواية إهداء ثواب العمل دون العمل نيابة عن الميت.

و فيه، بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يقول الله عز و جل للملك الموكل بالمؤمن إذا مرض: اكتب له ما كنت تكتب له في صحته فإني أنا الذي صيرته في حالي¹.

و في الخصال، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجزاها في حياته فهي تجري بعد موته إلى يوم القيامة صدقة

موقوفة لا تورث، و سنة هدى سنها و كان يعمل بها و عمل بها من بعده غيره، و ولد صالح يستغفر له.

أقول: و هذه الروايات الثلاث - و في معناها روايات كثيرة جدا عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) - توسع معنى السعي في قوله تعالى: **{وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}** و قد تقدمت إشارة إليها.

و في أصول الكافي، بإسناده إلى سليمان بن خالد قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): **إن الله يقول: {وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا.**

أقول: و هو من التوسعة في معنى الانتهاء.

و فيه، بإسناده إلى أبي عبيدة الخذاء قال: قال أبو جعفر (عليه السلام): **يا زياد إياك و الخصومات فإنها تورث الشك، و تحبط العمل، و تردي صاحبها، و عسى أن يتكلم بالشيء فلا يغفر له. أنه كان فيما مضى قوم تركوا علم ما وكلوا به، و طلبوا علم ما كفوه حتى انتهى كلامهم إلى الله فتحيروا حتى كان الرجل يدعى من بين يديه فيجيب من خلفه، و يدعى من خلفه فيجيب من بين يديه. قال: و في رواية أخرى: حتى تاهوا في الأرض.** و في الدر المنثور، أخرج أبو الشيخ عن أبي ذر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **تفكروا في خلق الله و لا تفكروا في الله فتهلكوا.**

أقول: و في النهي عن التفكير في الله سبحانه روايات كثيرة أخر مودعة في جوامع الفريقين، و النهي إرشادي متعلق بمن لا يحسن الورود في المسائل العقلية العميقة فيكون خوضه فيها تعرضا للهلاك الدائم. و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَ أَبْكِي}** قال: أبكى السماء بالمطر، و أضحك الأرض بالنبات.

أقول: هو من التوسعة في معنى الإبكاء و الإضحك.

و في المعاني، بإسناده إلى السكوني عن جعفر بن محمد عن آبائهم (عليهم السلام) قال: **قال أمير المؤمنين (عليه السلام): في قول الله عز و جل: {وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَ أَقْنَى} قال: أغنى كل إنسان بمعيشته، و أرضاه بكسب يده.**

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى}** قال: النجم في السماء يسمى الشعري كانت قریش و قوم من العرب يعبدونه، و هو نجم يطلع في آخر الليل.

أقول: الظاهر أن قوله: وهو نجم يطلع في آخر الليل تعريف له بحسب زمان صدور الحديث و كان في الصيف وإلا فهو يستوفي في مجموع السنة جميع ساعات الليل و النهار.

و فيه في قوله تعالى: **{أَزِفَتِ أَلْأَزِفَةُ}** قال قربت القيامة.

و في المجمع في قوله تعالى: **{أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ}** يعني بالحديث ما تقدم من الأخبار.

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) **{أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَ تَضْحَكُونَ وَ لَا تَبْكُونَ}** فما رأي النبي بعدها ضاحكا حتى ذهب من الدنيا.

(٥٤) سورة القمر مكية و هي خمس و خمسون آية (٥٥)

[سورة القمر (٥٤): الآيات ١ الى ٨]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انشَقَّ الْقَمَرُ ① وَ إِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا

سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ② وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ③ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ

مُزْدَجَّرٌ ④ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التُّذُرُ ⑤ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ ⑥ خُشَعًا

أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ⑦ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ

عَسِرٌ ⑧}

(بيان)

سورة ممحضة في الإنذار والتخويف إلا آيتين من آخرها تبشران المتقين بالجنة والحضور عند ربهم.

تبدأ السورة بالإشارة إلى آية شق القمر التي أتى بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن اقتراح من قومه، وتذكر رميهم له بالسحر وتكذيبهم به واتباعهم الأهواء مع ما جاءهم أنباء زاجرة من أنباء يوم القيامة و أنباء الأمم الماضين الهالكين ثم يعيد تعالى عليهم نبذة من تلك الأنباء إعادة ساخط معاتب فيذكر سيئ حالهم يوم القيامة عند خروجهم من الأجداث وحضورهم للحساب.

ثم تشير إلى قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون وما نزل بهم من أليم العذاب إثر تكذيبهم بالندى وليس قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأعز عند الله منهم وما هم بمعجزين، وتختتم السورة ببشرى للمتقين.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها، ولا يعبأ بما قيل: إنها نزلت ببدر، وكذا بما قيل: إن بعض آياتها مدنية، ومن غرر آياتها ما في آخرها من آيات القدر.

قوله تعالى: **{اقتربت الساعة وإنشق القمر}** الاقتراب زيادة في القرب فقوله: **{اقتربت الساعة}** أي قربت جدا، والساعة هي الظرف الذي تقوم فيه القيامة.

و قوله: **{وإنشق القمر}** أي انفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين تشير الآية إلى آية شق القمر التي أجزاها الله تعالى على يد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة قبل الهجرة إثر سؤال المشركين من أهل مكة، وقد استفاضت الروايات على ذلك، واتفق أهل الحديث والمفسرون على قبولها كما قيل. ولم يخالف فيه منهم إلا الحسن وعطاء والبلخي حيث قالوا: معنى قوله: **{إنشق القمر}** سينشق القمر عند قيام الساعة وإنما عبر بلفظ الماضي لتحقق الوقوع.

و هو مزيف مدفوع بدلالة الآية التالية **{وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر}** فإن سياقها أوضح شاهد على أن قوله **{آية}** مطلق شامل لانشقاق القمر فعند وقوعه إعراضهم وقولهم: سحر مستمر ومن المعلوم أن يوم القيامة يوم يظهر فيه الحقائق ويلجئون فيه إلى المعرفة، ولا معنى حينئذ لقولهم في آية ظاهرة: أنها سحر مستمر فليس إلا أنها

آية قد وقعت للدلالة على الحق والصدق وتأتي لهم أن يرموها عنادا بأنها سحر.

ومثله في السقوط ما قيل: إن الآية إشارة إلى ما ذهب إليه الرياضيون أخيرا أن القمر قطعة من الأرض كما أن الأرض جزء منفصل من الشمس فقوله: **{وَإِذْ شَقَّ الْقَمَرَ}** إشارة إلى حقيقة علمية لم ينكشف يوم النزول بعد.

وذلك أن هذه النظرية على تقدير صحتها لا يلائمها قوله: **{وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ}** إذ لم ينقل عن أحد أنه قال للقمر: هو سحر مستمر.

على أن انفصال القمر عن الأرض اشتقاق والذبي في الآية الكريمة انشقاق، ولا يطلق الانشقاق إلا على تقطع الشيء في نفسه قطعتين دون انفصاله من شيء بعد ما كان جزء منه.

ومثله في السقوط ما قيل: إن معنى انشقاق القمر انكشاف الظلمة عند طلوعه وكذا ما قيل: إن انشقاق القمر كناية عن ظهور الأمر ووضوح الحق.

والآية لا تخلو من إشعار بأن انشقاق القمر من لوازم اقتراب الساعة.

قوله تعالى: **{وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ}** الاستمرار من الشيء مرور منه بعد مرور مرة بعد مرة، ولذا يطلق على الدوام والاطراد فقولهم: سحر مستمر أي سحر بعد سحر مداوما.

وقوله: **{آيَةً}** نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم، والمعنى وكل آية يشاهدونها يقولون فيها أنها سحر بعد سحر، وفسر بعضهم المستمر بالمحكم الموثق، وبعضهم بالذاهب الزائل، وبعضهم بالمستبشع المنفور، وهي معان بعيدة.

قوله تعالى: **{وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ}** متعلق التكذيب بقريظة ذيل الآية هو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وما أتى به من الآيات أي وكذبوا بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وما أتى به من الآيات والحال أن كل أمر مستقر سيستقر في مستقره فيعلم أنه حق أو باطل وصدق أو كذب فسيعلمون أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صادق أو كاذب، على الحق أو لا فقوله: **{وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ}** في معنى قوله: **{وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ}** ص: ٨٨.

وقيل متعلق التكذيب انشقاق القمر والمعنى: وكذبوا بانشقاق القمر واتبعوا أهواءهم، وجملة **{وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ}** لا تلائم تلك الملاءمة.

قوله تعالى: **{لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ}** المزدرج مصدر ميمي وهو الاتعاض، وقوله: **{مِنَ الْأَنْبَاءِ}** بيان لما فيه مزدرج، والمراد بالأنباء أخبار الأمم

الدارجة الهالكة أو أخبار يوم القيامة وقد احتمل كل منهما، والظاهر من تعقيب الآية بأنباء يوم القيامة ثم بأنباء عدة من الأمم الهالكة أن المراد بالأنباء التي فيها مزدجر جميع ذلك.

قوله تعالى: **{حِكْمَةٌ بِالْعَمَىٰ فَمَا تُغْنِ النَّذْرُ}** الحكمة كلمة الحق التي ينتفع بها، والبلوغ وصول الشيء إلى ما تنتهي إليه المسافة ويكنى به عن تمام الشيء و كماله فالحكمة البالغة هي الحكمة التامة الكاملة التي لا نقص فيها من حيث نفسها و من حيث أثرها.

وقوله: **{فَمَا تُغْنِ النَّذْرُ}** الفاء فيه فصيحة تفصح عن جملة مقدره تترتب عليها الكلام، والنذر جمع نذير بمعنى المنذر أو بمعنى الإنذار والكل صحيح وإن كان الأول أقرب إلى الفهم.

و المعنى: هذا القرآن أو الذي يدعون إليه حكمة بالغة كذبوا بها و اتبعوا أهواءهم فما تغني المنذرون أو الإنذارات؟.

قوله تعالى: **{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ}** التولي الإعراض و الفاء في **{فَتَوَلَّ}** لتفريع الأمر بالتولي على ما تقدمه من وصف حالهم أي إذا كانوا مكذبين بك متبعين أهواءهم لا يغني فيهم النذر و لا تؤثر فيهم الزواجر فتول عنهم و لا تلح عليهم بالدعوة.

و قوله: **{يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ}** قال الراغب: الإنكار ضد العرفان يقال: أنكرت كذا ونكرت، و أصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره، و ذلك ضرب من الجهل قال تعالى: **{فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ}**. قال: و النكر الدهاء و الأمر الصعب الذي لا يعرف. انتهى.

و قد تم الكلام في قوله: **{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ}** ببيان حالهم تجاه الحكمة البالغة التي ألقى إليهم و الزواجر التي ذكروا بها على سبيل الإنذار، ثم أعاد سبحانه نبذة من تلك الزواجر التي هي أنباء من حالهم يوم القيامة و من عاقبة حال الأمم المكذبين من الماضين في لحن العتاب و التوبيخ الشديد الذي تهز قلوبهم للانتباه و تقطع منابت أذارهم في الإعراض.

فقوله: **{يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ}** إلخ، كلام مفصول عما قبله لذكر الزواجر التي أشير إليها سابقا في مقام الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قال: **{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ}** سئل فقيل: فإلى م يؤول أمرهم؟ فقيل: **{يَوْمَ يَدْعُ}** إلخ، أي هذه حال آخرتهم و تلك عاقبة دنيا أشياعهم و أمثالهم من قوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم، و ليسوا خيرا منهم.

و على هذا فالظرف في **{يَوْمَ يَدْعُ}** متعلق بما سيأتي من قوله: **{يَخْرُجُونَ}** و المعنى:

يخرجون من الأجداث يوم يدعو الداعي إلى شيء نكر، إلخ وإما متعلق بمحذوف، و التقدير اذكر يوم يدعو الداعي، و المحصل اذكر ذاك اليوم و حالهم فيه، و الآية في معنى قوله: **{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ}** الزخرف: ٦٦، و قوله: **{فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ حَلَلُوا مِنْ قَبْلِهِمْ}** يونس: ١٠٢.

و لم يسم سبحانه هذا الداعي من هو؟ و قد نسب الدعوة في موضع من كلامه إلى نفسه فقال: **{يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ}** إسرء: ٥٢.

و إنما أورد من أنباء القيامة نبأ دعوتهم للخروج من الأجداث و الحضور لفصل القضاء و خروجهم منها خشعا أبصارهم مطعين إلى الداعي ليحاذي به دعوتهم في الدنيا إلى الإيمان بالآيات و إعراضهم و قولهم: سحر مستمر.

و معنى الآية: اذكر يوم يدعو الداعي إلى أمر صعب عليهم و هو القضاء و الجزاء.

قوله تعالى: **{خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ}** الخشع جمع خاشع و الخشوع نوع من الذلة و نسب إلى الأبصار لأن ظهوره فيها أتم.

و الأجداث جمع جدث و هو القبر، و الجراد حيوان معروف، و تشبيههم في الخروج من القبور بالجراد المنتشر من حيث إن الجراد في انتشاره يدخل البعض منه في البعض و يختلط البعض ببعض في جهات مختلفة فكذلك هؤلاء في خروجهم من القبور، قال تعالى: **{يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصَبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ}** المعارج: ٤٤.

قوله تعالى: **{مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ}** أي حال كونهم مسرعين إلى الداعي مطيعين مستجيبين دعوته يقول الكافرون: هذا يوم عسر أي صعب شديد.

(بحث روائي)

في تفسير القمي **{اقتربت الساعة}** قال: اقتربت القيامة فلا يكون بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) إلا القيامة و قد انقضت النبوة و الرسالة.

و قوله: **{وَإِنْشَقَّ الْقَمَرُ}** فإن قريشا سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يريهم آية فدعا الله فانشق القمر نصفين حتى نظروا إليه ثم التأم فقالوا: هذا سحر مستمر أي صحيح.

و في أمالي الشيخ، بإسناده عن عبيد الله بن علي عن الرضا عن آبائه عن علي (عليه السلام) قال: **انشق القمر بمكة فلقنتين فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): اشهدوا اشهدوا.**

أقول: ورد انشقاق القمر لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في روايات الشيعة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كثيرا وقد تسلمه محدثوهم والعلماء من غير توقف.

و في الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) آية فانشق القمر بمكة فلقنتين فنزلت **{افْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}** إلى قوله: **{سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}** أي ذاهب.

و فيه، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي وكلاهما في الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فسألوهم فقالوا: نعم قد رأيناه فأنزل الله **{افْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}**.

و فيه، أخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل من طريق مجاهد عن ابن عمر في قوله: **{افْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}** قال: كان ذلك على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انشق فرقتين: فرقة من دون الجبل وفرقة خلفه فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **اللهم اشهد.**

و فيه، أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن جبير بن مطعم في قوله: **{وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}** قال: انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى صار فرقتين: فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقال الناس: سحرنا محمد فقال رجل: إن كان سحرهم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم.

و فيه، أخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله: **{افْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}** قال: قد مضى ذلك قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه.

و فيه، أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن

فحمد الله و أثنى عليه. ثم قال: اقتربت الساعة و انشق القمر ألا و إن الساعة قد اقتربت. ألا و إن القمر قد انشق على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم). ألا و إن الدنيا قد آذنت بفراق. ألا و إن اليوم المضمار و غدا السباق.

أقول: و قد روي انشقاق القمر بدعاء النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بطرق مختلفة كثيرة عن هؤلاء نفر من الصحابة و هم أنس، و عبد الله بن مسعود، و ابن عمر، و جبير بن مطعم، و ابن عباس، و حذيفة بن اليمان، و عد في روح المعاني ممن روي عنه الحديث من الصحابة عليا (عليه السلام) ثم نقل عن السيد الشريف في شرح المواقف و عن ابن السبكي في شرح المختصر أن الحديث متواتر لا يمتري في تواتره. هذه حال الحديث عند أهل السنة و قد عرفت حاله عند الشيعة.

(كلام فيه إجمال القول في شق القمر)

آية شق القمر بيد النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بمكة قبل الهجرة باقتراح من المشركين مما تسلمها المسلمون بلا ارتياب منهم.

و يدل عليها من القرآن الكريم دلالة ظاهرة قوله تعالى: **{اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ اِنْشَقَّ الْقَمَرُ وَ اِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}** القمر: ٢، فالآية الثانية تأتي إلا أن يكون مدلول قوله: **{وَ اِنْشَقَّ الْقَمَرُ}** آية واقعة قريبة من زمان النزول أعرض عنها المشركون كسائر الآيات التي أعرضوا عنها و قالوا: سحر مستمر.

و يدل عليها من الحديث روايات مستفيضة متكاثرة رواها الفريقان و تسلمها المحدثون، و قد تقدمت نماذج منها في البحث الروائي.

فالكتاب و السنة يدلان عليها و انشقاق كرة من الكرات الجوية ممكن في نفسه لا دليل على استحالته العقلية، و وقوع الحوادث الخارقة للعادة و منها الآيات المعجزات جائز و قد قدمنا في الجزء الأول من الكتاب تفصيل الكلام فيها إمكانا و وقوعا و من أوضح الشواهد عليه القرآن الكريم فمن الواجب قبول هذه الآية و إن لم يكن من ضروريات الدين.

و اعترض عليها بأن صدور الآية المعجزة منه (صلى الله عليه وآله و سلم) باقتراح من الناس ينافي قوله تعالى: **{وَ مَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَ آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَ مَا**

نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ الْتَّخْوِيفِ إسرء: ٥٩ فإن مفاد الآية إما أنا لا نرسل بالآيات إلى هذه الأمة لأن الأمم السابقة كذبوا بها وهؤلاء يماثلونهم في طباعهم فيكذبون بها، ولا فائدة في الإرسال مع عدم ترتب أثر عليه أو المفاد أنا لا نرسل بها لأننا أرسلنا إلى أوليهم فكذبوا بها فعذبوا وأهلكوا ولو أرسلنا إلى هؤلاء لكذبوا بها وعذبوا عذاب الاستئصال لكنا لا نريد أن نعاجلهم بالعذاب، وعلى أي حال لا يرسل بالآيات إلى هذه الأمة كما كانت ترسل إلى الأمم الدارئة.

نعم هذا في الآيات المرسله باقتراح من الناس دون الآيات التي تؤيد بها الرسالة كالقرآن المؤيد لرسالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و كآيتي العصا و اليد لموسى (عليه السلام) و آية إحياء الموتى و غيرها لعيسى (عليه السلام)، و كذا الآيات النازلة لطفًا منه سبحانه كالخوارق الصادرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا عن اقتراح منهم.

و مثل الآية السابقة قوله تعالى: **{وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا}** - إلى أن قال - **{قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا}** إسرء: ٩٣ و غير ذلك من الآيات.

و الجواب عن هذا الاعتراض يحتاج إلى تقديم مقدمة هي أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعث رسولًا إلى أهل الدنيا كافة بنبوة خاتمة كما يدل عليه قوله تعالى: **{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}** الأعراف: ١٥٨، و قوله: **{وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}** الأنعام: ١٩، و قوله: **{وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}** الأحزاب: ٤٠ إلى غير ذلك من الآيات.

و قد بدأ (صلى الله عليه وآله وسلم) و هو بمكة بدعوة قومه من أهل مكة و حواليها فقبلوه بما استطاعوا من الشقاق و الإيذاء و الاستهزاء و هموا بإخراجه أو إثباته أو قتله حتى أمره ربه بالهجرة غير أنه آمن به و هو بمكة جمع كثير منهم و إن كانت عامتهم على الكفر و المؤمنون و إن كانوا قليلين بالنسبة إلى المشركين مضطهدين مفتنين لكنهم كانوا في أنفسهم جمعًا ذا عدد كما يدل عليه قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}** النساء: ٧٧ فقد استجازوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقاتلوا المشركين فلم يأذن الله لهم في ذلك على ما روي في سبب نزول الآية و هذا يدل على أنهم كانوا ذوي عدة و عدة في الجملة و لم يزالوا يزدون جمعًا.

ثم هاجر (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة و بسط هنالك الدعوة و نشر الإسلام فيها و في حوالها و في القبائل و في اليمن و سائر أقطار الجزيرة ما عدا مكة و حوالها ثم بسط الدعوة على غير الجزيرة فكاتب الملوك و العظماء من فارس و الروم و مصر سنة ست من الهجرة ثم فتح مكة سنة ثمان من الهجرة و قد أسلم ما بين الهجرة و الفتح جمع من أهلها و حوالها.

ثم ارتحل (صلى الله عليه وآله وسلم) و كان من انتشار الإسلام ما كان، و لم يزل الإسلام يزيد جمعا و ينتشر صبوتا إلى يومنا هذا و قد بلغوا خمس أهل الأرض عددا.

إذا تمهد هذا فنقول: كانت آية انشقاق القمر آية اقتراحية تستعقب العذاب لو كذبوا بها و قد كذبوا و قالوا سحر مستمر و ما كان الله ليهلك بها جميع من أرسل إليهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و هم أهل الأرض جميعا لعدم تمام الحجة عليهم يومئذ و قد كان الانشقاق سنة خمس قبل الهجرة، و قد قال تعالى: **{لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ}** الأنفال: ٤٢.

و ما كان الله ليهلك جميع أهل مكة و حوالها خاصة و بينهم جمع من المسلمين كما قال تعالى: **{وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}** الفتح: ٢٥.

و ما كان الله سبحانه لينجي المؤمنين و يهلك كفارهم و قد آمن جمع كثير منهم فيما بين سنة خمس قبل الهجرة و سنة ثمان بعد الهجرة عام فتح مكة ثم آمنت عامتهم يوم الفتح و الإسلام كان يكتفي منهم بظاهر الشهادتين.

و لم تكن عامة أهل مكة و حوالها أهل عناد و جحود و إنما كان أهل الجحود و العناد عظماءهم و صناديدهم المستهزئين بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المعذيين للمؤمنين، المقترحين عليه بالآيات و هم الذين يقول تعالى فيهم: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** البقرة: ٦، و قد أوعد الله هؤلاء الجاحدين المقترحين بتحرим الإيمان و الهلاك في مواضع من كلامه فلم يؤمنوا و أهلكتهم الله يوم بدر و تمت كلمة الرب صدقا و عدلا.

و أما التمسك لنفي إرسال الآيات مطلقا بقوله تعالى: **{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ}** فالآية لا تشمل قطعا الآيات المؤيدة للرسالة كالقرآن المؤيد لرسالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، و كذا الآيات النازلة لطفًا كالخوارق الصادرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الإخبار بالمغيبات و شفاء المرضى بدعائه و غير ذلك.

فلو كانت مطلقة فإنما تشمل الآيات الاقتراحية و تفيد أن الله سبحانه لم يرسل الآيات

التي اقترحها قريش أو لم^١ يرسل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالآيات التي اقترحوها لأن الأمم السابقة كذبوا بها وطباع هؤلاء المقترحين طباعهم يكذبون بها ولازمها نزول العذاب والله لا يريد أن يعذبهم عاجلا.

وقد أوضح سبحانه سبب عدم معاجلتهم بالعذاب بقوله: **{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}** الأنفال: ٣٣، واستبان بذلك أن المانع من عذابهم وجود الرسول فيهم كما يفيدته أيضا قوله تعالى: **{وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلَّا قَلِيلًا}** إسرء: ٠٧٦

ثم قال تعالى: **{وَمَا لَهُمْ إِلَّا لِيَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}** الأنفال: ٣٥ والآيات نزلت عقيب غزوة بدر.

والآيات تبين أنه لم يكن من قبلهم مانع من نزول العذاب غير وجود النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بينهم فإذا زال المانع بخروجه من بينهم فليذوقوا العذاب وهو ما أصابهم في وقعة بدر من القتل الذريع.

و بالجمله كان المانع من إرسال الآيات تكذيب الأولين ومماثلتهم لهم في خصيصة التكذيب ووجود النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بينهم المانع من معاجلة العذاب فإذا وجد مقتض للعذاب كالصد والمكء والتصدية وزال أحد ركني المانع وهو كونه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيهم فلا مانع من العذاب ولا مانع من نزول الآية وإرسالها ليحق عليهم القول فيعذبوا بسبب تكذيبهم لها وبسبب مقتضيات أخر كالصد ونحوه.

فتحصل أن قوله تعالى: **{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ}** إلخ، إنما يفيد الإمساك عن إرسال الآيات ما دام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيهم وأما إرسالها وتأخير العذاب إلى خروجه من بينهم فلا دلالة فيه عليه وقد صرح سبحانه بأن وقعة بدر كانت آية وما أصابهم فيها كان عذابا، وكذا لو كان مفاد الآية هو الامتناع عن الإرسال لكونه لغوا بسبب كونهم مجبولين على التكذيب فإن إرسالها مع تأخير العذاب والنكال إلى خروج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من

^١ أول شقي التريديد مبني على كون الباء في قوله: «نرسل بالآيات» زائدة والآيات مفعول نرسل، والثاني مبني على كونها بمعنى المصاحبة والمفعول محذوف.

بينهم من الفائدة ليحق الله الحق و يبطل الباطل فلتكن آية انشقاق القمر من الآيات النازلة التي من فائدتها نزول العذاب عليهم بعد خروج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من بينهم.

و أما قوله تعالى: **{قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا}** فليس مدلوله نفي تأييد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالآيات المعجزة وإنكار نزولها من أصلها كيف؟ وهو ينفىها عن نفسه بما أنه بشر رسول، ولو كان المراد ذلك لأفاد إنكار معجزات الأنبياء جميعا لكون كل منهم بشرا رسولا، و صريح القرآن فيما حدث من قصص الأنبياء و أخبر عن آياتهم يناقض ذلك، و أوضح من الجميع في مناقضة ذلك نفس الآية التي هي من القرآن المتحدي بالإعجاز.

بل مدلوله أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بشر رسول غير قادر من حيث نفسه على شيء من الآيات التي يقترحون عليه، و إنما الأمر إلى الله سبحانه إن شاء أنزلها و إن لم يشأ لم يفعل قال تعالى: **{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا آلَ آيَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ}** الأنعام: ١٠٩، و قال حاكما عن قوم نوح: **{قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ}** هود: ٣٣، و قال: **{وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}** المؤمن: ٧٨، و الآيات في هذا المعنى كثيرة.

و من الاعتراض على آية الانشقاق ما قيل: إن القمر لو انشق كما يقال لراه جميع الناس و لضبطه أهل الأرصاد في الشرق و الغرب لكونه من أعجب الآيات السماوية و لم يعهد فيما بلغ إلينا من التاريخ و الكتب الباحثة عن الأوضاح السماوية له نظير و الدواعي متوفرة على استماعه و نقله.

و أجيب بما حاصله أن من الممكن أولا: أن يغفل عنه فلا دليل على كون كل حادث أرضي أو سماوي معلوما للناس محفوظا عندهم يرثه خلف عن سلف.

و ثانيا: أن الحجاز و ما حولها من البلاد العربية و غيرها لم يكن بها مرصد للأوضاع السماوية، و إنما كان ما كان من المراصد بالهند و المغرب من الروم و اليونان و غيرها و لم يثبت وجود مرصد في هذا الوقت و هو على ما في بعض الروايات أول الليلة الرابعة عشرة من ذي الحجة سنة خمس قبل الهجرة.

على أن بلاد الغرب التي كانوا معتنين بهذا الشأن بينها و بين مكة من اختلاف الأفق ما

يوجب فصلا زمانيا معتدا به و قد كان القمر على ما في بعض الروايات بدرا و انشق في حوالي غروب الشمس حين طلوعه و لم يبق على الانشقاق إلا زمانا يسيرا ثم التأم فيقع طلوعه على بلاد الغرب و هو ملتئم ثانيا.

على أننا نتهم غير المسلمين من أتباع الكنيسة و الوثنية في الأمور الدينية التي لها مساس نفع بالإسلام.

و من الاعتراض عليها ما قيل: إن الانشقاق لا يقع إلا ببطلان التجاذب بين الشقتين و حينئذ يستحيل الالتيام فلو كان منشقا لم يلتئم أبدا.

و الجواب عنه أن الاستحالة العقلية ممنوعة، و الاستحالة العادية بمعنى اختراق العادة لو منعت عن الالتيام بعد الانشقاق لمنعت أولا عن الانشقاق بعد الالتيام و لم تمنع و أصل الكلام مبني على جواز خرق العادة.

[سورة القمر (٥٤): الآيات ٩ الى ٤٢]

{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ① فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ② فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ③ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ④ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ⑤ فَجَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ⑥ وَ لَقَدْ تَرَكْنَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدْكِرٍ ⑦ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ⑧ وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ⑨ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ⑩ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ⑪ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ⑫ }

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِي ﴿٣١﴾ وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ
ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ فَقَالُوا أَ بَشَرًا مِمَّنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَ سُعْرٍ ﴿٣٤﴾ أَ أَتَيْنَا الذِّكْرَ
عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٣٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٣٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا
الْبَاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اضْطَبِرْ ﴿٣٧﴾ وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شِرْبٌ مُحْتَضِرٌ ﴿٣٨﴾
فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٣٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِي ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً
وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٤١﴾ وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٢﴾ كَذَّبَتْ
قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٤٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٤٥﴾ وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٤٦﴾ وَ لَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ
صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذُرِي ﴿٤٧﴾ وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٤٨﴾
فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذُرِي ﴿٤٩﴾ وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥٠﴾ وَ لَقَدْ جَاءَ آلَ
فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٥١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٢﴾

(بيان)

إشارة إلى بعض ما فيه مزدجر من أنباء الأمم الدارجة خص بالذكر من بينهم قوم نوح و عاد و ثمود و قوم لوط و آل فرعون فذكرهم بأبائهم و أعاد عليهم إجمال ما قص عليهم سابقا من قصصهم و ما آل إليه تكذيبهم بآيات الله و رسله من أليم العذاب و هائل العقاب تقريرا لقوله: **{وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ}**.

و لتوكيد التقرير و تمثيل ما في هذه القصص الزاجرة من الزجر القارع للقلوب عقب كل واحدة من القصص بقوله خطابا لهم: **{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نَذْرِي}** ثم ثناه بذكر الغرض من الإنذار و التخويف فقال: **{وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ}**.

قوله تعالى: **{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَ قَالَوا مُجْتُونٌ وَ أزدَجِرٌ}** التأكيد الأول منزل منزلة اللازم أي فعلت التأكيد، و قوله: **{فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا}** إلخ، تفسيره كما في قوله: **{وَ نَادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ}** الخ: هود: ٤٥.

و قيل: المراد بالتكذيب الأول التأكيد المطلق و هو تكذيبهم بالرسول و بالثاني التأكيد بنوح خاصة كقوله في سورة الشعراء: **{كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ}** الشعراء: ١٠٥، و المعنى: كذبت قوم نوح المرسلين فترتب عليه تكذيبهم لنوح، و هو وجه حسن.

و قيل: المراد بتفريع التأكيد على التأكيد الإشارة إلى كونه تكذيبا إثر تكذيب بطول زمان دعوته فكلمها انقرض قرن منهم مكذب جاء بعدهم قرن آخر مكذب، و هو معنى بعيد.

و مثله قول بعضهم: إن المراد بالتكذيب الأول قصده و بالثاني فعله.

و قوله: **{فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا}** في التعبير عن نوح (عليه السلام) بقوله: **{عَبْدَنَا}** في مثل المقام تجليل لمقامه و تعظيم لأمره و إشارة إلى أن تكذيبهم له يرجع إليه تعالى لأنه عبد لا يملك شيئا و ما له فهو الله.

و قوله: **{وَ قَالَوا مُجْتُونٌ وَ أزدَجِرٌ}** المراد بالازدجار زجر الجن له أثر الجنون، و المعنى: و لم يقتصر على مجرد التأكيد بل نسبوه إلى الجنون فقالوا هو مجنون و ازدجره الجن فلا يتكلم إلا عن زجر و ليس كلامه من الوحي السماوي في شيء.

وقيل: الفاعل المحذوف للازدجار هو القوم، والمعنى: وازدجره القوم عن الدعوة و التبليغ بأنواع الإيذاء و التخويف، و لعل المعنى الأول أظهر.

قوله تعالى: **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ** الانتصار الانتقام، و قوله: **{أَنِّي مَغْلُوبٌ}** أي بالقهر و التحكم دون الحجة، و هذا الدعاء تلخيص لتفصيل دعائه، و تفصيل دعائه مذكور في سورة نوح و تفصيل حججه في سورة هود و غيرها.

قوله تعالى: **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ** قال في الجمع: الهمر صب الدمع و الماء بشدة، و الانهمار الانصباب، انتهى. و فتح أبواب السماء و هي الجو بماء منصب استعارة تمثيلية عن شدة انصباب الماء و جريان المطر متواليا كأنه مدخر وراء باب مسدود يمنع عن انصبابه ففتح الباب فانصب أشد ما يكون.

قوله تعالى: **وَوَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ** قال في الجمع: التفجير تشقيق الأرض عن الماء، و العيون جمع عين الماء و هو ما يفور من الأرض مستديرا كاستدارة عين الحيوان. انتهى.
و المعنى: جعلنا الأرض عيونا منفجرة عن الماء تجري جريانا متوافقا متتابعا.

و قوله: **{فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ}** أي فالتقى الماء ان ماء السماء و ماء الأرض مستقرا على أمر قدره الله تعالى أي حسب ما قدر من غير نقيصة و لا زيادة و لا عجل و لا مهل.

فالماء اسم جنس أريد به ماء السماء و ماء الأرض و لذلك لم يثن، و المراد بأمر قد قدر الصفة التي قدرها الله لهذا الطوفان.

قوله تعالى: **{وَوَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَ دُسُرٍ}** المراد بذات الألواح و الدسر السفينة، و الألواح جمع لوح و هو الخشبة التي يركب بعضها على بعض في السفينة، و الدسر جمع دسار و دسر و هو المسمار الذي تشد بها الألواح في السفينة، و قيل فيه معان أخر لا تلائم الآية تلك الملاءمة.

قوله تعالى: **{تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ}** أي تجري السفينة على الماء المحيط بالأرض بأنواع من مراقبتنا و حفظنا و حراستنا، و قيل: المراد تجري بأعين أوليائنا و من وكلناه بها من الملائكة.

و قوله: **{جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ}** أي جريان السفينة كذلك و فيه نجاة من فيها من الهلاك ليكون جزاء لمن كان كفر به و هو نوح (عليه السلام) كفر به و بدعوته قومه، فالآية في معنى

قوله: **{ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ }** - إلى أن قال - **{ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ }** الصفات:

٠٨٠

قوله تعالى: **{ وَ لَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ }** ضمير **{ تَرَكْنَاهَا }** للسفينة على ما يفيد السياق و اللام للقسم، و المعنى: أقسم لقد أبقينا تلك السفينة التي نجينا بها نوحا و الذين معه، و جعلناها آية يعتبر بها من اعتبر فهل من متذكر يتذكر بها وحدانيته تعالى و أن دعوة أنبيائه حق، و أن أخذه أليم شديدا؟ و لازم هذا المعنى بقاء السفينة إلى حين نزول هذه الآيات علامة دالة على واقعة الطوفان مذكرة لها، و قد قال بعضهم في تفسير الآية على ما نقل: أبقى الله سفينة نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة، انتهى. و قد أوردنا في تفسير سورة هود في آخر الأبحاث حول قصة نوح خبر أنهم عثروا في بعض قلل جبل آراراط و هو الجودي قطعات أخشاب من سفينة متلاشية وقعت هناك، فراجع.

و قيل: ضمير **{ تَرَكْنَاهَا }** لما مر من القصة بما أنها فعله.

قوله تعالى: **{ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذْرِي }** النذر جمع نذير بمعنى الإنذار، و قيل: مصدر بمعنى الإنذار. و الظاهر أن **{ كَانَ }** ناقصة و اسمها **{ عَذَابِي }** و خبرها **{ فَكَيْفَ }**، و يمكن أن تكون تامة فاعلها قوله: **{ عَذَابِي }** و قوله: **{ فَكَيْفَ }** حالا منه.

و كيف كان فالاستفهام للتهويل يسجل به شدة العذاب و صدق الإنذار.

قوله تعالى: **{ وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ }** التيسير التسهيل و تيسير القرآن للذكر هو إلقاءه على نحو سهل فهم مقاصده للعامي و الخاصي و الأفهام البسيطة و المتعمقة كل على مقدار فهمه.

و يمكن أن يراد به تنزيل حقائقه العالية و مقاصده المرتفعة عن أفق الأفهام العادية إلى مرحلة التكليم العربي تناله عامة الأفهام كما يستفاد من قوله تعالى: **{ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ }** الزحرف: ٤.

و المراد بالذكر ذكره تعالى بأسمائه أو صفاته أو أفعاله، قال في المفردات: الذكر تارة يقال و يراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة و هو كالحفظ

^١ رواه في الدر المنثور عن عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة.

إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب و ذكر باللسان و كل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان و ذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ، و كل قول يقال له ذكر. انتهى.

و معنى الآية: و أقسم لقد سهلنا القرآن لأن يتذكر به، فيذكر الله تعالى و شئونه، فهل من متذكر يتذكر به فيؤمن بالله و يدين بما يدعو إليه من الدين الحق؟.

فالآية دعوة عامة إلى التذكر بالقرآن بعد تسجيل صدق الإنذار و شدة العذاب الذي أنذر به.

قوله تعالى: **{كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَ نُذْرِي}** شروع في قصة أخرى من القصص التي فيها الازدجار و لم يعطف على ما قبلها و مثلها القصص الآتية لأن كل واحدة من هذه القصص مستقلة كافية في الزجر و الردع و العظة لو اتعظوا بها.

و قوله: **{فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَ نُذْرِي}** مسوق لتوجيه قلوب السامعين إلى ما يلقي إليهم من كيفية العذاب الهائل بقوله: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا}** إنخ، و ليس مسوقاً للتحويل و تسجيل شدة العذاب و صدق الإنذار كسابقه و إلا لتكرر قوله بعد: **{فَكَيْفَ كَانَ}** إنخ، كذا قيل و هو وجه حسن.

قوله تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ}** بيان لما استفهم عنه في قوله: **{فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَ نُذْرِي}** و الصرصر على ما في الجمع، الريح الشديدة الهبوب، و النحس بالفتح فالسكون مصدر كالحوسة بمعنى الشؤم، و **{مُسْتَمِرٍّ}** صفة لنحس، و معنى إرسال الريح في يوم نحس مستمر إرسالها في يوم متلبس بالحوسة و الشامة بالنسبة إليهم المستمرة عليهم لا يرجى فيه خير لهم و لا نجاة.

و المراد باليوم قطعة من الزمان لا اليوم الذي يساوي سبع الأسبوع لقوله تعالى في موضع آخر من كلامه: **{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ}** حم السجدة ١٦، و في موضع آخر: **{سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ تَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً}** الحاقة: ٧.

و فسر بعضهم النحس بالبرد.

قوله تعالى: **{تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ}** فاعل **{تَنْزِعُ}** ضمير راجع إلى

الريح أي تنزع الريح الناس من الأرض، و أعجاز النخل أسافله، و المنقعر المقلوع من أصله، و المعنى ظاهر، و في الآية إشعار ببسطة القوم أجساما.

قوله تعالى: **{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي}** إلى قوله **{مُدَّكِرٍ}** تقدم تفسير الآيتين.

(كلام في سعادة الأيام و نحوستها و الطيرة و الفأل في فصول)

١ - في سعادة الأيام و نحوستها

نحوسة اليوم أو أي مقدار من الزمان أن لا يعقب الحوادث الواقعة فيه إلا الشر و لا يكون الأعمال أو نوع خاص من الأعمال فيه مباركة لعاملها، و سعادته خلافه.

و لا سبيل لنا إلى إقامة البرهان على سعادة يوم من الأيام أو زمان من الأزمنة و لا نحوسته و طبيعة الزمان المقدارية متشابهة الأجزاء و الأبعاض، و لا إحاطة لنا بالعلل و الأسباب الفاعلة المؤثرة في حدوث الحوادث و كينونة الأعمال حتى يظهر لنا دوران اليوم أو القطعة من الزمان من علل و أسباب تقتضي سعادته أو نحوسته، و لذلك كانت التجربة الكافية غير متأتية لتوقفها على تجرد الموضوع لأثره حتى يعلم أن الأثر أثره و هو غير معلوم في المقام.

و لما مر بعينه لم يكن لنا سبيل إلى إقامة البرهان على نفي السعادة و النحوسة كما لم يكن سبيل إلى الإثبات و إن كان الثبوت بعيدا فالبعد غير الاستحالة. هذا بحسب النظر العقلي.

و أما بحسب النظر الشرعي ففي الكتاب ذكر من النحوسة و ما يقابلها، قال تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ}** القمر: ١٩، و قال: **{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ}** حم السجدة: ١٦، لكن لا يظهر من سياق القصة و دلالة الآيتين مزيد من كون النحوسة و الشؤم خاصة بنفس الزمان الذي كانت تهب عليهم فيه الريح عذابا و هو سبع ليال و ثمانية أيام متوالية يستمر عليهم فيها العذاب من غير أن تدور بدوران الأسابيع و هو ظاهر و إلا كان جميع الزمان نحسا، و لا بدوران الشهور و السنين.

و قال تعالى: **{وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ}** الدخان: ٣، و المراد بها ليلة القدر التي يصفها الله تعالى بقوله: **{لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}** القدر: ٣، و ظاهر

أن مباركة هذه الليلة و سعادتها إنما هي بمقارنتها نوعا من المقارنة لأمر عظام من الإفاضات الباطنية الإلهية و أفاعيل معنوية كإبرام القضاء و نزول الملائكة و الروح و كونها سلاما، قال تعالى: **{فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}** الدخان: ٤، و قال: **{تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}** القدر: ٥.

و يثول معنى مباركتها و سعادتها إلى فضل العبادة و النسك فيها و غزارة ثوابها و قرب العناية الإلهية فيها من المتوجهين إلى ساحة العزة و الكبرياء.

و أما السنة فهناك روايات كثيرة جدا في السعد و النحس من أيام الأسبوع و من أيام الشهور العربية و من أيام شهور الفرس و من أيام الشهور الرومية، و هي روايات بالغة في الكثرة مودعة في جوامع الحديث^١ أكثرها ضعاف من مراسيل و مرفوعات و إن كان فيها ما لا يخلو من اعتبار من حيث إسنادها.

أما الروايات العادة للأيام النحسة كيوم الأربعاء و الأربعاء لا تدور^٢ و سبعة أيام من كل شهر عربي و يومين من كل شهر رومي و نحو ذلك، ففي كثير منها و خاصة فيما يتعرض لنحوسة أيام الأسبوع و أيام الشهور العربية تعليل نحوسة اليوم بوقوع حوادث مرة غير مطلوبة بحسب المذاق الديني كرحلة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و شهادة الحسين (عليه السلام) و إلقاء إبراهيم (عليه السلام) في النار و نزول العذاب بأمة كذا و خلق النار و غير ذلك.

و معلوم أن في عدها نحسة مشؤمة و تجنب اقتراب الأمور المطلوبة و طلب الحوائج التي يلتذ الإنسان بالحصول عليها فيها تحكيما للتقوى و تقوية للروح الدينية و في عدم الاعتناء و الاهتمام بها و الاسترسال في الاشتغال بالسعي في كل ما تهواه النفس في أي وقت كان إضرابا عن الحق و هتكا لحرمة الدين و إزرء لأوليائه فتثول نحوسة هذه الأيام إلى جهات من الشقاء المعنوي منبعثة عن علل و أسباب اعتبارية مرتبطة نوعا من الارتباط بهذه الأيام تفيد نوعا من الشقاء الديني على من لا يعتني بأمرها.

و أيضا قد ورد في عدة من هذه الروايات الاعتصام بالله بصدقة أو صوم أو دعاء أو قراءة شيء من القرآن أو غير ذلك لدفع نحوسة هذه الأيام كما عن مجالس ابن الشيخ، بإسناده

^١ أوردت منها في الجزء الرابع عشر من كتاب البحار أحاديث جمّة.

^٢ الأربعاء لا تدور هي آخر الأربعاء في الشهر.

عن سهل بن يعقوب الملقب بأبي نواس عن العسكري (عليه السلام) في حديث: قلت: يا سيدي في أكثر هذه الأيام قواطع عن المقاصد لما ذكر فيها من النحس و المخاوف فتدلني على الاحتراز من المخاوف فيها فإنما تدعوني الضرورة إلى التوجه في الحوائج فيها؟ فقال لي: يا سهل إن لشيعتنا بولايتنا لعصمة لو سلكوا بها في لجة البحار الغامرة و سباسب^١ البيداء الغائرة بين سباع و ذئاب و أعادي الجن و الإنس لآمنوا من مخاوفهم بولايتهم لنا، فثق بالله عز و جل و أخلص في الولاء لأئمتك الطاهرين و توجه حيث شئت و اقصد ما شئت. (الحديث).
ثم أمره (عليه السلام) بشيء من القرآن و الدعاء أن يقرأه و يدفع به النحوسة و الشأمة و يقصد ما شاء.

و في الخصال، بإسناده عن محمد بن رباح الفلاح قال: رأيت أبا إبراهيم (عليه السلام) يحتجم يوم الجمعة فقلت: جعلت فداك تحتجم يوم الجمعة؟ قال: أقرأ آية الكرسي فإذا هاج بك الدم ليلا كان أو نهارا فاقرا آية الكرسي و احتجم.

و في الخصال، أيضا بإسناده عن محمد بن أحمد الدقاق قال: كتبت إلى أبي الحسن الثاني (عليه السلام) أسأله عن الخروج يوم الأربعاء لا تدور، فكتب (عليه السلام): من خرج يوم الأربعاء لا تدور خلافا على أهل الطيرة وقي من كل آفة و عوفي من كل عاهة و قضى الله له حاجته.

و كتب إليه مرة أخرى يسأله عن المجامة يوم الأربعاء لا تدور، فكتب (عليه السلام): من احتجم في يوم الأربعاء لا تدور خلافا على أهل الطيرة عوفي من كل آفة، و قي من كل عاهة، و لم^٢ تخضر محاجمه.

و في معناها ما في تحف العقول: قال الحسين بن مسعود: دخلت على أبي الحسن علي بن محمد (عليه السلام) و قد نكبت إصبعي و تلقاني راكب و صدم كتفي، و دخلت في زحمة نفرقوا علي بعض ثيابي فقلت: كفاني الله شرك من يوم فما أيشمك. فقال (عليه السلام) لي: يا حسن هذا و أنت تغشانا ترمي بذنبك من لا ذنب له؟.

قال الحسن: فأثاب إلى عقلي و تبينت خطي فقلت: يا مولاي أستغفر الله. فقال:

^١ السباسب جمع سبب: المفازة.

^٢ هذه الجملة إشارة إلى نفي ما في عدة من الروايات أن من احتجم في يوم الأربعاء أو يوم الأربعاء لا تدور اخضرت محاجمه، و في بعضها خيف عليه أن تخضر محاجمه.

يا حسن ما ذنب الأيام حتى صرتم تتشاءمون بها إذا جوزيتم بأعمالكم فيها؟ قال الحسن: أنا أستغفر الله أبدا، وهي توبتي يا بن رسول الله.

قال: ما ينفعم ولكن الله يعاقبكم بدمها على ما لا ذم عليها فيه. أ ما علمت يا حسن أن الله هو المثيب و المعاقب و المجازي بالأعمال عاجلا و آجلا؟ قلت: بلى يا مولاي. قال: لا تعد و لا تجعل للأيام صنعا في حكم الله. قال الحسن: بلى يا مولاي.

و الروايات السابقة - و لها نظائر في معناها - يستفاد منها أن الملاك في نحوسة هذه الأيام النحسات هو تطير عامة الناس بها و للتطير تأثير نفساني كما سيأتي، و هذه الروايات تعالج نحوستها التي تأتيها من قبل الطيرة بصرف النفس عن الطيرة إن قوي الإنسان على ذلك، و بالالتجاء إلى الله سبحانه و الاعتصام به بقرآن يتلوه أو دعاء يدعو به إن لم يقو عليه بنفسه.

و حمل بعضهم هذه الروايات المسلمة لنحوسة بعض الأيام على التقية، و ليس بذاك البعيد فإن التشاؤم و التفاؤل بالأزمنة و الأمكنة و الأوضاع و الأحوال من خصائص العامة يوجد منه عندهم شيء كثير عند الأمم و الطوائف المختلفة على تشتمهم و تفرقهم منذ القديم إلى يومنا و كان بين الناس حتى خواصهم في الصدر الأول في ذلك روايات دائرة يسندونها إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) لا يسع لأحد أن يردّها كما في كتاب المسلسلات، بإسناده عن الفضل بن الربيع قال: كنت يوما مع مولاي المأمون فأردنا الخروج يوم الأربعاء فقال المأمون: يوم مكروه سمعت أبي الرشيد يقول: سمعت المهدي يقول: سمعت المنصور يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول: سمعت أبي عليا يقول: سمعت أبي عبد الله بن عباس يقول: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يقول: **إن آخر الأربعاء في الشهر يوم نحس مستمر.**

و أما الروايات الدالة على الأيام السعيدة من الأسبوع و غيرها فالوجه فيها نظير ما تقدمت إليه الإشارة في الأخبار الدالة على نحوستها من الوجه الأول فإن في هذه الأخبار تعليل بركة ما عده من الأيام السعيدة بوقوع حوادث متبركة عظيمة في نظر الدين كولادة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و بعثته و كما ورد: أنه (صلى الله عليه وآله و سلم) دعا فقال: **اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم سبتها و نحيسها،** و ما ورد: أن الله ألان الحديد لداود (عليه السلام) يوم الثلاثاء، و أن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) كان يخرج للسفر يوم الجمعة، و أن الأحد من أسماء الله تعالى.

فتبين مما تقدم على طوله أن الأخبار الواردة في سعادة الأيام و نحوستها لا تدل على أزيد

من ابتنائهما على حوادث مرتبطة بالدين توجب حسنا و قبحا بحسب الذوق الديني أو بحسب تأثير النفوس، و أما اتصاف اليوم أو أي قطعة من الزمان بصفة الميمنة أو المشأمة و اختصاصه بخواص تكوينية عن علل و أسباب طبيعية تكوينية فلا، و ما كان من الأخبار ظاهرا في خلاف ذلك فإما محمول على التقية أو لا اعتماد عليه.

٢ - في سعادة الكواكب و نحوستها

و تأثير الأوضاع السماوية في الحوادث الأرضية سعادة و نحوسة. الكلام في ذلك من حيث النظر العقلي كالللام في سعادة الأيام و نحوستها فلا سبيل إلى إقامة البرهان على شيء من ذلك كسعادة الشمس و المشتري و قران السعدين و نحوسة المريخ و قران النحسين و القمر في العقرب.

نعم كان القدماء من منجمي الهند يرون للحوادث الأرضية ارتباطا بالأوضاع السماوية مطلقا أعم من أوضاع الثوابت و السيارات، و غيرهم يرى ذلك بين الحوادث و بين أوضاع السيارات السبع دون الثوابت و أوردوا لأوضاعها المختلفة خواص و آثارا تسمى بأحكام النجوم يرون عند تحقق كل وضع أنه يعقب وقوع آثاره. و القوم بين قائل بأن الأجرام الكوكبية موجودات ذوات نفوس حية مريدة تفعل أفعالها بالعلية الفاعلية، و قائل بأنها أجرام غير ذات نفس تؤثر أثرها بالعلية الفاعلية، أو هي معدات لفعله تعالى و هو الفاعل للحوادث أو أن الكواكب و أوضاعها علامات للحوادث من غير فاعلية و لا إعداد، أو أنه لا شيء من هذه الارتباطات بينها و بين الحوادث حتى على نحو العلامة و إنما جرت عادة الله على أن يحدث حادثة كذا عند وضع سماوي، كذا.

و شيء من هذه الأحكام ليس بدائي مطرد بحيث يلزم حكم كذا وضع كذا فربما تصدق و ربما تكذب لكن الذي بلغنا من عجائب القصص و الحكايات في استخراجاتهم يعطي أن بين الأوضاع السماوية و الحوادث الأرضية ارتباطا ما إلا أنه في الجملة لا بالجملة كما أن بعض الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) يصدق ذلك كذلك.

و على هذا لا يمكن الحكم البتي بكون كوكب كذا أو وضع كذا سعادا أو نحسا و أما أصل ارتباط الحوادث و الأوضاع السماوية و الأرضية بعضها ببعض فليس في وسع الباحث الناقد إنكار ذلك.

و أما القول بكون الكواكب أو الأوضاع السماوية ذوات تأثير فيما دونها سواء قيل

بكونها ذوات نفوس ناطقة أو لم يقل فليس مما يخالف شيئا من ضروريات الدين إلا أن يقال بكونها خالقة موجدة لما دونها من غير أن ينتهي ذلك إليه تعالى فيكون شركا لكنه لا قائل به حتى من وثنية الصابئة التي تعبد الكواكب، أو أن يقال بكونها مدبرة للنظام الكوني مستقلة في التدبير فيكون ربوية تستعقب المعبودية فيكون شركا كما عليه الصابئة عبدة الكواكب.

و أما الروايات الواردة في تأثير النجوم سعدا و نحسا و تصديقا و تكذيبا فهي كثيرة جدا على أقسام:

منها: ما يدل بظاهره على تسليم السعادة و النحوسة فيها كما في الرسالة الذهبية، عن الرضا (عليه السلام): **اعلم أن جماعهن و القمر في برج الحمل أو الدلو من البروج أفضل و خير من ذلك أن يكون في برج الثور لكونه شرف القمر.**

و في البحار، عن النوادر بإسناده عن حمران عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **من سافر أو تزوج و القمر في العقرب لم ير الحسنى (الخبر) و في كتاب النجوم، لابن طاووس عن علي (عليه السلام): يكره أن يسافر الرجل في محاق الشهر و إذا كان القمر في العقرب.**

و يمكن حمل أمثال هذه الروايات على التقية على ما قيل، أو على مقارنة الطيرة العامة كما ربما يشعر به ما في عدة من الروايات من الأمر بالصدقة لدفع النحوسة كما في نوادر الراوندي، بإسناده عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده في حديث: **إذا أصبحت فتصدق بصدقة تذهب عنك نحس ذلك اليوم، و إذا أمسيت فتصدق بصدقة تذهب عنك نحس تلك الليلة (الخبر)، و يمكن أن يكون ذلك لارتباط خاص بين الوضع السماوي و الحادثة الأرضية بنحو الاقتضاء.**

و منها: ما يدل على تكذيب تأثيرات النجوم في الحوادث و النهي الشديد عن الاعتقاد بها و الاشتغال بعلها كما في نهج البلاغة: **المنجم كالكاهن و الكاهن كالساحر و الساحر كالكافر و الكافر في النار.** و يظهر من أخبار آخر تصدقها و تجوز النظر فيها أن النهي عن الاشتغال بها و البناء عليها إنما هو فيما اعتقد لها استقلال في التأثير لتأديته إلى الشرك كما تقدم.

و منها: ما يدل على كونه حقا في نفسه غير أن قليله لا ينفع و كثيره لا يدرك كما في الكافي، بإسناده عن عبد الرحمن بن سيابة قال: **قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): جعلت فداك**

إن الناس يقولون: إن النجوم لا يحل النظر فيها وهو يعجبني فإن كانت تضر بديني فلا حاجة لي في شيء يضر بديني، وإن كانت لا تضر بديني - فوالله إني لأشتهيها وأشتهي النظر فيها. فقال: ليس كما يقولون لا يضر بدينا ثم قال: إنكم تنظرون في شيء منها - كثيرة لا يدرك وقليله لا ينتفع به. (الخبر).

وفي البحار، عن كتاب النجوم لابن طاووس عن معاوية بن حكيم عن محمد بن زياد عن محمد بن يحيى الخثعمي قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن النجوم حق هي؟ قال لي: نعم فقلت له: وفي الأرض من يعلمها؟ قال: نعم وفي الأرض من يعلمها: وفي عدة من الروايات: ما يعلمها إلا أهل بيت من الهند وأهل بيت من العرب: وفي بعضها: من قرئش.

وهذه الروايات تؤيد ما قدمناه من أن بين الأوضاع والأحكام ارتباطا ما في الجملة.

نعم، ورد في بعض هذه الروايات: أن الله أنزل المشتري على الأرض في صورة رجل فلقى رجلا من العجم فعله النجوم حتى ظن أنه بلغ ثم قال له انظر أين المشتري؟ فقال: ما أراه في الفلك و ما أدري أين هو؟ فنحاه وأخذ بيد رجل من الهند فعله حتى ظن أنه قد بلغ وقال: انظر إلى المشتري أين هو؟ فقال: إن حسابي ليدل على أنك أنت المشتري قال: فشبهه شهبه فمات وورث علمه أهله فالعلم هناك. الخبر، وهو أشبه بالموضوع.

٣ - في التفاؤل والتطير

وهما الاستدلال بحادث من الحوادث على الخير و ترقبه وهو التفاؤل أو على الشر وهو التطير و كثيرا ما يؤثران ويقع ما يترقب منهما من خير أو شر و خاصة في الشر و ذلك تأثير نفساني.

و قد فرق الإسلام بين التفاؤل و التطير فأمر بالتفاؤل و نهى عن التطير، و في ذلك تصديق لكون ما فيهما من التأثير تأثيرا نفسانيا. أما التفاؤل ففيما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **تفاءلوا بالخير تجدوه**، و كان (صلى الله عليه وآله وسلم) كثير التفاؤل نقل عنه ذلك في كثير من مواقفه.

و أما التطير فقد ورد في مواضع من الكتاب نقله عن أمم الأنبياء في دعواتهم لهم حيث كانوا يظهرون لأنبيائهم أنهم اطيروا بهم فلا يؤمنون، و أجاب عن ذلك أنبياءهم

^١ كما ورد في قصة الحديدية: جاء سهيل بن عمرو فقال صلى الله عليه وآله: قد سهل عليكم أمركم.

و كما في قصة كذبه الى خسرو بربيز يدعوه الى الإسلام ففرق كتابه و أرسل إليه قبضة من تراب فتفاءل صلى الله عليه وآله منه أن المؤمنين سيملكون أرضهم.

بما حاصله أن التطير لا يقلب الحق باطلا ولا الباطل حقا، وأن الأمر إلى الله سبحانه لا إلى الطائر الذي لا يملك لنفسه شيئا فضلا عن أن يملك لغيره الخير والشر والسعادة والشقاء قال تعالى: **{قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ}** يس: ١٩، أي ما يجز إليكم الشر هو معكم لا معنا، وقال: **{قَالُوا إِطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ}** النمل: ٤٧، أي الذي يأتيكم به الخير أو الشر عند الله فهو الذي يقدر فيكم ما يقدر لا أنا ومن معي فليس لنا من الأمر شيء.

وقد وردت أخبار كثيرة في النبي عن الطيرة وفي دفع شؤمها بعدم الاعتناء أو بالتوكل والدعاء، وهي تؤيد ما قدمناه من أن تأثيرها من التأثيرات النفسانية ففي الكافي، بإسناده عن عمرو بن حريث قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): **الطيرة على ما تجعلها إن هونتها تهونت، وإن شددتها تشددت، وإن لم تجعلها شيئا لم تكن شيئا. ودلالة الحديث على كون تأثيرها من التأثيرات النفسانية ظاهرة، ومثله الحديث المروي من طرق أهل السنة: ثلاث لا يسلم منها أحد: الطيرة والحسد والظن. قيل: فما نصنع؟ قال: إذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق.**

وفي معناه ما في الكافي، عن القمي عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): كفارة الطيرة التوكل. والخبر وذلك أن في التوكل إرجاع أمر التأثير إلى الله تعالى، فلا يبقى للشيء أثر حتى يتضرر به، وفي معناه ما ورد من طرق أهل السنة على ما في نهاية ابن الأثير: الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهب بالتوكل.**

وفي المعنى السابق ما روي عن موسى بن جعفر (عليه السلام) أنه قال: **الشؤم للمسافر في طريقه سبعة أشياء: الغراب الناقع عن يمينه، والكلب الناشر لذنبه، والذئب العاوي الذي يعوي في وجه الرجل وهو مقع على ذنبه ثم يرتفع ثم يخفض ثلاثا، والظبي الساخ عن يمين إلى شمال، والبومة الصارخة، والمرأة الشمطاء تلقى فرجها، والأتان العضبان يعني الجدعاء، فمن أوجس في نفسه منهن شيئا فليقل: اعتصمت بك يا رب من شر ما أجد في نفسي فيعصم من ذلك.**^١

^١ الخبر على ما في البحار المذكور في الكافي والخصال والحاسن والفقهاء وما في المتن مطابق لبعض نسخ الفقيه.

و يلحق بهذا البحث الكلامي في نحوسة سائر الأمور المعدودة عند العامة مشئومة نحسة كالعطاس مرة واحدة عند العزم على أمر وغير ذلك وقد وردت في النهي عن التطير بها والتوكل عند ذلك روايات في أبواب متفرقة،

وفي النبوي المروي من طرق الفريقين: **لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا شؤم، ولا صفر، ولا رضاع بعد فصال، ولا تعرب بعد هجرة، ولا صمت يوماً إلى الليل، ولا طلاق قبل نكاح، ولا عتق قبل ملك، ولا يتم بعد إدراك.**

[بيان]

قوله تعالى: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ}** النذر إما مصدر كما قيل والمعنى: كذبت ثمود بإنذار نبيهم صالح (عليه السلام)، وإما جمع نذير بمعنى المنذر، والمعنى: كذبت ثمود بالأنبياء لأن تكذيبهم بالواحد منهم تكذيب منهم بالجميع لأن رسالتهم واحدة لا اختلاف فيها فيكون في معنى قوله: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ}** الشعراء: ١٤١، وإما جمع نذير بمعنى الإنذار ومرجعه إلى أحد المعنيين السابقين.

قوله تعالى: **{فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ}** تفريع على التكذيب والسعر جمع سعير بمعنى النار المشتعلة، واحتمل أن يكون بمعنى الجنون وهو أنسب للسياق، والظاهر أن المراد بالواحد الواحد العددي، والمعنى: كذبوا به فقالوا: أ بشرا من نوعنا وهو شخص واحد لا عدة له ولا جموع معه نتبعه إنا إذا مستقرون في ضلال عجيب و جنون.

فيكون هذا القول توجيهاً منهم لعدم اتباعهم لصالح لفقده العدة والقوة وهم قد اعتادوا على اتباع من عنده ذلك كالمملوك والعظماء وقد كان صالح (عليه السلام) يدعوهم إلى طاعة نفسه ورفض طاعة عظمائهم كما يحكيه الله سبحانه عنه بقوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُرْسَلِينَ}** الشعراء: ١٥١.

^١ العدوى مصدر كالأعداء بمعنى تجاوز مرض المريض منه إلى غيره كما يقال في الجرب والوباء والجذري وغيرها، والمراد بنفي العدوى كما يفيد مورد الرواية أن يكون العدوى مقتضى المرض من غير انتساب إلى مشية الله تعالى، والهامة ما كان أهل الجاهلية يزعمون أن روح القاتل تصير طائراً يأوي إلى قبره ويصيح ويشكي العطش حتى يؤخذ بآره، والصفر هو التصغير عند سقاية الحيوان وغيره.

ولو أخذ الواحد واحدا نوعيا كان المعنى: أ بشرا هو واحد منا أي هو مثلنا و من نوعنا تتبعه؟ و كانت الآية التالية مفسرة لها.

قوله تعالى: **{أَأُنْفِي الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ}** الاستفهام كسابقه للإنكار و المعنى: أ أنزل الوحي عليه و اختص به من بيننا و لا فضل له علينا؟ لا يكون ذلك أبدا، و التعبير بالإلقاء دون الإنزال و نحوه للإشعار بالعجلة كما قيل.

و من المحتمل أن يكون المراد نفي أن يختص بإلقاء الذكر من بينهم و هو بشر مثلهم فلو كان الوحي حقا و جاز أن ينزل على البشر لنزل على البشر كلهم فما باله اختص بما من شأنه أن يرزقه الجميع؟ فتكون الآية في معنى قولهم له كما في سورة الشعراء: **{مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}** الشعراء: ١٥٤.

و قوله: **{بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ}** أي شديد البطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بهذا الطريق.

قوله تعالى: **{سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ}** حكاية قوله سبحانه لصالح (عليه السلام) كالأيتين بعدها. و المراد بالغد العاقبة من قولهم: إن مع اليوم غدا، يشير سبحانه به إلى ما سينزل عليهم من العذاب فيعلمون عند ذلك علم عيان من هو الكذاب الأشر صالح أو هم؟.

قوله تعالى: **{إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ}** في مقام التعليل لما أخبر من أنهم سينزل عليهم العذاب و المفاد أنهم سينزل عليهم العذاب لأننا فاعلون كذا و كذا، و الفتنه الامتحان و الابتلاء، و المعنى: أنا مرسلون على طريق الإعجاز الناقة التي يسألونها امتحانا لهم فانتظرهم و اصبر على أذاهم.

قوله تعالى: **{وَوَيْبُهُمْ أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شَرِبَ مِحْتَضِرٌ}** ضمير الجمع الأول للقوم و الثاني للقوم و الناقة على سبيل التغليب، و القسمة بمعنى المقسوم، و الشرب النصيب من شرب الماء، و المعنى: و خبرهم بعد إرسال الناقة أن الماء مقسوم بين القوم و بين الناقة كل نصيب من الشرب يحضر عنده صاحبه فيحضر القوم عند شربهم و الناقة عند شربها قال تعالى: **{قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ}** الشعراء: ١٥٥.

قوله تعالى: **{فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}** المراد بصاحبهم عاقر الناقة، و التعاطى تناول و المعنى: فنادى القوم عاقر الناقة لعقرها فتناول عقرها فعقرها و قتلها.

قوله تعالى: **{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذْرِي إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ}** المحتظر صاحب الحظيرة وهي كالحائط يعمل ليجعل فيه الماشية، وهشيم المحتظر الشجر اليابس ونحوه يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا}** إلخ تقدم تفسيره.

قوله تعالى: **{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ}** تقدم تفسيره في نظيره.

قوله تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ}** الحاصب الريح التي تأتي بالحجارة و الحصباء، والمراد بها الريح التي أرسلت فرمتهم بسجيل منضود.

وقال في مجمع البيان: سحر إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يقال: رأيت زيدا سحرا من الأسحار فإذا أردت سحر يومك قلت: أتيت به بسحر بالفتح وأتيت به سحر - من غير تنوين - انتهى، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ}** {نِعْمَةً} مفعول له من {نَجَّيْنَاهُمْ} أي نجيناهم ليكون نعمة من عندنا نخصهم بها لأنهم كانوا شاكرين لنا و جزاء الشكر لنا النجاة.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ}** ضمير الفاعل في **{أَنْذَرَهُمْ}** للوط (عليه السلام)، و البطشة الأخذة الشديدة بالعذاب، و التماري الإصرار على الجدال وإلقاء الشك، و النذر الإنذار، والمعنى: أقسم لقد خوفهم لوط أخذنا الشديد فجادلوا في إنذاره و تخوفه.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذْرِي}** مرادته عن ضيفه طلبهم منه أن يسلم إليهم أضيافه و هم الملائكة، و طمس أعينهم محوها، و قوله: **{فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذْرِي}** التفتات إلى خطابهم تشديدا و تقريعا، و النذر مصدر أريد به ما يتعلق به الإنذار و هو العذاب، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ}** قال في مجمع البيان: وقوله: **{بُكْرَةً}** ظرف زمان فإذا كان معرفة بأن تريد بكرة يومك تقول: أتيت بكرة و غدوة لم تصرفهما فبكرة هنا - و قد نون - نكرة، والمراد باستقرار العذاب حلولة بهم و عدم تخلفه عنهم.

قوله تعالى: **{ فَذُوقُوا عَذَابِي }** إلى قوله **{ مِنْ مَّدَكِرٍ }** تقدم تفسيره.

قوله تعالى: **{ وَ لَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ }** المراد بالندر الإنذار، وقوله: **{ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا }** مفصول من غير عطف لكونه جوابا لسؤال مقدر كأنه لما قيل: **{ وَ لَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ }** قيل: فما فعلوا؟ فأجيب بقوله: **{ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا }**، و فرع عليه قوله: **{ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ }**.

(بحث روائي)

في روح المعاني في قوله تعالى: **{ وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ }** أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: لو لا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى:

قال: وأخرج الديلمي مرفوعا عن أنس مثله. ثم قال: ولعل خبر أنس إن صح ليس تفسيراً للآية.

أقول: وليس من البعيد أن يكون المراد المعنى الثاني الذي قدمناه في تفسير الآية.

و في تفسير القمي في قوله: **{ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ }** قال: صب بلا قطر **{ وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ }** قال: ماء السماء و ماء الأرض **{ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَ حَمَلْنَاهُ }** يعني نوحا **{ عَلَى ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَ دُسْرِ }** قال: الألواح السفينة و الدر المسامير.

و فيه في قوله تعالى: **{ فَتَنَادُوا صَاحِبَهُمْ }** قال: قدار الذي عقر الناقة، وقوله: **{ كَهَشِيمٍ }** قال: الحشيش و النبات.

و في الكافي، بإسناده عن أبي يزيد عن أبي عبد الله (عليه السلام): في حديث يذكر فيه قصة قوم لوط قال: فكلروه يعني لوطا حتى دخلوا البيت فصاح به جبرئيل فقال: يا لوط دعهم فلما دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم و هو قول الله عز و جل: **{ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ }**.

[سورة القمر (٥٤): الآيات ٤٣ الى ٥٥]

{ أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ٤٣ } أم

يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

(بيان)

الآيات في معنى أخذ النتيجة مما أعيد ذكره من الأنباء التي فيها مزدجر و هي نبأ الساعة المذكور أولا ثم أنباء الأمم الهالكة المذكورة ثانيا فهي تعطف أولا على أنباء الأمم الهالكة فتخاطب قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن كفاركم ليسوا خيرا من أولئك الأمم الطاغية الجبارة و قد أهلكهم الله على أذل وجه و أهونه و لا لكم براءة مكتوبة من عذاب الله، و لا أن جمعكم ينفعكم في الذب عن العقاب. ثم تعطف إلى ما مر من نبأ الساعة بأنها موعدهم الصعب أن أجرموا و كذبوا و الساعة أدهى و أمر، ثم تشير إلى موطن المتقين يومئذ و عند ذلك تختتم السورة.

قوله تعالى: **{أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ}** الظاهر أنه خطاب لقوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مسلم و كافر على ما تشعر به الإضافة في **{كُفَّارُكُمْ}** و الخيرية هي الخيرية في زينة الدنيا و زخارف حياتها كالمال و البنين أو من جهة الأخلاق العامة في مجتمعهم كالسخاء

و الشجاعة و الشفقة على الضعفاء، و الإشارة بأولئكم إلى الأقسام المذكورة أنباؤهم: قوم نوح و عاد و ثمود و قوم لوط و آل فرعون، و الاستفهام للإنكار.

و المعنى: ليس الذين كفروا منكم خيرا من أولئكم الأمم المهلكين المعذبين حتى يشملهم العذاب دونكم. و يمكن أن يكون خطاب **{أَكْفَارُكُمْ}** لخصوص الكفار بعناية أنهم قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و فيهم كفار و هم هم.

و قوله: **{أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ}** ظاهره أيضا عموم الخطاب، و الزبر جمع زبور و هو الكتاب، و قد ذكروا أن المراد بالزبر الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء، و المعنى: بل أ لكم براءة في الكتب السماوية التي نزلت من عند الله أنكم في أمن من العذاب و المؤاخذة و إن كفرتم و أجرتم و اقترفتما ما شئتم من الذنوب.

قوله تعالى: **{أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ}** الجميع المجموع و المراد به وحدة مجتمعهم من حيث الإرادة و العمل، و الانتصار الانتقام أو التناصر كما في خطابات يوم القيامة: **{مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ}** الصافات: ٢٥، و المعنى: بل أ يقولون أي الكفار نحن قوم مجتمعون متحدون ننتقم ممن أرادنا بسوء أو ينصر بعضنا بعضا فلا نهزم.

قوله تعالى: **{سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ}** اللام في **{الْجَمْعُ}** للعهد الذكري و في **{الدُّبُرُ}** للجنس، و تولى الدبر الإدبار، و المعنى: سيهزم الجمع الذي يتبجحون به و يولون الأدبار و يفرون.

و في الآية إخبار عن مغلوبية و انهزام لجمعهم، و دلالة على أن هذه المغلوبية انهزام منهم في حرب سيقدمون عليها، و قد وقع ذلك في غزاة بدر، و هذا من ملاحم القرآن الكريم.

قوله تعالى: **{بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهَى وَ أَمْرٌ}** اسم تفضيل من الدهاء و هو عظم البلية المنكرة التي ليس إلى التخلص منها سبيل، و **{أَمْرٌ}** اسم تفضيل من المرارة ضد الحلاوة، و في الآية إضراب عن إيعادهم بالانهزام و العذاب الدنيوي إلى إيعادهم بما سيجري عليهم في الساعة و قد أشير إلى نبئها في أول الأنباء الزاجرة، و الكلام يفيد الترتي.

و المعنى: و ليس الانهزام و العذاب الدنيوي مقام عقوبتهم بل الساعة التي أشرنا إلى نبئها هي موعدهم و الساعة أدهى من كل داهية و أمر من كل مر.

قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ}** جمع سعير وهي النار المسعرة وفي الآية تعليل لما قبلها من قوله: **{وَالسَّاعَةُ أَذْهَىٰ وَأَمْرٌ}**، والمعنى: إنما كانت الساعة أدهى وأمر لهم لأنهم مجرمون والمجرمون في ضلال عن موطن السعادة وهو الجنة ويران مسعرة.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}** السحب جر الإنسان على وجهه، و **{يَوْمَ}** ظرف لقوله: **{فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ}**، و **{سَقَرَ}** من أسماء جهنم و مسها هو إصابتها لهم بحرهما وعذابها. والمعنى: كونهم في ضلال وسعر في يوم يجرون في النار على وجوههم يقال لهم: ذوقوا ما تصيبكم جهنم بحرهما وعذابها.

قوله تعالى: **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}** **{كُلُّ شَيْءٍ}** منصوب بفعل مقدر يدل عليه **{خَلَقْنَاهُ}** والتقدير خلقنا كل شيء خلقناه، و **{بِقَدَرٍ}** متعلق بقوله: **{خَلَقْنَاهُ}** والباء للمصاحبة، والمعنى: أنا خلقنا كل شيء مصاحبا لقدر.

وقدر الشيء هو المقدار الذي لا يتعداه والحد والهندسة التي لا يتجاوزها في شيء من جانبي الزيادة والنقصان، قال تعالى: **{وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}** الحجر: ٢١، فكل شيء حد محدود في خلقه لا يتعداه وصراط ممدود في وجوده يسلكه ولا يتخطاه.

والآية في مقام التعليل لما في الآيتين السابقتين من عذاب المجرمين يوم القيامة كأنه قيل: لما ذا جوزي المجرمون بالضلال والسعير يوم القيامة وأذيقوا مس سقر؟ فأجيب بقوله: **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}** ومحصله أن لكل شيء قدرا ومن القدر في الإنسان أن الله سبحانه خلقه نوعا متكاثرا للأفراد بالتناسل اجتماعيا في حياته الدنيا يتزود من حياته الدنيا الدائرة لحياته الآخرة الباقية، وقد أن يرسل إليهم رسولا يدعوهم إلى سعادة الدنيا والآخرة فمن استجاب الدعوة فاز بالسعادة ودخل الجنة وجاور ربه، ومن ردها وأجرم فهو في ضلال وسعر.

ومن الخطأ أن يقال: إن الجواب عن السؤال بهذا النحو من المصادر الممنوعة في الاحتجاج فإن السؤال عن مجازاته تعالى إياهم بالنار لإجرامهم في معنى السؤال عن تقديره ذلك، فعنى السؤال: لم قدر الله للمجرمين المجازاة بالنار؟ ومعنى الجواب: أن الله قدر للمجرمين المجازاة بالنار، أو معنى السؤال: لم يدخلهم الله النار؟ ومعنى الجواب: أن

و الإنسان إلى الرزق المسئول بلسان حاجتها بأنه سميع عليم أي أنه خلق كل شيء و الحال أن مسائلهم مسموعة له و أحوالهم معلومة عنده و هما صفتا فعله العام، و قوله: **{فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** البقرة: ٣٧، يعلل توبته على آدم بأنه تواب رحيم أي صفة فعله هي التوبة و الرحمة.

الثالث: تعليل فعله الخاص بفعله العام و مرجعه في الحقيقة إلى الوجه الثاني كقوله: **{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ}** - إلى أن قال - **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}** فإن القدر و هو كون الشيء محدودا لا يتخطى حده في مسير وجوده فعل عام له تعالى لا يخلو عنه شيء من الخلق فتعليل العذاب بالقدر من تعليل فعله الخاص بفعله العام و بيان أنه مصداق من مصاديق القدر إذ كان من المقدر في الإنسان أن لو أجرم برد دعوة النبوة عذب و دخل النار يوم القيامة، و كقوله: **{وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}** مريم: ٧١، يعلل الورود بالقضاء و هو فعل له عام و الورود خاص بالنسبة إليه.

فتبين أن ما في كلامه من تعليل فعل من أفعاله إنما هو من تعليل الفعل الخاص بصفته العامة و العلة علة للإثبات لا للثبوت، و ليس من المصادرة في شيء.

قوله تعالى: **{وَ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}** قال في الجمع: اللمح النظر بالعجلة و هو خطف البصر. انتهى.

و المراد بالأمر ما يقابل النهي لكنه الأمر التكويني بإرادة وجود الشيء، قال تعالى: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** يس: ٨٢ فهو كلمة كن و لعله لكونه كلمة اعتبر الخبر مؤنثا فقيلا: **{إِلَّا وَاحِدَةٌ}**. و الذي يفيد السياق أن المراد بكون الأمر واحدة أنه لا يحتاج في مضيه و تحقق متعلقه إلى تعدد و تكرار بل أمر واحد بإلقاء كلمة كن يتحقق به المتعلق المراد كلمح بالبصر من غير تأن و مهل حتى يحتاج إلى الأمر ثانيا و ثالثا.

و تشبيه الأمر من حيث تحقق متعلقه بلح بالبصر لا لإفادة أن زمان تأثيره قصير كزمان تحقق اللمح بالبصر بل لإفادة أنه لا يحتاج في تأثيره إلى مضي زمان و لو كان قصيرا فإن التشبيه باللح بالبصر في الكلام يكتفى به عن ذلك، فأمره تعالى و هو إيجاد و إرادة وجوده لا يحتاج في تحققه إلى زمان و لا مكان و لا حركة كيف لا؟ و نفس الزمان و المكان و الحركة إنما تحققت بأمره تعالى.

و الآية و إن كانت بحسب مؤداها في نفسها تعطي حقيقة عامة في خلق الأشياء و أن وجودها من حيث إنه فعل الله سبحانه كلمح بالبصر و إن كان من حيث إنه وجود لشيء كذا تدريجيا حاصلًا شيئًا فشيئًا. إلا أنها بحسب وقوعها في سياق إبعاد الكفار بعذاب يوم القيامة ناظرة إلى إتيان الساعة و أن أمرًا واحدًا منه تعالى يكفي في قيام الساعة و تجديد الخلق بالبعث و النشور فتكون متممة لما أقيم من الحجّة بقوله: **{إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}**.

فيكون مفاد الآية الأولى أن عذابهم بالنار على وفق الحكمة و لا محيص عنه بحسب الإرادة الإلهية لأنه من القدر، و مفاد هذه الآية أن تحقق الساعة التي يعذبون فيها بمضي هذه الإرادة و تحقق متعلقها لا مؤونة فيه عليه سبحانه لأنه يكفي فيه أمر واحد منه تعالى كلمح بالبصر.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ}** الأشياع جمع شيعة و المراد - كما قيل - الأشباه و الأمثال في الكفر و تكذيب الأنبياء من الأمم الماضية.

و المراد بالآية و الآيتين بعدها تأكيد الحجّة السابقة التي أقيمت على شمول العذاب لهم لا محالة.

و محصل المعنى: أن ليس ما أنذرناكم به من عذاب الدنيا و عذاب الساعة مجرد خبر أخبرناكم به و لا قول ألقيناه إليكم فهذه أشياعكم من الأمم الماضية شرع فيهم بذلك فقد أهلكناهم و هو عذابهم في الدنيا و سيلقون عذاب الآخرة فإن أعمالهم مكتوبة مضبوطة في كتب محفوظة عندنا سنحاسبهم بها و نجازيهم بما عملوا.

قوله تعالى: **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ}** الزبر كتب الأعمال و تفسيره باللوح المحفوظ سخيف، و المراد بالصغير و الكبير صغير الأعمال و كبيرها على ما يفيد السياق.

قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهْرٍ}** أي في جنات عظيمة الشأن بالغة الوصف و نهر كذلك، قيل: المراد بالنهر الجنس، و قيل: النهر بمعنى السعة.

قوله تعالى: **{فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}** المقعد المجلس، المليك صيغة مبالغة للملك على ما قيل، و ليس من إشباع كسر لام الملك، و المقتدر القادر العظيم القدرة و هو الله سبحانه.

و المراد بالصدق صدق المتقين في إيمانهم و عملهم أضيف إليه المقعد للملابسة ما و يمكن أن يراد به كون مقامهم و ما لهم فيه صدقا لا يشوبه كذب فلهم حضور لا غيبة معه، و قرب لا بعد معه، و نعمة لا نقمة معها، و سرور لا غم معه، و بقاء لا فناء معه.

و يمكن أن يراد به صدق هذا الخبر من حيث إنه تبشير و وعد جميل للمتقين، و على هذا ففيه نوع مقابلة بين وصف عاقبة المتقين و المجرمين حيث أوعد المجرمون بالعذاب و الضلال و قرر ذلك بأنه من القدر و لن يتخلف، و وعد المتقون بالثواب و الحضور عند ربهم المليك المقتدر و قرر ذلك بأنه صدق لا كذب فيه.

(بحث روائي)

في كمال الدين، بإسناده إلى علي بن سالم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **سألته عن الرقي أ تدفع من القدر شيئا؟ فقال: هي من القدر.**

و قال: **إن القدرية مجوس هذه الأمة و هم الذين أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه و فيهم نزلت هذه الآية: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}.**

أقول: المراد بالقدرية النافون للقدر و هم المعتزلة القائلون بالتفويض، و قوله: إنهم مجوس هذه الأمة ذلك لقولهم: إن خالق الأفعال الاختيارية هو الإنسان و الله خالق لما وراء ذلك فأثبتوا إلهين اثنين كما أثبتت المجوس إلهين اثنين: خالق الخير و خالق الشر.

و قوله: أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه، و ذلك أنهم قالوا بخلق الإنسان لأفعاله فرارا عن القول بالجبر المنافي للعدل فأخرجوا الله من سلطانه على أعمال عباده بقطع نسبتها عنه تعالى.

و قوله: و فيهم نزلت هذه الآية، إنح، المراد به جري الآيات فيهم دون كونهم سببا للنزول و موردا له لما عرفت في تفسير الآيات من كونها عامة بحسب السياق، و في نزول الآيات فيهم روايات أخرى مروية عن أبي جعفر و أبي عبد الله (عليهما السلام)، و من طرق أهل السنة أيضا روايات في هذا المعنى عن ابن عباس و ابن عمر و محمد بن كعب و غيرهم.

و في الدر المنثور، أخرج أحمد عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **إن لكل أمة مجوسا و إن مجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر.** (الخبر).

أقول: ورواه في ثواب الأعمال، بإسناده عن الصادق عن آبائه عن علي (عليه السلام) ولفظه: لكل أمة مجوس و مجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر.

وفيه، أخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):
النهر الفضاء والسعة ليس بنهر جار.

وفيه، أخرج أبو نعيم عن جابر قال: بينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً في مسجد المدينة فذكر بعض أصحابه الجنة فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): يا أبا دجاجة أما علمت أن من أحبنا وابتلي بحببتنا أسكنه الله تعالى معنا؟ ثم تلا **{ فِي مَفْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ }**.

وفي روح المعاني في قوله: **{ فِي مَفْعَدِ صِدْقٍ }** (الآية): وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: **مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق.**

(كلام في القدر)

القدر وهو هندسة الشيء و حد وجوده مما تكرر ذكره في كلامه تعالى فيما تكلم فيه في أمر الحلقة، قال تعالى: **{ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ }** الحجر: ٢١، و ظاهره أن القدر ملازم للإنزال من الخزائن الموجودة عنده تعالى، وأما نفس الخزائن وهي من إبداعه تعالى لا محالة فهي غير مقدره بهذا القدر الذي يلزم الإنزال و الإنزال إصداره إلى هذا العالم المشهود كما يفيد قوله: **{ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ }** الحديد: ٢٥، و قوله: **{ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ }** الزمر: ٦.

و يؤيد ذلك ما ورد من تفسير القدر بمثل العرض و الطول و سائر الحدود و الخصوصيات الطبيعية الجسمانية كما في المحاسن، عن أبيه عن يونس عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: **لا يكون إلا ما شاء الله و أراد و قدر و قضى.** قلت: فما معنى شاء؟ قال: **ابتدأ الفعل.** قلت: فما معنى أراد؟ قال: **الثبوت عليه.** قلت: فما معنى قدر؟ قال: **تقدير الشيء من طوله و عرضه.** قلت: فما معنى قضى؟ قال: **إذا قضى أمضاه فذلك الذي لا مرد له.**

و روي هذا المعنى عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد بن إسحاق عن الرضا (عليه السلام) في خبر مفصل و فيه: **فقال: أ و تدري ما قدر؟ قال: لا، قال: هو الهندسة من الطول و العرض و البقاء.** (الخبر).

و من هنا يظهر أن المراد بكل شيء في قوله: **{وَحَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا}** الفرقان: ٣، وقوله: **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}** القمر: ٤٩، وقوله: **{وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}** الرعد: ٨، وقوله: **{الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** طه: ٥٠، الأشياء الواقعة في عالمنا المشهود، من الطبيعيات الواقعة تحت الخلق والتركيب، أو أن للتقدير مرتبتين: مرتبة تعم جميع ما سوى الله وهي تحديد أصل الوجود بالإمكان والحاجة وهذا يعم جميع الموجودات ما خلا الله سبحانه، قال تعالى: **{وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا}** النساء: ١٢٦.

و مرتبة تخص عالمنا المشهود وهي تحديد وجود الأشياء الموجودة فيه من حيث وجودها و آثار وجودها و خصوصيات كونها بما أنها متعلقة الوجود و الآثار بأمر خارجة من العلة و الشرائط فيختلف وجودها و أحوالها باختلاف عللها و شرائطها فهي مقلوبة بقوالب من داخل و خارج تعين لها من العرض و الطول و الشكل و الهيئة و سائر الأحوال و الأفعال ما يناسبها.

فالتقدير يهدي هذا النوع من الموجودات إلى ما قدر لها في مسير وجودها، قال تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}** الأعلى: ٣، أي هدى ما خلقه إلى ما قدر له، ثم أتم ذلك بإمضاء القضاء، و في معناه قوله في الإنسان: **{مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ أَسْبَغَ فِي سِرِّهِ}** عبس: ٢٠، و يشير بقوله: **{ثُمَّ أَسْبَغَ فِي سِرِّهِ}** إلى أن التقدير لا ينافي اختيارية أفعاله الاختيارية.

و هذا النوع من القدر في نفسه غير القضاء الذي هو الحكم البتي منه تعالى بوجوده **{وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَأَ مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ}** الرعد: ٤١، فربما قدر و لم يعقبه القضاء كالقدر الذي يقتضيه بعض العلة و الشرائط الخارجة ثم يبطل لمانع أو باستخلاف سبب آخر، قال تعالى: **{يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ}** الرعد: ٣٩، و قال: **{مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا}** البقرة: ١٠٦، و ربما قدر و تبعه القضاء كما إذا قدر من جميع الجهات باجتماع جميع علله و شرائطه و ارتفاع موانعه.

و إلى ذلك يشير قوله (عليه السلام) في خبر المحاسن السابق: **إذا قضى أمضاه فذلك الذي لا مرد له، و قريب منه ما في عدة من أخبار القضاء و القدر ما معناه أن القدر يمكن أن يتخلف و أما القضاء فلا يرد.**

و عن علي (عليه السلام) بطرق مختلفة كما في التوحيد، بإسناده عن ابن نباتة: أن أمير المؤمنين (عليه السلام) عدل من عند حائط مائل إلى حائط آخر فقبل له: يا أمير المؤمنين تفر من قضاء الله؟ قال: أفر من قضاء الله إلى قدر الله عز وجل.

و أما النوع الأول من الموجودات الذي قدره حد وجوده من إمكانه و حاجته فحسب فالقدر و القضاء فيه واحد و لا يتخلف القدر فيه عن التحقق البتة.

و البحث العقلي يؤيد ما تقدم فإن الأمور التي لها علل مركبة من فاعل و مادة و شرائط و معدات و موانع فإن لكل منها تأثيراً في الشيء بما يساخره فهو كالعقاب الذي يقرب به الشيء فيأخذ لنفسه هيئة قالبية و خصوصيته و هذا هو قدره ثم العلة التامة إذا اجتمعت أجزاءه أعطته ضرورة الوجود، و هذه هي القضاء الذي لا مرد له، و قد تقدم في تفسير أول سورة الإسراء كلام في القضاء لا يخلو من نفع في هذا البحث، فليرجع إليه.

(٥٥) (سورة الرحمن مكية أو مدنية و هي ثمان و سبعون آية) (٧٨)

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ١ الى ٣٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي
الْمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ
وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ١٢ وَالرَّيْحَانُ ١٣ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ١٤ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ١٥ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ١٦ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ
 يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْثُ وَالْمَرْجَانُ
 ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا
 تُكذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلٌّ مَنْ عَلَيَّهَا فَاِنِ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا
 تُكذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ
 ﴿٣٠﴾

(بيان)

تتضمن السورة الإشارة إلى خلقه تعالى العالم بأجزائه من سماء و أرض و بر و بحر و إنس و
 جن و نظم أجزائه نظماً ينتفع به الثقلان الإنس و الجن في حياتهما و ينقسم بذلك العالم إلى نشأتين:
 نشأة دنيا ستفنى بفناء أهلها، و نشأة أخرى باقية تتميز فيها السعادة من الشقاء و النعمة من النعمة.
 و بذلك يظهر أن دار الوجود من دنياها و آخرتها ذات نظام واحد مؤتلف الأجزاء مرتبط
 الأبعاد قويم الأركان يصلح بعضه ببعض و يتم شطر منه بشطر.
 فما فيه من عين و أثر، من نعمه تعالى و آلائه، و لذا يستفهمهم مرة بعد مرة استفهاماً مشوباً
 بعتاب بقوله: **{فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ}** فقد كررت الآية في السورة إحدى و ثلاثين مرة.

و لذلك افتتحت السورة بذكره تعالى بصفة رحمته العامة الشاملة للمؤمن و الكافر و الدنيا و الآخرة و اختتمت بالثناء عليه بقوله: **{تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}**.

و السورة يحتمل كونها مكية أو مدنية و إن كان سياقها بالسياق المكي أشبه و هي السورة الوحيدة في القرآن افتتحت بعد البسمة باسم من أسماء الله عز اسمه،

و في المجمع، عن موسى بن جعفر عن آبائه (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قال: **لكل شيء عروس و عروس القرآن سورة الرحمن جل ذكره**، و رواه في الدر المنثور، عن البيهقي عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم).

قوله تعالى: **{الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ}** الرحمن كما تقدم في تفسير سورة الفاتحة صيغة مبالغة تدل على كثرة الرحمة ببذل النعم و لذلك ناسب أن يعم ما يناله المؤمن و الكافر من نعم الدنيا و ما يناله المؤمن من نعم الآخرة، و لعمومه ناسب أن يصدر به الكلام لاشتمال الكلام في السورة على أنواع النعم الدنيوية و الآخروية التي ينتظم بها عالم الثقلين الإنس و الجن.

ذكروا أن الرحمن من الأسماء الخاصة به تعالى لا يسمى به غيره بخلاف مثل الرحيم و الراحم.

و قوله: **{عَلَّمَ الْقُرْآنَ}** شروع في عد النعم الإلهية، و لما كان القرآن أعظم النعم قدرا و شأننا و أرفعها مكانا - لأنه كلام الله الذي يخطط صراطه المستقيم و يتضمن بيان نهج السعادة التي هي غاية ما يأمله أمل و نهاية ما يسأله سائل - قدم ذكر تعليمه على سائر النعم حتى على خلق الإنس و الجن اللذين نزل القرآن لأجل تعليمهما.

و حذف مفعول **{عَلَّمَ}** الأول و هو الإنسان أو الإنس و الجن و التقدير علم الإنسان القرآن أو علم الإنس و الجن القرآن، و هذا الاحتمال الثاني و إن لم يتعرضوا له لكنه أقرب الاحتمالين لأن السورة تخاطب في تضاعيف آياتها الجن كالإنس و لو لا شمول التعليم في قوله: **{عَلَّمَ الْقُرْآنَ}** لهم لم يتم ذلك.

و قيل: المفعول المحذوف محمد (صلى الله عليه وآله و سلم) أو جبرئيل و الأنسب للسياق ما تقدم.

قوله تعالى: **{خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}** ذكر خلق الإنسان و سيذكر خصوصية خلقه بقوله: **{خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}**، و الإنسان من أعجب مخلوقات الله تعالى أو هو أعجبها يظهر ذلك بقياس وجوده إلى وجود غيره من المخلوقات و التأمل فيما

خط له من طريق الكمال في ظاهره و باطنه و دنياه و آخرته، قال تعالى: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** التين: ٦.

وقوله: **{عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}** البيان الكشف عن الشيء و المراد به الكلام الكاشف عما في الضمير، و هو من أعجب النعم و تعليمه للإنسان من عظيم العناية الإلهية المتعلقة به فليس الكلام مجرد إيجاد صوت ما باستخدام الرئة و قصبته و الحلقوم و لا ما يحصل من التنوع في الصوت الخارج من الحلقوم باعتماده على مخارج الحروف المختلفة في الفم.

بل يجعل الإنسان بإلهام باطني من الله سبحانه الواحد من هذه الأصوات المعتمدة على مخرج من مخارج الفم المسمى حرفاً أو المركب من عدة من الحروف علامة مشيرة إلى مفهوم من المفاهيم يمثل به ما يغيب عن حس السامع و إدراكه فيقدر به على إحضار أي وضع من أوضاع العالم المشهود و إن جل ما جل أو دق ما دق من موجود أو معدوم ماض أو مستقبل، ثم على إحضار أي وضع من أوضاع المعاني غير المحسوسة التي ينالها الإنسان بفكره و لا سبيل للحس إليها يحضرها جميعاً لسامعه و يمثلها لحسه كأنه يشخصها له بأعيانها.

و لا يتم للإنسان اجتماعه المدني و لا تقدم في حياته هذا التقدم الباهر إلا بتنبه لوضع الكلام و فتحه بذلك باب التفهيم و التفهم، و لو لا ذلك لكان هو و الحيوان العجم سواء في جمود الحياة و ركودها.

و من أقوى الدليل على أن اهتداء الإنسان إلى البيان بإلهام إلهي له أصل في التكوين اختلاف اللغات باختلاف الأمم و الطوائف في الخصائص الروحية و الأخلاق النفسانية و بحسب اختلاف المناطق الطبيعية التي يعيشون فيها، قال تعالى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِذَافَ الْأَسْنَتِكُمْ وَاللُّوَانِكُمْ}** الروم: ٢٢.

و ليس المراد بقوله: **{عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}** أن الله سبحانه وضع اللغات ثم علمها الإنسان بالوحي إلى نبي من الأنبياء أو بالإلهام فإن الإنسان بوقوعه في ظرف الاجتماع مندفع بالطبع إلى اعتبار التفهيم و التفهم بالإشارات و الأصوات و هو التكلم و النطق لا يتم له الاجتماع المدني دون ذلك.

على أن فعله تعالى هو التكوين و الإيجاد و الرابطة بين اللفظ و معناه اللغوي و ضعية اعتبارية لا حقيقية خارجية بل الله سبحانه خلق الإنسان و فطره فطرة تؤديه إلى الاجتماع المدني ثم إلى وضع اللغة بجعل اللفظ علامة للمعنى بحيث إذا ألقى اللفظ إلى سامعه فكأنما

يلقى إليه المعنى ثم إلى وضع الخط يجعل الأشكال المخصوصة علائم للألفاظ فالخط مكمل لغرض الكلام، و هو يمثل الكلام كما أن الكلام يمثل المعنى.

و بالجملة البيان من أعظم النعم والآلاء الربانية التي تحفظ لنوع الإنسان موقفه الإنساني و تهديه إلى كل خير. هذا ما هو الظاهر المتبادر من الآيتين، و لهم في معناهما أقوال: فقيل: الإنسان هو آدم (عليه السلام) و البيان الأسماء التي علمه الله إياها، و قيل: الإنسان محمد (صلى الله عليه وآله و سلم) و البيان القرآن أو تعليمه المؤمنين القرآن، و قيل: البيان الخير و الشر علمهما الإنسان، و قيل: سبيل الهدى و سبيل الضلال إلى غير ذلك و هي أقوال بعيدة عن الفهم.

قوله تعالى: **{الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}** الحسبان مصدر بمعنى الحساب، و الشمس مبتدأ و القمر معطوف عليه، و بحسبان خبره، و الجملة خبر بعد خبر لقوله: **{الرَّحْمَنُ}** و التقدير الشمس و القمر يجريان بحساب منه على ما قدر لهما من نوع الجري.

قوله تعالى: **{وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}** قالوا: المراد بالنجم ما ينجم من النبات و يطلع من الأرض و لا ساق له، و الشجر ما له ساق من النبات، و هو معنى حسن يؤيده الجمع و القرن بين النجم و الشجر و إن كان ربما أوهم سبق ذكر الشمس و القمر كون المراد بالنجم هو الكواكب.

و يسجد النجم و الشجر انقيادهما للأمر الإلهي بالنشوء و النمو على حسب ما قدر لهما كما قيل، و أدق منه أنهما يضربان في التراب بأصولهما و أعراقهما لجذب ما يحتاجان إليه من المواد العنصرية التي يغتذيان بها و هذا السقوط على الأرض إظهارا للحاجة إلى المبدأ الذي يقضي حاجتهما و هو في الحقيقة الله الذي يريهما كذلك يسجد منهما له تعالى.

و الكلام في إعراب قوله: **{وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}** و هو معطوف على الآية السابقة كالكلام في قوله: **{الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}** و التقدير و النجم و الشجر يسجدان له.

قال في الكشاف: فإن قلت: كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن يعني قوله: **{الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}** - إلى قوله - **{يَسْجُدَانِ}**؟ قلت: استغني فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسبان و السجود له لا لغيره. و قال في وجه إخلاء الآيات السابقة **{حَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}** عن العاطف ما محصله أن هذه الجمل الأولى واردة على سنن التعديد ليكون كل

واحدة من الجمل مستقلة في تفریع الذين أنكروا الرحمن وآاءه كما بيكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه فيقال: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرک بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه؟.

ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبيكت في وصل ما يجب وصله للتناسب و التقارب بالعاطف فقيل: **{و النَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا}** إلخ، انتهى.

قوله تعالى: **{وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ}** المراد بالسماء إن كان جهة العلو فرفعها خلقها مرفوعة لا رفعها بعد خلقها وإن كان ما في جهة العلو من الأجرام فرفعها تقدير محالها بحيث تكون مرفوعة بالنسبة إلى الأرض بالفتق بعد الرق كما قال تعالى: **{أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}** الأنبياء: ٣٠، و الرفع على أي حال رفع حسي.

وإن كان المراد ما يشمل منازل الملائكة الكرام و مصادر الأمر الإلهي و الوحي فالرفع معنوي أو ما يشمل الحسي و المعنوي.

وقوله: **{وَوَضَعَ الْمِيزَانَ}** المراد بالميزان كل ما يوزن أي يقدر به الشيء أعم من أن يكون عقيدة أو قولاً أو فعلاً و من مصاديقه الميزان الذي يوزن به الأثقال، قال تعالى: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}** الحديد: ٢٥.

فظاهره مطلق ما يميز به الحق من الباطل و الصدق من الكذب و العدل من الظلم و الفضيلة من الرذيلة على ما هو شأن الرسول أن يأتي به من عند ربه.

وقيل: المراد بالميزان العدل أي وضع الله العدل بينكم لتسوا به بين الأشياء بإعطاء كل ذي حق حقه. وقيل: المراد بالميزان الذي يوزن به الأثقال و المعنى الأول أوسع و أشمل.

قوله تعالى: **{أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}** الظاهر أن المراد بالميزان الميزان المعروف و هو ميزان الأثقال، فقوله: **{أَلَّا تَطْغَوْا}** إلخ على تقدير أن يراد بالميزان في الآية السابقة أيضا ميزان الأثقال، و هو بيان وضع الميزان، و المعنى أن معنى وضعنا الميزان بينكم هو أن اعدلوا في وزن الأثقال و لا تطغوا فيه.

و على تقدير أن يراد به مطلق التقدير الحق أو العدل هو استخراج حكم جزئي من حكم كلي، و المعنى أن لازم ما وضعناه من التقدير الحق أو العدل بينكم هو أن تنزوا الأثقال بالقسط و لا تطغوا فيه.

و على أي حال الظاهر أن «إن» في قوله: **{أَلَّا تَطْغَوْا}** تفسيرية، و «لا تطغوا» نهي عن الطغيان في الميزان و **{أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ}** أمر معطوف عليه، و القسط العدل و **{لَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}** نهي آخر مبين لقوله: **{أَلَّا تَطْغَوْا}** إنح، و مؤكده. و الإخسار في الميزان التطفيف به بزيادة أو نقيصة بحيث يخسر البائع أو المشتري.

و أما جعل **{الْمِيزَانَ}** ناصبة و **{أَلَّا تَطْغَوْا}** نفية، و التقدير: لثلا تطغوا، فيحتاج إلى تكلف توجيهه في عطف الإنشاء على الإخبار في قوله: **{وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ}** إنح.

قوله تعالى: **{وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ}** الأنعام الناس، و قيل: الإنس و الجن، و قيل: كل ما يدب على الأرض، و في التعبير في الأرض بالوضع قبال التعبير في السماء بالرفع لطف ظاهر.

قوله تعالى: **{فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ}** المراد بالفاكهة الثمرة غير التمر، و الأكام جمع كم بضم الكاف و كسرهما وعاء التمر و هو الطلع، و أما كم القميص فهو مضموم الكاف لا غير كما قيل.

قوله تعالى: **{وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرِّيحَانُ}** معطوف على قوله: **{فَاكِهَةٌ}** أي و فيها الحب و الريحان، و الحب ما يقات به كالحنطة و الشعير و الأرز، و العصف ما هو كالغلاف للحب و هو قشره، و فسر بورق الزرع مطلقا و بورق الزرع اليابس، و الريحان النبات الطيب الرائحة.

قوله تعالى: **{فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ}** الآلاء جمع إلى بمعنى النعمة.

و الخطاب في الآية لعامة الثقلين: الجن و الإنس و يدل على ذلك توجيه الخطاب إليهما صريحا فيما سيأتي من قوله: **{سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ ثَقَلَانَ}** و قوله: **{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ}** إنح، و قوله: **{يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِلٌ}** إنح، فلا يصغي إلى قول من قال: إن الخطاب في الآية للذكر و الأنثى من بني آدم، و لا إلى قول من قال: إنه من خطاب الواحد بخطاب الاثنين و يفيد تكرار الخطاب نحويا شرطي اضربا عنقه أي اضرب عنقه اضرب عنقه.

و توجيه الخطاب إلى عالمي الجن و الإنس هو المصحح لعد ما سنذكره من شدائد يوم

القيامة و عقوبات المجرمين من أهل النار من آلائه و نعمه تعالى، فإن سوق المسيئين و أهل الشقوة في نظام الكون إلى ما تقتضيه شقوتهم و مجازاتهم بتبعات أعمالهم من لوازم صلاح النظام العام الجاري في الكل الحاكم على الجميع فذلك نعمة بالقياس إلى الكل و إن كان نقمة بالنسبة إلى طائفة خاصة منهم و هم المجرمون و هذا نظير ما نجده في السنن و القوانين الجارية في المجتمعات فإن التشديد على أهل البغي و الفساد مما يتوقف عليه حياة المجتمع و بقاءه و ليس يتنعم به أهل الصلاح خاصة كما أن إثابة أهل الصلاح بالثناء الجميل و الأجر الحسن كذلك.

فما في النار من عذاب و عقاب لأهلها و ما في الجنة من كرامة و ثواب آلاء و نعم على معشر الجن و الإنس كما أن الشمس و القمر و السماء المرفوعة و الأرض الموضوعة و النجم و الشجر و غيرها آلاء و نعم على أهل الدنيا.

و يظهر من الآية أن للجن تنعما في الجملة بهذه النعم المعدودة في خلال الآيات كما للإنس و إلا لم يصح إشراكهم مع الإنس في التوبيخ.

قوله تعالى: **{خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}** الصلصال الطين اليابس الذي يتردد منه الصوت إذا وطأ، و الفخار الخزف.

و المراد بالإنسان نوعه و المراد بخلقه من صلصال كالفخار انتهاء خلقه إليه، و قيل: المراد بالإنسان آدم (عليه السلام).

قوله تعالى: **{وَوَخَّلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ}** المارج هو اللهب الخالص من النار، و قيل: اللهب المختلط بسواد، و الكلام في الجان كاللحام في الإنسان فالمراد به نوع الجن، و عدهم مخلوقين من النار باعتبار انتهاء خلقهم إليها، و قيل: المراد بالجان أبو الجن.

قوله تعالى: **{رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ}** المراد بالمشرقين مشرق الصيف و مشرق الشتاء، و بذلك تحصل الفصول الأربعة و تنتظم الأرزاق، و قيل: المراد بالمشرقين مشرق الشمس و القمر و بالمغربين مغرباهما.

قوله تعالى: **{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ}** المريج الخلط و المريج الإرسال، يقال: مريج أي خلطه و مريج أي أرسله و المعنى الأول أظهر، و الظاهر أن المراد بالبحرين العذب الفرات و الملح الأجاج، قال تعالى: **{وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ مِنْ كُلِّ نَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً**

تَلَبَّسُونَهَا} فاطر: ١٢ .

و أمثل ما قيل في الآيتين أن المراد بالبحرين جنس البحر المالح الذي يغمر قريبا من ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من البحار المحيطة، و غير المحيطة و البحر العذب المدخر في مخازن الأرض التي تنفجر الأرض عنها فتجري العيون و الأنهار الكبيرة فتصب في البحر المالح، و لا يزالان يلتقيان، و بينهما حاجز و هو نفس المخازن الأرضية و المجاري يحجز البحر المالح أن يبغي على البحر العذب فيغشيه و يبده بحرا مالحا و تبطل بذلك الحياة، و يحجز البحر العذب أن يزيد في الانصباب على البحر المالح فيبدله ماء عذبا فتبطل بذلك مصلحة ملوحته من تطهير الهواء و غيره.

و لا يزال البحر المالح يمد البحر العذب بالأمطار التي تأخذها منه السحب فتطر على الأرض و تدخرها المخازن الأرضية و البحر العذب يمد البحر المالح بالانصباب عليه.

فمعنى الآيتين - و الله أعلم - خلط البحرين العذب الفرات و الملح الأجاج حال كونهما مستمرين في تلاقيهما بينهما حاجز لا يطغيان بأن يغمر أحدهما الآخر فيذهب بصفته من العذوبة و الملوحة فيختل نظام الحياة و البقاء.

قوله تعالى: **{يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ}** أي من البحرين العذب و المالح جميعا و ذلك من فوائدهما التي ينتفع بها الإنسان، و قد تقدم فيه الكلام في تفسير قوله تعالى: **{وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ}** (الآية) فاطر: ١٢ .

قوله تعالى: **{وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ}** الجواري جمع جارية و هي السفينة، و المنشآت اسم مفعول من الإنشاء و هو إحداث الشيء و تربيته، و الأعلام جمع علم بفتحتين و هو الجبل.

و عد الجواري مملوكة له تعالى مع كونها من صنع الإنسان لأن الأسباب العاملة في إنشائها من خشب و حديد و سائر أجزائها التي تتركب منها و الإنسان الذي يركبها و شعوره و فكره و إرادته كل ذلك مخلوق له و مملوك فما ينتجه عملها من ملكه.

فهو تعالى المنعم بها للإنسان أهمه طريق صنعها و المنافع المترتبة عليها و سبيل الانتفاع بمنافعها الجملة.

قوله تعالى: **{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَ يَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ}** ضمير **{عَلَيْهَا}** للأرض أي كل ذي شعور و عقل على الأرض سيفنى و فيه تسجيل الزوال و الدثور على الثقلين.

وإنما أتى باللفظ الدال على أولي العقل كل من عليها ولم يقل: كل ما عليها كذلك لأن الكلام مسرود في السورة لتعداد نعمه وآلائه تعالى للثقلين في نشأتهم الدنيا والآخرة.

و ظهور قوله: **{فَإِنْ}** في الاستقبال كما يستفاد أيضا من السياق يعطي أن قوله: **{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}** يشير إلى انقطاع أمد النشأة الدنيا وارتفاع حكمها بفناء من عليها وهم الثقلان و طلوع النشأة الأخرى عليهم، و كلاهما أعني فناء من عليها و طلوع نشأة الجزاء عليهم من النعم والآلاء لأن الحياة الدنيا حياة مقدمة لغرض الآخرة و الانتقال من المقدمة إلى الغرض و الغاية نعمة.

و بذلك يندفع قول من قال: أي نعمة في الفناء حتى يجعل من النعم و يعد من الآلاء.

و محصل الجواب أن حقيقة هذا الفناء الرجوع إلى الله بالانتقال من الدنيا كما تفسره آيات كثيرة في كلامه تعالى و ليس هو الفناء المطلق.

و قوله: **{وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ}** وجه الشيء ما يستقبل به غيره و يقصده به غيره، و هو فيه سبحانه صفاته الكريمة التي تتوسط بينه و بين خلقه فتنزل بها عليهم البركات من خلق و تدبير كالعلم و القدرة و السمع و البصر و الرحمة و المغفرة و الرزق و قد تقدم في تفسير سورة الأعراف كلام مبسوط في كون أسمائه و صفاته تعالى و سائط بينه و بين خلقه.

و قوله: **{ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ}** في الجلال شيء من معنى الاعتلاء و الترفع المعنوي على الغير فيناسب من الصفات ما فيه شائبة الدفع و المنع كالعلو و التعالي و العظمة و الكبرياء و التكبر و الإحاطة و العزة و الغلبة.

و يبقى للإكرام من المعنى ما فيه نعت البهاء و الحسن الذي يجذب الغير و يولفه كالعلم و القدرة و الحياة و الرحمة و الجود و الجمال و الحسن و نحوها و تسمى صفات الجمال كما تسمى القسم الأول صفات الجلال و تسمى الأسماء أيضا على حسب ما فيها من صفات الجمال أو الجلال بأسماء الجمال أو الجلال.

فذو الجلال و الإكرام اسم من الأسماء الحسنى جامع بمفهومه بين أسماء الجمال و أسماء الجلال جميعا.

و المسمى به بالحقيقة هو الذات المقدسة كما في قوله في آخر السورة: **{تَبَارَكَ إِسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَ**

الْإِكْرَامِ} لكن أجرى في هذه الآية **{وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ}**

على الوجه، و هو إما لكونه وصفا مقطوعا عن الوصفية للمدح، و التقدير هو ذو الجلال و الإكرام، و إما لأن المراد بالوجه كما تقدم هو صفته الكريمة و اسمه المقدس و إجراء الاسم على الاسم مآله إلى إجراء الاسم على الذات.

و معنى الآية على تقدير أن يراد بالوجه ما يستقبل به الشيء غيره و هو الاسم و من المعلوم أن بقاء الاسم^١ فرع بقاء المسمى: و يبقى ربك عز اسمه بما له من الجلال و الإكرام من غير أن يؤثر فنائهم فيه أثرا أو يغير منه شيئا.

و على تقدير أن يراد بالوجه ما يقصده به غيره و مصداقه كل ما ينتسب إليه تعالى فيكون مقصودا بنحو للمتوجه إليه كأنبيائه و أوليائه و دينه و ثوابه و قربه و سائر ما هو من هذا القبيل فالمعنى: و يبقى بعد فناء أهل الدنيا ما هو عنده تعالى و هو من صقعه و ناحيته كأنواع الجزاء و الثواب و القرب منه، قال تعالى: **يَنْقُذُ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ** {النحل: ٩٦}.

و قد تقدم في تفسير قوله تعالى: **{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}** القصص: ٨٨ من الكلام بعض ما لا يخلو من نفع في المقام.

قوله تعالى: **{يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}** سؤلهم سؤال حاجة فهم في حاجة من جميع جهاتهم إليه تعالى متعلقو الوجودات به متمسكون بذيل غناه و جوده، قال تعالى: **{أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ}** فاطر: ١٥، و قال في هذا المعنى من السؤال: **{وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ}** إبراهيم: ٣٤.

و قوله: **{كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}** تكبير **{شَأْنٍ}** للدلالة على التفرق و الاختلاف فالمعنى: كل يوم هو تعالى في شأن غير ما في سابقه و لاحقه من الشأن فلا يتكرر فعل من أفعاله مرتين و لا يماثل شأن من شئونه شأنا آخر من جميع الجهات و إنما يفعل على غير مثال سابق و هو الإبداع، قال تعالى: **{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ}** البقرة: ١١٧.

و معنى ظرفية اليوم إحاطته تعالى في مقام الفعل على الأشياء فهو سبحانه في كل زمان و ليس في زمان و في كل مكان و ليس في مكان و مع كل شيء و لا يداني شيئا.

^١ المراد بالاسم ما يحكي عنه الاسم اللفظي دون اللفظ الحاكي.

(بحث روائي)

في الكافي، روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: لما قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الرحمن على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئا، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): الجن كانوا أحسن جوابا منكم لما قرأت عليهم **{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}** قالوا: لا ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب.

أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع و صححه عن ابن عمر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي العيون، بإسناده عن الرضا (عليه السلام): فيما سأل الشامي عليا (عليه السلام) وفيه: **سأله عن اسم أبي الجن فقال: شؤمان وهو الذي خلق من مارج من نار.**

وفي الاحتجاج، عن علي (عليه السلام) في حديث: **و أما قوله: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} فإن مشرق الشتاء على حدة و مشرق الصيف على حدة. أما تعرف ذلك من قرب الشمس و بعدها؟**

أقول: و روى هذا المعنى القمي في تفسيره، مرسلا مضمرا.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ}** قال: علي و فاطمة **{بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ}** قال: النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) **{يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْؤُ وَ الْمَرْجَانُ}** قال: الحسن و الحسين.

أقول: و رواه أيضا عن ابن مردويه عن أنس بن مالك مثله، و رواه في مجمع البيان، عن سلمان الفارسي و سعيد بن جبير و سفيان الثوري. و هو من البطن.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: **{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}** قال من على وجه الأرض **{وَ يَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ}** قال: دين ربك،

و قال علي بن الحسين (عليه السلام): **نحن الوجه الذي يؤتى الله منه.**

وفي مناقب ابن شهر آشوب: قوله: **{وَ يَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ}** قال الصادق (عليه السلام): **نحن وجه الله.**

أقول: وفي معنى هاتين الروايتين غيرهما، و قد تقدم ما يوجه به تفسير الوجه بالدين و بالإمام.

وفي الكافي، في خطبة لعلي (عليه السلام): الحمد لله الذي لا يموت ولا ينقضي عجايبه لأنه كل يوم هو في شأن من إحداث بديع لم يكن.

وفي تفسير القمي في الآية قال: يحيي ويميت ويزيد وينقص.

وفي المجمع، عن أبي الدرداء عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} قال: من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين.

أقول: ورواه عنه في الدر المنثور، وروي ما في معناه عن ابن عمر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ولفظه: يغفر ذنبا ويفرج كربا.

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٣١ الى ٧٨]

{سَنفُرُغْ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَفْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَفْئَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ

مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَمَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ

نَضَّاحَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي

الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِبِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَ عَبْقَرِيِّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ إِسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

(بيان)

هذا هو الفصل الثاني من آيات السورة يصف نشأة الثقلين الثانية و هي نشأة الرجوع إلى الله و جزاء الأعمال و يعد آلاء الله تعالى عليهم كما كانت الآيات السابقة فصلا أولا يصف النشأة الأولى و يعد آلاء الله فيها عليهم.

قوله تعالى: **{سَتَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةُ الثَّقَلَانِ}** يقال: فرغ فلان لأمر كذا إذا كان مشغلا قبلا بأمر ثم تركها و قصر الاشتغال بذلك الأمر اهتماما به.

فمعنى **{سَتَفْرُغُ لَكُمْ}** سنطوي بساط النشأة الأولى و نشتغل بكم، و تبين الآيات التالية أن المراد بالاشتغال بهم بعثهم و حسابهم و مجازاتهم بأعمالهم خيرا أو شرا فالفراغ لهم استعارة بالكناية عن تبدل النشأة.

و لا ينافي الفراغ لهم كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن فإن الفراغ المذكور ناظر إلى تبدل النشأة و كونه لا يشغله شأن عن شأن ناظر إلى إطلاق القدرة و سعتها كما لا ينافي كونه تعالى كل يوم هو في شأن الناظر إلى اختلاف الشؤون كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن.

و الثقلان الجن و الإنس، و إرجاع ضمير الجمع في **{لَكُمْ}** و **{إِنْ اسْتَطَعْتُمْ}** و غيرها إليهما لكونهما جمعا ذا أفراد.

قوله تعالى: **{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا}**، إنح، الخطاب - على ما يفيد السياق - من خطابات يوم القيامة و هو خطاب تعجيزي.

و المراد بالاستطاعة القدرة، و بالنفوذ من الأقطار الفرار، و الأقطار جمع قطر و هو الناحية.

و المعنى: يا معشر الجن و الإنس و قدم الجن لأنهم على الحركات السريعة أقدر إن قدرتم أن تفروا بالنفوذ من نواحي السماوات و الأرض و الخروج من ملك الله و التخلص من مؤاخذته ففروا و انفذوا.

وقوله: **{لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}** أي لا تقدرّون على النفوذ إلا بنوع من السلطة على ذلك وليس لكم والسلطان القدرة الوجودية، والسلطان البرهان أو مطلق الحجّة، والسلطان الملك.

وقيل: المراد بالنفوذ المنفي في الآية النفوذ العلي في السماوات والأرض من أقطارهما، وقد عرفت أن السياق لا يلائمه.

قوله تعالى: **{يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}** الشواظ - على ما ذكره الراغب - اللهب الذي لا دخان فيه، ويقرب منه ما في الجمع، أنه اللهب الأخضر المنقطع من النار، والنحاس الدخان وقال الراغب: هو اللهب بلا دخان والمعنى ظاهر.

وقوله: **{فَلَا تَنْتَصِرَانِ}** أي لا تتناصران بأن ينصر بعضكم بعضاً لرفع البلاء والتخلص عن العناء لسقوط تأثير الأسباب ولا عاصم اليوم من الله.

قوله تعالى: **{فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ}** أي كانت حمراء كالدهان وهو الأديم الأحمر.

قوله تعالى: **{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ}** الآية و ما يتلوها من الآيات إلى آخر السورة تصف الحساب والجزاء تصف حال المجرمين والخائفين مقام ربهم و ما ينتهي إليه.

ثم الآية تصف سرعة الحساب و قد قال تعالى: **{وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}** النور: ٣٩.

و المراد بيومئذ يوم القيامة، والسؤال المنفي هو النحو المألوف من السؤال، ولا ينافي نفي السؤال في هذه الآية إثباته في قوله: **{وَقَفْوَهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}** الصفات: ٢٤ و قوله: **{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}** الحجر: ٩٢، لأن اليوم ذو مواقف مختلفة يسأل في بعضها، ويختم على الأفواه في بعضها وتكلم الأعضاء، ويعرف بالسيما في بعضها.

قوله تعالى: **{يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ}** في مقام الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فإذا لم يسألوا عن ذنبهم فما يصنع بهم؟ فأجيب بأنه يعرف المجرمون بسيماهم إنخ، ولذا فصلت الجملة ولم يعطف، والمراد بسيماهم علامتهم البارزة في وجوههم.

وقوله: **{فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ}** الكلام متفرع على المعرفة المذكورة، والنواصي

جمع ناصية وهي شعر مقدم الرأس، والأقدام جمع قدم، وقوله: **{بِالنَّوَاصِي}** نائب فاعل يؤخذ.
والمعنى: لا يسأل أحد عن ذنبه يعرف المجرمون بعلامتهم الظاهرة في وجوههم فيؤخذ بالنواصي والأقدام
من المجرمين فيلقون في النار.

قوله تعالى: **{هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ}** - إلى قوله - **{أَنِ}** مقول قول مقدر أي يقال يومئذ
هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون، وقال الطبرسي: ويمكن أنه لما أخبر الله سبحانه أنهم يؤخذون بالنواصي و
الأقدام قال للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم): هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون من قومك فسيردونها فليهن
عليك أمرهم. انتهى.

والحميم الماء الحار، والآني الذي انتهت حرارته والباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ}** شروع في وصف حال السعداء من الخائفين مقام ربهم، و
المقام مصدر ميمي بمعنى القيام مضاف إلى فاعله، والمراد قيامه تعالى عليه بعمله وهو إحاطته تعالى و علمه بما
عمله وحفظه له و جزاؤه عليه قال تعالى: **{أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}** الرعد: ٣٣.

ويمكن أن يكون المقام اسم مكان والإضافة لامية والمراد به مقامه وموقفه تعالى من عبده وهو أنه
تعالى ربه الذي يدير أمره ومن تدير أمره أنه دعاه بلسان رسله إلى الإيمان والعمل الصالح وقضى أن يجازيه
على ما عمل خيرا أو شرا هذا وهو محيط به وهو معه سميع بما يقول بصير بما يعمل لطيف خبير.

والخوف من الله تعالى ربما كان خوفا من عقابه تعالى على الكفر به ومعصيته، ولازمه أن يكون عبادة
من يعبد خوفا بهذا المعنى يراد بها التخلص من العقاب لا لوجه الله محضا وهو عبادة العبيد يعبدون مواليهم
خوفا من السياسة كما أن عبادة من يعبد طمعا في الثواب غايتها الفوز بما تشتهي النفس دون وجهه الكريم وهي
عبادة التجار كما في الروايات وقد تقدم شطر منها.

والخوف المذكور في الآية **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ}** ظاهره غير هذا الخوف فإن هذا خوف من العقاب
وهو غير الخوف من قيامه تعالى على عبده بما عمل أو الخوف من مقامه تعالى من عبده فهو تأثر خاص ممن
ليس له إلا الصغار والحقارة تجاه ساحة العظمة والكبرياء، وظهور أثر المذلة والهوان والاندكك قبال العزة
والجبروت المطلقين.

و عبادته تعالى خوفا منه بهذا المعنى من الخوف خضوع له تعالى لأنه الله ذو الجلال والإكرام لا نخوف من عقابه ولا طمعا في ثوابه بل فيه إخلاص العمل لوجهه الكريم، وهذا المعنى من الخوف هو الذي وصف الله به المكرمين من ملائكته وهم معصومون آمنون من عقاب المخالفة و تبعة المعصية قال تعالى: **{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ}** النحل: ٥٠.

فتبين مما تقدم أن الذين أشار إليهم بقوله: **{وَلِمَنْ خَافَ}** أهل الإخلاص الخاضعون لجلاله تعالى العابدون له لأنه عز اسمه لا خوفا من عقابه ولا طمعا في ثوابه، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين سموا سابقين في قوله: **{وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}** - إلى أن قال - **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}** الواقعة: ١١.

وقوله: **{جَنَّاتٍ}** قيل: إحداهما منزله و محل زيارة أحبابه له و الأخرى منزل أزواجه و خدمه، و قيل: بستنان بستان داخل قصره و بستان خارجه، و قيل: منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر ليكمل به التذاذه، و قيل: جنة لعقيدته و جنة لعمله، و قيل: جنة لفعل الطاعات و جنة لترك المعاصي، و قيل: جنة جسمانية و جنة روحانية و هذه الأقوال - كما ترى - لا دليل على شيء منها.

و قيل: جنة يثاب بها و جنة يتفضل بها عليه، و يمكن أن يستشعر ذلك من قوله تعالى: **{لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}** ق: ٣٥، على ما مر في تفسيره.

قوله تعالى: **{ذَوَاتَا أَفْتَانٍ}** ذواتا ثنية ذات، و **{أَفْتَانٍ}** إما جمع فن بمعنى النوع و المعنى: ذواتا أنواع من الثمار و نحوها، و إما جمع فن بمعنى الغصن الرطب اللين و المعنى: ذواتا أغصان لينة أشجارهما.

قوله تعالى: **{فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ}** و قد أبهمت العينان و فيه دلالة على نخامة أمرهما.

قوله تعالى: **{فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ}** أي صنفان قيل: صنف معروف لهم شاهدوه في الدنيا و صنف غير معروف لم يروه في الدنيا، و قيل: غير ذلك، و لا دلالة في الكلام على شيء من ذلك.

قوله تعالى: **{مُتَّكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ}** إنخ، الفرش جمع فراش، و البطائن جمع بطانة و هي داخل الشيء و جوفه مقابل الظهائر جمع ظهارة، و الإستبرق الحرير الغليظ قال في المجمع: ذكر البطانة و لم يذكر الظهارة لأن البطانة تدل على أن لها ظهارة و البطانة دون الظهارة فدل على أن الظهارة فوق الإستبرق، انتهى.

وقوله: **{وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ}** الجنى الثمر المجتنى و **{دَانٍ}** اسم فاعل من الدنو بمعنى القرب أي ما يجتنى من ثمار الجنتين قريب.

قوله تعالى: **{فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}** إلى آخر الآية ضمير **{فِيهِنَّ}** للفرش و جوز أن يرجع إلى الجنان فإنها جنان لكل واحد من أولياء الله منها جنتان، و الطرف جنس العين، و المراد بقصور الطرف اكتفاؤهن بأزواجهن فلا يردن غيرهم.

وقوله: **{لَمْ يَطْمِئْتُهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}** الطمئ الافتضاض و النكاح بالتدمية، و المعنى: لم يمسسهن بالنكاح إنس و لا جان قبل أزواجهن.

قوله تعالى: **{كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}** أي في صفاء اللون و البهاء و التلاؤ.

قوله تعالى: **{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}** استفهام إنكاري في مقام التعليل لما ذكر من إحسانه تعالى عليهم بالجننتين و ما فيهما من أنواع النعم و الآلاء فيفيد أنه تعالى يحسن إليهم هذا الإحسان جزاء لإحسانهم بالخوف من مقام ربهم.

و تفيد الآية أن ما أوتوه من الجنة و نعيمها جزاء لأعمالهم و أما ما يستفاد من بعض الآيات أنهم يعطون فضلا وراء جزاء أعمالهم فلا تعرض في هذه الآيات لذلك إلا أن يقال: الإحسان إنما يتم إذا كان يربو على ما أحسن به المحسن إليه فإطلاق الإحسان في قوله: **{إِلَّا الْإِحْسَانُ}** يفيد الزيادة.

قوله تعالى: **{وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانٍ}** ضمير التثنية للجننتين الموصوفتين في الآيات السابقة و معنى. **{مِنْ دُونِهِمَا}** أي أنزل درجة و أحط فضلا و شرفا منهما و إن كاتتا شبيهتين بالجننتين السابقتين في نعمهما و آلائهما، و قد تقدم أن الجننتين السابقتين لأهل الإخلاص الخائفين مقام ربهم فهاتان الجنتان لمن دونهم من المؤمنين العابدين لله سبحانه خوفا من النار أو طمعا في الجنة و هم أصحاب اليمين.

وقيل: معنى **{مِنْ دُونِهِمَا}** بالقرب منهما، و يستفاد من السياق حينئذ أن هاتين الجنتين أيضا لأهل الجننتين المذكورتين قبلا بل ادعى بعضهم أن هاتين الجنتين أفضل من السابقتين و الصفات المذكورة فيهما أمدح. و أنت بالتدبر فيما قدمناه في معنى لمن خاف مقام ربه و ما يستفاد من كلامه تعالى أن أهل الجنة صنفان: المقربون أهل الإخلاص و أصحاب اليمين تعرف قوة الوجه السابق.

قوله تعالى: **{مُدْهَامَّتَانِ}** الادهيما من الدهمة اشتداد الخصرة بحيث تضرب إلى السواد و هو ابتهاج الشجرة.

قوله تعالى: **{فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ}** أي فوارتان تخرجان من منبعهما بالدفع.

قوله تعالى: **{فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ}** المراد بالفاكهة و الرمان شجرتهما بقريئة النخل.

قوله تعالى: **{فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنٌ}** ضمير **{فِيهِنَّ}** للجنان باعتبار أنها جنتان من هاتين الجنتين، و قيل: مرجع الضمير الجنات الأربع المذكورة في الآيات، و قيل: الضمير للفاكهة و النخل و الرمان.

و أكثر ما يستعمل الخير في المعاني كما أن أكثر استعمال الحسن في الصور، و على هذا فعنى خيرات حسان أنهم حسان في أخلاقهم حسان في وجوههم.

قوله تعالى: **{حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}** الخيام جمع خيمة و هي الفسطاط، و كونهن مقصورات في الخيام أنهن مصونات غير مبتدلات لا نصيب لغير أزواجهن فيهن.

قوله تعالى: **{لَمْ يَظْمِئْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}** تقدم معناه.

قوله تعالى: **{مُتَّكِنِينَ عَلَى رُفْرِفِ خُضْرٍ غَبَقْرِيِّ حَسَانٍ}** في الصحاح: الرفرف ثياب خضر تتخذ منها المجالس. انتهى. و قيل: هي الوسائد، و قيل: غير ذلك، و الخضر جمع أخضر صفة لرفرف، و العبقري قيل: الزرابي، و قيل: الطنافس، و قيل: الثياب الموشاة، و قيل: الديباج.

قوله تعالى: **{تَبَارَكَ إِسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}** ثناء جميل له تعالى بما امتلأت النشأتان الدنيا و الآخرة بنعمه و آلائه و بركاته النازلة من عنده برحمته الواسعة، و بذلك يظهر أن المراد باسمه المتبارك هو الرحمن المفتحة به السورة، و التبارك كثرة الخيرات و البركات الصادرة.

فقوله: **{تَبَارَكَ إِسْمُ رَبِّكَ}** تبارك الله المسمى بالرحمن بما أفاض هذه الآلاء.

و قوله: **{ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}** إشارة إلى تسميه بأسمائه الحسنى و اتصافه بما يدل عليه من المعاني الوصفية و نعوت الجلال و الجمال، و لصفات الفاعل ظهور في أفعاله و أثر فيها يرتبط به الفعل بفاعله فهو تعالى خلق الخلق و نظم النظام لأنه بديع خالق مبدئ فأتقن الفعل لأنه عليم حكيم و جازى أهل الطاعة بالخير لأنه ودود شكور غفور رحيم

و أهل الفسق بالشر لأنه منتقم شديد العقاب.

فتوصيف الرب الذي أثنى على سعة رحمته بذي الجلال والإكرام للإشارة إلى أن لأسمائه الحسنى و صفاته العليا دخلا في نزول البركات والخيرات من عنده، وأن نعمه وآلاءه عليها طابع أسمائه الحسنى و صفاته العليا تبارك و تعالى.

(بحث روائي)

في الجمع: و قد جاء في الخبر: **يحاط على الخلق بالملائكة و بلسان من نار ثم ينادون: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ { - إِلَى قَوْلِهِ - } يُرْسَلْ عَلَيْكُمْ شَوَاطِلٌ مِّنْ نَّارٍ**.

أقول: و روي هذا المعنى عن مسعدة بن صدقة عن كليب عن أبي عبد الله (عليه السلام).

و في الكافي، بإسناده عن داود الرقي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز و جل: **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ}** قال: من علم أن الله يراه و يسمع ما يقول و يعلم ما يعمل من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى.

و في الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و ابن منيع و الحكيم في نوادر الأصول و النسائي و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن المنذر و الطبراني و ابن مردويه عن أبي الدرداء: **أن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قرأ هذه الآية {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ} فقلت: أ و إن زنى و إن سرق يا رسول الله؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) الثانية {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ} فقلت: و إن زنى و إن سرق؟ فقال: نعم و إن رغم أنف أبي الدرداء.**

أقول: الرواية لا تخلو من شيء فإن الخوف من مقامه تعالى لا يجامع هذه الكبائر الموبقة، و قد روي عن أبي الدرداء نفسه ما يدفع هذه الرواية ففي الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبي الدرداء: في قوله: **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ}** قال: قيل: يا أبا الدرداء و إن زنى و إن سرق؟ قال: من خاف مقام ربه لم يزن و لم يسرق.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}** قال: الحور العين يقصر الطرف عنها من ضوء نورها.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **في قوله: {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} قال: لا ينظرن إلا إلى أزواجهن.**

وفي المجمع في قوله تعالى: **{كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}** في الحديث أن المرأة من أهل الجنة يرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة من حرير.

أقول: وهذا المعنى وارد في عدة روايات.

وفي تفسير العياشي، بإسناده عن علي بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: آية في كتاب الله مسجلة. قلت: وما هي؟ قال: قول الله عز وجل: **{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}** جرى في الكافر والمؤمن والبر والفاجر، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، وليس المكافأة أن يصنع كما صنع حتى يربى فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء.

وفي المجمع في قوله: **{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}** جاءت الرواية من أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية فقال: هل تدرون ما يقول ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن ربكم يقول: هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة؟ وفي تفسير القمي، "في الآية قال: ما جزاء من أنعمت عليه بالمعرفة إلا الجنة.

أقول: الرواية مروية عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) وقد أسندها في التوحيد إلى جعفر بن محمد عن آبائه عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) - ولفظها: **- أن الله عز وجل قال: ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة. وأسندها في العلل، إلى الحسن بن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) - واللفظ: - هل جزاء من قال: لا إله إلا الله إلا الجنة؟**

وروى الرواية بألفاظها المختلفة في الدر المنثور، بطرق مختلفة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقوله: **أنعمت عليه، إشارة إلى أن إحسان العبد بالحقيقة إحسان من الله إليه.**

وفي المجمع في قوله تعالى: **{وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ}** عن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله (عليه السلام): **قلت له: إن الناس يتعجبون منا إذا قلنا: يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة فيقولون لنا فيكونون مع أولياء الله في الجنة؟ فقال يا علي إن الله يقول: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} ما يكونون مع أولياء الله.**

وفي الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي موسى عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): **في قوله: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ} وقوله: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ} قال: جنتان من ذهب للمقربين و جنتان من ورق لأصحاب اليمين.**

أقول: و الروايتان تؤيدان ما قدمناه في تفسير الآيتين.

و فيه، أخرج الطبراني و ابن مردويه عن أبي أيوب قال: **سألت النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) عن قوله: {مُدْهَامَاتَانِ} قال: خضراوان.**

و في تفسير القمي، بإسناده إلى يونس بن ظبيان عن أبي عبد الله (عليه السلام) **في قوله تعالى: {نَضَّاحَتَانِ} قال: تفوران.**

و فيه في قوله: **{فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ}** قال: جوار نابتات على شط الكوثر كلها أخذت منها نبتت مكانها أخرى.

و في المجمع في قوله: **{خَيْرَاتٌ حِسَانٌ}** أي نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه. روته أم سلمة عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم).

و في الفقيه، قال الصادق (عليه السلام): **الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا و هن أجمل من الحور العين.**

و في روضة الكافي، بإسناده عن الحلبي قال: **سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز و جل: {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} قال: هن صوايح المؤمنات العارفات.**

أقول: و في انطباق الآية بالنظر إلى سياقها على مورد الروايتين إبهام.

(٥٦) (سورة الواقعة مكية و هي ست و تسعون آية) (٩٦)

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ١ الى ١٠]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ⑥

وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا

أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾

(بيان)

تصف السورة القيامة الكبرى التي فيها بعث الناس و حسابهم و جزاؤهم فتذكر أولا شيئا من أهوالها مما يقرب من الإنسان و الأرض التي يسكنها فتذكر تقليبها للأوضاع و الأحوال بالخفض و الرفع و ارتجاج الأرض و انبثاث الجبال و تقسم الناس إلى ثلاثة أزواج إجمالا ثم تذكر ما ينتهي إليه حال كل من الأزواج السابقين و أصحاب اليمين و أصحاب الشمال.

ثم تحتج على أصحاب الشمال المنكرين لربوبيته و للبعث المكذبين بالقرآن الداعي إلى التوحيد و الإيمان بالبعث. ثم تختم الكلام بذكر الاحتضار بنزول الموت و انقسام الناس إلى ثلاثة أزواج.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: **{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ}** وقوع الحادثة هو حدوثها، و الواقعة صفة توصف بها كل حادثة، و المراد بها هاهنا واقعة القيامة و قد أطلقت إطلاق الأعلام كأنها لا تحتاج إلى موصوف مقدر و لذا قيل: إنها من أسماء القيامة في القرآن كالحاقة و القارعة و الغاشية.

و الجملة **{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ}** مضمنة معنى الشرط و لم يذكر جزاء الشرط إعظاما له و تفخيما لأمره و هو على أي حال أمر مفهوم مما استصفه السورة من حال الناس يوم القيامة، و التقدير نحو من قولنا: فاز المؤمنون و خسر الكافرون.

قوله تعالى: **{لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ}** قال في المجمع: الكاذبة مصدر كالعافية و العاقبة انتهى. و عليه فالمعنى: ليس في وقعها و تحققها كذب، و قيل: كاذبة صفة محذوفة الموصوف و التقدير: ليس لوقعها قضية كاذبة.

قوله تعالى: **{خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ}** خبران مبتدؤهما الضمير الراجع إلى الواقعة، و الخفض خلاف الرفع و كونها خافضة رافعة كناية عن تقليبها نظام الدنيا المشهود فتظهر السرائر

وهي محجوبة اليوم وتحجب وتستر آثار الأسباب وروابطها وهي ظاهرة اليوم وتذل الأعزة من أهل الكفر والفسق وتعز المتقين.

قوله تعالى: **{إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا}** الرج تحريك الشيء تحريكا شديدا إشارة إلى زلزلة الساعة التي يعظمها الله سبحانه في قوله: **{إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}** الحج: ١، وقد عظمها في هذه الآية حيث عبر عنها برج الأرض ثم أكد شدتها بتكبير قوله: **{رَجًّا}** أي رجا لا يوصف شدته. و الجملة بدل أو بيان لقوله: **{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ}**.

قوله تعالى: **{وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا}** عطف على **{رُجَّتِ}** والبس الفت وهو عود الجسم بدق ونحوه أجزاء صغارا متلاشية كالديق، وقيل: البس هو التسيير فهو في معنى قوله: **{وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ}** النبأ: ٢٠.

وقوله: **{فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا}** الهباء قيل: هو الغبار وقيل: هو الذرة من الغبار الظاهر في شعاع الشمس الداخل من كوة، والانبثا التفرق، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}** الزوج بمعنى الصنف والخطاب لعامة البشر.

قوله تعالى: **{فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}** متفرع على ما قبلها تفرع البيان على الميمين، فهذه الآية والآيتان بعدها بيان للأزواج الثلاثة.

والميمنة من اليمين مقابل الشؤم، فأصحاب الميمنة أصحاب السعادة واليمين مقابل أصحاب المشأمة أصحاب الشقاء والشؤم، وما قيل: إن المراد بالميمنة اليمين، أي ناحية اليمين لأنهم يؤتون كتابهم بيمينهم وغيرهم يؤتونه بشمالهم يردده مقابلة أصحاب الميمنة بأصحاب المشأمة، ولو كان كما قيل لقل أصحاب الشمال وهو ظاهر.

وما في قوله: **{مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}** استفهامية ومبتدأ خبره **{فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}**، والمجموع خبر لقوله: **{فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}** وفي الاستفهام إعظام لأمرهم وتفخيم لشأنهم.

قوله تعالى: **{وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ}** المشأمة مصدر كالشؤم مقابل اليمين، والميمنة و المشأمة السعادة والشقاء.

قوله تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}** الذي يصلح أن يفسر به السابقون الأول قوله تعالى: **{فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْتِنُ اللَّهَ}** فاطر ٣٢، وقوله: **{وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}** البقرة: ١٤٨، وقوله: **{أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}** المؤمنون: ٦١.

فالمراد بالسابقين - الأول - في الآية السابقون بالخيرات من الأعمال، وإذا سبقوا بالخيرات سبقوا إلى المغفرة والرحمة التي بإزائها كما قال تعالى: **{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ}** الحديد: ٢١، فالسابقون بالخيرات هم السابقون بالرحمة وهو قوله: **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}**.

وقيل: المراد بالسابقون الثاني هو الأول على حد قوله:

أنا أبو النجم وشعري شعري *** ...

وقوله: **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}** مبتدأ وخبر، وقيل: الأول مبتدأ والثاني تأكيد، والخبر قوله: **{أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}**.

ولهم في تفسير السابقين أقوال أخر فقيل: هم المسارعون إلى كل ما دعا الله إليه، وقيل: هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة من غير توان، وقيل: هم الأنبياء (عليه السلام) لأنهم مقدمو أهل الأديان، وقيل: هم مؤمن آل فرعون وحبیب النجار المذكور في سورة يس و علي (عليه السلام) السابق إلى الإيمان بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو أفضلهم وقيل: هم السابقون إلى الهجرة، وقيل: هم السابقون إلى الصلوات الخمس، وقيل: هم الذين صلوا إلى القبلتين، وقيل: هم السابقون إلى الجهاد، وقيل غير ذلك.

والقولان الأولان راجعان إلى ما تقدم من المعنى، والثالث والرابع ينبغي أن يحملا على التمثيل، والباقي كما ترى إلا أن يحمل على نحو من التمثيل.

(بحث روائي)

في الخصال، عن الزهري قال: سمعت علي بن الحسين (عليه السلام) يقول: من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله ما الدنيا والآخرة إلا ككفتي ميزان فأيهما ربح ذهب بالآخر ثم تلا قوله عز و جل: **{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} يعني القيامة {لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ} خفضت والله بأعداء الله في النار {رَافِعَةٌ} رفعت والله أولياء الله إلى الجنة.**

وفي تفسير القمي: **{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ} قال: القيامة هي حق، وقوله: {خَافِضَةٌ} قال: بأعداء الله {رَافِعَةٌ} لأولياء الله {إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا}**

قال: يدق بعضها على بعض {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} قال: قلعَت الجبال قلعا {فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا} قال: الهباء الذي في الكوة من شعاع الشمس.

وقوله: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً} قال: يوم القيامة {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} الذين سبقوا إلى الجنة.

أقول: قوله: الذين سبقوا إلى الجنة تفسير للسابقون الثاني.

وفي الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الهباء المنبث رهب¹ الذرات والهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوة.

وفيه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} قال: نزلت في خزيم مؤمن آل فرعون، وحيب النجار الذي ذكر في يس وعلي بن أبي طالب، كل رجل منهم سابق أمته وعلي أفضلهم سبقا. وفي الجمع، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: السابقون أربعة: ابن آدم المقتول، وسابق أمة موسى وهو مؤمن آل فرعون، وسابق أمة عيسى وهو حبيب والسابق في أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو علي بن أبي طالب (عليه السلام).

أقول: وروي هذا المعنى في روضة الواعظين، عن الصادق (عليه السلام).

وفي أمالي الشيخ، بإسناده إلى ابن عباس قال: سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن قول الله عز وجل: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} فقال: قال لي جبرئيل: ذلك علي وشيعته، هم السابقون إلى الجنة المقربون من الله بكرامته لهم.

وفي كمال الدين، بإسناده إلى خيثة الجعفي عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث: ونحن السابقون السابقون ونحن الآخرون.

وفي العيون، في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من الأخبار المجموعة بإسناده عن علي (عليه السلام) قال: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} في نزلت.

وفي الجمع في الآية: وقيل: إلى الصلوات الخمس، عن علي (عليه السلام).

أقول: الوجه حمل جميع هذه الأخبار على التمثيل كما تقدم.

¹ الرهب بفتح الحاء وفتح فسكون ما أثير من الغبار.

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ١١ الى ٥٦]

{أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾
عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَ
أَبَارِيقٍ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَ لَا يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَ فَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَ
لَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَ حُورٍ عِينٍ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا تَأْتِيماً ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴿٢٦﴾ وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ
الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَ ظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَ مَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَ فَاكِهَةٍ
كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَ لَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ
أَنْبَاراً ﴿٣٦﴾ عُرْباً أَثْرَاباً ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٣٩﴾ وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَ
أَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَ ظِلِّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَ لَا
كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَ كَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْهِنْتِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَ كَانُوا

يَقُولُونَ إِذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ
 وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونَنَّ
 مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ
 ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾

(بيان)

الآيات تفصل ما ينتهي إليه حال كل واحد من الأزواج الثلاثة يوم القيامة.

قوله تعالى: **{أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}** الإشارة بأولئك إلى السابقين، و **{أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}** مبتدأ
 وخبر، والجملة استئنافية، وقيل: خبر لقوله: **{وَالسَّابِقُونَ}**، وقيل: مبتدأ خبره في جنات النعيم، وأول الوجوه
 الثلاثة أوجه بالنظر إلى سياق تقسيم الناس إلى ثلاثة أزواج أولا ثم تفصيل ما ينتهي إليه أمر كل منهم.

والقرب والبعد معنيان متضائفان تتصف بهما الأجسام بحسب النسبة المكانية ثم توسع فيهما فاعتبرا في
 غير المكان من الزمان ونحوه، يقال: الغد قريب من اليوم والأربعة أقرب إلى الثلاثة من الخمسة، والخضرة
 أقرب إلى السواد من البياض ثم توسع فيهما فاعتبرا في غير الأجسام والجسمانيات من الحقائق.

وقد اعتبر القرب وصفا له تعالى بما له من الإحاطة بكل شيء، قال تعالى: **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي
 فَإِنِّي قَرِيبٌ}** البقرة: ١٨٦، وقال: **{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ}** الواقعة: ٨٥، وقال: **{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
 الْوَرِيدِ}** ق: ١٦. وهذا المعنى أعني كونه تعالى أقرب إلى الشيء من نفسه أعجب ما يتصور من معنى القرب، و
 قد أشرنا إلى تصويره في تفسير الآية.

و اعتبر القرب أيضا وصفا للعباد في مرحلة العبودية و لما كان أمرا اكتسابيا يستعمل فيه لفظ التقرب فالعبد يتقرب بصالح العمل إلى الله سبحانه و هو وقوعه في معرض شمول الرحمة الإلهية بزوال أسباب الشقاء و الحرمان، و الله سبحانه يقرب العبد بمعنى إنزاله منزلة يختص بنيل ما لا يناله من دونه من إكرامه تعالى و مغفرته و رحمته، قال تعالى: **{كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ}** المطففين: ٢١، و قال: **{وَمِزَاجُهُ مِنَ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}** المطففين: ٢٨.

فالمقربون هم النمط الأعلى من أهل السعادة كما يشير إليه قوله: **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}** و لا يتم ذلك إلا بكمال العبودية كما قال: **{لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}** النساء: ١٧٢، و لا تكمل العبودية إلا بأن يكون العبد تبعا محضا في إرادته و عمله لمولاه لا يريد و لا يعمل إلا ما يريده و هذا هو الدخول تحت ولاية الله فهؤلاء هم أولياء الله.

و قوله: **{فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ}** أي كل واحد منهم في جنة النعيم فالكل في جنات النعيم، و يمكن أن يراد به أن كلا منهم في جنات النعيم لكن يبعده قوله في آخر السورة: **{فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ}**.

و قد تقدم غير مرة أن النعيم هي الولاية و أن جنة النعيم هي جنة الولاية و هو المناسب لما تقدم أنفا أن المقربين هم أهل ولاية الله.

قوله تعالى: **{ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَىٰ وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ}** الثلاثة على ما قيل الجماعة الكثيرة، و المراد بالأولين الأمم الماضون للأنبياء السابقين، و بالآخرين هذه الأمة على ما هو المعهود من كلامه تعالى في كل موضع ذكر فيه الأولين و الآخرين معا و منها ما سيأتي من قوله: **{أَأِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَ وَّ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ إِنَّ الْأُولَىٰ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ}** فمعنى الآيتين: هم أي المقربون جماعة كثيرة من الأمم الماضين و قليل من هذه الأمة.

و بما تقدم يظهر أن قول بعضهم: إن المراد بالأولين و الآخرين أولوا هذه الأمة و آخروها غير سديد.

قوله تعالى: **{عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَّقَابِلِينَ}** الوضن النسج و قيل: نسج الدرع و إطلاقه على نسج السرر استعارة يراد بها إحكام نسجها.

و قوله: **{مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا}** حال من الضمير العائد إلى المقربين و الضمير للسرر، و قوله:

{مُتَقَابِلِينَ} حال آخر منه أو من ضمير **{مُتَكِبِينَ}** و تقابلهم كناية عن بلوغ أنفسهم و حسن عشرتهم و صفاء باطنهم فلا ينظرون في قفاء صاحبهم و لا يعيونه و لا يغتابونه.

و المعنى: هم أي المقربون مستقرون على سرر منسوجة حال كونهم متكئين عليها حال كونهم متقابلين.

قوله تعالى: **{يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ}** الولدان جمع ولد و هو الغلام، و طوافهم عليهم كناية عن خدمتهم لهم، و المخلدون من الخلود بمعنى الدوام أي باقون أبدا على هيئتهم من حداثة السن، و قيل من الخلد بفتح الحين و هو القرط، و المراد أنهم مقرطون بالخلد.

قوله تعالى: **{بِأَكْوَابٍ وَ أَبَارِيقٍ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ}** الأكواب جمع كوب و هو الإناء الذي لا عروة له و لا خرطوم، و الأباريق جمع إبريق و هو الإناء الذي له خرطوم، و قيل: عروة و خرطوم معا، و الكأس معروف، قيل: أفرد الكأس لأنها لا تسمى كأسا إلا إذا كانت ممتلئة، و المراد بالمعين الخمر المعين و هو الظاهر للبصر الجاري.

قوله تعالى: **{لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَ لَا يُزْفُونَ}** أي لا يأخذهم صداع لأجل نحرهم يحصل من الخمر كما في نحر الدنيا و لا يزول عقلهم بالسكر الحاصل منها.

قوله تعالى: **{وَ فَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَ لَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ}** الفاكهة و الطير معطوفان على قوله: **{بِأَكْوَابٍ}**، و المعنى: يطوف عليهم الولدان بفاكهة مما يختارون و بلحم طير مما يشتهون.

و لا يستشكل بما ورد في الروايات أن أهل الجنة إذا اشتها فاكهة تدلى إليهم غصن شجرتها بما لها من ثمرة فيتناولونها، و إذا اشتها لحم طير وقع مقلبا مشويا في أيديهم فيأكلون منها ما أرادوا ثم حيي و طار.

و ذلك لأن لهم ما شاءوا و من فنون التنعم تناول ما يريدونه من أيدي خدمهم و خاصة حال اجتماعهم و احتفالهم كما أن من فنونه تناولهم أنفسهم من غير توسط خدمهم فيه.

قوله تعالى: **{وَ حُورٍ عِينٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}** مبتدأ محذوف الخبر على ما يفيدده السياق و التقدير و لهم حور عين أو و فيها حور عين و الحور العين نساء الجنة و قد تقدم معنى الحور العين في تفسير سورة الدخان.

و قوله: **{كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}** أي اللؤلؤ المصون المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي فهو منته في

صفائه.

قوله تعالى: **{جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** قيد لجميع ما تقدم وهو مفعول له، والمعنى: فعلنا بهم ما فعلنا ليكون جزاء لهم قبال ما كانوا يستمرون عليه من العمل الصالح.

قوله تعالى: **{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيَمًا}** اللغو من القول ما لا فائدة فيه ولا أثر يترتب عليه، والتأيم النسبة إلى الإثم أي لا يخاطب أحدهم صاحبه بما لا فائدة فيه ولا ينسبه إلى الإثم إذ لا إثم هناك، وفسر بعضهم التأيم بالكذب.

قوله تعالى: **{إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا}** استثناء منقطع من اللغو والتأيم، والقيل مصدر كالقول، و**{سَلَامًا}** بيان لقوله: **{قِيلاً}** وتكراره يفيد تكرار الوقوع، والمعنى: إلا قولاً هو السلام بعد السلام.

قيل: ويمكن أن يكون **{سَلَامًا}** مصدراً بمعنى الوصف وصفة لقيلاً، والمعنى: إلا قولاً هو سالم.

قوله تعالى: **{وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ}** شروع في تفصيل ما انتهى إليه حال أصحاب اليمين و في تبديله من أصحاب اليمين يعلم أن أصحاب اليمين وأصحاب اليمين واحد وهم الذين يؤتون كتابهم بيمينهم. والجملة استفهامية مسوقة لتفخيم أمرهم والتعجب من حالهم وهي خبر لقوله: **{وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ}**.

قوله تعالى: **{فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ}** السدر شجرة النبق، والمخضود ما قطع شوكة فلا شوك له.

قوله تعالى: **{وَوَطَّحَ مَنْضُودٍ}** الطح شجر الموز، وقيل: ليس بالموز بل شجر له ظل بارد رطب، وقيل: شجرة أم غيلان لها أنوار طيبة الرائحة، ونضد الأشياء جعل بعضها على بعض، والمعنى: وفي شجر موز منضود الثمر بعضه على بعض من أسفله إلى أعلاه.

قوله تعالى: **{وَوَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ}** قيل: الممدود من الظل هو الدائم الذي لا تنسخه شمس فهو باق لا يزول، والماء المسكوب هو المصبوب الجاري من غير انقطاع.

قوله تعالى: **{وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ}** أي لا مقطوعة في بعض الأزمان كإقطاع الفواكه في شتاء ونحوه في الدنيا، ولا ممنوعة التناول لمنع من قبل أنفسهم كسأمة أو شبع أو من خارج كبعد المكان أو شوكة تمنع القطف أو غير ذلك.

قوله تعالى: **{وَوَفْرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ}** الفرش جمع فراش وهو البساط، والمرفوعة العالية، وقيل: المراد بالفرش المرفوعة النساء المرتفعات قدرا في عقولهن وجمالهن وكاملهن والمرأة

تسمى فراشا، و يناسب هذا المعنى قوله بعد: **{إِنَّا أَدْنَانَاهُنَّ إِذْنَاءً}** إلخ.

قوله تعالى: **{إِنَّا أَدْنَانَاهُنَّ إِذْنَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرْباً أَتْرَاباً}** أي إنا أوجدناهن وأحدثناهن وريناهن أحداثا و تربية خاصة، و فيه تلويح إلى أنهن لا يختلف حالهن بالشباب و الشيب و صباحة المنظر و خلافتها، و قوله: **{فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً}** أي خلقناهن عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا.

و قوله: **{عُرْباً أَتْرَاباً}** العرب جمع عروب و هي المتحننة إلى زوجها أو الغنجة أو العاشقة لزوجها، و الأتراب جمع ترب بالكسر فالسكون بمعنى المثل أي أنهن أمثال أو أمثال في السن لأزواجهن.

قوله تعالى: **{لِلْأَصْحَابِ الْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَىٰ وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ}** يتضح معناه بما تقدم، و يستفاد من الآيات أن أصحاب اليمين في الآخريين جمع كثير كالأولين لكن السابقين المقربين في الآخريين أقل جمعا منهم في الأولين.

قوله تعالى: **{وَ أَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ}** مبتدأ و خبر، و الاستفهام للتعجيب و التهويل، و قد بدل أصحاب المشأمة من أصحاب الشمال إشارة إلى أنهم الذين يؤتون كتابهم بشمالهم كما مر نظيره في أصحاب اليمين.

قوله تعالى: **{فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ وَ ظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ وَ لَّا كَرِيمٍ}** السموم على ما في الكشاف، حر نار ينفذ في المسام، و الحميم الماء الشديد الحرارة، و التنوين فيهما لتعظيم الأمر، و ليحموم الدخان الأسود، و قوله: **{لَّا بَارِدٍ وَ لَّا كَرِيمٍ}** الظاهر أنهما صفتان للظل لا ليحموم، و ذلك أن الظل هو الذي يتوقع منه أن يتبرد بالاستئلال به و يستراح فيه دون الدخان.

قوله تعالى: **{إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ}** تعليل لاستقرار أصحاب الشمال في العذاب، و الإشارة بذلك إلى ما ذكر من عذابهم يوم القيامة، و إتراف النعمة الإنسان إبطارها و إطغاؤها له، و ذلك إشغالها نفسه بحيث يغفل عما وراءها فكون الإنسان مترفا تعلقه بما عنده من نعم الدنيا و ما يطلبه منها سواء كانت كثيرة أو قليلة.

فلا يرد ما استشكل من أن كثيرا من أصحاب الشمال ليسوا من المترفين بمعنى المتوسعين في التمتع و ذلك أن الإنسان محفوف بنعم ربه و ليست النعمة هي المال فحسب فاشتغاله بنعم ربه عن ربه ترفه منه، و المعنى: أنا إنما نعذبهم بما ذكر لأنهم كانوا قبل ذلك في

الدنيا بطرين طاغين بالنعمة.

قوله تعالى: **{وَكَاثُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ}** في المجمع: الحنث نقض العهد المؤكد بالحلف، والإصرار أن يقيم عليه فلا يقلع عنه. انتهى. ولعل المستفاد من السياق أن إصرارهم على الحنث العظيم هو استكبارهم عن عبودية ربهم التي عاهدوا الله عليها بحسب فطرتهم وأخذ منهم الميثاق عليها في عالم الذر فيطيعون غير ربهم وهو الشرك المطلق.

وقيل: الحنث الذنب العظيم فتوصيفه بالعظيم مبالغة و الحنث العظيم الشرك بالله، وقيل: الحنث العظيم جنس المعاصي الكبيرة، وقيل: هو القسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى: **{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ}** النحل: ٣٨، و لفظ الآية مطلق.

قوله تعالى: **{وَكَاثُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ}** قول منهم مبني على الاستبعاد ولذا أكدوا استبعاد بعث أنفسهم ببعث آباءهم لأن الاستبعاد في موردهم أكد، والتقدير أ و آباؤنا الأولون مبعوثون.

قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}** أمر منه تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يجيب عن استبعادهم البعث بتقريره ثم إخبارهم عما يعيشون به يوم البعث من طعام و شراب و هما الزقوم والحميم.

و محصل القول إن الأولين والآخرين من غير فرق بينهم لا كما فرقوا فجعلوا بعث أنفسهم مستبعدا و بعث آباءهم الأولين أشد استبعادا و أكد لمجموعون محشورين إلى ميعات يوم معلوم.

و الميعات ما وقت به الشيء و هو وقته المعين، و المراد بيوم معلوم يوم القيامة المعلوم عند الله فإضافة الميعات إلى يوم معلوم بيانية.

قوله تعالى: **{ثُمَّ إِنَّكُمْ أَهْيَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَأَكُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقُومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ}** من تمام كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يخبرهم عما ينتهي إليه حالهم يوم القيامة ويعيشون به من طعام و شراب. و في خطابهم بالضالين المكذبين إشارة إلى ملاك شقائهم و خسارتهم يوم البعث و هو ضلالهم عن طريق الحق و استقرار ذلك في نفوسهم باستمرارهم على تكذيبهم و إصرارهم على الحنث، و لو كانوا ضالين فحسب من غير تكذيب لكان من المرجو أن ينجوا و لا يهلكوا.

و {مِنْ} في قوله: {مِنْ شَجَرٍ} للابتداء، وفي قوله: {مِنْ زُقُومٍ} بيانية ويحتمل أن يكون {مِنْ زُقُومٍ} بدلا من {مِنْ شَجَرٍ}، و ضمير {مِنْهَا} للشجر أو الثمر و كل منهما يؤنث و يذكر و لذا جيء هاهنا بضمير التأنيث و في الآية التالية في قوله: {فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ} بضمير التذكير، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: {فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ} كلمة «على» للاستعلاء و تفيد في المورد كون الشرب عقيب الأكل من غير ريث، و الهيم جمع هيماء الإبل التي أصابها الهيام بضم الهاء و هو داء شبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب الماء حتى تموت أو تسقم سقما شديدا، و قيل: الهيم الرمال التي لا تروى بالماء. و المعنى: فشاربون عقيب ما أكلتم من الزقوم من الماء الشديد الحرارة فشاربون كشرب الإبل الهيم أو كشرب الرمال الهيم و هذا آخر ما أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقوله لهم.

قوله تعالى: {هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ} أي يوم الجزاء و النزول ما يقدم للضيف النازل من طعام و شراب إكراما له، و المعنى: هذا الذي ذكر من طعامهم و شرابهم هو نزل الضالين المكذبين ففي تسمية ما أعد لهم بالنزل نوع تهكم، و الآية من كلامه تعالى خطابا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، و لو كان من كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خطابا لهم لقال: هذا نزلكم.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه و ابن عساكر من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت إذا وقعت الواقعة ذكر فيها {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} قال عمر: يا رسول الله ثلة من الأولين و ثلة من الآخريين، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **تعال و استمع ما قد أنزل الله: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ}.**

ألا وإن من آدم إلى ثلة و أمي ثلة و لن نستكمل ثلثنا حتى نستعين بالسودان رعاة الإبل ممن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. قال السيوطي و أخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن عروة بن رويم مرسلا. و فيه، أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: لما نزلت {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} حزن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و قالوا: إذن لا يكون من أمة محمد إلا قليل

فنزلت نصف النهار: **{ثُمَّ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُمَّ مِنَ الْآخِرِينَ}** تقابلون الناس فنسخت الآية: **{وَقَلِيلٌ مِنَ**

الْآخِرِينَ}.

أقول: قال في الكشاف، في تفسير الآية: فإن قلت: فقد روي أنها لما نزلت شق ذلك على المسلمين فما زال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يراجع ربه حتى نزلت **{ثُمَّ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُمَّ مِنَ الْآخِرِينَ}**.

قلت: هذا لا يصح لأمرين: أحدهما: أن هذه الآية واردة في السابقين وورودها ظاهرا وكذلك الثانية في أصحاب اليمين، ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين و وعدهم على السابقين و وعدهم؟ الثاني: أن النسخ في الأخبار غير جائز. انتهى.

وأجيب عنه بأنه يمكن أن يحمل الحديث على أن الصحابة لما سمعوا الآية الأولى حسبوا أن الأمر في هذه الأمة يذهب على هذا النهج فيكون أصحاب اليمين ثلثة من الأولين و قليلا منهم فيكون الفائزون بالجنة في هذه الأمة أقل منهم في الأمم السالفة فنزلت **{ثُمَّ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُمَّ مِنَ الْآخِرِينَ}** فزال حزنهم، ومعنى نسخ الآية السابقة إزالة حسابهم المذكور.

وأنت خبير بأنه حمل على ما لا دليل عليه من جهة اللفظ و اللفظ يأباه و خاصة حمل نسخ الآية على إزالة الحساب، و حال الرواية الأولى و خاصة من جهة ذيلها كحال هذه الرواية.

و في الجمع، في قوله تعالى: **{يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ}** اختلف في هذه الولدان فقيل: إنهم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها و لا سيئات فيعاقبوا عليها فأنزلوا هذه المنزلة.

قال: و قد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **أنه سئل عن أطفال المشركين؟ فقال: هم خدم**

أهل الجنة.

أقول: و رواه في الدر المنثور عن الحسن، و الرواية ضعيفة لا تعويل عليها.

و في الدر المنثور، أخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة و البزار و ابن مردويه و البيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر**

بين يديك مشويا.

أقول: و في هذا المعنى روايات كثيرة و في بعضها أن المؤمن يأكل ما يشتهيه ثم يعود الباقي إلى ما كان عليه و يحيا فيطير إلى مكانه و يباهي بذلك.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا تَأْتِيهِمْ}** قال: الفحش و الكذب و الغنا.

أقول: لعل المراد بالغنا ما يكون منه لهوا أو الغنا مصحف الخنا.

و فيه: في قوله تعالى: **{وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ}** قال: علي بن أبي طالب (عليه السلام) و أصحابه و شيعته.

أقول: الرواية مبنية على ما ورد في ذيل قوله تعالى: **{يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ}** إسرائ: ٧١، إن اليمين هو الإمام الحق و معناها أن اليمين هو علي (عليه السلام) و أصحاب اليمين شيعته، و الرواية من الجري.

و فيه، في قوله تعالى: **{فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ}** شجر لا يكون له ورق و لا شوك فيه، و قرأ أبو عبد الله (عليه السلام): «و طلع منضود» قال: بعضه على بعض.

و في الدر المنثور، أخرج الحاكم و صححه و البيهقي في البعث عن أبي أمامة قال: كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يقولون: إن الله ينفعنا بالأعراب و مسائلهم. أقبل أعرابي يوما فقال: يا رسول الله لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية. و ما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): و ما هي؟ قال: السدر فإن لها شوكا، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): أ ليس يقول الله: **{فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ}** يخضده الله من شوكة فيجعل مكان كل شوكة ثمرة أنها تنبت ثمرا تفتق الثمر منها عن اثنين و سبعين لونا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر.

و في الجمع: و روت العامة عن علي (عليه السلام): أنه قرأ رجل عنده **{وَ طَلِحَ مَنْضُودٍ}** فقال: ما شأن الطلح إنما هو «و طلع» كقوله: **{وَ نَخْلٍ طَلَعَهَا هَضِيمٌ}** فقيل له: أ لا تغيره؟ قال: إن القرآن لا يهاج اليوم و لا يحرك، رواه عنه ابنه الحسن (عليه السلام) و قيس بن سعد.

و في الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و الفاريابي و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه عن علي بن أبي طالب في قوله: **{وَ طَلِحَ مَنْضُودٍ}** قال: هو الموز.

و في الجمع، ورد في الخبر: أن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها اقرأوا إن شئتم **{وَ ظِلِّ مَمْدُودٍ}** و روي أيضا: أن أوقات الجنة كغدوات الصيف لا يكون فيها حر و لا برد.

أقول: وروي الأول في الدر المنثور عن أبي سعيد وأنس وغيرهما عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي روضة الكافي، بإسناده عن علي بن إبراهيم عن ابن محبوب عن محمد بن إسحاق المدني عن أبي جعفر (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث يصف فيه الجنة وأهلها: **ويزور بعضهم بعضا ويتعمون في جناتهم في ظل ممدود في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وأطيب من ذلك.**

وفي تفسير القمي وقوله: **{إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً}** قال: الحور العين في الجنة **{فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرْباً}** قال: لا يتكلمون إلا بالعربية.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي قوله: **{عُرْباً}** قال: **كلامهن عربي.**

أقول: وفيه روايات أخر أن عربا جمع عروب وهي الغنجة.

وفيه، أخرج مسدد في مسنده وابن المنذر والطبراني وابن مردويه بسند حسن عن أبي بكر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله تعالى: **{ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَىٰ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ}** قال: **هما جميعا من هذه الأمة.**

أقول: وهذا المعنى مروى في غير واحد من الروايات لكن ظاهر آيات السورة أن القسمة لكافة البشر لا لهذه الأمة خاصة، ولعل المراد من هذه الروايات بيان بعض المصاديق وإن كان بعيدا، وكذا المراد مما ورد أن أصحاب اليمن أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام)، وما ورد أن أصحاب الشمال أعداء آل محمد (عليهم السلام).

وفي المحاسن، بإسناده عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **سألته عن الشرب بنفس واحد فكرهه وقال: ذلك شرب الهيم. قلت: وما الهيم؟ قال: الإبل.**

وفيه، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام): **أنه كان يكره أن يتشبه بهيم. قلت: وما الهيم؟ قال الرمل.**

أقول: والمعنيان جميعا واردان في روايات أخر.

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٥٧ الى ٩٦]

{نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾}

أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَ نُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا
فَطَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ
أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ
النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكِّرًا وَ مَتَاعًا
لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ
عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا
إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَ أَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ
﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ

كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَ رِيحَانٌ وَ جَنَّةٌ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾
فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزَّلْنَا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَ
تَصْلِيَةً جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

(بيان)

لما فصل سبحانه القول فيما ينتهي إليه حال كل من الأزواج الثلاثة ففصل حال أصحاب الشمال و أن
الذي ساقهم إلى ذلك نقضهم عهد العبودية و تكذيبهم للبعث و الجزاء و أمر نبيه (صلى الله عليه وآله و سلم) أن
يرد عليهم بتقرير البعث و الجزاء و بيان ما يجزون به يوم البعث.

وَبَنَّهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِالْمَعَادِ مَعَ أَنَّ الَّذِي يُخْبِرُهُمْ بِهِ هُوَ خَالِقُهُمُ الَّذِي يَدْبِرُ أَمْرَهُمْ وَيَقْدِرُ لَهُمُ الْمَوْتَ ثُمَّ
الإنشاء فهو يعلم ما يجري عليهم مدى وجودهم و ما ينتهي إليه حالهم و مع أن الكتاب الذي ينبئهم بالمعاد هو
قرآن كريم مصون من أن يلعب به أيدي الشياطين و أولياؤهم المضلين.

ثم يعيد الكلام إلى ما بدئ به من حال الأزواج الثلاثة و يذكر أن اختلاف أحوال الأقسام يأخذ من
حين الموت و بذلك تختتم السورة.

قوله تعالى: **{نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ}** السياق سياق الكلام في البعث و الجزاء و قد أنكره و
كذبوا به، فقوله: **{فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ}** تحضيض على تصديق حديث المعاد و ترك التكذيب به، و قد علله بقوله:
{نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ} كما يستفاد من التفرع الذي في قوله: **{فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ}**.

و إيجاب خلقه تعالى لهم و جوب تصديقه فيما يخبر به من المعاد من وجهين: أحدهما: أنه تعالى خلقهم
أول مرة فهو قادر على إعادة خلقهم ثانيا كما قال: **{قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}** يس: ٧٩.

و ثانيهما: أنه تعالى لما كان هو خالقهم و هو المدير لأمرهم المقدر لهم خصوصيات خلقهم و أمرهم فهو أعلم بما يفعل بهم و سيجري عليهم فإذا أنبأهم بأنه سيبعثهم بعد موتهم و يجزيهم بما عملوا إن خيرا و إن شرا لم يكن بد من تصديقه فلا عذر لمن كذب بما أخبر به كتابه من البعث و الجزاء، قال تعالى: **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}** الملك: ١٤، و قال: **{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}** الأنبياء: ١٠٤، و قال: **{وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا}** النساء: ١٢٢.

فحصل الآية: نحن خلقناكم و نعلم ما فعلنا و ما سنفعل بكم فنخبركم أنا سنبعثكم و نجزيكم بما عملتم فهلا تصدقون بما نخبركم به فيما أنزلناه من الكتاب.

و في الآية و ما يتلوها من الآيات التفات من الغيبة إلى الخطاب لأن السياق سياق التوبيخ و المعاتبه و ذلك بالخطاب أوقع و أكد.

قوله تعالى: **{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ}** الأمناء قذف المني و صبه و المراد قذفه و صبه في الأرحام، و المعنى: أفرأيتم المني الذي تصبونه في أرحام النساء.

قوله تعالى: **{أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ}** أي أأنتم تخلقونه بشرا مثلكم أم نحن خالقوه بشرا.

قوله تعالى: **{نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}** تدير أمر الخلق بجميع شئونه و خصوصياته من لوازم الخلق بمعنى إفاضة الوجود فوجود الإنسان المحدود بأول كينونته إلى آخر لحظة من حياته الدنيا بجميع خصوصياته التي تتحول عليه بتقدير من خالقه عز و جل. فموته أيضا كحياته بتقدير منه، و ليس يعتريه الموت لنقص من قدرة خالقه أن يخلقه بحيث لا يعتريه الموت أو من جهة أسباب و عوامل تؤثر فيه بالموت فتبطل الحياة التي أفاضها عليه خالقه تعالى فإن لازم ذلك أن تكون قدرته تعالى محدودة ناقصة و أن يعجزه بعض الأسباب و تغلب إرادته إرادته و هو محال كيف؟ و القدرة مطلقة و الإرادة غير مغلوبة.

و يتبين بذلك أن المراد بقوله: **{نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ}** أن الموت حق مقدر و ليس أمرا يقتضيه و يستلزمه نحو وجود الحي بل هو تعالى قدر له وجودا كذا ثم موتا يعقبه.

و أن المراد بقوله: **{وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}** - و السبق هو الغلبة و المسبوق المغلوب - و لسنا مغلوبين في عروض الموت عن الأسباب المقارنة له بأن نفيض عليكم حياة نريد أن

يدوم ذلك عليكم فيسبقنا الأسباب و تغلبنا فتبطل بالموت الحياة التي كنا نريد دوامها.

قوله تعالى: **{عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَ نُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} {عَلَىٰ}** متعلقه بقوله: **{قَدَرْنَا}** و جملة الجار و المجرور في موضع الحال أي نحن قدرنا بينكم الموت حال كونه على أساس تبديل الأمثال و الإنشاء فيما لا تعلمون.

و الأمثال جمع مثل بالكسر فالسكون و مثل الشيء ما يتحد معه في نوعه كالفرد من الإنسان بالنسبة إلى فرد آخر، و المراد بقوله: **{أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ}** أن نبدل أمثالكم من البشر منكم أو نبدل أمثالكم مكانكم، و المعنى على أي حال تبديل جماعة من أخرى و جعل الأخلاف مكان الأسلاف.

و قوله: **{و نُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} {مَا}** موصولة و المراد به الخلق و الجملة معطوفة على **{نُبَدِّلَ}** و التقدير و على أن ننشئكم و نوجدكم في خلق آخر لا تعلمونه و هو الوجود الأخروي غير الوجود الدنيوي الفاني.

و محصل معنى الآيتين أن الموت بينكم إنما هو بتقدير منا لا لنقص في قدرتنا بأن لا يتيسر لنا إدامة حياتكم و لا لغلبة الأسباب المهلكة المبيدة و قهرها و تعجزها لنا في حفظ حياتكم و إنما قدرناه بينكم على أساس تبديل الأمثال و إذهاب قوم و الإتيان بآخرين و إنشاء خلق لكم يناسب الحياة الآخرة وراء الخلق الدنيوي الدائر فالموت انتقال من دار إلى دار و تبدل خلق إلى خلق آخر و ليس بانعدام و فناء.

و احتمال بعضهم أن يكون الأمثال في الآية جمع مثل بفتحتين و هو الوصف فتكون الجملتان **{عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ}** إيلخ، و **{نُنشِئَكُمْ}** إيلخ، تفيدان معنى واحدا، و المعنى: على أن نغير أوصافكم و ننشئكم في وصف لا تعرفونه أو لا تعلمونه كحشركم في صفة الكلب أو الخنزير أو غيرها من الحيوان بعد ما كنتم في الدنيا على صفة الإنسان، و المعنى السابق أجمع و أكثر فائدة.

قوله تعالى: **{و لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ}** المراد بالنشأة الأولى نشأة الدنيا، و العلم بها بخصوصياتها يستلزم الإذعان بنشأة أخرى خالدة فيها الجزاء، فإن من المعلوم من النظام الكوني أن لا لغو و لا باطل في الوجود فهذه النشأة الفانية غاية باقية، و أيضا من ضروريات هذا النظام هداية كل شيء إلى سعادة نوعه و هداية الإنسان تحتاج إلى بعث الرسل و تشريع الشرائع و توجيه الأمر و النهي، و الجزاء على خير الأعمال و شرها

و ليس في الدنيا فهو في دار أخرى و هي النشأة الآخرة^١.

على أنهم شاهدوا النشأة الأولى و عرفوها و علموا أن الذي أوجدها عن كتم العدم هو الله سبحانه و إذ قدر عليها أولا فهو على إيجاد مثلها ثانيا قادر، قال تعالى: **{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}** يس: ٧٩، و هذا برهان على الإمكان يرتفع به استبعادهم للبعث.

و بالجملة يحصل لهم بالعلم بالنشأة الأولى علم بمبادئ البرهان على إمكان البعث فيرتفع به استبعاد البعث فلا استبعاد مع الإمكان.

و هذا - كما ترى - برهان على إمكان حشر الأجساد، محصله أن البدن المحشور مثل البدن الدنيوي و إذ جاز صنع البدن الدنيوي و إحياءه فليجز صنع البدن الآخروي و إحياءه لأنه مثله و حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد.

فن العجيب قول الزمخشري في الكشاف، في الآية: و في هذا دليل على صحة القياس حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الأخرى بالأولى. انتهى. و ذلك لأن الذي في الآية قياس برهاني منطقي و الذي يستدل بها عليه قياس فقهي مفيد للظن فأين أحدهما من الآخر؟.

و قال في روح المعاني، في الآية: فهلا تذكرون أن من قدر عليها يعني على النشأة الأولى فهو على النشأة الأخرى أقدر و أقدر فإنها أقل صنعا لحصول المواد و تخصيص الأجزاء و سبق المثال، و هذا على ما قالوا دليل على صحة القياس لكن قيل: لا يدل إلا على قياس الأولي لأنه الذي في الآية. انتهى.

و فيه ما في سابقه. على أن الذي في الآية ليس من قياس الأولي في شيء لأن الجامع بين النشأة الأولى و الأخرى أنهما مثلان و مبدأ القياس أن حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد.

و أما قوله: إن النشأة الأخرى أقل صنعا لحصول المواد و تخصيص الأجزاء، فهو ممنوع فإن المواد تحتاج إلى إفاضة الوجود بقاء كما تحتاج إليها في حدوثها و أول حصولها، و كذا تخصص الأجزاء يحتاج إليها بقاء كما تحتاج إليها فالصنع ثانيا كالصنع أولا.

و أما قوله: و سبق المثال، فقد خلط بين المثل و المثال فالبدن الآخروي بالنظر إلى نفسه مثل البدن الدنيوي لا على مثاله و لو كان على مثاله كانت الآخرة دنيا لا آخرة.

^١ الآية ٢٧ و ٢٨ من سورة ص.

فإن قلت: لو كان البدن الأخروي مثلاً للبدن الدنيوي و مثل الشيء غيره كان الإنسان المعاد في الآخرة غير الإنسان المبتدء في الدنيا لأنه مثله لا عينه.

قلت: قد تقدم في المباحث السابقة غير مرة أن شخصية الإنسان بروحه لا ببدنه، و الروح لا تتعدم بالموت وإنما يفسد البدن و تتلاشى أجزاؤه ثم إذا سوي ثانياً مثل ما كان في الدنيا ثم تعلقت به الروح كان الإنسان عين الإنسان الذي في الدنيا كما كان زيد الشائب مثلاً عين زيد الشاب لبقاء الروح على شخصيتها مع تغير البدن لحظة بعد لحظة.

قوله تعالى: **{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ}** - إلى قوله - **{مُحْرُومُونَ}** بعد ما ذكرهم بكيفية خلق أنفسهم و تقدير الموت بينهم تمهيداً للبعث و الجزاء و كل ذلك من لوازم ربوبيته عد لهم أموراً ثلاثة من أهم ما يعيشون به في الدنيا و هي الزرع الذي يقتاتون به و الماء الذي يشربونه و النار التي يصطلون بها و يتوسلون بها إلى جمل من مآربهم، و تثبت بذلك ربوبيته لهم فليست الربوبية إلا التدبير عن ملك.

فقال: **{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ}** الحرت العمل في الأرض و إلقاء البذر عليها **{أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ}** أي تنبتونه و تمنونه حتى يبلغ الغاية، و ضمير **{تَزْرَعُونَهُ}** للبذر أو الحرت المعلوم من المقام **{أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}** المنبتون المنمون حتى يكمل زرعاً **{لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا}** أي هشيمًا متكسراً متفتتاً **{فَطَلَّثُمْ}** أي فظلمت و صرتم **{تَفَكَّهُونَ}** أي تتعجبون مما أصيب به زرعكم و تتحدثون بما جرى قائلين **{إِنَّا لَمُغْرَمُونَ}** موقعون في الغرامة و الخسارة ذهب مالنا و ضاع وقتنا و خاب سعينا **{بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ}** ممنوعون من الرزق و الخير.

و لا منافاة بين نفي الزرع عنهم و نسبته إليه تعالى و بين توسط عوامل و أسباب طبيعية في نبات الزرع و نموه فإن الكلام عائد في تأثير هذه الأسباب و صنعها و ليس نحو تأثيرها باقتضاء من ذاتها منقطعة عنه تعالى بل يجعله و وضعه و موهبته، و كذا الكلام في أسباب هذه الأسباب، و ينتهي الأمر إلى الله سبحانه و أن إلى ربك المنتهى.

قوله تعالى: **{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ}** إلى قوله **{فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ}** المزن السحاب، و قوله: **{فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ}** تحضيض على الشكر، و شكره تعالى جميل ذكره تعالى على نعمه و هو إظهار عبوديته قولاً و عملاً. و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ}** - إلى قوله - **{وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ}** قال في الجمع:

الإيراء إظهار النار بالقدح، يقال أوري يوري، قال: ويقال قدح فأورى إذا أظهر فإذا لم يور يقال: قدح فأكبي، و قال: و المقوي النازل بالقواء من الأرض ليس بها أحد، و أقوت الدار خلت من أهلها. انتهى. و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }** خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم). لما ذكر سبحانه شواهد ربوبيته لهم و أنه الذي يخلقهم و يدبر أمرهم و من تدبيره أنه سيبعثهم و يجزيهم بأعمالهم و هم مكذبون بذلك أعرض عن خطابهم و التفت إلى خطاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إشعاراً بأنهم لا يفقهون القول فأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن ينزهه تعالى عن إشراكهم به و إنكارهم البعث و الجزاء.

فقوله: **{ فَسَبِّحْ بِاسْمِ }** إلخ، الفاء لتفريع التسيب على ما تقدم من البيان، و الباء للاستعانة أو الملازمة، و المعنى: فإذا كان كذلك فسبح مستعينا بذكر اسم ربك، أو المراد بالاسم الذكر لأن إطلاق اسم الشيء ذكر له كما قيل أو الباء للتعدي لأن تنزيه اسم الشيء تنزيه له، و المعنى: نزه اسم ربك من أن تذكر له شريكاً أو تنفي عنه البعث و الجزاء، و العظیم صفة الرب أو الاسم.

قوله تعالى: **{ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ } { فَلَا أُقْسِمُ }** قسم و قيل: لا زائدة و أقسم هو القسم، و قيل: لا نافية و أقسم هو القسم.

و «مواقع» جمع موقع و هو المحل، و المعنى: أقسم بحال النجوم من السماء، و قيل: مواقع جمع موقع مصدر ميمي بمعنى السقوط يشير به إلى سقوط الكواكب يوم القيامة أو وقوع الشهب على الشياطين، أو مساقط الكواكب في مغاربها، و أول الوجوه هو السابق إلى الذهن.

قوله تعالى: **{ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ }** تعظيم لهذا القسم و تأكيد على تأكيد.

قوله تعالى: **{ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ }** - إلى قوله - **{ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }** لما كان إنكارهم حديث وحدانيته تعالى في ربوبيته و ألوهيته و كذا إنكارهم للبعث و الجزاء إنما أبدوه بإنكار القرآن النازل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي فيه نبأ التوحيد و البعث كان إنكارهم منشعباً إلى إنكار أصل التوحيد و البعث أصلاً، و إلى إنكار ذلك بما أن القرآن ينبئهم به، فأورد تعالى أولاً بيانا لإثبات أصل الوحدانية و البعث بذكر شواهد من آياته تثبت ذلك و هو قوله: **{ مَن حَلَقْنَاكُمْ }** - إلى قوله - **{ وَ مَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ }**، و ثانياً بيانا يؤكد فيه كون القرآن الكريم كلامه المحفوظ عنده النازل منه و وصفه بأحسن أوصافه.

فقوله: **{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ}** جواب للقسم السابق، الضمير للقرآن المعلوم من السياق السابق ويستفاد من توصيفه بالكريم من غير تقييد في مقام المدح أنه كريم على الله عزيز عنده و كريم محمود الصفات و كريم بذال نفاع للناس لما فيه من أصول المعارف التي فيها سعادة الدنيا و الآخرة.

و قوله: **{فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ}** وصف ثان للقرآن أي محفوظ مصون عن التغيير و التبديل، و هو اللوح المحفوظ كما قال تعالى: **{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ}** البروج: ٢٢.

و قوله: **{لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}** صفة الكتاب المكنون و يمكن أن يكون وصفا ثالثا للقرآن و مآل الوجهين على تقدير كون لا نافية واحد.

و المعنى: لا يمس الكتاب المكنون الذي فيه القرآن إلا المطهرون أو لا يمس القرآن الذي في الكتاب إلا المطهرون.

و الكلام على أي حال مسوق لتعظيم أمر القرآن و تجليله فسه هو العلم به و هو في الكتاب المكنون كما يشير إليه قوله: **{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ}** الزخرف: ٤.

و المطهرون - اسم مفعول من التطهي - هم الذين طهر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصي و قذارات الذنوب أو مما هو أعظم من ذلك و أدق و هو تطهير قلوبهم من التعلق بغيره تعالى، و هذا المعنى من التطهير هو المناسب للمس الذي هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث كما هو ظاهر.

فالمطهرون هم الذين أكرمهم الله تعالى بتطهير نفوسهم كالملائكة الكرام و الذين طهرهم الله من البشر، قال تعالى: **{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}** الأحزاب: ٣٣، و لا وجه لتخصيص المطهرين بالملائكة كما عن جل المفسرين لكونه تقييدا من غير مقيد.

و ربما جعل **{لَا}** في **{لَا يَمَسُّهُ}** ناهية، و المراد بالمس على هذا مس كتابة القرآن، و بالطهارة الطهارة من الحدث أو الحدث و الخبث جميعا و قرئ «المطهرون» بتشديد الطاء و الهاء و كسر الهاء أي المتطهرون و مدلول الآية تحريم مس كتابة القرآن على غير طهارة.

و يمكن حمل الآية على هذا المعنى على تقدير كون **{لَا}** نافية بأن تكون الجملة إخباراً أريد به الإنشاء و هو أبلغ من الإنشاء.

قال في الكشاف: وإن جعلتها يعني جملة **{لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}** صفة للقرآن فالمعنى: لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس يعني مس المكتوب منه، انتهى و قد عرفت صحة أن يراد بالمس العلم و الاطلاع على تقدير كونها صفة للقرآن كما يصح على تقدير كونها صفة لكتاب مكنون.

و قوله: **{تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** وصف آخر للقرآن، و المصدر بمعنى اسم المفعول أي منزل من عند الله إليكم تفهيمونه و تعقلونه بعد ما كان في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون.

و التعبير عنه تعالى رب العالمين للإشارة إلى أن ربوبيته تعالى منسطة على جميع العالمين و هم من جملتهم فهو تعالى ربهم و إذا كان ربهم كان عليهم أن يؤمنوا بكتابه و يصغوا لكلامه و يصدقوه من غير تكذيب.

قوله تعالى: **{أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ}** الإشارة بهذا الحديث إلى القرآن، و الإدهان به التهاون به و أصله التلين بالدهن أستعير للتهاون، و الاستفهام للتوبيخ يوجبهم تعالى على عدهم أمر القرآن هينا لا يعتنى به.

قوله تعالى: **{وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ}** قيل: المراد بالرزق حظهم من الخير، و المعنى: و تجعلون حظكم من الخير الذي لكم أن تناوله بالقرآن أنكم تكذبون به أي تضعونه موضعه، و قيل: المراد بالرزق القرآن رزقهم الله إياه، و المعنى: تأخذون التكذيب مكان هذا الرزق الذي رزقتموه، و قيل: الكلام بحذف مضاف و التقدير: و تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون أي وضعت التكذيب موضع الشكر.

قوله تعالى: **{فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ}** - إلى قوله - **{صَادِقِينَ}** رجوع إلى أول الكلام بالتفريع على تكذيبهم بأنكم إن كنتم صادقين في نفيكم للبعث مصيبين في تكذيبكم لهذا القرآن الذي ينبئكم بالبعث رددتم نفس المحتضر التي بلغت الحلقوم إذ لو لم يكن الموت بتقدير من الله كان من الأمور الاتفاقية التي ربما أمكن الاحتيال لدفعها، فإذا لم تقدر على رجوعها وإعادة الحياة معها فاعلموا أن الموت حق مقدر من الله لسوق النفوس إلى البعث و الجزاء.

فقوله: **{فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ}** تفريع على تكذيبهم بالقرآن و بما أخبر به من

البعث والجزاء، ولو لا للتحضيض تعجيزا و تبكيثا لهم، و ضمير **{بَلَّغَتْ}** للنفس، و بلوغ النفس الحلقوم كناية عن الإشراف التام للموت.

و قوله: **{وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ}** أي تنظرون إلى المحتضر أي هو بمنظر منكم.

و قوله: **{وَوَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ}** أي و الحال أنا أقرب إليه منكم لإحاطتنا به وجودا و رسلنا القابضون لروحه أقرب إليه منكم و لكن لا تبصروننا و لا رسلنا.

قال تعالى: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}** الزمر: ٢٦، و قال: **{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}** السجدة: ١١، و قال: **{حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا}** الأنعام: ٦١.

و قوله: **{فَلَوْ لَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ}** تكرر لو لا لتأكيد لو لا السابقة، و **{مَدِينِينَ}** أي مجزيين من دان يدين بمعنى جزى يجزي، و المعنى: إن كنتم غير مجزيين ثوبا و عقابا بالبعث.

و قوله: **{تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** أي إن كنتم صادقين في دعواكم أن لا بعث و لا جزاء، و قوله: **{تَرْجِعُونَهَا}** مدخول لو لا التحضيضية بحسب التقدير و ترتيب الآيات بحسب التقدير فلو لا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم مديينين.

قوله تعالى: **{فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ فَرَوْحٌ وَ رِيحَانٌ وَ جَنَّةٌ نَعِيمًا}** رجوع إلى بيان حال الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة عند الموت و بعده و ضمير **{كَانَ}** للمتوفى المعلوم من السياق، و المراد بالمقربين السابقون المقربون المذكورون سابقا، و الروح الراحة، و الريحان الرزق، و قيل: هو الريحان المشموم من ريحان الجنة يؤتى به إليه فيشمه و يتوفى.

و المعنى: فأما إن كان المتوفى من المقربين فله أو فجزاؤه راحة من كل هم و غم و ألم و رزق من رزق الجنة و جنة نعيم.

قوله تعالى: **{وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ}** يمكن أن يكون اللام للاختصاص الملكي و معنى **{فَسَلَامٌ لَّكَ}** أنك تختص بالسلام من أصحاب اليمين الذين هم قرناؤك و رفقاؤك فلا ترى منهم إلا خيرا و سلاما.

و قيل: لك بمعنى عليك أي يسلم عليك أصحاب اليمين، و قيل غير ذلك.

و الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للدلالة على أنه يخاطب بهذا الخطاب: سلام لك من

أصحاب اليمين.

قوله تعالى: **{وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ}** تصلية النار الإدخال فيها، وقيل: مقاساة حرها وعذابها.

والمعنى: وأما إن كان من أهل التكذيب والضلال فلهم نزل من ماء شديد الحرارة، ومقاساة حر نار بحميم.

وقد وصفهم الله بالمكذبين الضالين فقدم التكذيب على الضلال لأن ما يلقونه من العذاب تبعة تكذيبهم وعنادهم للحق ولو كان ضلالاً بلا تكذيب وعناد كانوا مستضعفين غير نازلين هذه المنزلة، وأما قوله سابقاً: **{ثُمَّ إِنَّكُمْ أَهِيَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ}** فإذا كان المقام هناك مقام الرد لقولهم: **{أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ}** إلخ، كان الأنسب توصيفهم أولاً بالضلال ثم بالتكذيب.

قوله تعالى: **{إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}** الحق هو العلم من حيث إن الخارج الواقع يطابقه، واليقين هو العلم الذي لا لبس فيه ولا ريب فإضافة الحق إلى اليقين نحو من الإضافة البيانية جيء بها للتأكيد.

والمعنى: أن هذا الذي ذكرناه من حال أزواج الناس الثلاثة هو الحق الذي لا تردد فيه والعلم الذي لا شك يعتريه.

قوله تعالى: **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}** تقدم تفسيره، وهو تفريع على ما تقدمه من صفة القرآن وبيان حال الأزواج الثلاثة بعد الموت وفي الحشر.

والمعنى: فإذا كان القرآن على هذه الصفات وصادقا فيما ينبئ به من حال الناس بعد الموت فزه ربك العظيم مستعينا أو ملابسا باسمه وأنف ما يراه ويدعيه هؤلاء المكذبون الضالون.

(بحث روائي)

في الجمع في قوله تعالى: **{أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}** وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **لا يقولون أحكم زرعت وليقل حرثت.**

أقول: ورواه في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن أبي هريرة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

و في تفسير القمي **{أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ}** قال: من السحاب **{نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً}** لنار يوم القيامة **{وَمَتَاعاً لِلْمُقْرَبِينَ}** قال: المحتاجين.

و في المجمع، في قوله تعالى: **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}** فقد صح عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **أنه لما نزلت هذه الآية قال: اجعلوها في ركوعكم.**

أقول: و رواه في الفقيه، مرسلًا، و رواه في الدر المنثور، عن الجهني عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

و في الدر المنثور، أخرج النسائي و ابن جرير و محمد بن نصر و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرق في السنين و في لفظ ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجومًا ثم قرأ **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}**.

أقول: و ظاهره تفسير مواقع النجوم بأوقات نزول نجوم القرآن.

و في تفسير القمي: و قوله: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}** قال: معناه أقسم بمواقع النجوم.

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ}** قال: **عند الله في صحف مطهرة {لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}** قال: **المقربون.**

أقول: و تفسير المطهرين بالمقربين يؤيد ما أوردناه في البيان المتقدم، و قد أوردنا في ذيل قوله: **{هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ}** الآية: الجاثية: ٢٩، حديثًا عن الصادق (عليه السلام) في الكتاب المكنون.

و في المجمع في قوله تعالى: **{لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}** و قالوا: لا يجوز للجنب و الحائض و المحدث مس المصحف، عن محمد بن علي (عليه السلام).

أقول: المراد بمس المصحف مس كتابته بدليل الروايات الأخر.

و في الكافي، بإسناده عن داود بن فرقد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **سألته عن التعويد يعلق على الحائض قال: نعم لا بأس. و قال: تقرؤه و تكتبه و لا تصيبه يدها.**

و في الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و ابن أبي داود و ابن المنذر عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال: في كتاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لعمر بن حزم: **و لا تمس القرآن إلا عن طهور.**

أقول: و الروايات فيه كثيرة من طرق الشيعة و أهل السنة.

و فيه، أخرج مسلم و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: **مطر الناس على عهد**

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **أصبح من الناس شاكر و منهم كافر قالوا: هذه رحمة وضعها الله و قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا فنزلت هذه الآية {فَلَا أُفْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} حتى بلغ {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَدِّبُونَ}**.

أقول: و قد استفاضت الرواية من طرق أهل السنة أن الآيات نزلت في الأنواء و ظاهرها أنها مدنية لكنها لا تلائم سياق آيات السورة كما عرفت.

و في المجمع، و قراءة علي (عليه السلام) و ابن عباس و رويت عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): و تجعلون شكركم.

أقول: و رواه في الدر المنثور، عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و علي (عليه السلام).

و في تفسير القمي في قوله: **{غَيْرَ مَدِينِينَ}** قال: معناه فلو كنتم غير مجازين على أعمالكم **{تَرْجِعُونَهَا}** يعني به الروح إذا بلغت الحلقوم تردونها في البدن **{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}**.

و فيه، بإسناده عن أبي بصير قال: **سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ} في قبره {وَجَنَّةٌ نَعِيمًا} في الآخرة.**

و في الدر المنثور، أخرج القاسم بن مندة في كتاب الأحوال و الإيمان بالسؤال عن سلمان قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **إن أول ما يبشر به المؤمن عند الوفاة بروح و ريحان و جنة نعيم و إن أول ما يبشر به المؤمن في قبره أن يقال: أشر برضا الله تعالى و الجنة قدمت خير مقدم قد غفر الله لمن شيعك إلى قبرك، و صدق من شهد لك، و استجاب لمن استغفر لك.**

و فيه، أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **{فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ}** قال: تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه و تخبره أنه من أصحاب اليمين.

أقول: و ما أورده من المعنى مبني على كون الآية حكاية خطاب الملائكة، و التقدير قالت الملائكة سلام لك حال كونك من أصحاب اليمين فهي سلام و بشارة.

(٥٧) (سورة الحديد مدنية و هي تسع و عشرون آية) (٢٩)

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ١ الى ٦]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا
يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ
إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

(بيان)

غرض السورة حث المؤمنين و ترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله كما يشعر به تأكيد الأمر به مرة بعد مرة
في خلال آياتها {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ} الآية، {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا} الآية، {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} وقد سمت إنفاقهم ذلك إقراضا
منه لله عز اسمه فالله سبحانه خير مطلوب وهو لا يخلف الميعاد وقد وعدهم إن أقرضوه أن يضاعفه لهم وأن
يؤتيهم أجرا كريما كثيرا.

وقد أشار إلى أن هذا الإنفاق من التقوى والإيمان بالرسول وأنه يستتبع مغفرة الذنوب وإتيان كفلين
من الرحمة ولزوم التور بل والحق بالصديقين والشهداء عند الله سبحانه.

وفي خلال آياتها معارف راجعة إلى المبدأ والمعاد، ودعوة إلى التقوى وإخلاص الإيمان والزهد و
موعظة.

والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها وقد ادعى بعضهم إجماع المفسرين على ذلك.

ولقد افتتحت السورة بتسبيحه وتنزيهه تعالى بعده من أسمائه الحسنی لما في غرض السورة وهو الحث على الإنفاق من شائبة توهم الحاجة والنقص في ناحيته ونظيرتها في ذلك جميع السور المفتحة بالتسبيح وهي سور الحشر والصف والجمعة والتغابن المصدرة بسبح أو يسبح.

قوله تعالى: **{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** التسبيح التنزيه وهو نفى ما يستدعي نقصا أو حاجة مما لا يليق بساحة كماله تعالى، و **{مَا}** موصولة والمراد بها ما يعم العقلاء مما في السماوات والأرض كالملائكة والثقلين وغير العقلاء كالجنادات والدليل عليه ما ذكر بعد من صفاته المتعلقة بالعقلاء كالإحياء والعلم بذات الصدور.

فالمعنى: نزه الله سبحانه ما في السماوات والأرض من شيء وهو جميع العالم.

و المراد بتسبيحها حقيقة معنى التسبيح دون المعنى المجازي الذي هو دلالة وجود كل موجود في السماوات والأرض على أن له موجدا منزها من كل نقص متصفا بكل كمال، ودون عموم المجاز وهو دلالة كل موجود على تنزهه تعالى إما بلسان القول كالعقلاء وإما بلسان الحال كغير العقلاء من الموجودات وذلك لقوله تعالى: **{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}** إسرء: ٤٤، حيث استدرك أنهم لا يفقهون تسبيحهم ولو كان المراد بتسبيحهم دلالة وجودهم على وجوده وهي قيام الحجة على الناس بوجودهم أو كان المراد تسبيحهم وتحميدهم بلسان الحال وذلك مما يفقه الناس لم يكن للاستدراك معنى.

فتسبيح ما في السماوات والأرض تسبيح ونطق بالتنزيه بحقيقة معنى الكلمة وإن كنا لا نفقهه، قال تعالى: **{قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}** حم السجدة: ٢١.

وقوله: **{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** أي المنيع جانبه يغلب ولا يغلب، المتقن فعله لا يعرض على فعله ما يفسده عليه ولا يتعلق به اعتراض معترض.

قوله تعالى: **{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** الكلام موضوع على الحصر فهو المليك في السماوات والأرض يحكم ما يشاء لأنه الموجد لكل شيء فما في السماوات والأرض يقوم به وجوده وآثار وجوده فلا حكم إلا له فلا ملك ولا سلطنة إلا له.

وقوله: **{يُحْيِي وَيُمِيتُ}** إشارة إلى اسميه الحي والميت، وإطلاق **{يُحْيِي وَيُمِيتُ}** يفيد شمولهما لكل إحياء وإماتة كإيجاده الملائكة أحياء من غير سبق موت، وإحيائه

الجنين في بطن أمه وإحيائه الموتى في البعث وإيجاده الجماد ميتا من غير سبق حياة وإمامته الإنسان في الدنيا وإمامته ثانيا في البرزخ على ما يشير إليه قوله: **{رَبَّنَا أَمَتَّنَا إِثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا إِثْنَتَيْنِ}** المؤمن: ١١ وفي **{يُحْيِي وَيُمِيتُ}** دلالة على الاستمرار.

وقوله: **{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** فيه إشارة إلى صفة قدرته وأنها مطلقة غير مقيدة بشيء دون شيء، و في تذييل الآية بالقدرة على كل شيء مناسبة مع ما تقدمها من الإحياء والإماتة لما ربما يتوهمه المتوهم أن لا قدرة على إحياء الموتى ولا عين منهم ولا أثر.

قوله تعالى: **{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** لما كان تعالى قديرا على كل شيء مفروض كان محيطا بقدرته على كل شيء من كل جهة فكل ما فرض أولا فهو قبله فهو الأول دون الشيء المفروض أولا، و كل ما فرض آخرا فهو بعده لإحاطة قدرته به من كل جهة فهو الآخر دون الشيء المفروض آخرا، و كل شيء فرض ظاهرا فهو أظهر منه لإحاطة قدرته به من فوقه فهو الظاهر دون المفروض ظاهرا، و كل شيء فرض أنه باطن فهو تعالى أبطن منه لإحاطته به من ورائه فهو الباطن دون المفروض باطنا فهو تعالى الأول و الآخر و الظاهر و الباطن على الإطلاق و ما في غيره تعالى من هذه الصفات فهي إضافية نسبية.

و ليست أوليته تعالى و لا آخريته و لا ظهوره و لا بطونه زمانية و لا مكانية بمعنى مظهرية لهما و إلا لم يتقدمها و لا تنزه عنهما سبحانه بل هو محيط بالأشياء على أي نحو فرضت و كيفما تصورت.

فبان مما تقدم أن هذه الأسماء الأربعة الأول و الآخر و الظاهر و الباطن من فروع اسمه المحيط و هو فرع إطلاق القدرة فقدرة محيطة بكل شيء و يمكن تفريع الأسماء الأربعة على إحاطة وجوده بكل شيء فإنه تعالى ثابت قبل ثبوت كل شيء و ثابت بعد فناء كل شيء و أقرب من كل شيء ظاهر و أبطن من الأوهام و العقول من كل شيء خفي باطن.

و كذا للأسماء الأربعة نوع تفرع على علمه تعالى و يناسبه تذييل الآية بقوله: **{وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**.

و فسر بعضهم الأسماء الأربعة بأنه الأول قبل كل شيء و الآخر بعد هلاك كل شيء الظاهر بالأدلة الدالة عليه و الباطن غير مدرك بالحواس.

وقيل: الأول قبل كل شيء بلا ابتداء، و الآخر بعد كل شيء بلا انتهاء، و الظاهر الغالب العالي على كل شيء فكل شيء دونه، و الباطن العالم بكل شيء فلا أحد أعلم منه.

وقيل: الأول بلا ابتداء و الآخر بلا انتهاء و الظاهر بلا اقتراب و الباطن بلا احتجاب.
و هناك أقوال أخر في معناها غير جيدة أغمضنا عن إيرادها.

قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}** تقدم تفسيره.

قوله تعالى: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا}** تقدم تفصيل القول في معنى العرش في سورة الأعراف آية: ٥٤.

و تقدم أن الاستواء على العرش كناية عن الأخذ في تدبير الملك و لذا عقبه بالعلم بجزئيات الأحوال لأن العلم من لوازم التدبير.

و قوله: **{يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا}** الولوج - كما قال الراغب - الدخول في مضيق، و العروج ذهاب في صعود، و المعنى: يعلم ما يدخل و ينفذ في الأرض كماء المطر و البذور و غيرها و ما يخرج من الأرض كأنواع النبات و الحيوان و الماء و ما ينزل من السماء كالأمطار و الأشعة و الملائكة و ما يعرج فيها و يصعد كالأبخرة و الملائكة و أعمال العباد.

قوله تعالى: **{وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ}** لإحاطته بكم فلا تغيبون عنه أيما كنتم و في أي زمان عشتم و في أي حال فرضتم فذكر عموم الأمكنة **{أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ}** لأن الأعراف في مفارقة شيء شيئاً و غيبته عنه أن يتوسل إلى ذلك بتغيير المكان و إلا فنسبته تعالى إلى الأمكنة و الأزمنة و الأحوال سواء.

و قيل: المعية مجاز مرسل عن الإحاطة العلمية.

قوله تعالى: **{وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** كالفرع المترتب على ما قبله من كونه معهم أيما كانوا و كونه بكل شيء عليماً فإن لازم حضوره عندهم من دون مفارقة ما و احتجاب و هو عليم أن يكون بصيراً بأعمالهم يبصر ظاهر عملهم، و ما في باطنهم من نية و قصد.

قوله تعالى: **{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}** كرر قوله: **{لَهُ مُلْكُ}** إِنْج، لا ابتناء رجوع الأشياء إليه على عموم الملك فصرح به ليفيد الابتناء، قال تعالى: **{يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** المؤمن: ١٦.

وقوله: **{وَأِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}** الأمور جمع محلى باللام يفيد العموم كقوله: **{أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}** الشورى: ٥٣، فما من شيء إلا ويرجع إلى الله، ولا راد إليه تعالى إلا هو لا اختصاص الملك به فله الأمر وله الحكم.

وفي الآية وضع الظاهر موضع الضمير في **{إِلَى اللَّهِ}** وكذا في الآية السابقة **{وَأَلَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** ولعل الوجه في ذلك أن تفرع الجملتان قلوبهم كما يقرع المثل السائر لما سيجيء من ذكر يوم القيامة وجزيل أجر المنفقين في سبيل الله فيه.

قوله تعالى: **{يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر باختلاف فصول السنة في كل من البقاع الشمالية والجنوبية بعكس الأخرى، وقد تقدم في كلامه تعالى غير مرة.

والمрад بذات الصدور الأفكار المضمرة والنيات المكنونة التي تصاحب الصدور وتلازمها لما أنها تنسب إلى القلوب والقلوب في الصدور، و الجملة أعني قوله: **{وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** بيان لإحاطة علمه بما في الصدور بعد بيان إحاطة بصره بظواهر أعمالهم بقوله: **{وَأَلَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}**.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج أحمد و أبو داود و الترمذي و حسنه و النسائي و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن عرباض بن سارية: **أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، و قال: إن فيهن آية أفضل من ألف آية.**

أقول: و رواه أيضا عن ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

و في الكافي، بإسناده عن عاصم بن حميد قال: **سئل علي بن الحسين (عليه السلام) عن التوحيد فقال: إن الله عز و جل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} و الآيات من سورة الحديد إلى قوله: {عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} فمن رام وراء ذلك فقد هلك.**

و في تفسير القمي **{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** قال: هو

قوله: أوتيت جوامع الكلم، وقوله: **{هُوَ الْأَوَّلُ}** قال: أي قبل كل شيء، **{وَأَلْ آخِرُ}** قال: يبقى بعد كل شيء، **{وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** قال: بالضمائر.

وفي الكافي، وروي: أنه يعني عليا (عليه السلام) **سئل أين كان ربنا قبل أن يخلق سماء وأرضا؟ قال: أين سؤال عن مكان و كان الله ولا مكان.**

وفي التوحيد، خطبة للحسن بن علي (عليه السلام) وفيها: **الحمد لله الذي لم يكن فيه أول معلوم، ولا آخر متناه، ولا قبل مدرك، ولا بعد محدود، فلا تدرك العقول وأوهامها ولا الفكر وخطراتها ولا الأبواب وأذهانها صفتها فتقول: متى ولا بدئ مما، ولا ظاهر على ما، ولا باطن فيما.**

أقول: وقوله أول معلوم إلخ، أوصاف توضيحية أي ليس له أول ولو كان له أول كان من الجائز أن يتعلق به علم ولا آخر ولو كان له آخر كان متناهيا، ولا قبل ولو كان لكان جائز الإدراك ولا بعد وإلا لكان محدودا.

وقوله: ولا بدئ مما أي لم يبتدأ من شيء حتى يكون له أول ولا ظاهر على ما أي يتفوق على شيء بالوقوع والاستقرار عليه كالجسم على الجسم «ولا باطن فيما» أي لم يتبطن في شيء بالدخول فيه والاستتار به.

وفي نهج البلاغة: **و كل ظاهر غيره غير باطن، و كل باطن غيره غير ظاهر.**

أقول: معناه أن حيثية الظهور في غيره تعالى غير حيثية البطن والعكس، وأما هو تعالى فلها كان أحدي الذات لا تنقسم ولا تتجزى إلى جهة و جهة كان ظاهرا من حيث هو باطن و باطنا من حيث هو ظاهر فهو باطن خفي من كمال ظهوره و ظاهر جلي من كمال بطونه.

وفيه: **الحمد لله الأول فلا شيء قبله، و الآخر فلا شيء بعده، و الظاهر فلا شيء فوقه، و الباطن فلا**

شيء دونه.

أقول: المراد بالقبلية والبعدية ليس هو القبلية والبعدية الزمانية بأن يفرض هناك امتداد زمني غير متناهي الطرفين وقد حل العالم قطعة منه خاليا عنه طرفاه ويكون وجوده تعالى و تقدر منطبقا على الزمان كله غير خال عنه شيء من جانبه وإن ذهب إلى غير النهاية فيتقدم وجوده تعالى على العالم زمانا و يتأخر عنه زمانا ولو كان كذلك لكان تعالى متغيرا في ذاته وأحواله بتغير الأزمنة المتجددة عليه، و كان قبليته

و بعديته بتبع الزمان و كان الزمان هو الأول و الآخر بالأصالة.

و كذلك ليست ظاهريته و باطنيته بحسب المكان بنظير البيان بل هو تعالى سابق بنفس ذاته المتعالية على كل شيء مفروض و آخر بنفس ذاته عن كل أمر مفروض أنه آخر، و ظاهر، و باطن كذلك، و الزمان مخلوق له متأخر عنه.

و في الدر المنثور، أخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر و أبي سعيد عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قال: لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا: هذا الله كان قبل كل شيء فماذا كان قبل الله فإن قالوا لكم ذلك فقولوا: هو الأول قبل كل شيء و هو الآخر فليس بعده شيء و هو الظاهر فوق كل شيء و هو الباطن دون كل شيء و هو بكل شيء عليم.

و في التوحيد، بإسناده إلى أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: لم يزل الله عز و جل ربنا و العلم ذاته و لا معلوم فلما أحدث الأشياء وقع العلم منه على المعلوم.

أقول: ليس المراد بهذا العلم الصور الذهنية فيكون تعالى كجاني دار يتصور للدار صورة و هيئة قبل بنائها ثم يبنها على ما تصور فتطبق الصورة الذهنية على البناء الخارجي ثم تهدم الدار و الصورة الذهنية على حالها، و هذا هو المسمى بالعلم الكلي و هو مستحيل عليه تعالى بل ذاته تعالى عين العلم بمعلومه ثم المعلوم إذا تحقق في الخارج كان ذات المعلوم عين علمه تعالى به، و يسمى الأول العلم الذاتي و الثاني العلم الفعلي.

و فيه، خطبة لعلي (عليه السلام) و فيها: و علمها لا بأداة لا يكون العلم إلا بها، و ليس بينه و بين معلومه علم غيره.

أقول: المراد به أن ذاته تعالى عين علمه، و ليست هناك صورة زائدة.

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ٧ الى ١٥]

{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ
٧ وَ مَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ
الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ

الظلمات إِلَى الثُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ
لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ
دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢﴾ مَنْ
ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ
نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ
مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿٥﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ
وَإِرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٦﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ
فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧﴾

(بيان)

أمر مؤكد بالإنفاق في سبيل الله و خاصة الجهاد على ما يؤيده قوله: **{لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٍ}** الآية، و يتأيد بذلك ما قيل: إن قوله: **{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا}** إِنْخ، نزل في غزوة تبوك.

قوله تعالى: **{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ}** إِنْخ، المستفاد من سياق الآيات أن الخطاب في الآية للمؤمنين بالله ورسوله لا للكفار و لا للمؤمنين و الكفار جميعا كما قيل، و أمر الذين تلبسوا بالإيمان بالله ورسوله بالإيمان معناه الأمر بتحقيق الإيمان بترتيب آثاره عليه إذ لو كانت صفة من الصفات كالسخاء و العفة و الشجاعة ثابتة في نفس الإنسان حق ثبوتها لم يتخلف عنها أثرها الخاص و من آثار الإيمان بالله ورسوله الطاعة فيما أمر الله ورسوله به.

و من هنا يظهر أولا: أن أمر المؤمن بالإيمان في الحقيقة أمر للمتحقق بمرتبة من الإيمان أن يتلبس بمرتبة هي أعلى منها، و هذا النوع من الأمر فيه إيحاء إلى أن الذي عند المأمور من المأمور به لا يرضي الأمر كل الإرضاء.

و ثانيا: أن قوله: **{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا}** أمر بالإنفاق مع التلويح إلى أنه أثر صفة هم متلبسون بها فعليهم أن ينفقوا لما اتصفوا بها فيثول إلى تعليل الإنفاق بإيمانهم.

و قوله: **{وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ}** استخلاف الإنسان جعله خليفة، و المراد به إما خلافتهم عن الله سبحانه يخلفونه في الأرض كما يشير إليه قوله: **{إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}** البقرة: ٣٠، و التعبير عما بأيديهم من المال بهذا التعبير لبيان الواقع و لترغيبهم في الإنفاق فإنهم إذا أيقنوا أن المال لله و هم مستخلفون عليه و كلاء من ناحيته يتصرفون فيه كما أذن لهم سهل عليهم إنفاقه و لم تخرج نفوسهم من ذلك.

و إما خلافتهم عن سبقتهم من الأجيال كما يخلف كل جيل سابقه، و في التعبير به أيضا ترغيب في الإنفاق فإنهم إذا تذكروا أن هذا المال كان لغيرهم فلم يدم عليهم علموا أنه كذلك لا يدوم لهم و سيتركونه لغيرهم و هان عليهم إنفاقه و سخت بذلك نفوسهم.

و قوله: **{فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}** وعد للأجر على الإنفاق تأكيداً للترغيب، و المراد بالإيمان الإيمان بالله ورسوله.

قوله تعالى: **{وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ}** إِنْخ، المراد بالإيمان بالإيمان بحيث يترتب عليه آثاره و منها الإنفاق في سبيل الله و إن شئت فقل: المراد ترتيب آثار ما عندهم من الإيمان عليه.

و قوله: **{وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ}** عبر الرب بالرب و إضافة إليهم تلويحا إلى علة توجه الدعوة و الأمر كأنه قيل: يدعوكم لتؤمنوا بالله لأنه ربكم يجب عليكم أن تؤمنوا به.

و قوله: **{وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** تأكيد للتوبيخ المفهوم من أول الآية، و ضمير **{أَخَذَ}** لله سبحانه أو للرسول و على أي حال المراد بالميثاق المأخوذ هو الذي تدل عليه شهادتهم على وحدانية الله و رسالة رسوله يوم آمنوا به (صلى الله عليه وآله و سلم) من أنهم على السمع و الطاعة.

و قيل: المراد بالميثاق هو الميثاق المأخوذ منهم في الذر، و على هذا فضمير **{أَخَذَ}** لله سبحانه، و فيه أنه بعيد عن سياق الاحتجاج عليهم فإنهم غافلون عنه، على أن أخذ الميثاق في الذر لا يختص بالمؤمنين بل يعم المنافقين و الكفار.

قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}** إِنْخ، المراد بالآيات البينات آيات القرآن الكريم المبينة لهم ما عليهم من فرائض الدين، و فاعل **{لِيُخْرِجَكُم}** الضمير العائد إلى الله أو إلى رسوله (صلى الله عليه وآله و سلم) و مرجع الثاني أيضا هو الأول فالميثاق ميثاقه و قد أخذه بواسطة رسوله أو بغير واسطته كما أن الإيمان به و برسوله إيمان به و لذلك قال في صدر الآية: **{وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** فذكر نفسه و لم يذكر رسوله إشارة إلى أن الإيمان برسوله إيمان به.

و قوله: **{وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرؤُفٌ رَّحِيمٌ}** في تذييل الآية برأفته تعالى و رحمته إشارة إلى أن الإيمان الذي يدعوهم إليه رسوله خير لهم و أصلح و هم الذين ينتفعون به دون الله و رسوله، ففيه تأكيد ترغيبهم على الإيمان و الإنفاق.

قوله تعالى: **{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ}** الميراث و التراث المال الذي ينتقل من الميت إلى من بقي بعده من وراثته، و إضافة الميراث إلى السماوات و الأرض بيانية فالسماوات و الأرض هي الميراث بما فيهما من الأشياء التي خلق منهما مما يمتلكه ذوو الشعور من سكتنهما فالسماوات و الأرض شاملة لما فيهما مما خلق منهما

و يتصرف فيها ذوو الشعور كالإنسان مثلا بتخصيص ما يتصرفون فيه لأنفسهم و هو الملك الاعتباري الذي هداهم الله سبحانه إلى اعتباره فيما بينهم لينتظم بذلك جهات حياتهم الدنيا.

غير أنهم لا يبقون و لا يبقى لهم بل يذهب الموت المقدر بينهم فينتقل ما في أيديهم إلى من بعدهم و هكذا حتى يفنى الجميع و لا يبقى إلا هو سبحانه.

فالأرض مثلا و ما فيها و عليها من مال ميراث من جهة أن كل جيل من سكانها يرثها ممن قبله فكانت ميراثا دائما دائرا بينهم خلفا عن سلف، و ميراث من جهة أنهم سيفنون جميعا و لا يبقى لها إلا الله الذي استخلفهم عليها.

و لله سبحانه ميراث السماوات و الأرض بكلا المعنيين، أما الأول: فلأنه الذي يملكهم المال و هو المالك لما ملكهم، قال تعالى: **{لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ}** لقمان: ٢٦، و قال: **{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ}** النور: ٤٢، و قال: **{وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ}** النور: ٣٣.

و أما الثاني: فظاهر آيات القيامة كقوله تعالى: **{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}** الرحمن: ٢٦ و غيره، و الذي يسبق إلى الذهن أن المراد بكونهما ميراثا هو المعنى الثاني.

و كيف كان ففي الآية توبيخ شديد لهم على عدم إنفاقهم في سبيل الله من المال الذي لا يرثه بالحقيقة إلا هو تعالى و لا يبقى لهم و لا لغيرهم، و الإظهار في موضع الإضمار في قوله: **{وَلِلَّهِ}** لتشديد التوبيخ.

قوله تعالى: **{لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَ قَاتَلُوا}** إلخ، الاستواء بمعنى التساوي، و قسم قوله: **{مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ}** محذوف إيجازا لدلالة قوله: **{أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَ قَاتَلُوا}** عليه.

و المراد بالفتح - كما قيل - فتح مكة أو فتح الحديبية و عطف القتال على الإنفاق لا يخلو من إشعار بل دلالة على أن المراد بالإنفاق في سبيل الله المندوب إليه في الآيات هو الإنفاق في الجهاد.

و كان الآية مسوقة لبيان أن الإنفاق في سبيل الله كلما عجل إليها كان أحب عند الله و أعظم درجة و منزلة و إلا فظاهر أن هذه الآيات نزلت بعد الفتح و القتال الذي بادروا إليه قبل الفتح و بعض المقاتل التي بعده.

وقوله: **{وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}** أي وعد الله المثوبة الحسنى كل من أنفق وقاتل قبل الفتح أو أنفق وقاتل بعده وإن كانت الطائفة الأولى أعظم درجة من الثانية، وفيه تطيب لقلوب المتأخرين إنفاقا وقتالا أن لهم نيلا من رحمته وليسوا مجرومين مطلقا فلا موجب لأن يأسوا منها وإن تأخروا.

وقوله: **{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** تذييل متعلق بجميع ما تقدم ففيه تشديد للتوبيخ و تقرير و تثبيت لقوله: **{لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ}** إلخ، و لقوله: **{وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}** ويمكن أن يتعلق بالجملة الأخيرة لكن تعلقه بالجميع أعم وأشمل.

قوله تعالى: **{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}** قال الراغب: و سمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضا. انتهى، و قال في الجمع: وأصله القطع فهو قطعة عن مالكة بإذنه على ضمان رد مثله. قال: و المضاعفة الزيادة على المقدار مثله أو أمثاله. انتهى، و قال الراغب: الأجر و الأجرة ما يعود من ثواب العمل دنيويا كان أو أخرويا قال: و لا يقال إلا في النفع دون الضر بخلاف الجزاء فإنه يقال في النفع و الضر. انتهى ملخصا.

و ما يعطيه تعالى من الثواب على عمل العبد تفضل منه من غير استحقاق من العبد فإن العبد و ما يأتيه من عمل ملك طلق له سبحانه ملكا لا يقبل النقل و الانتقال غير أنه اعتبر اعتبارا تشريعا العبد مالكا و ملكه عمله، و هو المالك لما ملكه و هو تفضل آخر ثم اختار ما أحبه من عمله فوعده ثوابا على عمله و سماه أجرا و جزاء و هو تفضل آخر، و لا ينتفع به في الدنيا و الآخرة إلا العبد قال تعالى: **{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ}** آل عمران: ١٧٢، و قال: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}** حم السجدة: ٨، و قال بعد وصف الجنة و نعيمها: **{إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيِكُمْ مَشْكُورًا}** الإنسان: ٢٢، و ما وعده من الشكر و عدم المن عند إيتاء الثواب تمام التفضل.

و في الآية حث بليغ على ما ندب إليه من الإنفاق في سبيل الله حيث استفهم عن الذي ينفق منهم في سبيل الله و مثل إنفاقه بأنه قرض يقرضه الله سبحانه و عليه أن يرده ثم قطع أنه لا يرد مثله إليه بل يضاعفه و لم يكتف بذلك بل أضاف إليه أجرا كريما في الآخرة و الأجر الكريم هو المرضي في نوعه و الأجر الأخروي كذلك لأنه غاية ما يتصور

من النعمة عند غاية ما يتصور من الحاجة.

قوله تعالى: **{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ}** إلخ، اليوم ظرف لقوله: **{لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}** و المراد به يوم القيامة، و الخطاب في **{تَرَى}** للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو لكل سامع يصح خطابه، و الظاهر أن الباء في **{بِأَيْمَانِهِمْ}** بمعنى في.

و المعنى: لمن أقرض الله قرضاً حسناً أجر كريم يوم ترى أنت يا رسول الله - أو كل من يصح منه الرؤية - المؤمنين بالله و رسوله و المؤمنات يسعى نورهم أمامهم و في أيمنهم و اليمين هو الجهة التي منها سعادتهم.

و الآية مطلقة تشمل مؤمني جميع الأمم و لا تختص بهذه الأمة، و التعبير عن إشراق النور بالسعي يشعر بأنهم ساعون إلى درجات الجنة التي أعدها الله سبحانه لهم و تستنير لهم جهات السعادة و مقامات القرب واحدة بعد واحدة حتى يتم لهم نورهم كما قال تعالى: **{وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا}** الزمر: ٧٣، و قال: **{يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا}** مريم: ٨٥، و قال: **{يَوْمَ لَا يُجْزَى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا}** التحريم: ٨.

و للمفسرين في تفسير مفردات الآية أقوال مختلفة أغمضنا عنها لعدم دليل من لفظ الآية عليها، و سيوافيك ما في الروايات الماثورة في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

و قوله: **{بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}** إلخ، و المراد بالبشرى ما يبشر به و هو الجنة و الباقي ظاهر.

و قوله: **{ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}** كلام الله سبحانه و الإشارة إلى ما ذكر من سعي النور و البشرى أو من تمام قول الملائكة و الإشارة إلى الجنات و الخلود فيها.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ}** إلى آخر الآية، النظر إذا تعدى بنفسه أفاد معنى الانتظار و الإهمال، و إذا عدي بإلى نحو نظر إليه كان بمعنى إلقاء البصر نحو الشيء و إذا عدي بفي كان بمعنى التأمل، و الاقتباس أخذ قبس من النار.

و السياق يفيد أنهم اليوم في ظلمة أحاطت بهم سرادقها و قد ألقوا إلى المسير نحو دارهم التي يخلدون فيها غير أن المؤمنين و المؤمنات يسرون بنورهم الذي يسعى بين

أيديهم و بأيمانهم فيبصرون الطريق و يهتدون إلى مقاماتهم، و أما المنافقون و المنافقات فهم مغشون بالظلمة لا يهتدون سبيلا و هم مع المؤمنين كما كانوا في الدنيا معهم و معدودين منهم فيسبق المؤمنون و المؤمنات إلى الجنة و يتأخر عنهم المنافقون و المنافقات في ظلمة تغشاهم فيسألون المؤمنين و المؤمنات أن ينتظروهم حتى يلحقوا بهم و يأخذوا قبسا من نورهم ليستضيئوا به في طريقهم.

و قوله: **{قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا}** القائل به إما الملائكة أو قوم من كل المؤمنين كأصحاب الأعراف.

و كيف كان فهو من الله و بإذنه، و الخطاب بقوله: **{ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا}** قيل: إنه خطاب مبني على التهم و الاستهزاء كما كانوا يستهزئون في الدنيا بالمؤمنين، و الأظهر على هذا أن يكون المراد بالوراء الدنيا، و محصل المعنى: ارجعوا إلى الدنيا التي تركتموها وراء ظهوركم و عملتم فيها ما عملتم على النفاق، و التمسوا من تلك الأعمال نورا فإنما النور نور الأعمال أو الإيمان و لا إيمان لكم و لا عمل.

و يمكن أن يجعل هذا وجها على حياله من غير معنى الاستهزاء بأن يكون قوله: **{ارْجِعُوا}** أمرا بالرجوع إلى الدنيا و اكتساب النور بالإيمان و العمل الصالح و ليسوا براجعين و لا يستطيعون فيكون الأمر بالرجوع كالأمر بالسجود المذكور في قوله تعالى: **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ}** القلم: ٤٣.

و قيل: المراد ارجعوا إلى المكان الذي قسم فيه النور و التمسوا من هناك فيرجعون فلا يجدون شيئا فينصرفون إليهم و قد ضرب بينهم بسور، و هذا خدعة منه تعالى يخدعهم بها كما كانوا في الدنيا يخادعون كما قال: **{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خَادِعُهُمْ}** النساء: ١٤٢.

قوله تعالى: **{فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}** سور المدينة حائطها الحاجز بينها و بين الخارج منها، و الضمير في **{فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ}** راجع إلى المؤمنين و المنافقين جميعا أي ضرب بين المؤمنين و بين المنافقين بسور حاجز يحجز إحدى الطائفتين عن الأخرى.

قيل: السور هو الأعراف و هو غير بعيد و قد تقدمت إشارة إليه في تفسير قوله

تعالى: **{وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ}** (الآية) الأعراف: ٤٦، وقيل: السور غير الأعراف.

وقوله: **{لَهُ بَابٌ}** أي للسور باب وهذا يشبه حال المنافقين في الدنيا فقد كانوا فيها بين المؤمنين لهم اتصال بهم وارتباط وهم مع ذلك محبوبون عنهم بحجاب. على أنهم يرون أهل الجنة ويزيد بذلك حسرتهم وندامتهم. وقوله: **{بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}** **{بَاطِنُهُ}** مبتدأ وجملة **{فِيهِ الرَّحْمَةُ}** مبتدأ وخبر و هي خبر **{بَاطِنُهُ}** وكذا **{ظَاهِرُهُ}** مبتدأ وجملة **{مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}** مبتدأ وخبر هي خبره، و ضميراً **{فِيهِ}** للباطن والظاهر.

ويظهر من كون باطن السور فيه رحمة و ظاهره من قبله العذاب أن السور محيط بالمؤمنين وهم في داخله و المنافقون في الخارج منه.

وفي اشتمال داخله الذي يلي المؤمنين على الرحمة و ظاهره الذي يلي المنافقين على العذاب مناسبة لحال الإيمان في الدنيا فإنه نعمة لأهل الإخلاص من المؤمنين يبتهجون بها و يلتذون و عذاب لأهل النفاق يتخرجون من التلبس به و يتألمون منه.

وقوله تعالى: **{يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ}** إلى آخر الآية استئناف في معنى جواب السؤال كأنه قيل: فما ذا يفعل المنافقون و المنافقات بعد ضرب السور و مشاهدة العذاب من ظاهره؟ فقيل: ينادونهم إنح. و المعنى: ينادي المنافقون و المنافقات المؤمنين و المؤمنات بقولهم: **{أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ}** يريدون به كونهم في الدنيا مع المؤمنين و المؤمنات في ظاهر الدين.

وقوله: **{قَالُوا بَلَى}** إلى آخر الآية جواب المؤمنين و المؤمنات لهم و المعنى: **{قَالُوا}** أي قال المؤمنون و المؤمنات جواباً لهم **{بَلَى}** كنتم في الدنيا معنا **{وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ}** أي محنتم و أهلكتم **{أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ}** الدوائر بالدين و أهله **{وَأِرْتَبْتُمْ}** و شككتم في دينكم **{وَعَرَّيْتُمْ الْأُمَانِي}** و منها أمنيتم أن الدين سيظفأ نوره و يتركه أهله **{حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}** و هو الموت **{وَعَرَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ}** بفتح الغين و هو الشيطان.

و الآية - كما ترى - تفيد أن المنافقين و المنافقات يستنصرون المؤمنين و المؤمنات على ما هم فيه من الظلمة متوسلين بأنهم كانوا معهم في الدنيا ثم تفيد أن المؤمنين و المؤمنات يجيئون بأنهم كانوا معهم لكن قلوبهم كانت لا توافق ظاهر حالهم حيث يفتنون أنفسهم

و يتربصون و يرتابون و تغرهم الأمانى و يغرهم بالله الغرور، و هذه الصفات الخبيثة آفات القلوب فكانت القلوب غير سليمة و لا ينفع يوم القيامة إلا القلب السليم قال تعالى: **{يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** الشعراء: ٥٨٩.

قوله تعالى: **{قَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}** تمة كلام المؤمنين و المؤمنات يخاطبون به المنافقين و المنافقات و يضيفون إليهم الكفار و هم المعلنون لكفرهم أنهم رهنا أعمالهم كما قال تعالى: **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}** المدثر: ٣٨، لا يؤخذ منهم فدية يخلصون بها أنفسهم و الفدية أحد الأمرين اللذين بهما التخلص من الرهانة و الآخر ناصر ينصر فينجي و قد نفوه بقولهم: **{مَأْوَاكُمُ النَّارُ}** إلخ.

فقوله: **{مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَ بئسَ الْمَصِيرُ}** ينفي أي ناصر ينصرهم و ينجيهم من النار غير النار على ما يفيدته قوله: **{هِيَ مَوْلَاكُمْ}** من الحصر، و المولى هو الناصر و الجملة مسوقة للتهكم.

و يمكن أن يكون المولى بمعنى من يلي الأمر فإنهم كانوا يدعون لحوائجهم من المأكل و المشرب و الملبس و المنكح و المسكن غير الله سبحانه و حقيقته النار فاليوم مولاهم النار و هي التي تعد لهم ذلك فأكلهم من الزقوم و مشربهم من الحميم و ملبسهم من ثياب قطعت من النار و قرناؤهم الشياطين و مأواهم النار على ما أخبر الله سبحانه به في آيات كثيرة من كلامه.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و أبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: **خرجنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) عام الحديبية حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم قلنا: من هم يا رسول الله أقرش؟ قال: لا و لكنهم أهل اليمن هم أرق أفئدة و ألين قلوبا. قلنا: أ هم خير منا يا رسول الله؟ قال: لو كان لأحدكم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مد أحدكم و لا نصيفه إلا إن هذا فصل ما بيننا و بين الناس {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتِلٌ} (الآية).**

أقول: روي هذا المعنى بغير واحد من الطرق بألفاظ متقاربة و هي مشتملة على الآية ويشكل بأن ظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد الفتح و المراد به إما الحديدية أو فتح مكة فلا تنطبق على ما قبل الفتح.

وفيه، أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية **{لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلٌ}** قال أبو الدحداح: و الله لأنفقن اليوم نفقة أدرك بها من قبلي و لا يسبقني بها أحد بعدي فقال: اللهم كل شيء يملكه أبو الدحداح فإن نصفه لله حتى بلغ فرد نعله ثم قال: و هذا.

و في تفسير القمي في قوله: **{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ}** قال: يقسم النور بين الناس يوم القيامة على قدر إيمانهم يقسم للمنافق فيكون نوره بين إبهام رجله اليسرى فينظر نوره ثم يقول للمؤمنين: مكانكم حتى أقتبس من نوركم فيقول المؤمنون لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا و يضرب بينهم بسوره باب فينادون من وراء السور للمؤمنين: **{أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا: بَلَىٰ وَ لَكِنَّا كُنَّا نُنْفِسُكُمْ}** قال: بالمعاصي **{وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُكُمْ}** قال: أي شككتهم و تربصتكم.

و قوله: **{فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ}** قال: و الله ما عنى بذلك اليهود و النصرى و ما عنى به إلا أهل القبلة ثم قال: **{مَأْوَاكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ}** قال: هي أولى بكم.

أقول: يعنى بأهل القبلة المنافقين منهم.

و في الكافي، بإسناده عن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: **تجنبوا المنى فإنها تذهب بهجة ما خولتم و تستصغرون بها مواهب الله جل و عز عندكم و تعقبكم الحشرات فيما وهمتم به أنفسكم.**

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ١٦ الى ٢٤]

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾}

و الإنفاق في سبيل الله و تتضمن عتاب المؤمنين على ما يظهر من علائم قسوة القلوب منهم، و تأكيد الحث على الإنفاق ببيان درجة المنفقين عند الله و الأمر بالمسابقة إلى المغفرة و الجنة و ذم الدنيا و أهلها الذين يخلون و يأمرؤن الناس بالبخل.

و قد تغير السياق خلال الآيات إلى سياق عام يشمل المسلمين و أهل الكتاب بعد اختصاص السياق السابق بالمسلمين و سيجيء توضيحه.

قوله تعالى: **{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}** إلى آخر الآية، يقال: أنى يأتي إني و إناء أي جاء وقته، و خشوع القلب تأثره قبال العظمة و الكبرياء، و المراد بذكر الله ما يذكر به الله، و ما نزل من الحق هو القرآن النازل من عنده تعالى و **{مِنَ الْحَقِّ}** بيان لما نزل، و من شأن ذكر الله تعالى عند المؤمن أن يعقب خشوعا كما أن من شأن الحق النازل من عنده تعالى أن يعقب خشوعا ممن آمن بالله و رسوله. و قيل: المراد بذكر الله و ما نزل من الحق جميعا القرآن، و على هذا فذكر القرآن بوصفيه لكون كل من الوصفين مستدعيا لخشوع المؤمن فالقرآن لكونه ذكر الله يستدعي الخشوع كما أنه لكونه حقا نازلا من عنده تعالى يستدعي الخشوع.

و في الآية عتاب للمؤمنين على ما عرض لقلوبهم من القسوة و عدم خشوعها لذكر الله و الحق النازل من عنده تعالى و تشبيهه لحالهم بحال أهل الكتاب الذين نزل عليهم الكتاب و طال عليهم الأمد فقست قلوبهم.

و قوله: **{وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ}** عطف على قوله: **{تَخْشَع}** إنخ، و المعنى: أ لم يأن لهم أن تخشع قلوبهم و أن لا يكونوا إنخ، و الأمد الزمان، قال الراغب: الفرق بين الزمان و الأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية و الزمان عام في المبدأ و الغاية و لذلك قال بعضهم: إن المدى و الأمد يتقاربان. انتهى.

و قد أشار سبحانه بهذا الكلام إلى صيرورة قلوبهم كقلوب أهل الكتاب القاسية و القلب القاسي حيث يفقد الخشوع و التأثر عن الحق ربما خرج عن زي العبودية فلم يتأثر عن المناهي و اقترف الإثم و الفسوق، و لذا أردف قوله: **{فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ}** بقوله: **{وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}**.

قوله تعالى: **{اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}** إلى آخر الآية في تعقيب عتاب

المؤمنين على قسوة قلوبهم بهذا التمثيل تقوية لرجائهم و ترغيب لهم في الخشوع.

ويمكن أن يكون من تمام العتاب السابق ويكون تنبيها على أن الله لا يخلي هذا الدين على ما هو عليه من الحال بل كلما قست قلوب و حرموا الخشوع لأمر الله جاء بقلوب حية خاشعة له يعبد بها كما يريد.

فتكون الآية في معنى قوله: **{هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}**
سورة محمد: ٣٨.

ولذلك ذيل الآية بقوله: **{قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آلِ آيَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}**.

قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقَاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}** تكرر لحديث المضاعفة و الأجر الكريم للترغيب في الإنفاق في سبيل الله و قد أضيف إلى الذين أقرضوا الله قرضا حسنا المصدقون و المصدقات.

و المصدقون و المصدقات - بتشديد الصاد و الدال - المصدقون و المتصدقات، و قوله: **{وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ}** عطف على مدخول اللام في **{الْمُصَّدِّقِينَ}**، و المعنى: أن الذين تصدقوا و الذين أقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ما أعطوه و لهم أجر كريم.

قوله تعالى: **{وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَ الشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ}** إلخ، لم يقل: آمنوا بالله و رسوله كما قال في أول السورة: **{آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ أَنْفِقُوا}** و قال في آخرها: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ}** لأنه تعالى لما ذكر أهل الكتاب في الآية السابقة بقوله: **{وَ لَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ}** عدل عن السياق السابق إلى سياق عام يشمل المسلمين و أهل الكتاب جميعا كما قال بعد: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ}** و أما الآيتان المذكورتان في أول السورة و آخرها فالخطاب فيهما للمؤمنين هذه الأمة خاصة و لذا جيء فيهما بالرسول مفردا.

و المراد بالإيمان بالله و رسوله محض الإيمان الذي لا يفارق بطبعه الطاعة و الاتباع كما مرت الإشارة إليه في قوله: **{آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ}** الآية، و المراد بقوله: **{أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَ الشَّهَادَةُ}** إلحاقهم بالصادقين و الشهداء بقرينة قوله: **{عِنْدَ رَبِّهِمْ}** و قوله: **{لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ}** فهم ملحقون بالطائفتين يعامل معهم معاملة الصادقين و الشهداء فيعطون مثل أجرهم و نورهم.

و الظاهر أن المراد بالصدّيقين و الشهداء هم المذكورون في قوله: **{وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصّٰدِقِينَ وَ الشّٰهَدَاءِ وَ الصّٰلِحِينَ وَ حَسَنَ أَوْلِيَٰكَ رَفِيقًا}** النساء: ٦٩، و قد تقدم في تفسير الآية أن المراد بالصدّيقين هم الذين سرى الصدق في قلوبهم و فعلهم فيقولون ما يقولون و يفعلون ما يفعلون، و الشهداء هم شهداء الأعمال يوم القيامة دون الشهداء بمعنى المقتولين في سبيل الله.

فهؤلاء الذين آمنوا بالله و رسله ملحقون بالصدّيقين و الشهداء منزلون منزلتهم عند الله أي بحكم منه لهم أجرهم و نورهم.

و قوله: **{لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ}** ضمير {لَهُمْ} للذين آمنوا، و ضمير **{أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ}** للصدّيقين و الشهداء أي للذين آمنوا أجر من نوع أجر الصدّيقين و الشهداء و نور من نوع نورهم، و هذا معنى قول من قال: إن المعنى: لهم أجر كأجرهم و نور كنورهم.

و ربما قيل: إن الآية مسوقة لبيان أنهم صدّيقون و شهداء على الحقيقة من غير إلحاق و تنزيل فهم هم لهم أجرهم و نورهم، و لعل السياق لا يساعد عليه.

و ربما قيل: إن قوله: **{وَ الشّٰهَدَاءِ}** ليس عطفًا على قوله: **{الصّٰدِقُونَ}** بل استئناف و **{الشّٰهَدَاءِ}** مبتدأ خبره **{عِنْدَ رَبِّهِمْ}** و خبره الآخر **{لَهُمْ أَجْرُهُمْ}** فقد قيل: و الذين آمنوا بالله و رسله أولئك هم الصدّيقون، و قد تم الكلام ثم استؤنف و قيل: **{وَ الشّٰهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ}** كما قيل: **{بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ}** آل عمران: ١٦٩، و المراد بالشهداء المقتولون في سبيل الله، ثم تم الكلام بقوله: **{لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ}**.

و قوله: **{وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}** أي لا يفارقونها و هم فيها دائمين. و قد تعرض سبحانه في الآية لشأن الملحقين بالصدّيقين و الشهداء و هم خيار الناس و الناجون قطعًا، و الكفار المكذّبين لآياته و هم شرار الناس و الهالكون قطعًا و بقي فريق بين الفريقين و هم المؤمنون المقترفون للمعاصي و الذنوب على طبقاتهم في التمرد على الله و رسوله، و هذا دأب القرآن في كثير من موارد التعرض لشأن الناس يوم القيامة.

و ذلك ليكون بعثًا لقرّيجتي الخوف و الرجاء في ذلك الفريق المتخلل بين الخيار و الشرار فيميلوا إلى السعادة و يختاروا النجاة على الهلاك.

و لذلك أعقب الآية بدم الحياة الدنيا التي تعلق بها هؤلاء الممتنعون من الإنفاق في سبيل الله

ثم بدعوتهم إلى المسابقة إلى المغفرة والجنة ثم بالإشارة إلى أن ما يصيبهم من المصيبة في أموالهم وأنفسهم مكتوبة في كتاب سابق وقضاء متقدم فليس ينبغي لهم أن يخافوا الفقر في الإنفاق في سبيل الله، فيدخلوا ويمسكوا أو يخافوا الموت في الجهاد في سبيل الله فيتخلفوا ويقعدوا.

قوله تعالى: **{اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَتُهُ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاتُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ}**

إلخ، اللعب عمل منظوم لغرض خيالي كلعب الأطفال، واللهو ما يشغل الإنسان عما يهمه، والزينة بناء نوع وربما يراد به ما يتزين به وهي ضم شيء مرغوب فيه إلى شيء آخر ليرغب فيه بما اكتسب به من الجمال، والتفاخر المباهاة بالأنساب والأحساب، والتكاثر في الأموال والأولاد.

والحياة الدنيا عرض زائل وسراب باطل لا يخلو من هذه الخصال الخمس المذكورة: اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر وهي التي يتعلق بها هوى النفس الإنسانية ببعضها أو بجمعها وهي أمور وهمية وأعراض زائلة لا تبقى للإنسان وليست ولا واحدة منها تجلب للإنسان كمالا نفسيا ولا خيرا حقيقيا.

و عن شيخنا البهائي رحمه الله أن الخصال الخمس المذكورة في الآية مترتبة بحسب سني عمر الإنسان و مراحل حياته فيتولع أولا باللعب وهو طفل أو مراهق ثم إذا بلغ واشتد عظمه تعلق باللهو والملاهي ثم إذا بلغ أشده اشتغل بالزينة من الملابس الفاخرة والمراكب البهية والمنازل العالية وتوله للحسن والجمال ثم إذا اكتمل أخذ بالمفاخرة بالأحساب والأنساب ثم إذا شاب سعى في تكثير المال والولد.

و قوله: **{كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُوْنُ حُطَامًا}** مثل لزينة الحياة

الدنيا التي يتعلق بها الإنسان غرورا ثم لا يلبث دون أن يسلبها.

والغيث المطر والكفار جمع كافر بمعنى الحارث، ويهيج من الهيجان وهو الحركة، والحطام الهشيم المتكسر من يابس النبات.

و المعنى: أن مثل الحياة الدنيا في بهجتها المعجبة ثم الزوال كمثل مطر أعجب الحراث نباته الحاصل بسببه ثم يتحرك إلى غاية ما يمكنه من النمو فتراه مصفر اللون ثم يكون هشيفا متكسرا متلاشيا تذروه الرياح.

و قوله: **{وَفِي آخِرَةِ عَذَابٍ شَدِيدٍ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ}** سبق المغفرة على

الرضوان لتطهير المحل ليحل به الرضوان، و توصيف المغفرة بكونه من الله دون العذاب لا يخلو من إيماء إلى أن المطلوب بالقصد الأول هو المغفرة و أما العذاب فليس بمطلوب في نفسه وإنما يتسبب إليه الإنسان بخروجه عن زي العبودية كما قيل .

و قوله: **{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}** أي متاع التمتع منه هو الغرور به، و هذا للمتعلق المغرور بها.

و الكلام أعني قوله: **{وَفِي آلِ آخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٌ}** إشارة إلى وجهي الحياة الآخرة ليأخذ السامع حذره فيختار المغفرة و الرضوان على العذاب، ثم في قوله: **{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}** تنبيهه و إيقاظه لثلاث تغره الحياة الدنيا بخاصة غروره.

قوله تعالى: **{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ}** إنح المسابقة هي المغالبة في السبق للوصول إلى غرض بأن يريد كل من المسابقين جعل حركته أسرع من حركة صاحبه ففي معنى المسابقة ما يزيد على معنى المسارعة فإن المسارعة الجد في تسريع الحركة و المسابقة الجد في تسريعها بحيث تزيد في السرعة على حركة صاحبه.

و على هذا فقوله: **{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ}** إنح، يتضمن من التكليف ما هو أزيد مما يتضمنه قوله: **{سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}** آل عمران: ١٣٣.

و يظهر به عدم استقامة ما قيل: إن آية آل عمران في السابقين المقربين و الآية التي نحن فيها في عامة المؤمنين حيث لم يذكر فيها إلا الإيمان بالله و رسله بخلاف آية آل عمران فإنها مذيلة بجملة الأعمال الصالحة، و لذا أيضا وصف الجنة الموعودة هناك بقوله: **{عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ}** بخلاف ما هاهنا حيث قيل: **{عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ}** فدل على أن جنة أولئك أوسع من جنة هؤلاء.

وجه عدم الاستقامة ما عرفت أن المكلف به في الآية المبحوث عنها معنى فوق ما كلف به في آية آل عمران. على أن اللام في **{السَّمَاءِ}** للجنس فتنتطبق على **{السَّمَاوَاتِ}** في تلك الآية.

و تقديم المغفرة على الجنة في الآية لأن الحياة في الجنة حياة طاهرة في عالم الطهارة فيتوقف التلبس بها على زوال قذارات الذنوب و أوساخها.

و المراد بالعرض السعة دون العرض المقابل للطول و هو معنى شائع، و الكلام كأنه مسوق للدلالة على انتهاءها في السعة.

و قيل: المراد بالعرض ما يقابل الطول و الاقتصار على ذكر العرض أبلغ من ذكر الطول معه فإن العرض أقصر الامتدادين و إذا كان كعرض السماء و الأرض كان طولها أكثر من طولهما.

و لا يخلو الوجه من تحكم إذ لا دليل على مساواة طول السماء و الأرض لعرضهما ثم على زيادة طول الجنة على عرضها حتى يلزم زيادة طول الجنة على طولها و الطول قد يساوي العرض كما في المربع و الدائرة و سطح الكرة و غيرها و قد يزيد عليه.

و قوله: **{أَعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}** قد عرفت في ذيل قوله: **{آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}** و قوله: **{لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}** أن المراد بالإيمان بالله و رسله هو مرتبة عالية من الإيمان تلازم ترتب آثاره عليه من الأعمال الصالحة و اجتناب الفسوق و الإثم.

و بذلك يظهر أن قول بعضهم: إن في الآية بشارة لعامة المؤمنين حيث قال: **{أَعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}** و لم يقيد الإيمان بشيء من العمل الصالح و نحوه غير سديد فإن خطاب الآية و إن كان بظاهر لفظه يعم الكافر و المؤمن الصالح و الطالح لكن وجه الكلام إلى المؤمنين يدعوهم إلى الإيمان الذي يصاحب العمل الصالح، و لو كان المراد بالإيمان بالله و رسله مجرد الإيمان و لو لم يصاحبه عمل صالح و كانت الجنة معدة لهم و الآية تدعو إلى السباق إلى المغفرة و الجنة كان خطاب **{سَابِقُوا}** متوجها إلى الكفار فإن المؤمنين قد سبقوا و سياق الآيات يأباه.

و قوله: **{ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ}** و قد شاء أن يؤتيه الذين آمنوا بالله و رسله، و قد تقدم بيان أن ما يؤتيه الله من الأجر لعباده المؤمنين فضل منه تعالى من غير أن يستحقوه عليه.

و قوله: **{وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}** إشارة إلى عظمة فضله، و أن ما يثيبهم به من المغفرة و الجنة من عظيم فضله.

قوله تعالى: **{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}** إنلخ، المصيبة الواقعة التي تصيب الشيء مأخوذة من إصابة السهم الغرض و هي بحسب المفهوم أعم من الخير و الشر لكن غلب استعمالها في الشر فالمصيبة هي النائبة،

والمصيبة التي تصيب في الأرض كالجدب و عاهة الثمار و الزلزلة المخربة و نحوها، و التي تصيب في الأنفس كالمرض و الجرح و الكسر و القتل و الموت، و البرء و البروء الخلق من العدم، و ضمير **{نَبْرَاهَا}** للمصيبة، و قيل: للأنفس، و قيل: للأرض، و قيل: للجميع من الأرض و الأنفس و المصيبة، و يؤيد الأول أن المقام مقام بيان ما في الدنيا من المصائب الموجبة لنقص الأموال و الأنفس التي تدعوهم إلى الإمساك عن الإنفاق و التخلف عن الجهاد.

و المراد بالكتاب اللوح المكتوب فيه ما كان و ما يكون و ما هو كائن إلى يوم القيامة كما تدل عليه الآيات و الروايات و إنما اقتصر على ذكر ما يصيب في الأرض و في أنفسهم من المصائب لكون الكلام فيها.

قيل: إنما قيد المصيبة بما في الأرض و في الأنفس لأن مطلق المصائب غير مكتوبة في اللوح لأن اللوح متناه و الحوادث غير متناهية و لا يكون المتناهي ظرفاً لغير المتناهي.

و الكلام مبني على أن المراد باللوحة لوح فلزي أو نحوه منصوب في ناحية من نواحي الجو مكتوب فيه الحوادث بلغة من لغاتنا بخط يشبه خطوطنا، و قد مر كلام في معنى اللوح و القلم و سيجيء له تمة.

و قيل: المراد بالكتاب علمه تعالى و هو خلاف الظاهر إلا أن يراد به أن الكتاب المكتوب فيه الحوادث من مراتب علمه الفعلي.

و ختم الآية بقوله: **{إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}** للدلالة على أن تقدير الحوادث قبل وقوعها و القضاء عليها بقضاء لا يتغير لا صعوبة فيه عليه تعالى.

قوله تعالى: **{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ لَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}** إلخ، تعليل راجع إلى الآية السابقة و هو تعليل للإخبار عن كتابة الحوادث قبل وقوعها لا لنفس الكتابة، و الأسى الحزن، و المراد بما فات و ما أتى النعمة الفائتة و النعمة المؤتاة.

و المعنى: أخبرناكم بكتابة الحوادث قبل حدوثها و تحققها لئلا تحزنوا بما فاتكم من النعم و لا تفرحوا بما أعطاكم الله منها لأن الإنسان إذا أيقن أن الذي أصابه مقدر كائن لا محالة لم يكن ليخطئه و أن ما أوتيه من النعم وديعة عنده إلى أجل مسمى لم يعظم حزنه إذا فاتته و لا فرحه إذا أوتيه.

قيل: إن اختلاف الإسناد في قوله: **{مَا فَاتَكُمْ}** و **{بِمَا آتَاكُمْ}** حيث أسند الفوت

إلى نفس الأشياء و الإيتاء إلى الله سبحانه لأن القوات و العدم ذاتي للأشياء فلو خليت و نفسها لم تبق بخلاف حصولها و بقائها فإنه لا بد من استنادهما إلى الله تعالى.

و قوله: **{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}** المختال من أخذته الخيلاء و هي التكبر عن تخيل فضيلة تراءت له من نفسه - على ما ذكره الراغب - و الفخور الكثير الفخر و المباهاة و الاختيال و الفخر ناشئان عن توهم الإنسان أنه يملك ما أوتيته من النعم باستحقاق من نفسه، و هو مخالف لما هو الحق من استناد ذلك إلى تقدير من الله لا لاستقلال من نفس الإنسان فهما من الرذائل و الله لا يحبها.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}** وصف لكل مختال نخور يفيد تعليل عدم حبه تعالى. و الوجه في بخلهم الاحتفاظ للمال الذي يعتمد عليه اختيالهم و نفخهم و الوجه في أمرهم الناس بالبخل أنهم يحبونه لأنفسهم فيحبونه لغيرهم، و لأن شيوع السخاء و الجود بين الناس و إقبالهم على الإنفاق في سبيل الله يوجب أن يعرفوا بالبخل المذموم.

و قوله: **{وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}** أي و من يعرض عن الإنفاق و لم يتعظ بعظة الله و لا اطمأن قلبه بما بينه من صفات الدنيا و نعت الجنة و تقدير الأمور فإن الله هو الغني فلا حاجة له إلى إنفاقهم، و المحمود في أفعاله.

و الآيات الثلاث أعني قوله: **{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ}** إلى قوله **{الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}** كما ترى حث على الإنفاق و ردع عن البخل و الإمساك بتزهدهم عن الأسى بما فاتهم و الفرح بما آتاهم لأن الأمور مقدره مقضية مكتوبة في كتاب معينة قبل أن يبرأها الله سبحانه.

(بحث روائي)

في الدر المنثور في قوله تعالى: **{أَلَمْ يَأْنِ}** (الآية) أخرج ابن المبارك و عبد الرزاق و ابن المنذر عن الأعمش قال: لما قدم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد ما كان بهم من الجهد فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت: **{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا}**.

أقول: هذه أعدل الروايات في نزول السورة و هناك رواية عن ابن مسعود قال: ما

كان بين إسلامنا و بين أن عاتبنا الله بهذه **{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ}** إلا أربع سنين، و ظاهره كون السورة مكية، و في معناه ما ورد أن عمر آمن بعد نزول هذه السورة و قد عرفت أن سياق آيات السورة تأتي إلا أن تكون مدنية، و يمكن حمل رواية ابن مسعود على كون آية **{أَلَمْ يَأْنِ}** إِنْج، أو هي و التي تتلوها مما نزل بمكة دون باقي آيات السورة.

و في رواية عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **استبطن الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة من نزول القرآن فأنزله الله {أَلَمْ يَأْنِ}** (الآية)، و لازمه نزول السورة سنة أربع أو خمس من الهجرة، و في رواية أخرى عن ابن عباس قال: إن الله استبطن قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال: **{أَلَمْ يَأْنِ}** إِنْج، و لازمه نزول السورة أيام الهجرة، و الروايتان أيضا لا تلائمان سياق آياتها.

و فيه، أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب قال: **سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: مؤمنوا أمتي شهداء، ثم تلا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ}**.

و في تفسير العياشي، بإسناده عن منهل القصاب قال **لأبي عبد الله (عليه السلام): ادع الله أن يرزقني الشهادة فقال: إن المؤمن شهيد وقرأ هذه الآية.**

أقول: و في معناه روايات أخرى و ظاهر بعضها كهذه الرواية تفسير الشهادة بالقتل في سبيل الله.

في تفسير القمي، بإسناده عن حفص بن غياث قال: **قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): جعلت فداك فما حد الزهد في الدنيا؟ فقال: قد حده الله في كتابه فقال عز وجل: {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}**.

و في نهج البلاغة، قال (عليه السلام): **الزهد كلمة بين كلمتين من القرآن قال الله تعالى: {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}** و من لم يأس على الماضي و لم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه.

أقول: و الأساس الذي يبتنيان عليه عدم تعلق القلب بالدنيا، و في الحديث المعروف: **حب الدنيا رأس كل خطيئة.**

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾}

(بيان)

ثم إنه تعالى إثر ما أشار إلى قسوة قلوب المؤمنين و ثقافتهم و فتورهم في امثال التكليف الدينية و خاصة في الإنفاق في سبيل الله، الذي به قوام أمر الجهاد و شبههم بأهل الكتاب

حيث قست قلوبهم لما طال عليهم الأمد.

ذكر أن الغرض الإلهي من إرسال الرسل وإنزال الكتاب و الميزان معهم أن يقوم الناس بالقسط، وأن يعيشوا في مجتمع عادل، و قد أنزل الحديد ليمتحن عباده في الدفاع عن مجتمعهم الصالح و بسط كلمة الحق في الأرض مضافا إلى ما في الحديد من منافع ينتفعون بها.

ثم ذكر أنه أرسل نوحا وإبراهيم (عليه السلام) و جعل في ذريتهما النبوة و الكتاب و أتبعهم بالرسول بعد الرسول فاستمر الأمر في كل من الأمم على إيمان بعضهم و اهتدائه و كثير منهم فاسقون، ثم ختم الكلام في السورة بدعوتهم إلى تكميل إيمانهم ليؤتوا كفلين من الرحمة.

قوله تعالى: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}** إلخ، استئناف يتبين به معنى تشريع الدين بإرسال الرسل و إنزال الكتاب و الميزان و أن الغرض من ذلك قيام الناس بالقسط و امتحانهم بذلك و بإنزال الحديد ليمتحن من ينصر الله بالغيب و يتبين أن أمر الرسالة لم يزل مستمرا بين الناس و لم يزالوا يهتدي من كل أمة بعضهم و كثير منهم فاسقون.

فقوله: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ}** أي بالآيات البينات التي يتبين بها أنهم مرسلون من جانب الله سبحانه من المعجزات الباهرة و البشارات الواضحة و الحجج القاطعة.

و قوله: **{وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ}** و هو الوحي الذي يصلح أن يكتب فيصير كتابا، المشتمل على معارف الدين من اعتقاد و عمل و هو خمسة: كتاب نوح و كتاب إبراهيم و التوراة و الإنجيل و القرآن.

و قوله: **{وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}** فسروا الميزان بذي الكفتين الذي يوزن به الأثقال، و أخذوا قوله: **{لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}** غاية متعلقة بإنزال الميزان و المعنى:

و أنزلنا الميزان ليقوم الناس بالعدل في معاملاتهم فلا يخسروا باختلال الأوزان و النسب بين الأشياء فقوام حياة الإنسان بالاجتماع، و قوام الاجتماع بالمعاملات الدائرة بينهم و المبادلات في الأمتعة و السلع و قوام المعاملات في ذوات الأوزان بحفظ النسب بينها و هو شأن الميزان.

و لا يبعد - و الله أعلم - أن يراد بالميزان الدين فإن الدين هو الذي يوزن به عقائد أشخاص الإنسان و أعمالهم، و هو الذي به قوام حياة الناس السعيدة مجتمعين و منفردين، و هذا المعنى أكثر ملائمة للسياق المتعرض لحال الناس من حيث خشوعهم و قسوة قلوبهم

و جدهم و مساهلتهم في أمر الدين. و قيل: المراد بالميزان هنا العدل و قيل: العقل.

و قوله: **{وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ}** الظاهر أنه كقوله تعالى: **{وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}** الزمر: ٦، و قد تقدم في تفسير الآية أن تسمية الخلق في الأرض إنزالاً إنما هو باعتبار أنه تعالى يسمي ظهور الأشياء في الكون بعد ما لم يكن إنزالاً لها من خزائنه التي عنده و من الغيب إلى الشهادة قال تعالى: **{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ}** الحجر: ٢١.

و قوله: **{فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ}** البأس هو الشدة في التأثير و يغلب استعماله في الشدة في الدفاع و القتال، و لا تزال الحروب و المقاتلات و أنواع الدفاع ذات حاجة شديدة إلى الحديد و أقسام الأسلحة المعمولة منه منذ تنبه البشر له و استخراجها.

و أما ما فيه من المنافع للناس فلا يحتاج إلى البيان فله دخل في جميع شعب الحياة و ما يرتبط بها من الصنائع.

و قوله: **{وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ}** غاية معطوفة على محذوف و التقدير و أنزلنا الحديد لكذا و ليعلم الله من ينصره إنخ، و المراد بنصره و رسله الجهاد في سبيله دفاعاً عن مجتمع الدين و بسطاً لكلمة الحق، و كون النصر بالغيب كونه في حال غيبته منهم أو غيبتهم منه، و المراد بعلمه بمن ينصره و رسله تمييزهم ممن لا ينصر.

و ختم الآية بقوله: **{إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}** و كان وجهه الإشارة إلى أن أمره تعالى لهم بالجهاد إنما هو لتمييز المتمثل منهم من غيره لا حاجة منه تعالى إلى ناصر ينصره أنه تعالى قوي لا سبيل للضعف إليه عزيز لا سبيل للذلة إليه.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}** شروع في الإشارة إلى أن الاهتداء و الفسق جاريان في الأمم الماضية حتى اليوم فلم تصلح أمة من الأمم بعامتها أفرادها بل لم يزل كثير منهم فاسقين.

و ضمير **{فَمِنْهُمْ}** و **{فَمِنْهُمْ}** للذرية و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ}** في المجمع: التقفية جعل الشيء في إثر شيء على الاستمرار فيه، و لهذا قيل لمقاطع الشعر قوافٍ إذ كانت تتبع البيت على أثره مستمرة في غيره على مناجاه. انتهى.

و ضمير **{عَلَىٰ آثَارِهِمْ}** لنوح و إبراهيم و السابقين من ذريتهما، و الدليل عليه أنه لا نبي

بعد نوح إلا من ذريته لأن النسل بعده له. على أن عيسى من ذرية إبراهيم قال تعالى في نوح: **{وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}** الصافات: ٧٧، وقال: **{وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ}** - إلى أن قال - **{وَعِيسَى}** الأنعام: ٨٥، فالمراد بقوله: **{ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا}** إلخ، التقفية باللاحقين من ذريتهما على آثارهما و السابقين من ذريتهما.

وفي قوله: **{عَلَى آثَارِهِمْ}** إشارة إلى أن الطريق المسلك واحد يتبع فيه بعضهم أثر بعض.

وقوله: **{وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً}** الرأفة والرحمة - على ما قالوا - مترادفان، ونقل عن بعضهم أن الرأفة يقال في درء الشر والرحمة في جلب الخير.

والظاهر أن المراد بجعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتبعوه توفيقهم للرأفة والرحمة فيما بينهم فكانوا يعيشون على المعاضدة والمسالمة كما وصف الله سبحانه الذين مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالرحمة إذ قال: **{رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}** الفتح: ٢٩، وقيل: المراد بجعل الرأفة والرحمة في قلوبهم الأمر بهما والترغيب فيهما و وعد الثواب عليهما.

وقوله: **{وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ}** الرهبانية من الرهبة وهي الخشية، ويطلق عرفا على انقطاع الإنسان من الناس لعبادة الله خشية منه، والابتداع إتيان ما لم يسبق إليه في دين أو سنة أو صنعة، وقوله: **{مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ}** في معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: ما معنى ابتداعهم لها؟ فقيل: ما كتبناها عليهم.

و المعنى: أنهم ابتدعوا من عند أنفسهم رهبانية من غير أن نشرعه نحن لهم.

وقوله: **{إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}** استثناء منقطع معناه ما فرضناها عليهم لكنهم وضعوها من عند أنفسهم ابتغاء لرضوان الله و طلبا لمرضاته فما حافظوا عليها حق محافظتها بتعديهم حدودها.

و فيه إشارة إلى أنها كانت مرضية عنده تعالى وإن لم يشرعها بل كانوا هم المبتدعين لها.

وقوله: **{فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}** إشارة إلى أنهم كالسابقين من أمم الرسل منهم مؤمنون مأجورون على إيمانهم و كثير منهم فاسقون، والغلبة للفسق.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}**

إنح، أمر الذين آمنوا بالتقوى و الإيمان بالرسول مع أن الذين استجابوا الدعوة فآمنوا بالله آمنوا برسوله أيضا دليل على أن المراد بالإيمان بالرسول الاتباع التام و الطاعة الكاملة لرسوله فيما يأمر به و ينهى عنه سواء كان ما يأمر به أو ينهى عنه حكما من الأحكام الشرعية أو صادرا عنه بما له من ولاية أمور الأمة كما قال تعالى: **{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}** النساء: ٦٥.

فهذا إيمان بعد إيمان و مرتبة فوق مرتبة الإيمان الذي ربما يتخلف عنه أثره فلا يترتب عليه لضعفه، و بهذا يناسب قوله: **{يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}** و الكفل الحظ و النصيب فله ثواب على ثواب كما أنه إيمان على إيمان.

و قيل: المراد بإيتاء كفلين من الرحمة إيتاؤهم أجرين كئومني أهل الكتاب كأنه قيل: يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين لأنكم مثلهم في الإيمان بالرسول المتقدمين و بختاتمهم (عليه السلام) لا تفرقون بين أحد من رسله.

و قوله: **{وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}** قيل: يعني يوم القيامة و هو النور الذي أشير إليه بقوله: **{يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ}**.

و فيه أنه تقييد من غير دليل بل لهم نورهم في الدنيا و هو المدلول عليه بقوله تعالى: **{أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَتَلَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِمَخَارِجٍ مِنْهَا}** الأنعام: ١٢٢، و نورهم في الآخرة و هو المدلول عليه بقوله: **{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ}** (الآية) ١٢ من السورة و غيره.

ثم كلّ تعالى وعده بإيتائهم كفلين من رحمته و جعل نور يمشون به بالمغفرة فقال: **{وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}**.

قوله تعالى: **{لَيْلًا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}** ظاهر السياق أن في الآية التفاتا من خطاب المؤمنين إلى خطاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، و المراد بالعلم مطلق الاعتقاد كالزعم، و **{أَنَّ}** مخففة من الثقيلة، و ضمير **{يَقْدِرُونَ}** للمؤمنين، و في الكلام تعليل لمضمون الآية السابقة.

و المعنى: إنما أمرناهم بالإيمان بعد الإيمان و وعدناهم كفلين من الرحمة و جعل النور و المغفرة لثلا يعتقد أهل الكتاب أن المؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله بخلاف المؤمنين من أهل الكتاب حيث يؤتون أجرهم مرتين أن آمنوا.

وقيل: إن **{لَيْلًا}** في **{لَيْلًا يَعْلَمُ}** زائدة و ضمير **{يَقْدِرُونَ}** لأهل الكتاب، والمعنى: إنما وعدنا المؤمنين بما وعدنا لأن يعلم أهل الكتاب القائلون: إن من آمن منا بكتابكم فله أجران و من لم يؤمن فله أجر واحد لإيمانه بكتابنا، إنهم لا يقدرّون على شيء من فضل الله إن لم يؤمنوا، هذا ولا يخفى عليك ما فيه من التكلف.

وقوله: **{وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}** معطوف على ألا يعلم»، والمعنى: إنما وعدنا بما وعدنا لأن كذا ولأن الفضل بيد الله والله ذو الفضل العظيم.
وفي الآية أقوال واحتمالات أخر لا جدوى في إيرادها والبحث عنها.

(بحث روائي)

عن جوامع الجامع، روي: أن جبرئيل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح (عليه السلام) وقال: مر قومك يزونا

به.

وفي الاحتجاج، عن علي (عليه السلام) في حديث و قال: **{وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ}** فإنزله ذلك خلقه إياه.

وفي المجمع، عن ابن مسعود قال: كنت رديف رسول الله على الحمار فقال: يا ابن أم عبد هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟ فقلت: الله ورسوله أعلم. فقال: ظهرت عليهم الجبارة بعد عيسى (عليه السلام) يعملون بمعاصي الله فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل.

فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه فتعالوا تتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى يعنون محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه، ومنهم من كفر. ثم تلا هذه الآية **{وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ}** إلى آخرها.

ثم قال: يا ابن أم عبد أ تدري ما رهبانية أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: الهجرة و الجهاد و الصلاة و الصوم و الحج و العمرة.

وفي الكافي، بإسناده عن أبي الجارود قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام) لقد آتى الله

أهل الكتاب خيرا كثيرا. قال: وما ذاك؟ قلت: قول الله عز و جل: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ}** إلى قوله **{أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا}** قال: فقال: آتاكم الله كما آتاهم ثم تلا: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}** يعني إماما تأتمون به.

وفي الجمع، عن سعيد بن جبیر: بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جعفرًا في سبعين راكبًا إلى النجاشي يدعوهم فقدم عليه ودعاه فاستجاب له وآمن به فلما كان عند انصرافه قال ناس ممن آمن به من أهل مملكته وهم أربعون رجلاً: ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم به.

فقدموا مع جعفر فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة استأذنوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و قالوا: يا نبي الله إن لنا أموالاً ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين فأنزل الله فيهم: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ}** إلى قوله **{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين.

فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله: **{أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا}** نفروا على المسلمين فقالوا: يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابنا و كتابكم فله أجران، و من آمن منا بكتابنا فله أجر كأجوركم فما فضلكم علينا؟ فنزل قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ}** (الآية)، فجعل لهم أجرين وزادهم النور والمغفرة ثم قال: **{لَعَلَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ}**.

(٥٨) (سورة المجادلة مدنية، وهي اثنتان وعشرون آية) (٢٢)

[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١ الى ٦]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا

الَّذِينَ وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَ زُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿١٠﴾ وَ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٣﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٤﴾

(بيان)

تعرض السورة لمعان متنوعة من حكم و أدب و صفة فشطرها في حكم الظهار و النجوى و أدب الجلوس في المجالس و شطرها يصف حال الذين يحادون الله و رسوله، و الذين يوادون أعداء الدين و يصف الذين يتحرزون من موادتهم من المؤمنين و يعدهم وعدا جميلا في الدنيا و الآخرة.

و السورة مدنية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} إنخ، قال في المجمع: الاشتكاء إظهار ما بالإنسان من مكروه، و الشكاية إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه. قال: و التحاور التراجع و هي المحاورة يقال: حاوره محاورة أي راجعه الكلام و تحاورا. انتهى.

الآيات الأربع أو الست نزلت في الظهر و كان من أقسام الطلاق عند العرب الجاهلي كان الرجل يقول لامرأته: أنت مني كظهر أمي فتنفصل عنه و تحرم عليه مؤبدة و قد ظاهر بعض الأنصار من امرأته ثم ندم عليه فجاءت امرأته إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) تسأله فيه لعلها تجد طريقا إلى رجوعه إليها و تجادله (صلى الله عليه وآله و سلم) في ذلك و تشتكي إلى الله فنزلت الآيات.

و المراد بالسمع في قوله: **{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ}** استجابة الدعوة و قضاء الحاجة من باب الكناية و هو شائع و الدليل عليه قوله: **{تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ}** الظاهر في أنها كانت تتوخى طريقا إلى أن لا تنفصل عن زوجها، و أما قوله: **{وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا}** فالسمع فيه بمعناه المعروف.

و المعنى: قد استجاب الله للمرأة التي تجادلك في زوجها و قد ظاهر منها و تشتكي غمها و ما حل بها من سوء الحال إلى الله و الله يسمع تراجعكما في الكلام أن الله يسمع للأصوات بصير بالمبصرات.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ}** إِنْ، نفي لحكم الظهار المعروف عندهم و إلغاء لتأثيره بالطلاق و التحريم الأبدي بنفي أمومة الزوجة للزوج بالظهار فإن سنة الجاهلية تلحق الزوجة بالأم بسبب الظهار فتحرم على زوجها حرمة الأم على ولدها حرمة مؤبدة.

فقوله: **{مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ}** أي بحسب اعتبار الشرع بأن يلحقن شرعا بهن بسبب الظهار فيحرم من عليهم أبدا ثم أكد بقوله: **{إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ}** أي ليس أمهات أزواجهن إلا النساء اللاتي ولدنهم.

ثم أكد ذلك ثانيا بقوله: **{وَ إِنْهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَ زُورًا}** بما فيه من سياق التأكيد أي و إن هؤلاء الأزواج المظاهرين ليقولون بالظهار منكرًا من القول ينكره الشرع حيث لم يعتبره و لم يسنه، و كذبا باعتبار أنه لا يوافق الشرع كما لا يطابق الخارج الواقع في الكون فأفادت الآية أن الظهار لا يفيد طلاقا و هذا لا ينافي وجوب الكفارة عليه لو أراد الواقعة بعد الظهار فالزوجية على حالها و إن حرمت الواقعة قبل الكفارة.

و قوله: **{وَ إِنْ اللَّهُ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}** لا يخلو من دلالة على كونه ذنبا مغفورا لكن ذكر الكفارة في الآية التالية مع تذييلها بقوله: **{وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** ربما دل على أن المغفرة مشروطة بالكفارة.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا}** إنح، الكلام في معنى الشرط و لذلك دخلت الفاء في الخبر لأنه في معنى الجزاء و المحصل: أن الذين ظاهروا منهن ثم أرادوا العود لما قالوا فعليهم تحرير رقبة.

و في قوله: **{مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا}** دلالة على أن الحكم في الآية لمن ظاهر ثم أراد الرجوع إلى ما كان عليه قبل الظهار و هو قرينة على أن المراد بقوله: **{يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}** إرادة العود إلى نقض ما أبرموه بالظهار.

و المعنى: و الذين يظاهرون من نساءهم ثم يريدون أن يعودوا إلى ما تكلموا به من كلمة الظهار فينقضوها بالمواقعة فعليهم تحرير رقبة من قبل أن يتماسا.

و قيل: المراد بعودهم لما قالوا ندمهم على الظهار، و فيه أن الندم عليه يصلح أن يكون محصل المعنى لا أن يكون معنى الكلمة **{يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}**.

و قيل: المراد بعودهم لما قالوا رجوعهم إلى ما تلفظوا به من كلمة الظهار بأن يتلفظوا بها ثانيا و فيه أن لازمه ترتب الكفارة دائما على الظهار الثاني دون الأول و الآية لا تفيد ذلك و السنة إنما اعتبرت تحقق الظهار دون تعدده.

ثم ذيل الآية بقوله: **{ذَلِكُمْ تُوَعَّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** إيدانا بأن ما أمر به من الكفارة توصية منه بها عن خبره بعملهم ذاك، فالكفارة هي التي ترتفع بها ما لحقهم من تبعة العمل.

قوله تعالى: **{فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا}** إلى آخر الآية خصلة ثانية من الكفارة مترتبة على الخصلة الأولى لمن لا يتمكن منها و هي صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، و قيد ثانيا بقوله: **{مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا}** لدفع توهم اختصاص القيد بالخصلة الأولى.

و قوله: **{فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا}** بيان للخصلة الثالثة فمن لم يطق صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكينا و تفصيل الكلام في ذلك كله في الفقه.

و قوله: **{ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}** أي ما جعلناه من الحكم و اقترضناه من الكفارة فأبقينا علاقة الزوجية و وضعنا الكفارة لمن أراد أن يرجع إلى الواقعة جزاء بما أتى بسنة من سنن الجاهلية كل ذلك لتؤمنوا بالله و رسوله و ترفضوا بأباطيل السنن.

و قوله: **{وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** حد الشيء ما ينتهي إليه و لا

يتعداه وأصله المنع، والمراد أن ما افترضناه من الخصال أو ما نضعها من الأحكام حدود الله فلا تتعدوها بالمخالفة وللكافرين بما حكمنا به في الظهار أو بما شرعناه من الأحكام بالمخالفة والمحادة عذاب أليم.

والظاهر أن المراد بالكفر رد الحكم والأخذ بالظهار بما أنه سنة مؤثرة مقبولة، ويؤيده قوله: **{ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}** أي تدعونا بأن حكم الله حق وأن رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ادق أمين في تبليغه، وقد أكده بقوله: **{وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ}** إنح، ويمكن أن يكون المراد بالكفر الكفر في مقام العمل وهو العصيان.

قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}** إنح، المحادة الممانعة والمخالفة، والكبت الإذلال والإخزاء.

والآية والتي تتلوها وإن أمكن أن تكونا استئنافاً يبين أمر محادة الله ورسوله من حيث تبعثها وأثرها لكن ظاهر السياق أن تكونا مسوقتين لتعليل ذيل الآية السابقة الذي معناه النهي عن محادة الله ورسوله، والمعنى: إنما أمرناكم بالإيمان بالله ورسوله ونهيناكم عن تعدي حدود الله والكفر بها لأن الذين يحادون الله ورسوله بالمخالفة أذلوا وأخزوا كما أذل وأخزى الذين من قبلهم.

ثم أكد بقوله: **{وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ}** أي لا ريب في كونها منا وفي أن رسولنا صادق أمين في تبليغها، وللكافرين بها الرادين لها عذاب مهين مخز.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا}** أي لهم أليم العذاب في يوم يبعثهم الله وهو يوم الحساب والجزاء فيخبرهم بحقيقة جميع ما عملوا في الدنيا.

وقوله: **{أَحْصَاءُ اللَّهِ وَنَسْؤُهُ}** الإحصاء الإحاطة بعدد الشيء من غير أن يفوت منه شيء، قال الراغب: الإحصاء التحصيل بالعدد يقال: أحصيت كذا، وذلك من لفظ الحصى، واستعمال ذلك فيه من حيث إنهم كانوا يعتمدونه في العد كاعتمادنا فيه على الأصابع. انتهى.

وقوله: **{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}** تعليل لقوله: **{أَحْصَاءُ اللَّهِ}** وقد مر تفسير شهادة الله على كل شيء في آخر سورة حم السجدة.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج ابن ماجة و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي عن عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة و يخفى علي بعضه و هي تشتكي زوجها إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و هي تقول: يا رسول الله أكل شبابي و نثرت له بطني حتى إذا كبر سني و انقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبرئيل بهذه الآيات: **{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}** و هو أوس بن الصامت.

أقول: و الروايات من طرق أهل السنة في هذا المعنى كثيرة جدا، و اختلفت في اسم المرأة و اسم أبيها و اسم زوجها و اسم أبيه و الأعراف أن اسمها خولة بنت ثعلبة و اسم زوجها أوس بن الصامت الأنصاري و أورد القمي إجمال القصة في رواية، و له رواية أخرى ستوافيك.

و في الجمع في قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}** فأما ما ذهب إليه أئمة الهدى من آل محمد (عليهم السلام) فهو أن المراد بالعود إرادة الوطء و نقض القول الذي قاله فإن الوطء لا يجوز له إلا بعد الكفارة، و لا يبطل حكم قوله الأول إلا بعد الكفارة.

و في تفسير القمي، حدثنا علي بن الحسين قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله عن الحسن بن محبوب عن أبي ولاد عن حمران عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **إن امرأة من المسلمات أتت النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فقالت: يا رسول الله إن فلانا زوجي و قد نثرت له بطني و أعنته على دنياه و آخرته لم ترمني مكروها أشكوه إليك. قال: فيم تشكونيه؟ قالت: إنه قال: أنت علي حرام كظهر أمي و قد أخرجني من منزلي فانظر في أمري. فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): ما أنزل الله تبارك و تعالى كتابا أقضي فيه بينك و بين زوجك و أنا أكره أن أكون من المتكلمين، فجعلت تبكي و تشتكي ما بها إلى الله عز و جل و إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و انصرفت.**

قال: فسمع الله تبارك و تعالى مجادلتها لرسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) في زوجها و ما شكت إليه، و أنزل الله في ذلك قرآنا **{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي**

زَوْجَهَا } - إلى قوله - {وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ}.

قال: فبعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المرأة فأتمته فقال لها: جيئي بزواجك، فأتمته فقال له: أقلت لامرأتك هذه: أنت حرام علي كظهر أمي؟ فقال: قد قلت لها ذلك. فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): قد أنزل الله تبارك وتعالى فيك وفي امرأتك قرآنا وقرأ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ} - إلى قوله - {وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ}، فضم إليك امرأتك فإنك قد قلت منكرا من القول وزورا، وقد عفا الله عنك وغفر لك ولا تعد.

قال: فانصرف الرجل وهو نادى على ما قال لامرأته، وكره الله عز وجل ذلك للمؤمنين بعد وأنزل الله: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا} يعني لما قال الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي.

قال: فمن قالها بعد ما عفا الله وغفر للرجل الأول فإن عليه {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا} يعني مجامعتها {ذَلِكَ تُوَعِّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} قال: فجعل الله عقوبة من ظاهر بعد النهي هذا. ثم قال: {ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ} قال: هذا حد الظهار. (الحديث).

أقول: الآية بما لها من السياق وخاصة ما في آخرها من ذكر العفو والمغفرة أقرب انطباقا على ما سبق من القصة في هذه الرواية، ولا بأس بها من حيث السند أيضا غير أنها لا تلائم ظاهر ما في الآية من قوله: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}.

[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ٧ الى ١٣]

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا

عَنِ التَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَنَاجُونَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ
إِذَا جَاؤُكَ حَيُّوكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لَّا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ
وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا التَّجْوَى مِنَ
الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَانْفَسِحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَ إِذَا قِيلَ
أُنشَرُوا فَأَنْشَرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ
لَكُمْ وَ أَظْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَسْأَلُكُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ
صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ
وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

(بيان)

آيات في النجوى و بعض آداب المجالسة.

قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}** الاستفهام إنكاري، والمراد بالرؤية العلم اليقيني على سبيل الاستعارة، والجملة تقدمه يعلل بها ما يتلوها من كونه تعالى مع أهل النجوى مشاركا لهم في نجواهم.

قوله تعالى: **{مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ}** إلى آخر الآية النجوى مصدر بمعنى التناجي وهو المسارة، و ضمائر الإفراد لله سبحانه، والمراد بقوله: **{رَابِعُهُمْ}** و **{سَادِسُهُمْ}** جاعل الثلاثة أربعة و جاعل الخمسة ستة بمشاركته لهم في العلم بما يتناجون فيه و معيته لهم في الاطلاع على ما يسارون فيه كما يشهد به ما احتف بالكلام من قوله في أول الآية: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ}** إلخ، وفي آخرها من قوله: **{إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**.

و قوله: **{وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ}** أي و لا أقل مما ذكر من العدد و لا أكثر مما ذكر، و بهاتين الكلمتين يشمل الكلام عدد أهل النجوى أيا ما كان أما الأدنى من ذلك فالأدنى من الثلاثة الاثنان و الأدنى من الخمسة الأربعة، و أما الأكثر فالأكثر من خمسة الستة فما فوقها.

و من لطف سياق الآية ترتب ما أشير إليه من مراتب العدد: الثلاثة و الأربعة و الخمسة و الستة من غير تكرار فلم يقل: من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم و لا أربعة إلا هو خامسهم و هكذا.

و قوله: **{إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا}** المراد به المعية من حيث العلم بما يتناجون به و المشاركة لهم فيه.

و بذلك يظهر أن المراد بكونه تعالى رابع الثلاثة المتناجين و سادس الخمسة المتناجين معيته لهم في العلم و مشاركته لهم في الاطلاع على ما يسارون لا مماثلته لهم في تتميم العدد فإن كلا منهم شخص واحد جسماني يكون بانضمامه إلى مثله عدد الاثنان و إلى مثليه الثلاثة و الله سبحانه منزه عن الجسمية بريء من المادية.

و ذلك أن مقتضى السياق أن المستثنى من قوله: **{مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى}** إلخ، معنى

واحد وهو أن الله لا يخفى عليه نجوى فقوله: **{إِلَّا هُوَ رَبُّهُمْ}** **{إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ}** في معنى قوله: **{إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ}** وهو المعية العلمية أي أنه يشاركهم في العلم ويقارنهم فيه أو المعية الوجودية بمعنى أنه كلما فرض قوم يتناجون فالله سبحانه هناك سميع عليم.

وفي قوله: **{أَيَّنَ مَا كَانُوا}** تعميم من حيث المكان إذ لما كانت معيته تعالى لهم من حيث العلم لا بالاقتران الجسماني لم يتفاوت الحال ولم يختلف باختلاف الأمكنة بالقرب والبعد فالله سبحانه لا يخلو منه مكان وليس في مكان.

وبما تقدم يظهر أيضا أن - ما تفيدته الآية من معيته تعالى لأصحاب النجوى و كونه رابع الثلاثة منهم و سادس الخمسة منهم لا ينافي ما تقدم تفصيلا في ذيل قوله تعالى: **{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}** المائة: ٧٣، من أن وحدته تعالى ليست وحدة عددية بل وحدة أحدية يستحيل معها فرض غير معه يكون ثانيا له فالمراد بكونه معهم و رابعا للثلاثة منهم و سادسا للخمسة منهم أنه عالم بما يتناجون به و ظاهر مكشوف له ما يخفونه من غيرهم لا أن له وجودا محدودا يقبل العد يمكن أن يفرض له ثان و ثالث و هكذا.

وقوله: **{ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** أي يخبرهم بحقيقة ما عملوا من عمل و منه نجواهم و مسارتهم.

وقوله: **{إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** تعليل لقوله: **{ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ}** إِنْخ، و تأكيد لما تقدم من علمه بما في السماوات و ما في الأرض، و كونه مع أصحاب النجوى.

و الآية تصلح أن تكون توطئة و تمهيدا لمضمون الآيات التالية و لا يخلو ذيلها من لحن شديد يرتبط بما في الآيات التالية من الذم و التهديد.

قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ}** إلى آخر الآية سياق الآيات يدل على أن قوما من المنافقين و الذين في قلوبهم مرض من المؤمنين كانوا قد أشاعوا بينهم النجوى محادة للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و المؤمنين يتناجون بينهم بالإثم و العدوان و معصية الرسول و ليؤذوا بذلك المؤمنين و يحزنون و كانوا يصرون على ذلك من غير أن ينتهوا بنهي فنزلت الآيات.

فقوله: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ}** ذم و توبيخ غيابي لهم، و قد خاطب النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و لم يخاطبهم أنفسهم مبالغة في تحقير أمرهم و إبعادا لهم

عن شرف المخاطبة.

و المعنى: أ لم تنظر إلى الذين نهوا عن التناجي بينهم بما يغم المؤمنين و يحزنهم ثم يعودون إلى التناجي الذي نهوا عنه عود بعد عودة، و في التعبير بقوله: **{يَعُودُونَ}** دلالة على الاستمرار، و في العدول عن ضمير النجوى إلى الموصول و الصلة حيث قيل: **{يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ}** و لم يقل يعودون إليها دلالة على سبب الذم و التوبيخ و مساءة العود لأنها أمر منهي عنه.

و قوله: **{يَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ}** المقابلة بين الأمور الثلاثة: الإثم و العدوان و معصية الرسول تفيد أن المراد بالإثم هو العمل الذي له أثر سيئ لا يتعدى نفس عامله كشرب الخمر و الميسر و ترك الصلاة مما يتعلق من المعاصي بحقوق الله، و العدوان هو العمل الذي فيه تجاوز إلى الغير مما يتضرر به الناس و يتأذون مما يتعلق من المعاصي بحقوق الناس، و القسمان أعني الإثم و العدوان جميعا من معصية الله، و معصية الرسول مخالفته في الأمور التي هي جائزة في نفسها لا أمر و لا نهي من الله فيها لكن الرسول أمر بها أو نهى عنها لمصلحة الأمة بما له و ولاية أمورهم و النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما نهاهم عن النجوى و إن لم يشتمل على معصية.

كان ما تقدم من قوله: **{الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ}** ذما و توبيخا لهم على نفس نجواهم بما أنها منهي عنها مع الغض عن كونها بمعصية أو غيرها: و هذا الفصل أعني قوله: **{وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ}** ذم و توبيخ لهم بما يشتمل عليه تناجيهم من المعصية بأنواعها و هؤلاء القوم هم المنافقون و مرضى القلوب كانوا يكثرون من النجوى بينهم ليغتم بها المؤمنون و يحزنوا و يتأذوا.

و قيل: المنافقون و اليهود كان يناجي بعضهم بعضا ليحزنوا المؤمنين و يلقوا بينهم الوحشة و الفرع و يوهنوا عزهم لكن في شمول قوله: **{الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ}** لليهود خفاء.

و قوله: **{وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ}** فإن الله حياة بالتسليم و شرع له ذلك تحية من عند الله مباركة طيبة و هم كانوا يحيونه بغيره. قالوا: هؤلاء هم اليهود كانوا إذا أتوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قالوا: السام عليك و السام هو الموت و هم يوهمون أنهم يقولون: السلام عليك، و لا يخلو من شيء فإن الضمير في **{جَاؤُكَ}** و **{حَيَّوْكَ}** للموصول

في قوله: **{الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى}** وقد عرفت أن في شموله لليهود خفاء.

وقوله: **{وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ}** معطوف على **{حَيَوَاك}** أو حال و ظاهره أن ذلك منهم من حديث النفس مضمين ذلك في قلوبهم، و هو تحضيض بداعي الطعن و التهم فيكون من المنافقين إنكارا لرسالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على طريق الكفاية و المعنى: أنهم يحيونك بما لم يحيك به الله و هم يحدثون أنفسهم بدلالة قولهم ذلك - و لو لا يعذبهم الله به - على أنك لست برسول من الله و لو كنت رسوله لعذبهم بقولهم.

وقيل: المراد بقوله: **{وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ}** يقولون فيما بينهم بتحديث بعض منهم لبعض و لا يخلو من بعد.

وقد ردّ الله عليهم احتجاجهم بقولهم: **{لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ}** بقوله: **{حَسْبُ لَهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** أي إنهم مخطئون في نفهم العذاب فهم معذبون بما أعد لهم من العذاب و هو جهنم التي يدخلونها و يقاسون حرها و كفى بها عذابا لهم.

و كان المنافقين و من يلحق بهم لما لم ينتهوا بهذه المناهي و التشديدات نزل قوله تعالى: **{لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقُفُوا أَخَذُوا وَ قَتَلُوا تَقْتِيلًا}** الآيات الأحزاب: ٦١.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ}** إلخ، لا يخلو سياق الآيات من دلالة على أن الآية نزلت في رفع الخطر و قد خوطب فيها المؤمنون فأجيز لهم النجوى و اشترط عليهم أن لا يكون تناجيا بالإثم و العدوان و معصية الرسول و أن يكون تناجيا بالبر و التقوى و البر و هو التوسع في فعل الخير يقابل العدوان، و التقوى مقابل الإثم ثم أكد الكلام بالأمر بمطلق التقوى بإنذارهم بالحشر بقوله: **{وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}**.

قوله تعالى: **{إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}** إلخ، المراد بالنجوى على ما يفيد السياق هو النجوى الدائرة في تلك الأيام بين المنافقين و مرضى القلوب و هي من الشيطان فإنه الذي يزينها في قلوبهم ليتوسل بها إلى حزنهم و يشوش قلوبهم ليوهمهم أنها في نائبة حلت بهم و بلية أصابتهم. ثم طيب الله سبحانه قلوب المؤمنين بتذكيرهم أن الأمر إلى الله سبحانه و أن الشيطان

أو التناجي لا يضرهم شيئاً إلا بإذن الله فليتوكلوا عليه ولا يخافوا ضره و قد نص سبحانه في قوله: **{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}** الطلاق: ٣ إنه يكفي من توكل عليه، واستنهمهم على التوكل بأنه من لوازم إيمان المؤمن فإن يكونوا مؤمنين فليتوكلوا عليه فهو يكفيهم. وهذا معنى قوله: **{وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}**.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ}** إنح، التفسح الاتساع و كذا الفسح، و المجالس جمع مجلس اسم مكان، و الاتساع في المجلس أن يتسع الجالس ليسع المكان غيره و فسح الله له أن يوسع له في الجنة.

و الآية تتضمن أدبا من آداب المعاشرة، و يستفاد من سياقها أنهم كانوا يحضرون مجلس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيجلسون ركاما لا يدع لغيرهم من الواردين مكانا يجلس فيه فأدبوا بقوله: **{إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا}** إنح، و الحكم عام و إن كان مورد النزول مجلس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

و المعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم توسعوا في المجالس ليسع المكان معكم غيركم فتوسعوا وسع الله لكم في الجنة.

و قوله: **{وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا}** يتضمن أدبا آخر، و النشور كما قيل الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه، و النشور عن المجلس أن يقوم الإنسان عن مجلسه ليجلس فيه غيره إعظاما له و تواضعا لفضله.

و المعنى: و إذا قيل لكم قوموا ليجلس مكانكم من هو أفضل منكم في علم أو تقوى فقوموا.

و قوله: **{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}** لا ريب في أن لازم رفعه تعالى درجة عبد من عباده مزيد قربه منه تعالى، و هذا قرينة عقلية على أن المراد بهؤلاء الذين أوتوا العلم العلماء من المؤمنين فتدل الآية على انقسام المؤمنين إلى طائفتين: مؤمن و مؤمن عالم، و المؤمن العالم أفضل و قد قال تعالى: **{هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** الزمر: ٩.

و يتبين بذلك أن ما ذكر من رفع الدرجات في الآية مخصوص بالذين أوتوا العلم و يبقى لسائر المؤمنين من الرفع الرفع درجة واحدة و يكون التقدير يرفع الله الذين آمنوا منكم درجة و يرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات. و في الآية من تعظيم أمر العلماء و رفع قدرهم ما لا يخفى. و أكد الحكم بتذييل الآية

بقوله: **{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}**.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ}** إنلخ، أي إذا أردتم أن تناجوا الرسول فتصدقوا قبلها.

وقوله: **{ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ}** تعليل للتشريع نظير قوله: **{وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ}** البقرة: ١٨٤، و لا شك أن المراد بكونها خيرا لهم و أطهر أنها خير لنفوسهم و أطهر لقلوبهم و لعل الوجه في ذلك أن الأغنياء منهم كانوا يكثر من مناجاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يظهر من ذلك نوعا من التقرب إليه و الاختصاص به و كان الفقراء منهم يحزنون بذلك و ينكسر قلوبهم فأمروا أن يتصدقوا بين يدي نجاههم على فقراءهم بما فيها من ارتباط النفوس و إثارة الرحمة و الشفقة و المودة و صلة القلوب بزوال الغيظ و الحنق.

و في قوله: **{ذَلِكَ}** التفات إلى خطاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بين خطابين للمؤمنين و فيه تجليل لطيف له (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث إن حكم الصدقة مرتبط بنجاه (صلى الله عليه وآله وسلم) و الالتفات إليه فيما يرجع إليه من الكلام مزيد عناية به.

وقوله: **{فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** أي فإن لم تجدوا شيئا تتصدقون به فلا يجب عليكم تقديمها و قد رخص الله لكم في نجاه و عفا عنكم إنه غفور رحيم فقوله: **{فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** من وضع السبب موضع المسبب.

و فيه دلالة على رفع الوجوب عن المعدمين كما أنه قرينة على إرادة الوجوب في قوله: **{فَقَدِّمُوا}** إنلخ، و وجوبه على الموسرين.

قوله تعالى: **{أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ}** إنلخ، الآية ناسخة لحكم الصدقة المذكور في الآية السابقة، و فيه عتاب شديد لصحابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و المؤمنين حيث إنهم تركوا مناجاته (صلى الله عليه وآله وسلم) خوفا من بذل المال بالصدقة فلم يناجيه أحد منهم إلا علي (عليه السلام) فإنه ناجاه عشر نجوات كلها ناجاه قدم بين يدي نجاهه صدقة ثم نزلت الآية و نسخت الحكم.

و الإشفاق الخشية، و قوله: **{أَنْ تُقَدِّمُوا}** إنلخ، مفعوله و المعنى: أ خشيتم التصدق و بذل المال للنجوى، و احتمال أن يكون المفعول محذوفا و التقدير أ خشيتم الفقر لأجل بذل المال.

قال بعضهم: جمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن في الحقيقة من تقديم صدقة واحدة

لأنه ليس مظنة الفقر بل من استمرار الأمر و تقديم صدقات.

وقوله: **{فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ}** إِنْخ، أي فإذ لم تفعلوا ما كلفتم به و رجع الله إليكم العفو و المغفرة فأثبتوا على امثال سائر التكليف من إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة.

ففي قوله: **{وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}** دلالة على كون ذلك منهم ذنبا و معصية غير أنه تعالى غفر لهم ذلك.

و في كون قوله: **{فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}** إِنْخ، متفرعا على قوله: **{فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا}** إِنْخ، دلالة على نسخ حكم الصدقة قبل النجوى.

و في قوله: **{وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ}** تعميم لحكم الطاعة لسائر التكليف بإيجاب الطاعة المطلقة، و في قوله: **{وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}** نوع تشديد يتأكد به حكم وجوب طاعة الله و رسوله.

(بحث روائي)

في الجمع: و قرأ حمزة و رويس عن يعقوب: «ينتجون» و الباقر **{يَتَنَاجُونَ}** و يشهد لقراءة حمزة قول النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) في علي (عليه السلام) لما قال له بعض أصحابه: أتناجيه دوننا؟ **ما أنا انتجيته بل الله انتجاه.**

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و عبد بن حميد و البزار و ابن المنذر و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان بسند جيد عن ابن عمر: أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): سام عليك يريدون بذلك شتمه ثم يقولون في أنفسهم: **{لَوْ لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ}** فنزلت هذه الآية **{وَ إِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ}**.

و فيه، أخرج عبد الرزاق و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس: في هذه الآية قال: كان المنافقون يقولون لرسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): سام عليك فنزلت.

أقول: و هذه الرواية أقرب إلى التصديق من سابقها لما تقدم في تفسير الآية، و في رواية القمي في تفسيره أنهم كانوا يحيونه بقولهم: أنعم صباحا و أنعم مساء، و هو تحية أهل الجاهلية.

و في المجمع في قوله تعالى: **{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}** و قد ورد أيضا في الحديث أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **فضل العالم على الشهيد درجة، و فضل الشهيد على العابد درجة، و فضل النبي على العالم درجة، و فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه، و فضل العالم على سائر الناس كفضلي على أديانهم.** رواه جابر بن عبد الله.

أقول: و ذيل الرواية لا يخلو من شيء فإن ظاهر رجوع الضمير في «أديانهم» إلى الناس اعتبار مراتب في الناس فمنهم الأعلى و منهم المتوسط، و إذا كان فضل العالم على سائر الناس و فيهم الأعلى رتبة كفضل النبي على أدنى الناس كان العالم أفضل من النبي و هو كما ترى.

اللهم إلا أن يكون أدنى بمعنى الأقرب و المراد بأديانهم أقربهم من النبي و هو العالم كما يلوح من قوله: و فضل النبي على العالم درجة، فيكون المقاد أن فضل العالم على سائر الناس كفضلي على أقربهم مني و هو العالم. و في الدر المنثور، أخرج سعيد بن منصور و ابن راهويه و ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الحاكم و صححه عن علي قال: **إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي و لا يعمل بها بعدي آية النجوى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ} كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قدمت بين يدي نجواي درهما ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت: {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ} (الآية).**

و في تفسير القمي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **سألته عن قول الله عز و جل: {إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ} قال: قدم علي بن أبي طالب (عليه السلام) بين يدي نجواه صدقة ثم نسخها بقوله: {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ}.**

أقول: و في هذا المعنى روايات أخر من طرق الفريقين.

[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١٤ الى ٢٢]

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا

مِنْهُمْ وَ يَخْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اخْتَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تُغْنِيَ
 عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ
 اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾
 اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ
 الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رَسُولِي
 إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ
 لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ أَيَّدَهُمْ
 بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ
 أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

(بيان)

تذكر الآيات قوما من المنافقين يتولون اليهود و يوادونهم و هم يحادون الله و رسوله و تدمهم
 على ذلك و تهددهم بالعذاب و الشقوة تهديدا شديدا، و تقطع بالآخرة أن الإيمان

بالله و اليوم الآخر يمنع عن موادة من يحاد الله و رسوله كائنا من كان، و تمدح المؤمنين المتبرئين من أعداء الله و تعدهم إيمانا مستقرا و روحا من الله و جنة و رضوانا.

قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} إخ، القوم المغضوب عليهم هم اليهود، قال تعالى: {مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ} المائدة: ٦٠.**

و قوله: **{مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَا مِنْهُمْ} ضمير {عَلَيْهِمْ} للمنافقين و ضمير {مِنْهُمْ} لليهود، و المعنى: أن هؤلاء المنافقين لتذبذبهم بين الكفر و الإيمان ليسوا منكم و لا من اليهود، قال تعالى: {مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ} النساء: ١٤٣.**

و هذه صفتهم بحسب ظاهر حالهم و أما بحسب الحقيقة فهم ملحقون بمن تولوهم، قال تعالى: **{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ} المائدة: ٥١، فلا منافاة بين قوله: {مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَا مِنْهُمْ} و قوله: {فإِنَّهُ مِنْهُمْ}.**

و احتمال بعضهم أن ضمير **{عَلَيْهِمْ}** للقوم و هم اليهود و ضمير **{مِنْهُمْ}** للموصول و هم المنافقون، و المعنى: تولوا اليهود الذين ليسوا منكم و أنتم مؤمنون و لا من هؤلاء المنافقين أنفسهم بل أجنبيون برآء من الطائفتين، و فيه نوع من الازم، و هو بعيد.

و قوله: **{وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ} أي يحلفون لكم على الكذب أنهم منكم مؤمنون أمثالكم و هم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم.**

قوله تعالى: **{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} الإعداد التهيئة، و قوله: {إِنَّهُمْ سَاءَ} إخ، تعليق للإعداد، و في قوله: {كَانُوا يَعْمَلُونَ} دلالة على أنهم كانوا مستمرين في عملهم مداومين عليه. و المعنى: هيا الله لهم عذابا شديدا لاستمرارهم على عملهم السيئ.**

قوله تعالى: **{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} الأيمان جمع يمين و هو الحلف، و الجنة السترة التي يتقى بها الشر كالترس، و المهين اسم فاعل من الإهانة بمعنى الإذلال و الإخزاء.**

و المعنى: اتخذوا أيمانهم سترة يدفعون بها عن نفوسهم التهمة و الظنة كلما ظهر منهم أمر يريب المؤمنين فصرفوا أنفسهم و غيرهم عن سبيل الله و هو الإسلام فلهم - لأجل ذلك -

قوله تعالى: **{لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** أي إن الذي دعاهم إلى ما هم عليه متاع الحياة الدنيا الذي هو الأموال والأولاد لكنهم في حاجة إلى التخلص من عذاب خالد لا يقضيها لهم إلا الله سبحانه فهم في فقر إليه لا يغنيهم عنه أموالهم ولا أولادهم شيئاً فليؤمنوا به وليعبدوه.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ}** إنح، ظرف لما تقدم من قوله: **{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً}** أو لقوله: **{أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}** و قوله: **{فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ}** أي يحلفون لله يوم البعث كما يحلفون لكم في الدنيا.

و قد قدمنا في تفسير قوله تعالى: **{ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمُ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَ اللَّهُ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}** الأنعام: ٢٣ أن حلفهم على الكذب يوم القيامة مع ظهور حقائق الأمور يومئذ من ظهور ملكاتهم هناك لرسوخها في نفوسهم في الدنيا فقد اعتادوا فيها على إظهار الباطل على الحق بالآيمان الكاذبة و كما يعيشون يموتون و كما يموتون يبعثون.

و من هذا القبيل سؤلهم الرد إلى الدنيا يومئذ، و الخروج من النار و خصامهم في النار و غير ذلك مما يقصه القرآن الكريم، و هم يشاهدون مشاهدة عيان أن لا سبيل إلى شيء من ذلك و اليوم يوم جزاء لا يوم عمل.

و أما قوله: **{وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ}** أي مستقرون على شيء يصلح أن يستقر عليه و يتمكن فيه فيمكنهم الستر على الحق و المنع عن ظهور كذبتهم بمثل الإنكار و الحلف الكاذب.

فيمكن أن يكون قيدا لقوله: **{كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ}** فيكون إشارة إلى وصفهم في الدنيا و أنهم يحسبون أن حلفهم لكم ينفعهم و يرضيكم، و يكون قوله: **{إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ}** قضاء منه تعالى في حقهم بأنهم كاذبون فلا يصغي إلى ما يهدون به و لا يعتنى بما يحلفون به.

و يمكن أن يكون قيدا لقوله: **{فَيَحْلِفُونَ لَهُ}** فيكون من قبيل ظهور الملكات يومئذ كما تقدم في معنى حلفهم آنفاً، و يكون قوله: **{إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ}** حكما منه تعالى بكذبتهم يوم القيامة أو مطلقا.

قوله تعالى: **{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}** الاستحواذ الاستيلاء والغلبة، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ}** تعليل لكونهم هم الخاسرين أي إنما كانوا خاسرين لأنهم يحادون الله ورسوله بالمخالفة والمعاندة والمحادون لله ورسوله في جملة الأذلين من خلق الله تعالى.

قيل: إنما كانوا في الأذلين لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر وإذ كانت العزة لله جميعا فلا يبقى لمن حاده إلا الذلة محضا.

قوله تعالى: **{كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}** الكتابة هي القضاء منه تعالى.

و ظاهر إطلاق الغلبة شمولها للغلبة من حيث الحجّة و من حيث التأييد الغيبي و من حيث طبيعة الإيمان بالله ورسوله.

أما من حيث الحجّة فإن الإنسان مفطور على صلاحية إدراك الحق و الخضوع له فلو بين له الحق من السبيل التي يألفها لم يلبث دون أن يعقله و إذا عقله اعترفت له فطرته و خضعت له طويته و إن لم يخضع له عملا اتباعا لهوى أو أي مانع يمنعه عن ذلك.

و أما الغلبة من حيث التأييد الغيبي و القضاء للحق على الباطل فيكفي فيها أنواع العذاب التي أنزلها الله تعالى على مكذبي الأمم الماضين كقوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب و على آل فرعون و غيرهم ممن يشير تعالى إليهم بقوله: **{ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَ جَعَلْنَاَهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}** المؤمنون: ٤٤، و على ذلك جرت السنة الإلهية و قد أجمل ذكرها في قوله: **{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ}** يونس: ٤٧.

و أما الغلبة من حيث طبيعة الإيمان بالله ورسوله فإن إيمان المؤمن يدعوه إلى الدفاع و الذب عن الحق و المقاومة تجاه الباطل مطلقا و هو يرى أنه إن قتل فاز و إن قتل فاز فثباته على الدفاع غير مقيد بقيد و لا محدود بحد و هذا بخلاف من يدافع لا عن الحق بما هو حق بل عن شيء من المقاصد الدنيوية فإنه إنما يدافع لأجل نفسه فلو شاهد نفسه مشرفة على هلكة أو راكبة مخاطرة تولى منهزما فهو إنما يدافع على شرط و إلى حد و هو سلامة النفس و عدم الإشراف على الهلكة و من الضروري أن العزيمة المطلقة تغلب العزيمة المقيدة

بقيد المحدودة بحد و من الشاهد عليه غزوات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بما أدت إليه من الفتح والظفر في عين أنها كانت سجالات لكن لم تنته إلا إلى تقدم المسلمين و غلبتهم.

و لم تقف الفتوحات الإسلامية و لا تفرقت جموع المسلمين أيادي سبباً إلا بفساد نياتهم و تبديل سيرة التقوى و الإخلاص لله و بسط الدين الحق من بسط السلطة و توسعة المملكة **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}**^١ و قد اشترط الله عليهم حين أكمل دينهم و أمنهم من عدوهم أن يخشوه إذ قال: **{الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ}**.

و يكفي في تسجيل هذه الغلبة قوله تعالى فيما يخاطب المؤمنين: **{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** آل عمران: ١٣٩.

قوله تعالى: **{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَآلِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}** إِنْخ، نفي وجدان قوم على هذه الصفة كناية عن أن الإيمان الصادق بالله و اليوم الآخر لا يجامع مادة أهل المحادة و المعاندة من الكفار و لو قارن أي سبب من أسباب المودة كالأبوة و البنوة و الأخوة و سائر أقسام القرابة فبين الإيمان و مادة أهل المحادة تضاد لا يجتمعان لذلك.

و قد بان أن قوله: **{وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ}** إِنْخ، إشارة إلى أسباب المودة مطلقاً و قد خصت مودة النسب بالذكر لكونه أقوى أسباب المودة من حيث ثباته و عدم تغيره.

و قوله: **{أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ}** الإشارة إلى القوم بما ذكر لهم من الصفة، و الكتابة الإثبات بحيث لا يتغير و لا يزول و الضمير لله و فيه نص على أنهم مؤمنون حقاً.

و قوله: **{وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ}** التأييد التقوية، و ضمير الفاعل في **{أَيَّدَهُم}** لله تعالى و كذا ضمير **{مِنْهُ}** و من ابتدائية، و المعنى: و قواهم الله بروح من عنده تعالى، و قيل: الضمير للإيمان، و المعنى: و قواهم الله بروح من جنس الإيمان يحيي بها قلوبهم، و لا بأس به.

و قيل: المراد بالروح جبرائيل، و قيل: القرآن، و قيل: المراد بها الحجّة و البرهان، و هذه وجوه ضعيفة لا شاهد لها من جهة اللفظ.

ثم الروح - على ما يتبادر من معناها - هي مبدأ الحياة التي تترشح منها القدرة و الشعور بإبقاء قوله: **{وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ}** على ظاهره يفيد أن للمؤمنين وراء الروح البشرية التي يشترك فيها المؤمن و الكافر روحاً أخرى تفيض عليهم حياة أخرى و تصاحبها قدرة و شعور جديان، و إلى ذلك يشير قوله تعالى: **{أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا}** الأنعام: ١٢٢، و قوله: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً}** النحل: ٩٧.

و ما في الآية من طيب الحياة يلزم طيب أثرها و هو القدرة و الشعور المتفرع عليهما الأعمال الصالحة، و هما المعبر عنهما في آية الأنعام المذكورة أنفاً بالنور و نظيرها قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}** الحديد: ٢٨.

و هذه حياة خاصة كريمة لها آثار خاصة ملازمة لسعادة الإنسان الأبدية وراء الحياة المشتركة بين المؤمن و الكافر التي لها آثار مشتركة فلها مبدأ خاص و هو روح الإيمان التي تذكرها الآية وراء الروح المشتركة بين المؤمن و الكافر.

و على هذا فلا موجب لما ذكروا أن المراد بالروح نور القلب و هو نور العلم الذي يحصل به الطمأنينة و أن تسميته روحاً مجاز مرسل لأنه سبب للحياة الطيبة الأبدية أو من الاستعارة لأنه في ملازمته وجوه العلم الفائض على القلب - و العلم حياة القلب كما أن الجهل موته - يشبه الروح المفيض للحياة. انتهى.

و قوله: **{وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}** وعد جميل و وصف لحياتهم الآخرة الطيبة.

و قوله: **{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ}** استئناف يعلل قوله: **{وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ}** إنلخ، و رضا الله سبحانه عنهم رحمته لهم لإخلاصهم الإيمان له و رضاهم عنه و ابتهاجهم بما رزقهم من الحياة الطيبة و الجنة.

و قوله: **{أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** تشريف لهؤلاء المخلصين في إيمانهم بأنهم حزبه تعالى كما أن أولئك المنافقين الموالين لأعداء الله حزب الشيطان و هؤلاء مفلحون كما أن أولئك خاسرون.

و في قوله: **{أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ}** وضع الظاهر موضع الضمير ليجري الكلام مجرى المثل السائر.

بحث روائي

في المجمع في قوله تعالى: **{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي}** روي أن المسلمين قالوا لما رأوا ما يفتح الله عليهم من القرى: ليفتحن الله علينا الروم و فارس فقال المنافقون: أ تظنون أن فارس و الروم كبعض القرى التي غلبتم عليها؟ فأنزل الله هذه الآية.

أقول: الظاهر أنه من قبيل تطبيق الآية على القصة و نظائره كثيرة، و لذا ورد في قوله تعالى: **{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ}** إنه نزل في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر، و في بعضها: أنه نزل في أبي بكر سب النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فصكه أبو بكر صكة سقطت على الأرض فنزلت الآية. و في عبد الرحمن بن ثابت بن قيس بن الشماس استأذن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يزور خاله من المشركين فأذن له فلما قدم قرأ عليه النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و من حوله من المسلمين الآية.

و هذه روايات لا يلائمها ما في الآيات من الاتصال الظاهر.

و في الدر المنثور، أخرج الطيالسي و ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **أوثق عرى الإيمان الحب في الله و البغض في الله.**

و في الكافي، بإسناده إلى أبان بن تغلب عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **ما من مؤمن إلا و لقلبه أذنان في جوفه: أذن ينفث فيها الوسواس الخناس و أذن ينفث فيها الملك فيؤيد الله المؤمن بالملك فذلك قوله: {وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ}.**

أقول: ليس معناه تفسير الروح بالملك بل الملك يصاحب الروح و يعمل به، قال تعالى: **{يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ}** النحل: ٢٠.

و فيه، بإسناده إلى ابن بكير قال: **قلت لأبي جعفر (عليه السلام): في قول رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) إذا زنا الرجل فارقه روح الإيمان. قال: هو قوله: {وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ} ذلك الذي يفارقه.**

و فيه، بإسناده إلى محمد بن سنان عن أبي خديجة قال: **دخلت على أبي الحسن (عليه السلام) فقال لي: إن الله تبارك و تعالى أيد المؤمن بروح تحضره في كل وقت يحسن فيه و يتقي**

و تغيب عنه في كل وقت يذنب فيه و يعتدي فهي معه تهتز سرورا عند إحسانه و تسيخ في الثرى عند إساءته، فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقينا و تربحوا نفيسا ثمينا، رحم الله امرءا هم بخير فعمله أو هم بشر فارتدع عنه. ثم قال: نحن نؤيد الروح بالطاعة لله و العمل له.

أقول: قد تبين مما تقدم في ذيل الآية أن هذه الروح من مراتب الروح الإنساني ينالها المؤمن عند ما يستكمل الإيمان فليست مفارقة له كما أن الروح النباتية و الحيوانية و الإنسانية المشتركة بين المؤمن و الكافر من مراتب روحه غير مفارقة له غير أنها تبتدئ هيئة حسنة في النفس ربما زالت لعروض هيئة سيئة تضادها ثم ترجع إذا زالت الموانع المضادة حتى إذا استقرت و رسخت و تصورت النفس بها ثبتت و لم تتغير.

و بذلك يظهر أن المراد بقوله (عليه السلام): بروح تحضره، و قوله: فهي معه، حضور صورتها حضور الهيئة العارضة القابلة للزوال، و بقوله: تسيخ في الثرى زوال الهيئة على طريق الاستعارة، و كذا قوله (صلى الله عليه وآله و سلم) في الرواية السابقة: فارقه روح الإيمان

(٥٩) (سورة الحشر مدنية و هي أربع و عشرون آية) (٢٤)

[سورة الحشر (٥٩): الآيات ١ الى ١٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَ لَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ

فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي آلِ آخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِ اللَّهَ

فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ

لِيُخْرِزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لَا رِكَابٍ وَ

لَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ

أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِيذَى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً

بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ

اللَّهِ وَ رِضْوَانًا وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ

مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُوَثِّرُونَ عَلَى

أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَ الَّذِينَ جَاءُوا

مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا

لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

(بيان)

تشير السورة إلى قصة إجلاء بني النضير من اليهود لما نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، وإلى وعد المنافقين لهم بالنصر والملازمة ثم غدرهم وما يلحق بذلك من حكم فيهم.

ومن غرر الآيات فيها الآيات السبع في آخرها يأمر الله سبحانه عباده فيها بالاستعداد للقائه من طريق المراقبة والمحاسبة، ويذكر عظمة قوله وجلالة قدره بوصف عظمة قائله عز من قائل بما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا. والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: **{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** افتتاح مطابق لما في مختتم السورة من قوله: **{يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**.

وإنما افتتح بالتنزيه لما وقع في السورة من الإشارة إلى خيانة اليهود ونقضهم العهد ثم وعد المنافقين لهم بالنصر غدرا كمثل الذين كانوا من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم، وبالنظر إلى ما أذاقهم الله من وبال كيدهم، وكون ذلك على ما يقتضيه الحكمة والمصلحة ذيل الآية بقوله: **{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**.

قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}** تأيد لما ذكر في الآية السابقة من تنزهه تعالى وعزته وحكمته، والمراد بإخراج الذين كفروا من أهل الكتاب إجلاء بني النضير حي من أحياء اليهود كانوا يسكنون خارج المدينة وكان بينهم وبين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عهد أن لا يكونوا له ولا عليه ثم نقضوا العهد فأجلاهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وستأتي قصتهم في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

والحشر إخراج الجماعة بإزعاج، و**{لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}** من إضافة الصفة إلى الموصوف، واللام بمعنى في كقوله: **{أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ}** إسرء: ٧٨.

والمعنى: الله الذي أخرج بني النضير من اليهود من ديارهم في أول إخراجهم من جزيرة العرب. ثم أشار تعالى إلى أهمية إخراجهم بقوله: **{مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا}** لما كنتم تشهدون فيهم من القوة والشدة والمنعة **{وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ}** فلن يغلبهم الله وهم متحصنون فيها وعد حصونهم بحسب ظنهم مانعة من الله لا من المسلمين لما أن إخراجهم

منها منسوب في الآية السابقة إليه تعالى و كذا إلقاء الرعب في قلوبهم في ذيل الآية، وفي الكلام دلالة على أنه كانت لهم حصون متعددة.

ثم ذكر فساد ظنهم و خبطهم في مزعمتهم بقوله: **{فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}** و المراد به نفوذ إرادته تعالى فيهم لا من طريق احتسابه و هو طريق الحصون و الأبواب بل من طريق باطنهم و هو طريق القلوب **{وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}** و الرعب الخوف الذي يملأ القلب **{يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ}** لثلاث تقع في أيدي المؤمنين بعد خروجهم و هذه من قوة سلطانه تعالى عليهم حيث أجرى ما أراد به بأيدي أنفسهم **{وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ}** حيث أمرهم بذلك و وفقهم لامثال أمره و إنفاذ إرادته **{فَاعْتَبِرُوا}** و خذوا بالعظة **{يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}** بما تشهدون من صنع الله العزيز الحكيم بهم قبال مشاققتهم له و لرسوله.

و قيل: كانوا يخربون البيوت ليهربوا و يخربها المؤمنون ليصلوا.

و قيل: المراد بتخريب البيوت اختلال نظام حياتهم فقد خربوا بيوتهم بأيديهم حيث نقضوا المواعدة، و بأيدي المؤمنين حيث بعثوهم على قتالهم.

و فيه أن ظاهر قوله: **{يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ}** إنلح أنه بيان لقوله: **{فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}** إنلح، من حيث أثره فهو متأخر عن نقض المواعدة.

قوله تعالى: **{وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي آلِ الْآخِرَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** الجلاء ترك الوطن و كتابة الجلاء عليهم قضاؤه في حقهم، و المراد بعذابهم في الدنيا عذاب الاستئصال أو القتل و السبي.

و المعنى: و لو لا أن قضى الله عليهم الخروج من ديارهم و ترك وطنهم لعذبهم في الدنيا بعذاب الاستئصال أو القتل و السبي كما فعل ببني قريظة و لهم في الآخرة عذاب النار.

قوله تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** المشاقة المخالفة بالعناد، و الإشارة بذلك إلى ما ذكر من إخراجهم و استحقاقهم العذاب لو لم يكتب عليهم الجلاء، و في تخصيص مشاققتهم بالله في قوله: **{وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ}** بعد تعميمه لله و رسوله في قوله: **{شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ}** تلويح إلى أن مشاقة الرسول مشاقة الله و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}** ذكر الراغب أن اللينة النخلة الناعمة من دون اختصاص منه بنوع منها دون

نوع، روي: أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر بقطع نخيلهم فلما قطع بعضها نادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال النخيل تقطع فنزلت الآية فأجيب عن قولهم بأن ما قطعوا من نخلة أو تركوها قائمة على أصولها فيأذن الله والله في حكمه هذا غايات حقة و حكم بالغة منها إخزاء الفاسقين و هم بنو النضير.

فقوله: **{وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}** اللام فيه للتعليل و هو معطوف على محذوف و التقدير: القطع و الترك بإذن الله ليفعل كذا و كذا و ليخزي الفاسقين فهو كقوله: **{وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}** الأنعام: ٧٥.

قوله تعالى: **{وَمَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لَا رِكَابٍ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ}** إلخ، الإفاء الإرجاع من الفياء بمعنى الرجوع، و ضمير **{مِنْهُمْ}** لبني النضير و المراد من أموالهم. و إيجاب الدابة تسييرها بإزعاج و إسراع و الخيل الفرس، و الركاب الإبل و **{مِنْ خَيْلٍ وَ لَا رِكَابٍ}** مفعول **{فَمَا أَوْجَفْتُمْ}** و **{مِنْ}** زائدة للاستغراق.

و المعنى: و الذي أرجعه الله إلى رسوله من أموال بني النضير - خصه به و ملكه وحده إياه - فلم تسيروا عليه فرسا و لا إبلا بالركوب حتى يكون لكم فيه حق بل مشيتم إلى حصونهم مشاة لقربها من المدينة، و لكن الله يسלט رسله على من يشاء و الله على كل شيء قدير و قد سلط النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على بني النضير فله فيهم يفعل فيه ما يشاء.

قوله تعالى: **{مَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِيذِي الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ}** إلخ، ظاهره أنه بيان لموارد مصرف الفياء المذكور في الآية السابقة مع تعميم الفياء لفيء أهل القرى أعم من بني النضير و غيرهم.

و قوله: **{فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ}** أي منه ما يختص بالله و المراد به صرفه و إنفاقه في سبيل الله على ما يراه الرسول و منه ما يأخذه الرسول لنفسه و لا يصغي إلى قول من قال: إن ذكره تعالى مع أصحاب السهام لمجرد التبرك.

و قوله: **{وَلِيذِي الْقُرْبَى}** إلخ، المراد بذوي القربى قرابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، و لا معنى لحملة على قرابة عامة المؤمنين و هو ظاهر، و المراد باليتامى الفقراء منهم كما يشعر به السياق و إنما أفرد و قدم على **{الْمَسَاكِينِ}** مع شموله له اعتناء بأمر اليتامى.

و قد ورد عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أن المراد بذوي القربى أهل البيت و اليتامى

و المساكين و ابن السبيل منهم.

و قوله: **{كَيْ لَا يَكُونَ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ}** أي إنما حكمنا في الفيء بما حكمنا كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم و الدولة ما يتداول بين الناس و يدور يدا يدا.

و قوله: **{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}** أي ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه كما أعطى منه المهاجرين و نفرنا من الأنصار، و ما نهاكم عنه و منعكم فانتهاوا و لا تطلبوا، و فيه إشعار بأنهم سألوا النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يقسم الفيء بينهم جميعا فأرجعه إلى نبيه و جعل موارد مصرفه ما ذكره في الآية و جعل للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أن ينفقه فيها على ما يرى.

و الآية مع الغض عن السياق عامة تشمل كل ما آتاه النبي من حكم فأمر به أو نهى عنه.

و قوله: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** تحذير لهم عن مخالفة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) تأكيدا لقوله: **{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ} إِنْخ.**

قوله تعالى: **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا} إِنْخ،** قيل: إن قوله: **{لِلْفُقَرَاءِ}** بدل من قوله: **{لِذِي الْقُرْبَى}** و ما بعده و ذكر الله لمجرد التبرك فيكون الفيء مختصا بالرسول و الفقراء من المهاجرين، و قد وردت الرواية أن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قسم فيء بني النضير بين المهاجرين و لم يعط منه الأنصار شيئا إلا رجلين من فقراءهم أو ثلاثة.

وقيل: إنه بدل من اليتامى و المساكين و ابن السبيل فيكون ذوو السهام هم النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و ذا القربى غنيهم و فقيرهم و الفقراء من المهاجرين يتاماهم و مساكينهم و أبناء السبيل منهم، و لعل هذا مراد من قال: إن قوله: **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ}** بيان المساكين في الآية السابقة.

و الأنسب لما تقدم نقله عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أن يكون قوله: **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ} إِنْخ،** بيان مصداق لصرف سبيل الله الذي أشير إليه بقوله: **{فَلِلَّهِ}** لا بأن يكون الفقراء المهاجرون أحد السهماء في الفيء بل بأن يكون صرفه فيهم و إعطاؤهم إياه صرفا له في سبيل الله.

و محصل المعنى على هذا: أن الله سبحانه أفاء الفيء و أرجعه إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فله أن يتصرف فيه كيف يشاء ثم دل على موارد صرفه و هي سبيل الله و الرسول و ذو القربى

و يتاماهم و مساكينهم و ابن السبيل منهم ثم أشار إلى مصداق الصرف في السبيل أو بعض مصاديقه و هم الفقراء المهاجرون إنخ، ينفق منه الرسول لهم على ما يرى.

و على هذا ينبغي أن يحمل ما ورد أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قسم فيء بني النضير بين المهاجرين و لم يعط الأنصار شيئاً إلا ثلاثة من فقرائهم: أبا دجاجة سماك بن خرشة و سهل بن حنيف و الحارث بن الصمة فقد صرف فيهم بما أنه صرف في سبيل الله لا بما أنهم سہماء في الفيء.

و كيف كان فقوله: **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ}** المراد بهم من هاجر من المسلمين من مكة إلى المدينة قبل الفتح و هم الذين أخرجهم كفار مكة بالاضطرار إلى الخروج فتركوا ديارهم و أموالهم و هاجروا إلى مدينة الرسول.

و قوله: **{يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً}** الفضل الرزق أي يطلبون من الله رزقا في الدنيا و رضوانا في الآخرة.

و قوله: **{وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}** أي ينصرونه و رسوله بأموالهم و أنفسهم، و قوله: **{أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}** تصديق لصدقهم في أمرهم و هم على هذه الصفات.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ}** إنخ، قيل: إنه استئناف مسوق لمدح الأنصار لتطيب بذلك قلوبهم إذ لم يشركوا في الفيء، **{وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا}** و المراد بهم الأنصار مبتدأ خبره **{يُحِبُّونَ}** إنخ، و المراد بتبوي الدار و هو تعميرها بناء مجتمع ديني يأوي إليه المؤمنون على طريق الكفاية، و الإيمان معطوف على **{الدَّارَ}** و تبوي الإيمان و تعميره رفع نواقصه من حيث العمل بحيث يستطيع العمل بما يدعو إليه من الطاعات و القربات من غير حجر و منع كما كان بمكة.

و احتمال أن يعطف **{الْإِيمَانَ}** على تبوؤا و قد حذف الفعل العامل فيه، و التقدير: و آثروا الإيمان.

و قيل: إن قوله: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا}** إنخ، معطوف على قوله: **{الْمُهَاجِرِينَ}** و على هذا يشارك الأنصار المهاجرين في الفيء، و الإشكال عليه بأن المروي أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قسمه بين المهاجرين و لم يعط الأنصار منه شيئاً إلا ثلاثة من فقرائهم مدفوع بأن الرواية من شواهد العطف دون الاستئناف إذ لو لم يجز إعطاؤه للأنصار لم يجز لا للثلاثة و لا للواحد فإعطاء بعضهم منه دليل على مشاركتهم لهم غير أن الأمر لما كان راجعا إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان له أن يصرفه كيف يشاء فرجح أن يقسمه بينهم على تلك الوتيرة.

و الأنسب لما تقدم من كون **{لِلْفُقَرَاءِ}** إِنْخ، بيانا لمصاديق سهم السبيل هو عطف **{وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا}** إِنْخ، وكذا قوله الآتي: **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ}** على قوله: **{الْمُهَاجِرِينَ}** إِنْخ، دون الاستئناف.

بل ما ورد من إعطائه (صلى الله عليه وآله وسلم) للثلاثة يؤيد هذا الوجه بعينه إذ لو كان السهم فيه الفقراء المهاجرين فحسب لم يعط الأنصار ولا لثلاثة منهم، ولو كان للفقراء من الأنصار كالمهاجرين فيه سهم - و ظاهر الآية أن جمعا منهم كانوا فقراء بهم خصاصة و التاريخ يؤيده - لأعطى غير الثلاثة من فقراء الأنصار كما أعطى فقراء المهاجرين واستوعبهم.

فقوله: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ}** ضمير **{مِنْ قَبْلِهِمْ}** للمهاجرين والمراد من قبل مجيئهم و هجرتهم إلى المدينة.

و قوله: **{يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ}** أي يحبون من هاجر إليهم لأجل هجرتهم من دار الكفر إلى دار الإيمان و مجتمع المسلمين.

و قوله: **{وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا}** ضميرا **{يَجِدُونَ}** و **{صُدُورِهِمْ}** للأنصار، و ضمير **{أُوتُوا}** للمهاجرين، و المراد بالحاجة ما يحتاج إليه و من تبعيضية و قيل: بيانية و المعنى: لا يخطر ببالهم شيء مما أعطيه المهاجرون فلا يضيق نفوسهم من تقسيم الفيء بين المهاجرين دونهم و لا يحسدون. و قيل: المراد بالحاجة ما يؤدي إليه الحاجة و هو الغيظ.

و قوله: **{وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}** إيثار الشيء اختياره و تقديمه على غيره، و الخصاصة الفقر و الحاجة، قال الراغب: خصاص البيت فرجه و عبر عن الفقر الذي لم يسد بالخصاصة كما عبر عنه بالخلعة انتهى.

و المعنى: و يقدمون المهاجرين على أنفسهم و لو كان بهم فقر و حاجة، و هذه الخصاصة أغزر و أبلغ في مدحهم من الخصاصة السابقة للكلام في معنى الإضراب كأنه قيل: إنهم لا يطمحون النظر فيما بأيدي المهاجرين بل يقدمونهم على أنفسهم فيما بأيديهم أنفسهم في عين الفقر و الحاجة.

و قوله: **{وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** قال الراغب: الشح بخل مع حرص فيما كان عادة انتهى. و «يوق» فعل مضارع مجهول من الوقاية بمعنى الحفظ، و المعنى: و من يحفظ أي يحفظه الله من ضيق نفسه من بذل ما بيده من المال أو من

وقوع مال في يد غيره فأولئك هم المفلحون.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ}** استئناف أو عطف نظير ما تقدم في قوله: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ}** و على الاستئناف فالموصول مبتدأ خبره قوله: **{يَقُولُونَ رَبَّنَا}** إنلح.

و المراد بجيئهم بعد المهاجرين و الأنصار إيمانهم بعد انقطاع الهجرة بالفتح و قيل: المراد أنهم خلفوهم.
و قولهم: **{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ}** دعاء لأنفسهم و السابقين من المؤمنين بالمغفرة، و في تعبيرهم عنهم بإخواننا إشارة إلى أنهم يعدونهم من أنفسهم كما قال الله تعالى: **{بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ}** النساء: ٢٥، فهم يحبونهم كما يحبون أنفسهم و يحبون لهم ما يحبون لأنفسهم.

و لذلك عقبوه بقولهم: **{وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ}** فسألوا أن لا يجعل الله في قلوبهم غلا للذين آمنوا و الغل العداوة.

و في قوله: **{لِلَّذِينَ آمَنُوا}** تعميم لعامة المؤمنين منهم و ممن سبقهم و تلويح إلى أنه لا بغية لهم إلا الإيمان.

(بحث روائي)

في تفسير القمي، في قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ}** (الآية)، قال: سبب ذلك أنه كان بالمدينة ثلاثة أبطن من اليهود: بني النضير و قريظة و قينقاع، و كان بينهم و بين رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) عهد و مدة فتقضوا عهدهم.

و كان سبب ذلك بني النضير في نقض عهدهم أنه أتاهم رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يستسلفهم دية رجلين قتلتهما رجل من أصحابه غيلة، يعني يستقرض، و كان بينهم كعب بن الأشرف فلما دخل على كعب قال: مرحبا يا أبا القاسم و أهلا و قام كأنه يصنع له الطعام و حدث نفسه أن يقتل رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و يتبع أصحابه، فنزل جبرئيل فأخبره بذلك.

فرجع رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) إلى المدينة و قال لمحمد بن مسلمة الأنصاري: اذهب إلى بني النضير فأخبرهم إن الله عز و جل قد أخبرني بما همتم به من الغدر فإما أن تخرجوا من

بلدنا وإما أن تأذنوا بحرب، فقالوا: نخرج من بلادك.

فبعث إليهم عبد الله بن أبي: لا تخرجوا و تقيموا و تنابذوا محمدا الحرب فإني أنصركم أنا و قومي و حلفائي فإن خرجتم خرجت معكم و إن قاتلتم قاتلت معكم، فأقاموا و أصلحوا بينهم حصونهم و تهيئوا للقتال و بعثوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) أنا لا نخرج فاصنع ما أنت صانع.

فقام رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و كبر و كبر أصحابه و قال لأمير المؤمنين: تقدم على بني النضير فأخذ أمير المؤمنين الراية و تقدم، و جاء رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و أحاط بحصنهم و غدر بهم عبد الله بن أبي.

و كان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) إذا ظهر بمقدم بيوتهم حصنوا ما يليهم و خربوا ما يليه، و كان الرجل منهم ممن كان له بيت حسن خربه، و قد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) أمر بقطع نخلمهم فجزعوا من ذلك و قالوا: يا محمد إن الله يأمرك بالفساد؟ إن كان لك هذا نخذه و إن كان لنا فلا تقطعه.

فلما كان بعد ذلك قالوا: يا محمد نخرج من بلادك فأعطنا مالنا، فقال: لا و لكن تخرجون و لكم ما حملت الإبل، فلم يقبلوا ذلك فبقوا أياما ثم قالوا: نخرج و لنا ما حملت الإبل، فقال: لا و لكن تخرجون و لا يحمل أحد منكم شيئا، فمن وجدنا معه شيئا من ذلك قتلناه.

فخرجوا على ذلك و وقع منهم قوم إلى فدك و وادي القرى و خرج قوم منهم إلى الشام. فأنزل الله فيهم **{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا}** - إلى قوله - **{فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** و أنزل الله عليه فيما عابوه من قطع النخل **{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ}** - إلى قوله - **{رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ}**.

و أنزل الله عليه في عبد الله بن أبي و أصحابه **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا}** - إلى قوله - **{ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ}**.

و في الجمع، عن ابن عباس: كان النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم و أن يخرجهم من أرضهم و أوطانهم و أن يسيرهم إلى أذرعات بالشام و جعل لكل ثلاثة منهم بعيرا و سقاء.

فخرجوا إلى أذرعات بالشام و أريحا إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق و آل حبي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر و لحقت طائفة منهم بالحيرة.

و فيه، عن محمد بن مسلمة: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعثه إلى بني النضير وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاث ليال.

و فيه، عن محمد بن إسحاق: كان إجلاء بني النضير مرجع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أحد، و كان فتح قريظة مرجعه من الأحزاب، و كان الزهري يذهب إلى أن إجلاء بني النضير كان قبل أحد على رأس ستة أشهر من وقعة بدر.

و فيه، عن ابن عباس: نزل قوله تعالى: **{مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى}** (الآية) في أموال كفار أهل القرى و هم قريظة و بنو النضير و هما بالمدينة، و فدك و هي من المدينة على ثلاثة أميال، و خيبر و قرى عرينة و ينبع جعلها الله لرسوله يحكم فيها ما أراد و أخبر أنها كلها له فقال أناس: فهلا قسمها فنزلت الآية.

و فيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم بني النضير للأَنْصار: **إِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُ لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَ دِيَارِكُمْ وَ تَشَارِكُونَهُمْ فِي هَذِهِ الْغَنِيمَةِ، وَ إِنْ شِئْتُمْ كَانَتْ لَكُمْ دِيَارِكُمْ وَ أَمْوَالِكُمْ وَ لَمْ يَقْسَمْ لَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْغَنِيمَةِ فَقَالَ الْأَنْصَارُ: بَلْ نَقْسِمُ لَهُمْ مِنْ دِيَارِنَا وَ أَمْوَالِنَا وَ نُؤْثِرُهُمْ بِالْغَنِيمَةِ وَ لَا نَشَارِكُهُمْ فِيهَا فَنَزَلَتْ: {وَ يُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ} (الآية).**

أقول: و روي في إيثارهم و نزول الآية فيه قصص أخرى، و الظاهر أن ذلك من قبيل تطبيق الآية على القصة، و قد روي المعاني السابقة في الدر المنثور بطرق كثيرة مختلفة.

و في التوحيد، عن علي (عليه السلام): **و قد سئل عما اشتبه على السائل من الآيات قال في قوله تعالى: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} يعني أرسل عليهم عذابا.**

و في التهذيب، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **{مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ} (الآية) قال الفراء ما كان من أموال لم يكن فيها هراقة دم أو قتل و الأنفال مثل ذلك و هو بمنزلة.**

و في المجمع، روى المنهال بن عمر عن علي بن الحسين (عليه السلام): **قلت: قوله: {وَلِيذَى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينَ وَ ابْنِ السَّبِيلِ} قال: هم قربانا و مساكينا و أبناء سبيلنا.**

أقول: و روي هذا المعنى في التهذيب، عن سليم بن قيس عن أمير المؤمنين (عليه السلام).
و قال في المجمع، بعد نقل الرواية السابقة: و قال جميع الفقهاء: هم يتامى الناس عامة و كذلك المساكين و أبناء السبيل و قد روي ذلك أيضا عنهم (عليهم السلام).

و في الكافي، بإسناده عن زرارة أنه سمع أبا جعفر و أبا عبد الله (عليهما السلام) يقولان: **إن الله عز و جل فوض إلى نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر خلقه لينظر كيف طاعتهم ثم تلا^١ هذه الآية {مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا}**.

أقول: و الروايات عنهم (عليهم السلام) في هذا المعنى كثيرة و المراد بتفويضه أمر خلقه كما يظهر من الروايات إمضاؤه تعالى ما شرعه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لهم و اقتراض طاعته في ذلك، و ولايته أمر الناس و أما التفويض بمعنى سلبه تعالى ذلك عن نفسه و تقليده (صلى الله عليه وآله وسلم) لذلك فمستحيل.

و فيه، بإسناده عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث: **الإيمان بعضه من بعض و هو دار و كذلك الإسلام دار و الكفر دار.**

و في المحاسن، بإسناده عن أبي عبيدة عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث قال: **يا زياد ويحك و هل الدين إلا الحب. أ لا ترى إلى قول الله: {إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} أ و لا ترون إلى قول الله لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم): {حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} و قال: {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} و قال: **الدين هو الحب و الحب هو الدين.****

و في المجمع، و في الحديث: **لا يجتمع الشح و الإيمان في قلب رجل مسلم، و لا يجتمع غبار في سبيل الله و دخان جهنم في جوف رجل مسلم.**

و في الفقيه، روى الفضل بن أبي قرة السمندي قال: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): **أ تدري من الشحيح؟ قلت: هو البخيل. قال: الشح أشد من البخل إن البخيل يبخل بما في يده و الشحيح يشح بما في أيدي الناس و على ما في يده حتى لا يرى في أيدي الناس شيئاً إلا تمنى أن يكون له بالحل و الحرام، و لا يقنع بما رزقه الله عز و جل.**

[سورة الحشر (٥٩): الآيات ١١ الى ١٧]

{لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ
وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا}

{وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَيْنٌ أُخْرِجُوا لَّا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَيْنٌ قُوتِلُوا لَّا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَيْنٌ نَّصَرُوهُمْ لِيُوَلِّنَ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَّا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَّا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وِبَالٍ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾}

(بيان)

إشارة إلى حال المنافقين و وعدهم لبني النضير بالنصر إن قوتلوا و الخروج معهم إن أخرجوا و تكذيبهم فيما وعدوا.

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ { إنلخ، الإخوان كالأخوة جمع أخ و الأخوة الاشتراك في الانتساب إلى أب و يتوسع فيه فيستعمل في المشتركين في اعتقاد أو صداقة و نحو ذلك، و يكثر استعمال الأخوة في المشتركين في النسبة إلى أب و استعمال الإخوان في المشتركين في اعتقاد و نحوه على ما قيل.

و الاستفهام في الآية للتعجيب، و المراد بالذين نافقوا عبد الله بن أبي و أصحابه، و المراد بإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بنو النضير على ما يؤيده السياق فإن مفاد الآيات

أنهم كانوا قوما من أهل الكتاب دار أمرهم بين الخروج والقتال بعد قوم آخر كذلك وليس إلا بني النضير بعد بني قينقاع.

وقوله: **{لَيْنُ أُخْرِجْتُمْ لِنُخْرَجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ}** مقول قول المنافقين، واللام في **{لَيْنُ أُخْرِجْتُمْ}** للقسم أي نقسم لئن أخرجكم المسلمون من دياركم لنخرجن من ديارنا معكم ملازمين لكم ولا نطيع فيكم أي في شأنكم أحدا يشير علينا بمفارقتكم أبدا، وإن قاتلكم المسلمون لننصرنكم عليهم.

وقوله: **{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}** تكذيب لوعده المنافقين، وتصريح بأنهم لا يفون بوعدهم.

قوله تعالى: **{لَيْنُ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَيْنُ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ}** تكذيب تفصيلي لوعدهم بعد تكذيبه الإجمالي بقوله: **{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}** وقد كرر فيه لام القسم، والمعنى: أقسم لئن أخرج بنو النضير لا يخرج معهم المنافقون، وأقسم لئن قوتلوا لا ينصرونهم.

قوله تعالى: **{وَلَيْنُ نَصْرُوهُمْ لِيُوَلَّنَّ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ}** إشارة إلى أن نصرهم على تقدير وقوعه منهم - ولن يقع أبدا - لا يدوم ولا ينفعهم بل يولون الأدبار فرارا ثم لا ينصرون بل يهلكون من غير أن ينصرهم أحد.

قوله تعالى: **{لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ}** إلخ، ضمائر الجمع للمنافقين، والرغبة الخشية، والآية في مقام التعليل لقوله: **{وَلَيْنُ نَصْرُوهُمْ لِيُوَلَّنَّ الْأُدْبَارَ}** أي ذلك لأنهم يرهبونكم أشد من رهبتهم لله فلا يقاومونكم لو قاتلتم ولا يثبتون لكم.

وعلل ذلك بقوله: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ}** والإشارة بذلك إلى كون رهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله أي رهبتهم لكم كذلك لأنهم قوم لا يفهمون حق الفهم ولو فقها حقيقة الأمر بأن لهم أن الأمر إلى الله تعالى وليس لغيره من الأمر شيء سواء في ذلك المسلمون وغيرهم، ولا يقوى غيره تعالى على عمل خير أو شر أو نافع أو ضار إلا بحول منه تعالى وقوة فلا ينبغي أن يهرب إلا هو عز وجل.

قوله تعالى: **{لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ}** بيان لأثر رهبتهم وجنبهم جميعا والمعنى: لا يقاتلكم بنو النضير والمنافقون جميعا بأن يبرزوا بل في قري حصينة محكمة أو من وراء جدر من غير بروز.

وقوله: **{بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ}** أي هم فيما بينهم شديد البطش غير أنهم إذا برزوا لحربكم و شاهدوكم يجبنون بما ألقى الله في قلوبهم من الرعب.

وقوله: **{تَحَسَّبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى}** أي تظن أنهم مجتمعون في ألفة و اتحاد و الحال أن قلوبهم متفرقة غير متحدة و ذلك أقوى عامل في الخزي و الخذلان. ذلك بأنهم قوم لا يعقلون و لو عقلوا لاتحدوا و وحدوا الكلمة.

قوله تعالى: **{كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** الوبال العاقبة السيئة و قوله: **{قَرِيباً}** قائم مقام الظروف منصوب على الظرفية أي في زمان قريب.

وقوله: **{كَمَثَلِ}** إنح، خبر مبتدأ محذوف و التقدير «مثلهم كمثل» إنح، و المعنى: مثلهم أي مثل بني النضير من اليهود في نقضهم العهد و وعد المنافقين لهم بالنصر كذبا ثم الجلاء مثل الذين من قبلهم في زمان قريب و هم بنو قينقاع رهط آخر من يهود المدينة نقضوا العهد بعد غزوة بدر فأجلاهم رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) إلى أذرعات و قد كان وعدهم المنافقون أن يكلموا النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فيهم و يمنعوه من إجلائهم فغدروا بهم فذاق بنو قينقاع وبال أمرهم و لهم في الآخرة عذاب أليم و قيل: المراد بالذين من قبلهم كفار مكة يوم بدر و ما تقدم أنسب للسياق.

و المثل على أي حال مثل لبني النضير لا للمنافقين على ما يعطيه السياق.

قوله تعالى: **{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ أُكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ}** إنح، ظاهر السياق أنه مثل للمنافقين في غرورهم بني النضير بوعد النصر ثم خذلانهم عند الحاجة.

و ظاهر سياق يفيد أن المراد بالشيطان و الإنسان الجنس و الإشارة إلى غرور الشيطان للإنسان بدعوته إلى الكفر بتزيين أمتعة الحياة له و تسويل الإعراض عن الحق بمواعيده الكاذبة و الأمانى السرابية حتى إذا طلعت له طلائع الآخرة و عاين أن ما اغتر به من أمانى الحياة الدنيا لم يكن إلا سرابا يغره و خيالا يلعب به تبرأ منه الشيطان و لم يف بما وعده و قال: إنني بريء منك إنني أخاف الله رب العالمين.

و بالجملة مثل المنافقين في دعوتهم بني النضير إلى مخالفة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و وعدهم النصر ثم الغدر بهم و خلف الوعد كمثل هذا الشيطان في دعوة الإنسان إلى الكفر بمواعيده الكاذبة

ثم تبريه منه بعد الكفر عند الحاجة.

وقيل: المراد بالتمثيل الإشارة إلى قصة برصيصة العابد الذي زين له الشيطان الفجور ففجر بامرأة ثم كفر وسيأتي القصة في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

وقيل: المثل السابق المذكور في قوله: **{ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا }** مثل كفار مكة يوم بدر - كما تقدم - والمراد بالإنسان في هذا المثل أبو جهل وبقول الشيطان له اكفر ما قصه الله تعالى بقوله في القصة: **{ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ }** الأنفال: ٤٨.

وعلى هذا الوجه فقول الشيطان: **{ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ }** قول جدي لأنه كان يخاف تعذيب الملائكة النازلين لنصرة المؤمنين ببدر وأما على الوجهين الأولين فهو نوع من الاستهزاء والإخزاء.

قوله تعالى: **{ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ }** الظاهر أن ضمائر التثنية للشيطان والإنسان المذكورين في المثل ففي الآية بيان عاقبة الشيطان في غروره الإنسان وإضلاله والإنسان في اغتراره به وضلاله، وإشارة إلى أن ذلك عاقبة المنافقين في وعدهم لبني النضير وهدرهم بهم وعاقبة بني النضير في اغترارهم بوعدهم الكاذب وإصرارهم على المشاققة والمخالفة، ومعنى الآية ظاهر.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر و أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس: أن رهطاً من بني عوف بن الحارث منهم عبد الله بن أبي بن سلول و وديعة بن مالك و سويد و داعس بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا و تمنعوا فإننا لا نسلحكم و إن قوتلتم قاتلنا معكم، و إن خرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا و قذف الله الرعب في قلوبهم.

فسألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يجليهم و يكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به

نخرجوا إلى خيبر و منهم من سار إلى الشام.

أقول: و الرواية تخالف ما في عدة من الروايات: أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي عرض لهم أن يخرجوا بما تحمله الإبل من الأموال فلم يقبلوا ثم رضوا بذلك بعد أيام فلم يقبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أن يخرجوا بأنفسهم و أهلهم من غير أن يحملوا شيئاً فخرجوا كذلك و جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لكل ثلاثة منهم بعيراً و سقاء.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا}** قال: عبد الله بن أبي بن سلول و رفاعة بن تابوت و عبد الله بن نبتل و أوس بن قبيط. و **{لِإِخْوَانِهِمْ}** بنو النضير.

أقول: المراد به عد بعضهم فلا ينافي ما في الرواية السابقة.

و فيه، أخرج ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن عبيد بن رفاعة الدارمي يبلغ به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فحلقها فألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتى بها الراهب فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها فكانت عنده.

فأتاه الشيطان فوسوس له و زين له فلم يزل به حتى وقع عليها فلما حملت ووسوس له الشيطان فقال: الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فإن أتوك فقل: ماتت فقتلها و دفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم و ألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها فأتاه أهلها فسألوه فقال: ماتت فأخذوه.

فأتاه الشيطان فقال: أنا الذي ألقى في قلوب أهلها، و أنا الذي أوقعتك في هذا فأطعني تنج و اسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فهو الذي قال الله: **{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ}** (الآية).

أقول: و القصة مشهورة رويت مختصرة و مفصلة في روايات كثيرة.

[سورة الحشر (٥٩): الآيات ١٨ الى ٢٤]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٢﴾ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ
اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ
الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٤﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ
الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى
يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٦﴾

(بيان)

الذي تتضمنه الآيات الكريمة كالنتيجة المأخوذة مما تقدم من آيات السورة فقد أشير فيها إلى
مشاققة بني النضير من اليهود و نقضهم العهد و ذاك الذي أوقعهم في خسران دنياهم و أخراهم، و
تحريض المنافقين لهم على مشاققة الله و رسوله و هو الذي أهلكتهم، و حقيقة السبب في ذلك أنهم
لم يراقبوا الله في أعمالهم و نسوه فأنساهم أنفسهم فلم يختاروا ما فيه خير أنفسهم و صلاح عاجلهم و
آجلهم فتاهوا و هلكوا.

فعلى من آمن بالله و رسوله و اليوم الآخر أن يذكر ربه و لا ينساه و ينظر فيما يقدمه من
العمل ليوم الرجوع إلى ربه فإن ما عمله محفوظ عليه يحاسبه به الله يومئذ فيجازيه عليه جزاء لازما
لا يفارقه.

و هذا هو الذي يرومه قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}** الآيات
فتندب المؤمنين إلى أن يذكروا الله سبحانه و لا ينسوه و ينظروا في أعمالهم

التي على صلاحها و صلاحها يدور رحى حياتهم الآخرة فيراقبوا أعمالهم أن تكون صالحة خالصة لوجهه الكريم مراقبة مستمرة ثم يحاسبوا أنفسهم فيشكروا الله على ما عملوا من حسنة ويوبخوها ويزجروها على ما اقترفت من سيئة ويستغفروا.

و ذكر الله تعالى بما يليق بساحة عظمته و كبريائه من أسمائه الحسنى و صفاته العليا التي بينها القرآن الكريم في تعليمه هو السبيل الوحيد الذي ينتهي بسالكة إلى كمال العبودية و لا كمال للإنسان فوقه.

و ذلك أن الإنسان عبد محض و مملوك طلق لله سبحانه فهو مملوك من كل جهة مفروضة لا استقلال له من جهة كما أنه تعالى مالكة من كل جهة مفروضة له الاستقلال من كل جهة، و كمال الشيء محوضته في نفسه و آثاره فكمال الإنسان في أن يرى نفسه مملوكا لله من غير استقلال و أن يتصف من الصفات بصفات العبودية كالخضوع و الخشوع و الذلة و الاستكانة و الفقر بالنسبة إلى ساحة العظمة و العزة و الغنى و أن تجري أعماله و أفعاله على ما يريد الله لا ما يهواه نفسه من غير غفلة في شيء من هذه المراحل الذات و الصفات و الأفعال.

و لا يتم له النظر إلى ذاته و صفاته و أفعاله بنظرة التبعية المحضة و المملوكية المطلقة إلا مع التوجه الباطني إلى ربه الذي هو على كل شيء شهيد و بكل شيء محيط و هو القائم على كل نفس بما كسبت من غير أن يغفل عنه أو ينساه.

و عندئذ يطمئن قلبه كما قال تعالى: **{أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}** الرعد: ٢٨، و يعرف الله سبحانه بصفات كماله التي تتضمنها أسماءه الحسنى، و يظهر منه قبال ذلك صفات عبوديته و جهات نقصه من خضوع و خشوع و ذلة و فقر و حاجة.

و يتعقب ذلك أعماله الصالحة بدوام الحضور و استمرار الذكر، قال تعالى: **{وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ أَلْأَصَالِ وَ لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ}** الأعراف: ٢٠٦ و قال: **{فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُمْ لَا يَسْأَمُونَ}** حم السجدة: ٣٨.

و إلى ما ذكرنا من معرفته تعالى بصفات كماله و معرفة النفس بما يقابلها من صفات النقص و الحاجة يشير بمقتضى السياق قوله: **{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ}** إلى آخر الآيات.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}** إلى آخر

الآية، أمر للمؤمنين بتقوى الله و بأمر آخر وهو النظر في الأعمال التي قدموها ليوم الحساب أ هي صالحة فليرج بها ثواب الله أو طالحة فليخش عقاب الله عليها و يتدارك بالتوبة و الإنابة و هو محاسبة النفس.

أما التقوى و قد فسر في الحديث بالورع عن محارم الله فحيث تتعلق بالواجبات و المحرمات جميعا كانت هي الاجتناب عن ترك الواجبات و فعل المحرمات.

و أما النظر فيما قدمت النفس لغد فهو أمر آخر وراء التقوى نسبتة إلى التقوى كنسبة النظر الإصلاحى ثانيا من عامل في عمله أو صانع فيما صنعه لتكميله و رفع نواقصه التي غفل عنها أو أخطأ فيها حين العمل و الصنع.

فعل المؤمن جميعا أن يتقوا الله فيما وجه إليهم من التكاليف فيطيعوه و لا يعصوه ثم ينظروا فيما قدموه من الأعمال التي يعيشون بها في غد بعد ما حوسبوا بها أ صالح فيرجى ثوابه أم طالح فيخاف عقابه فيتوبوا إلى الله و يستغفروه.

و هذا تكليف عام يشمل كل مؤمن لحاجة الجميع إلى إصلاح العمل و عدم كفاية نظر بعضهم عن نظر الآخرين غير أن القائم به من أهل الإيمان في نهاية القلة بحيث يكاد يلحق بالعدم و إلى ذلك يلوح لفظ الآية **{وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ}**.

فقوله: **{وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}** خطاب عام لجميع المؤمنين لكن لما كان المشتغل بهذا النظر من بين أهل الإيمان بل من بين أهل التقوى منهم في غاية القلة بل يكاد يلحق بالعدم لاشتغالهم بأعراض الدنيا و استغراق أوقاتهم في تدير المعيشة و إصلاح أمور الحياة ألقى الخطاب في صورة الغيبة و علقه بنفس ما منكرة فقال: **{وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ}** و في هذا النوع من الخطاب مع كون التكليف عاما بحسب الطبع عتاب و تفرغ للمؤمنين مع التلويح إلى قلة من يصلح لامثاله منهم.

و قوله: **{مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}** استفهام من ماهية العمل الذي قدمت لغد و بيان للنظر، و يمكن أن تكون {مَا} موصولة و هي و صلتها متعلقا بالنظر.

و المراد بغد يوم القيامة و هو يوم حساب الأعمال و إنما عبر عنه بغد للإشارة إلى قربه منهم كقرب الغد من أمسه، قال تعالى: **{إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَرَاهُ قَرِيباً}** المعارج: ٧.

و المعنى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله بطاعته في جميع ما يأمركم به و ينهاكم عنه، و لتنظر نفس منكم فيما عملته من عمل و لتر ما الذي قدمته من عملها ليوم الحساب أ هو

عمل صالح أو طالح و هل عملها الصالح صالح مقبول أو مردود.

وقوله: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}** أمر بالتقوى ثانياً و **{إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ}** إلخ، تعليل له و تعليل هذه التقوى بكونه تعالى خبيراً بالأعمال يعطي أن المراد بهذه التقوى الأمور بها ثانياً هي التقوى في مقام المحاسبة و النظر فيها من حيث إصلاحها و إخلاصها لله سبحانه و حفظها عما يفسدها، و أما قوله في صدر الآية: **{اتَّقُوا اللَّهَ}** فالمراد به التقوى في أصل إتيان الأعمال بقصرها في الطاعات و تجنب المعاصي.

و من هنا تبين أن المراد بالتقوى في الموضوعين مختلف فالأولى هي التقوى في أصل إتيان الأعمال، و الثانية هي التقوى في الأعمال المأتية من حيث إصلاحها و إخلاصها.

و ظهر أيضاً أن قول بعضهم: إن الأولى للتوبة عما مضى من الذنوب و الثانية لالتقاء المعاصي في المستقبل غير سديد و مثله ما قيل: إن الأولى في أداء الواجبات و الثانية في ترك المحرمات، و مثله ما قيل: إن الأمر الثاني لتأكيد الأمر الأول فحسب.

قوله تعالى: **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ}** إلخ، النسيان زوال صورة المعلوم عن النفس بعد حصولها فيها مع زوال مبدئه و يتوسع فيه مطلق على مطلق الإعراض عن الشيء بعدم ترتيب الأثر عليه قال تعالى: **{وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}** الجاثية: ٣٤.

و الآية بحسب لب معناها كالتأكيد لمضمون الآية السابقة كأنه قيل: قدموا ليوم الحساب و الجزاء عملاً صالحاً تحيي به أنفسكم و لا تنسوه. ثم لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى إذ بنسيانه تعالى تنسى أسماؤه الحسنی و صفاته العلیا التي ترتبط بها صفات الإنسان الذاتية من الذلة و الفقر و الحاجة فيتوهم الإنسان نفسه مستقلة في الوجود و يخيل إليه أن له لنفسه حياة و قدرة و علماً و سائر ما يترأى له من الكمال و نظراؤه في الاستقلال سائر الأسباب الكونية الظاهرية تؤثر فيه و تتأثر عنه.

و عند ذلك يعتمد على نفسه و كان عليه أن يعتمد على ربه و يرجو و يخاف الأسباب الظاهرية و كان عليه أن يرجو و يخاف ربه، يطمئن إلى غير ربه و كان عليه أن يطمئن إلى ربه.

و بالجملة ينسى ربه و الرجوع إليه و يعرض عنه بالإقبال إلى غيره، و يتفرع عليه أن ينسى نفسه فإن الذي يخيل إليه من نفسه أنه موجود مستقل الوجود يملك ما ظهر فيه

من كمالات الوجود وإليه تدبير أمره مستمدا مما حوله من الأسباب الكونية وليس هذا هو الإنسان بل الإنسان موجود متعلق الوجود جهل كله عجز كله ذلة كله فقر كله وهكذا، وما له من الكمال كالوجود والعلم والقدرة والعزة والغنى وهكذا فلربه وإلى ربه انتهاؤه ونظراؤه في ذلك سائر الأسباب الكونية.

والحاصل لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى حول النهي عن نسيان النفس في الآية إلى النهي عن نسيانه تعالى لأن انقطاع المسبب بانقطاع سببه أبلغ وأكد، ولم يقنع بمجرد النهي الكلي عن نسيانه بأن يقال: ولا تنسوا الله فينسيكم أنفسكم بل جرى بمثل إعطاء الحكم بالمثال ليكون أبلغ في التأثير وأقرب إلى القبول فنهاهم أن يكونوا كالذين نسوا الله مشيرا به إلى من تقدم ذكرهم من يهود بني النضير وبني قينقاع ومن حاله حالهم في مشاققة الله ورسوله.

فقال: **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ}** ثم فرع عليه قوله: **{فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ}** تفريع المسبب على سببه ثم عقبه بقوله: **{أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}** فدل على أنهم فاسقون حقا خارجون عن زي العبودية.

والآية وإن كانت تنهى عن نسيانه تعالى المتفرع عليه نسيان النفس لكنها بورودها في سياق الآية السابقة تأمر بذكر الله ومراقبته.

فقد بان من جميع ما تقدم في الآيتين أن الآية الأولى تأمر بمحاسبة النفس والثانية تأمر بالذكر والمراقبة.

قوله تعالى: **{لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ}** قال الراغب: الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة انتهى. والسياق يشهد بأن المراد بأصحاب النار هم الناسون لله وبأصحاب الجنة هم الذاكرون لله المراقبون.

والآية حجة تامة على وجوب اللجوء بالذاكرين لله المراقبين له دون الناسين، تقريرها أن هناك قبيلين لا ثالث لهما وهما الذاكرون لله والناسون له لا بد للإنسان أن يلحق بأحدهما وليس بمساويين حتى يتساوى اللجوءان ولا يبالي الإنسان بأيهما لحق؟ بل هناك راجح ومرجوح يجب اختيار الراجح على المرجوح والريحان لقبيل الذاكرين لأنهم الفائزون لا غير فالترجيح لجانبهم فمن الواجب لكل نفس أن يختار اللجوء بقبيل الذاكرين.

قوله تعالى: **{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}** إلخ، في الجمع: التصدع التفرق بعد التلاؤم و مثله التفطر انتهى.

و الكلام مسوق سوق المثل مبني على التخويل و الدليل عليه قوله في ذيل الآية: **{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ}** إلخ.

و المراد تعظيم أمر القرآن بما يشتمل عليه من حقائق المعارف و أصول الشرائع و العبر و المواعظ و الوعد و الوعيد و هو كلام الله العظيم، و المعنى: لو كان الجبل مما يجوز أن ينزل عليه القرآن فأنزلناه عليه لرأيتته - مع ما فيه من الغلظة و القسوة و كبر الجسم و قوة المقاومة قبال النوازل - متأثراً متفرقاً من خشية الله فإذا كان هذا حال الجبل بما هو عليه فالإنسان أحق بأن يخشع لله إذا تلاه أو تلي عليه، و ما أعجب حال أهل المشاققة و العناد لا تلين قلوبهم له و لا يخشعون و لا يخشون.

و الالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله: **{مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}** للدلالة على علة الحكم فإنما يخشع و يتصدع الجبل بنزول القرآن لأنه كلام الله عز اسمه.

و قوله: **{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}** من وضع الحكم الكلي موضع الجزئي للدلالة على أن الحكم ليس ببدع في مورده بل جار سار في موارد أخرى كثيرة.

فقوله: **{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ}** إلخ، مثل ضربه الله للناس في أمر القرآن لتقريب عظمتهم و جلالته قدره بما أنه كلام الله تعالى و بما يشتمل عليه من المعارف رجاء أن يتفكر فيه الناس فيتلقوا القرآن بما يليق به من التلقي و يتحققوا بما فيه من الحق الصريح و يهتدوا إلى ما يهدي إليه من طريق العبودية التي لا طريق إلى كمالهم و سعادتهم وراءها، و من ذلك ما ذكر في الآيات السابقة من المراقبة و المحاسبة.

قوله تعالى: **{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}** هذه الآية و الآياتان بعدها و إن كانت مسوقة لتعداد قبيل من أسمائه تعالى الحسنی و الإشارة إلى تسميته تعالى بكل اسم أحسن و تنزهه بشهادة ما في السماوات و الأرض لكنها بانضمامها إلى ما مر من الأمر بالذكر تفيد أن على الذاكرين أن يذكروه بأسمائه الحسنی فيعرفوا أنفسهم بما يقابلها من أسماء النقص، فافهم ذلك.

و بانضمامها إلى الآية السابقة و ما فيها من قوله: **{مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}** تفيد تعليل خشوع الجبل و تصدعه من خشية الله كأنه قيل: و كيف لا و هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب

و الشهادة، إلى آخر الآيات.

وقوله: **{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** يفيد الموصول و الصلة معنى اسم من أسمائه و هو وحدانيته تعالى في ألوهيته و معبوديته، و قد تقدم بعض ما يتعلق بالتهليل في تفسير قوله تعالى: **{وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** البقرة: ١٦٣.

وقوله: **{عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ}** الشهادة هي المشهود الحاضر عند المدرك و الغيب خلافها و هما معنيان إضافيان فن الجائز أن يكون شيء شهادة بالنسبة إلى شيء و غيبا بالنسبة إلى آخر و يدور الأمر مدار نوع من الإحاطة بالشيء حسا أو خيالا أو عقلا أو وجودا و هو الشهادة و عدمها و هو الغيب، و كل ما فرص من غيب أو شهادة فهو من حيث هو محاط له تعالى معلوم فهو تعالى عالم الغيب و الشهادة و غيره لا علم له بالغيب لمحدودية وجوده و عدم إحاطته إلا ما علمه تعالى كما قال: **{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ}** الجن: ٢٧، و أما هو تعالى فغيب على الإطلاق لا سبيل إلى الإحاطة به لشيء أصلا كما قال: **{وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}**.

وقوله: **{هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}** قد تقدم الكلام في معنى الاسمين في تفسير سورة الفاتحة.

وقوله تعالى: **{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ}** إلخ، الملك هو المالك لتدبير أمر الناس و الحكم فيهم، و القدوس مبالغة في القدس و هو النزاهة و الطهارة، و السلام من يلاقيك بالسلام و العافية من غير شر و ضر، و المؤمن الذي يعطي الأمن، و المهيمن الفائق المسيطر على الشيء.

و العزيز الغالب الذي لا يغلبه شيء أو من عنده ما عند غيره من غير عكس، و الجبار مبالغة من جبر الكسر أو الذي تنفذ إرادته و يجبر على ما يشاء، و المتكبر الذي تلبس بالكبرياء و ظهر بها.

وقوله: **{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}** ثناء عليه تعالى كما في قوله: **{وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ}** البقرة:

١١٦.

وقوله تعالى: **{هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ}** إلى آخر الآية، الخالق هو الموجد للأشياء عن تقدير، و البارئ المنشئ للأشياء ممتازا بعضها من بعض، و المصور المعطي لها صوراً يمتاز بها بعضها من بعض، و الأسماء الثلاثة تتضمن معنى الإيجاد باعتبارات مختلفة و بينها ترتب فالتصوير فرع البرء و البرء فرع الخلق و هو ظاهر.

وإنما صدر الآيتين السابقتين بقوله: **{الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** فوصف به **{اللَّهُ}** و عقبه بالأسماء بخلاف هذه الآية إذ قال: **{هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ}** إلخ.

لأن الأسماء الكريمة المذكورة في الآيتين السابقتين وهي أحد عشر اسما من لوازم الربوبية و مالكية التدبير التي تتفرع عليها الألوهية و المعبودية بالحق و هي على نحو الأصالة و الاستقلال لله سبحانه وحده لا شريك له في ذلك فاتصافه تعالى وحده بها يستوجب اختصاص الألوهية و استحقاق المعبودية به تعالى.

فالأسماء الكريمة بمنزلة التعليل لاختصاص الألوهية به تعالى كأنه قيل لا إله إلا هو لأنه عالم الغيب و الشهادة هو الرحمن الرحيم، و لذا أيضا ذيل هذه الأسماء بقوله ثناء عليه: **{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}** ردا على القول بالشركاء كما يقوله المشركون.

و أما قوله: **{هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ}** فالمذكور فيه من الأسماء يفيد معنى الخلق و الإيجاد و اختصاص ذلك به تعالى لا يستوجب اختصاص الألوهية به كما يدل عليه أن الوثنيين قائلون باختصاص الخلق و الإيجاد به تعالى و هم مع ذلك يدعون من دونه أربابا و آلهة و يثبتون له شركاء.

و أما وقوع اسم الجلالة في صدر الآيات الثلاث جميعا فهو علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال يرتبط به و يجري عليه جميع الأسماء و في التكرار مزيد تأكيد و تثبيت للمطلوب.

و قوله: **{لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}** إشارة إلى بقية الأسماء الحسنی عن آخرها لكون الأسماء جمعا محلي باللام و هو يفيد العموم.

و قوله: **{يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** أي جميع ما في العالم من المخلوقات حتى نفس السماوات و الأرض و قد تقدم توضيح معنى الجملة مرارا.

ثم ختم الآيات بقوله: **{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** أي الغالب غير المغلوب الذي فعله متقن لا مجازفة فيه فلا يعجزه فيما شرعه و دعا إليه معصية العاصين و لا مشاقة المعاندين و لا يضيع عنده طاعة المطيعين و أجر المحسنين. و العناية إلى ختم الكلام بالاسمين و الإشارة بذلك إلى كون القرآن النازل من عنده كلام عزيز حكيم هو الذي دعا إلى تكرار اسمه العزيز و ذكره مع الحكيم مع تقدم ذكره بين الأسماء.

وقد وصف القرآن أيضا بالعزة والحكمة كما قال: **{وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ}** حم السجدة: ٤١، وقال: **{وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ}** يس: ٠٢.

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى: **{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}** عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **الغيب ما لم يكن و الشهادة ما قد كان.**

أقول: وهو تفسير ببعض المصاديق، وقد أوردنا أحاديث عنهم (عليهم السلام) في معنى اسم الجلالة و الاسمين الرحمن الرحيم في ذيل تفسير البسملة من سورة الفاتحة.

وفي التوحيد، بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث: **لم يزل حيا بلا حياة و ملكا قادرا قبل أن ينشئ شيئا و ملكا جبارا بعد إنشائه للكون.**

أقول: قوله: **لم يزل حيا بلا حياة أي بلا حياة زائدة على الذات، وقوله: لم يزل ملكا قادرا قبل أن ينشئ شيئا إرجاع للملك و هو من صفات الفعل إلى القدرة و هي من صفات الذات ليستقيم تحققه قبل الإيجاد.**

وفي الكافي، بإسناده عن هشام الجواليقي قال: **سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله: {سُبْحَانَ اللَّهِ} ما يعني به؟ قال: تنزيهه.**

وفي نهج البلاغة: **و الخالق لا بمعنى حركة و نصب.**

أقول: وقد أوردنا عدة من الروايات في الأسماء الحسنى و إحصائها في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب.

وفي النبوي المشهور: **حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا و وزنوا قبل أن توزنوا و تجهزوا للغرض الأكبر.**

وفي الكافي، بإسناده إلى أبي الحسن الماضي (عليه السلام) قال: **ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل حسنا ازداد الله شكرا و إن عمل سيئا استغفر الله و تاب إليه.**

أقول: و فيما يقرب من هذا المعنى روايات أخرى، وقد أوردنا روايات عنهم (عليهم السلام) في معنى ذكر الله في ذيل تفسير قوله تعالى: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}** الآية: البقرة: ١٥٢، وقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا}** الأحزاب: ٢١، فليراجعها من شاء.

(٦٠) (سورة الممتحنة مدنية و هي ثلاث عشرة آية) (١٣)

[سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ
إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا
أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ❶ إِنْ يَتَّقُوكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ
أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ❷ لَنْ نَنْفَعَكُمْ
أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ❸ قَدْ كَانَتْ
لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ
إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ
أُنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ❹ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ❺ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا

اللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ
الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا
يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ
تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

(بيان)

تذكر السورة موالاتة المؤمنين لأعداء الله من الكفار و موادتهم و تشدد النهي عن ذلك تفتتح
به و تحتتم و فيها شيء من أحكام النساء المهاجرات و بيعة المؤمنات، و كونها مدنية ظاهر.

قوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ }** إنخ،
سياق الآيات يدل على أن بعض المؤمنين من المهاجرين كانوا يسرون الموادة إلى المشركين بمكة
ليحموا بذلك من بقي من أرحامهم و أولادهم بمكة بعد خروجهم أنفسهم منها بالمهاجرة إلى المدينة
فنزلت الآيات و نهاهم الله عن ذلك، و يتأيد بهذا ما ورد أن الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة
أسر كتابا إلى المشركين بمكة يخبرهم فيه بعزم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الخروج
إليها لفتحها، فعل ذلك ليكون يدا له عليهم يقي بها من كان بمكة من أرحامه و أولاده فأخبر الله
بذلك نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) و نزلت، و ستوافيك قصته في البحث الروائي التالي إن شاء
الله تعالى.

فقوله: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ }** العدو معروف و يطلق على الواحد
و الكثير و المراد في الآية هو الكثير بقرينة قوله: **{ أَوْلِيَاءَ }** و **{ إِلَيْهِمْ }** و غير

ذلك، وهم المشركون بمكة، وكونهم عدوه من جهة اتخاذهم له شركاء يعبدونهم ولا يعبدون الله و يردون دعوته ويكذبون رسوله، وكونهم أعداء للمؤمنين لإيمانهم بالله و تفديتهم أموالهم و أنفسهم في سبيله فن يعادي الله يعاديهم.

و ذكر عداوتهم للمؤمنين مع كفاية ذكر عداوتهم لله في سوق النهي لتأكيد التحذير و المنع كأنه قيل: من كان عدوا لله فهو عدو لكم فلا تتخذوه وليا.

و قوله: **{تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ}** بالمودة مفعول **{تُلْقُونَ}** و الباء زائدة كما في قوله: **{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}** البقرة: ١٩٥، و المراد بإلقاء المودة إظهارها أو إيصالها، و الجملة صفة أو حال من فاعل **{لَا تَتَّخِذُوا}**.

و قوله: **{وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ}** هو الدين الحق الذي يصفه كتاب الله و يدعو إليه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، و الجملة حالية.

و قوله: **{يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ}** الجملة حالية و المراد بإخراج الرسول و إخراجهم اضطرارهم الرسول و المؤمنين إلى الخروج من مكة و المهاجرة إلى المدينة، و **{أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ}** بتقدير اللام متعلق بخروجهم، و المعنى: يجبرون الرسول و إياكم على المهاجرة من مكة لإيمانكم بالله ربكم.

و توصيف الله بقوله: **{رَبِّكُمْ}** للإشارة إلى أنهم يؤاخذونهم على أمر حق مفروض ليس بجرم فإن إيمان الإنسان بربه مفروض عليه و ليس من الجرم في شيء.

و قوله: **{إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي}** متعلق بقوله: **{لَا تَتَّخِذُوا}** و جزاء الشرط محذوف يدل عليه المتعلق، و **{جِهَادًا}** مصدر مفعول له، و **{ابْتِغَاءَ}** بمعنى الطلب و «المرضاة» مصدر كالرضا، و المعنى: لا تتخذوا عدوي و عدوكم أولياء إن كنتم هاجرتم للمجاهدة في سبيلي و لطلب رضاي.

و تقييد النهي عن ولائهم و اشتراطه بخروجهم للجهاد و ابتغائهم مرضاته من باب اشتراط الحكم بأمر محقق الوقوع تأكيدا له و إيذانا بالملازمة بين الشرط و الحكم كقول الوالد لولده: إن كنت ولدي فلا تفعل كذا.

و قوله: **{تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَ مَا أَعْلَنْتُمْ}** أسررت إليه حديثا أي أفضيت إليه في خفية فعنى **{تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ}** تطلعونهم على ما تسرون من مودتهم - على ما قاله الراغب - و الإعلان خلاف الإخفاء، و **{أَنَا أَعْلَمُ}** إنلخ، حال من

فاعل **{تُسِرُونَ}** و **{أَعْلَمُ}** اسم تفضيل، واحتمل بعضهم أن يكون فعل المتكلم وحده من المضارع متعديا بالباء لأن العلم ربما يتعدى بها.

و جملة: **{تُسِرُونَ إِلَيْهِمْ}** إنخ، استئناف بيانية كأنه قيل بعد استماع النبي السابق: ما ذا فعلنا فأجيب: تطلعونهم سرا على مودتكم لهم و أنا أعلم بما أخفيتم و ما أظهرتم أي أنا أعلم بقولكم و فعلكم علما يستوي بالنسبة إليه إخفاؤكم وإظهاركم.

و منه يعلم أن قوله: **{بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ}** معا يفيدان معنى واحدا و هو استواء الإخفاء والإعلان عنده تعالى لإحاطته بما ظهر و ما بطن فلا يرد أن ذكر **{بِمَا أَخْفَيْتُمْ}** يغني عن ذكر **{مَا أَعْلَنْتُمْ}** لأن العالم بما خفي عالم بما ظهر بطريق أولى.

و قوله: **{وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}** الإشارة بذلك إلى إسرار المودة إليهم و هو الموالاة، و **{سَوَاءَ السَّبِيلِ}** من إضافة الصفة إلى الموصوف أي السبيل السوي و الطريق المستقيم و هو مفعول **{ضَلَّ}** أو منصوب بنزع الخافض و التقدير فقد ضل عن سواء السبيل، و السبيل سبيل الله تعالى.

قوله تعالى: **{إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً}** إنخ، قال الراغب: الثقف بالفتح فالسكون الحذق في إدراك الشيء و فعله. قال: و يقال: ثقتت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر ثم يتجوز به فيستعمل في الإدراك و إن لم يكن معه ثقافة. انتهى. و فسره غيره بالظفر و لعله بمعونة مناسبة المقام، و المعنيان متقاربان.

و الآية مسوقة لبيان أنه لا ينفعهم الإسرار بالمودة للمشركين في جلب محبتهم و رفع عداوتهم شيئا و أن المشركين على الرغم من إلقاء المودة إليهم أن يدركوهم و يظفروا بهم يكونوا لهم أعداء من دون أن يتغير ما في قلوبهم من العداوة.

و قوله: **{وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ}** بمنزلة عطف التفسير لقوله: **{يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً}** و بسط الأيدي بالسوء كناية عن القتل و السبي و سائر أنحاء التعذيب و بسط الألسن بالسوء كناية عن السب و الشتم.

و الظاهر أن قوله: **{وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ}** عطف على الجزاء و الماضي بمعنى المستقبل كما يقتضيه الشرط و الجزاء، و المعنى: أنهم يبسطون إليكم الأيدي و الألسن بالسوء و يودون بذلك لو تكفرون كما كانوا يفتنون المؤمنين بمكة و يعذبونهم يودون بذلك أن يرتدوا عن دينهم. و الله أعلم.

قوله تعالى: **{لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** دفع لما ربما يمكن أن يتوهم عذرا لإلقاء المودة إليهم إن في ذلك صيانة لأرحامهم وأولادهم الذين تركوهم بمكة بين المشركين من أذاهم.

والجواب أن أمامكم يوما تجازون فيه على معصيتكم وطالح عملكم ومنه موالاة الكفار ولا ينفعكم اليوم أرحامكم ولا أولادكم الذين قدمتم صيانتهم من أذى الكفار على صيانة أنفسكم من عذاب الله بترك موالاة الكفار.

وقوله: **{يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ}** أي يفصل الله يوم القيامة بينكم بتقطع الأسباب الدنيوية كما قال تعالى: **{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ}** المؤمنون: ١٠١، وذلك أن القرابة وهي انتهاء إنسانين أو أكثر إلى رحم واحدة إنما تؤثر آثارها من الرحمة والمودة والألفة والمعاونة والمعاوضة والعصبية والخدمة وغير ذلك من الآثار في ظرف الحياة الاجتماعية التي تسوق الإنسان إليه حاجته إليها بالطبع بحسب الآراء والعقائد الاعتبارية التي أوجدها فيه فهمه الاجتماعي، ولا خبر عن هذه الآراء في الخارج عن ظرف الحياة الاجتماعية.

وإذا برزت الحقائق وارتفع الحجاب وانكشف الغطاء يوم القيامة ضلت عن الإنسان هذه الآراء والمزاعم وانقطعت روابط الاستقلال بين الأسباب ومسبباتها كما قال تعالى: **{لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}** الأنعام: ٩٤، وقال: **{وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ}** البقرة: ١٦٦.

فيومئذ تنقطع رابطة الأنساب ولا ينتفع ذو قرابة من قرابته شيئا فلا ينبغي للإنسان أن يخون الله ورسوله بموالاة أعداء الدين لأجل أرحامه وأولاده فليسوا يغنونه عن الله يومئذ.

وقيل: المراد أنه يفرق الله بينكم يوم القيامة بما فيه من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى: **{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}** عبس: ٣٧، والوجه السابق أنسب للمقام.

وقيل: المراد أنه يميز بعضكم يومئذ من بعض فيدخل أهل الإيمان والطاعة الجنة، وأهل الكفر والمعصية النار ولا يرى القريب المؤمن في الجنة قريبه الكافر في النار.

وفيه أنه و كان لا بأس به في نفسه لكنه غير مناسب للمقام إذ لا دلالة في المقام على

كفر أرحامهم و أولادهم.

وقيل: المراد بالفصل فصل القضاء و المعنى: أن الله يقضي بينكم يوم القيامة.

و فيه ما في سابقه من عدم المناسبة للمورد فإن فصل القضاء إنما يناسب الاختلاف كما في قوله تعالى:

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} السجدة: ٢٠، و لا ارتباط في الآية بذلك.

و قوله: **{وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** متمم لقوله: **{لَنْ تَنْفَعَكُمْ}** كالمؤكد له و المعنى: لن تنفعكم أرحامكم و

لا أولادكم يوم القيامة في رفع تبعة هذه الخيانة و أمثالها و الله بما تعملون بصير لا يخفى عليه ما هي هذه الخيانة فيؤاخذكم عليها لا محالة.

قوله تعالى: **{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ}** إلى آخر الآيتين، و الخطاب للمؤمنين،

و الأسوة الاتباع و الاقتداء، و في قوله: **{وَ الَّذِينَ مَعَهُ}** بظاهره دلالة على أنه كان معه من آمن به غير زوجته و لوط.

و قوله: **{إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}** أي إنا بريئون منكم و من أصنامكم

بيان لما فيه الأسطورة و الاقتداء.

و قوله: **{كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَأَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَ الْبُغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ}** بيان لمعنى

البراءة بأثرها و هو الكفر بهم و عداوتهم ما داموا مشركين حتى يوحدوا الله سبحانه.

و المراد بالكفر بهم الكفر بشركهم بدليل قوله: **{حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ}**، و الكفر بشركهم مخالفتهم فيه

عملاً كما أن العداوة بينونة و مخالفة قلباً.

فقد فسروا براءتهم منهم بأمر ثلاثة: مخالفتهم لشركهم عملاً، و العداوة و البغضاء بينهم قلباً، و استمرار

ذلك ما داموا على شركهم إلا أن يؤمنوا بالله وحده.

و قوله: **{إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ مَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}**، استثناء مما تدل عليه

الجملة المتقدمة أن إبراهيم و الذين معه تبرءوا من قومهم المشركين قولاً مطلقاً و قطعوا أي رابطة تربطهم بالقوم

و تصل بينهم إلا ما قال إبراهيم لأبيه: **{لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ}** إلخ.

و لم يكن قوله: **{لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ}** تولى منه بل وعدا وعده إياه رجاء أن يتوب عن الشرك و يؤمن بالله

وحده كما يدل عليه قوله تعالى: **{وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا**

عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} التوبة: ١١٤، حيث يفيد أنه (عليه السلام) إنما وعده لأنه لم يتبين له بعد أنه عدو لله راسخ في عداوته ثابت في شركه فكان يرجو أن يرجع عن شركه ويطمع في أن يتوب ويؤمن فلما تبين له رسوخ عداوته و يئس من إيمانه تبرأ منه.

على أن قوله تعالى في قصة محاجته أباه في سورة مريم: **{قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}** مريم: ٤٨، يتضمن وعده أباه بالاستغفار وإخباره بالاعتزال و لو كان وعده الاستغفار توليا منه لأبيه لكان من الحري أن يقول: واعتزل القوم، لا أن يقول: وأعتزلكم فيدخل أباه فيمن يعتزلهم وليس الاعتزال إلا التبري.

فالاستثناء استثناء متصل من أنهم لم يكلموا قومهم إلا بالتبري و المحصل من المعنى: أنهم إنما ألقوا إليهم القول بالتبري إلا قول إبراهيم لأبيه: لأستغفرن لك فلم يكن تبريا و لا توليا بل وعدا وعده أباه رجاء أن يؤمن بالله.

و هاهنا شيء و هو أن مؤدى آية التوبة **{فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}** أن تبريه الجازم إنما كان بعد الوعد و بعد تبين عداوته لله، و قوله تعالى في الآية التي نحن فيها: **{إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ}** إخبار عن تبريهم الجازم القاطع فيكون ما وقع في الاستثناء من قول إبراهيم لأبيه وعدا واقعا قبل تبريه الجازم و من غير جنس المستثنى منه فيكون الاستثناء منقطعا لا متصلا.

و على تقدير كون الاستثناء منقطعا يجوز أن يكون الاستثناء من قوله: **{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}** بما أنه مقيد بقوله: **{إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ}**، و المعنى: قد كان لكم اقتداء حسن بتبري إبراهيم و الذين معه من قومهم إلا أن إبراهيم قال لأبيه كذا و كذا وعدا.

و أما على تقدير كون الاستثناء متصلا فالوجه ما تقدم، و أما كون المستثنى منه هو قوله: **{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ}**، و المعنى: لكم في إبراهيم أسوة في جميع خصاله إلا في قوله لأبيه: **{لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ}** فلا أسوة فيه.

ففيه أن قوله: **{لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ}** إنلخ، غير مسوق لإيجاب التأسى بإبراهيم (عليه السلام) في جميع خصاله حتى يكون الوعد بالاستغفار أو نفس الاستغفار - و ذلك

من خصاله - مستثنى منها بل إنما سيق لإيجاب التأسى به في تبريه من قومه المشركين، والوعد بالاستغفار رجاء للتوبة والإيمان ليس من التبري وإن كان ليس تولى أيضاً.

وقوله: **{وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}** تتمه قول إبراهيم (عليه السلام)، وهو بيان لحقيقة الأمر من أن سؤاله المغفرة وطلبها من الله ليس من نوع الطلب الذي يملك فيه الطالب من المطلوب منه ما يطلبه، وإنما هو سؤال يدعو إليه فقر العبودية وذلها قبال غنى الربوبية وعزتها فله تعالى أن يقبل بوجهه الكريم فيستجيب و يرحم، وله أن يعرض ويمسك الرحمة فإنه لا يملك أحد منه تعالى شيئاً وهو المالك لكل شيء، قال تعالى: **{قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}** المائدة: ١٧.

و بالجملة قوله: **{مَا أَمْلِكُ}** إلخ، نوع اعتراف بالعجز استدراكاً لما يستشعر من قوله: **{الْأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ}** من شائبة إثبات القدرة لنفسه نظير قول شعيب (عليه السلام): **{وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ}** استدراكاً لما يشعر به قوله لقومه: **{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ}** هود: ٨٨، من إثبات القوة والاستطاعة لنفسه بالأصالة والاستقلال.

وقوله: **{رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}** إلخ، من تمام القول المنقول عن إبراهيم والذين معه المندوب إلى التأسى بهم فيه، وهو دعاء منهم لربهم وابتهاج إليه إثر ما تبرءوا من قومهم ذاك التبري العنيف ليحفظهم من تبعاته ويغفر لهم فلا يخيبهم في إيمانهم.

وقد افتتحوا دعاءهم بتقدمة يذكرون فيها حالهم فيما فيه من التبري من أعداء الله فقالوا: **{رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا}** يعنون به أننا كنا في موقف من الحياة تتمكن فيه أنفسنا وندبر فيه أمورنا أما أنفسنا فأنبأنا ورجعنا بها إليك وهو الإنابة، وأما أمورنا التي كان علينا تدبيرها فتركناها لك وجعلنا مشيتك مكان مشيتنا فأنت وكيكنا فيها تدبرها بما تشاء وكيف تشاء وهو التوكل.

ثم قالوا: **{وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}** يعنون به أن مصير كل شيء من فعل أو فاعل فعل إليك فقد جرينا في توكنا عليك وإنابتنا إليك مجرى ما عليه حقيقة الأمر من مصير كل شيء إليك حيث هاجرنا بأنفسنا إليك وتركنا تدبير أمورنا لك.

وقوله: **{رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا}** متن دعائهم يسألونه تعالى أن يعيدهم من تبعه تبريهم من الكفار ويغفر لهم.

و الفتنة ما يمتحن به، و المراد بجعلهم فتنة للذين كفروا تسليط الكفار عليهم ليبتحنهم فيخرجوا ما في وسعهم من الفساد فيؤذوهم بأنواع الأذى أن آمنوا بالله و رفضوا آلهتهم و تبرءوا منهم و مما يعبدون.

و قد كرروا نداءه تعالى - ربنا - في دعائهم مرة بعد مرة لإثارة الرحمة الإلهية.

و قوله: **{إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** أي غالب غير مغلوب متقن لأفعاله لا يعجز أن يستجيب دعاءهم فيحفظهم من كيد أعدائه و يعلم بأي طريق يحفظ.

و للمفسرين في تفسير الآيتين أنظار مختلفة أخرى أغمضنا عن إيرادها رعاية للاختصار من أرادها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ}** إنخ، تكرر حديث الأسوة لتأكيد الإيجاب و لبيان أن هذه الأسوة لمن كان يرجو الله و اليوم الآخر، و أيضا أنهم كما يتأسى بهم في تبرئهم من الكفار كذلك يتأسى بهم في دعائهم و ابتهاهم.

و الظاهر أن المراد برجائه تعالى رجاء ثوابه بالإيمان به و برجاء اليوم الآخر رجاء ما وعد الله و أعد للمؤمنين من الثواب، و هو كناية عن الإيمان.

و قوله: **{وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}** استغناء منه تعالى عن امثالهم لأمره بتبرئهم من الكفار و أنهم هم المنتفعون بذلك و الله سبحانه غني في ذاته عنهم و عن طاعتهم حميد فيما يأمرهم و ينهاهم إذ ليس في ذلك إلا صلاح حالهم و سعادة حياتهم.

قوله تعالى: **{عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** ضمير **{مِنْهُمْ}** للكفار الذين أمروا بمعاداتهم و هم كفار مكة، و المراد بجعل المودة بين المؤمنين و بينهم جعلها بتوفيقهم للإسلام كما وقع ذلك لما فتح الله لهم مكة، و ليس المراد به نسخ حكم المعادة و التبري.

و المعنى: مرجو من الله أن يجعل بينكم معشر المؤمنين و بين الذين عاديتهم من الكفار و هم كفار مكة مودة بتوفيقهم للإسلام فتقلب المعادة مودة و الله قدير و الله غفور لذنوب عباده رحيم بهم إذا تابوا و أسلموا فعلى المؤمنين أن يرجوا من الله أن يبدل معاداتهم مودة بقدرته و مغفرته و رحمته.

قوله تعالى: **{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ**

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنْخ، في هذه الآية والتي تتلوها توضيح للنهي الوارد في أول السورة، والمراد بالذين لم يقاتلوا المؤمنين في الدين ولم يخرجوهم غير أهل مكة ممن لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم من المشركين من أهل المعاهدة، والبر والإحسان، والأقساط المعاملة بالعدل، و **{أَنْ تَبَرُّوهُمْ}** بدل من **{الَّذِينَ}** إِنْخ، وقوله: **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}** تعليل لقوله: **{لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ}** إِنْخ.

والمعنى: لا ينهاكم الله بقوله: **{لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ}** عن أن تحسنوا وتعاملوا بالعدل الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم لأن ذلك منكم أقساط والله يحب المقسطين.

قيل: إن الآية منسوخة بقوله: **{فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}** التوبة: ٥، وفيه أن الآية التي نحن فيها لا تشمل بإطلاقها إلا أهل الذمة وأهل المعاهدة وأما أهل الحرب فلا، وآية التوبة إنما تشمل أهل الحرب من المشركين دون أهل المعاهدة فكيف تنسخ ما لا يزامها في الدلالة.

قوله تعالى: **{إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ}** إِنْخ، المراد بالذين قاتلوكم إِنْخ، مشركو مكة، والمظاهرة على الإخراج المعاونة والمعاضدة عليه، وقوله: **{أَنْ تَوَلَّوهُمْ}** بدل من **{الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ}** إِنْخ.

و قوله: **{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** قصر أفراد أي المتولون لمشركي مكة و من ظاهرهم على المسلمين هم الظالمون المتمردون عن النبي دون مطلق المتولين للكفار أو تأكيد للنهي عن توليهم.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ}** الآية: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، و لفظ الآية عام و معناها خاص و كان سبب ذلك أن حاطب بن أبي بلتعة قد أسلم و هاجر إلى المدينة و كان عياله بمكة، و كانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فصاروا إلى عيال حاطب و سألوهم أن يكتبوا إلى حاطب و يسألوه عن خبر محمد هل يريد أن يغزو مكة؟.

فكتبوا إلى حاطب يسألونه عن ذلك فكتب إليهم حاطب أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يريد ذلك، و دفع الكتاب إلى امرأة تسمى صفية فوضعتة في قرونها و مرت فنزل جبرئيل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و أخبره بذلك.

فبعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أمير المؤمنين و الزبير بن العوام في طلبها فلحقوها فقال لها أمير المؤمنين (عليه السلام): أين الكتاب؟ فقالت: ما معي شيء ففتشها فلم يجدا معها شيئا فقال الزبير: ما نرى معها شيئا فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): والله ما كذبنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، و لا كذب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على جبرئيل، و لا كذب جبرئيل على الله جل ثناؤه و الله لتظهرن الكتاب أو لأردن رأسك إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالت: تنجيا عني حتى أخرجه فأخرجت الكتاب من قرونها فأخذه أمير المؤمنين و جاء به إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

و قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يا حاطب ما هذا؟ فقال حاطب: و الله يا رسول الله ما نافقت و لا غيرت و لا بدلت، و إني أشهد أن لا إله إلا الله، و أنك رسول الله حقا و لكن أهلي و عيالي كتبوا إلي بحسن صنيع قريش إليهم فأحبيت أن أجازي قريشا بحسن معاشرتهم، فأنزل الله على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ }** - إلى قوله - **{ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }**.

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و الحميدي و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي و أبو عوانة و ابن حبان و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي و أبو نعيم معا في الدلائل عن علي قال: بعثني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنا و الزبير و المقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة^١ خاخ فإن بها طعينة^٢ معها كتاب نخذوه منها و أتوني به.

فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالطعينة فقلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب قلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها.

فأتينا به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ما هذا يا حاطب؟ قال: لا تعجل علي يا رسول الله إني كنت امرءا ملصقا من قريش و لم أكن من أنفسها و كان من معك من

^١ موضع في طريق مكة.

^٢ الطعينة: المسافرة.

المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة فأحبت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتي و ما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صدق.

فقال عمر: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه فقال: إنه شهد بدرا و ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم و نزلت فيه: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ}**.

أقول: و هذا المعنى مروى في عدة من الروايات عن نفر من الصحابة كأنس و جابر و عمر و ابن عباس و جمع من التابعين كحسن و غيره. و الرواية من حيث متنها لا تخلو من بحث:

أما أولا: فلأن ظاهرها بل صريحها أن حاطب بن أبي بلتعة كان يستحق بصنعة ما صنع القتل أو جزاء دون ذلك، و إنما صرف عنه ذلك كونه بدريا فالبدرى لا يؤخذ بما أتى به من معصية كما يصرح به قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعمر في هذه الرواية: «أنه شهد بدرا» و في رواية الحسن: أنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر أنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر أنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر.

و يعارضه ما في قصة الإفك أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ما نزلت براءة عائشة حد مسطح بن أثاثة و كان من الآفكين، و كان مسطح بن أثاثة هذا من السابقين الأولين من المهاجرين و ممن شهد بدرا كما في صحيح البخاري و مسلم و حده النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما نطقت به الروايات الكثيرة الواردة في تفسير آيات الإفك.

و أما ثانيا: فلأن ما يشتمل عليه من خطابه تعالى لأهل بدر «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» الدال على كون كل ما أتوا به من ذنب مغفورا لهم لا يتم بالبداهة إلا بارتفاع عامة التكليف الدينية عنهم من واجب أو حرام أو مستحب أو مكروه، و لا معنى لتعلق التكليف المولوي بأمر مع إلغاء تبعة مخالفته و تسوية الفعل و الترك بالنسبة إلى المكلف كما يدل عليه قوله: «اعملوا ما شئتم» على بداهة ظهوره في الإباحة العامة.

و لازم ذلك:

أولا: شمول المغفرة من المعاصي لما يحكم ببداهة العقل على عدم شمول العقوله لو لا التوبة كعبادة الأصنام و الرد على الله و رسوله و تكذيب النبي و الاقتراء على الله و رسوله و الاستهزاء

بالدين وأحكامه الثابتة بالضرورة، فإن الآيات المتعرضة لها الناهية عنها تأبى شمول المغفرة لها من غير توبة، ومثلها قتل النفس المحترمة ظلها والفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل، واستباحة الدماء والأعراض والأموال.

و من المعلوم أن المحذور إمكان تعلق المغفرة بأمثال هذه المعاصي والذنوب لا فعلية تعلقها بها فلا يدفع بأن الله سبحانه يحفظ هذا المكلف المغفور له من اقرار أمثال هذه المعاصي والذنوب وإن كان غفر له لو اقرت.

و ثانيا: أن يخص قوله: اعملوا ما شئتم عمومات جميع الأحكام الشرعية من عبادات و معاملات من حيث المتعلق فلا يعم شيء منها البدرين ولا يتعلق بهم، ولو كان كذلك لكان معروفا عند الصحابة مسلما لهم أن هؤلاء العصاة محررون من كل تكليف ديني مطلقون من قيد وظائف العبودية و كان البدريون أنفسهم أحق برعاية معنى التحرير فيما بينهم أنفسهم على ما له من الأهمية، ولا شاهد يشهد بذلك في المروي من أخبارهم و المحفوظ من آثارهم بل المستفاد من سيرهم و خاصة في خلال الفتن الواقعة بعد رحلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خلاف ذلك بما لا يسع لأحد إنكاره.

على أن تحرير قوم ذوي عدد من الناس وإطلاقهم من قيد التكليف لهم أن يفعلوا ما يشاءون و أن لا يبالوا بمخالفة الله و رسوله و إن عظمت ما عظمت يناقض مصلحة الدعوة الدينية و فريضة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و بث المعارف الإلهية التي جاء بها الرسول بالرواية عنه إذ لا يبقى للناس بهم وثوق فيما يقولون و يروون من حكم الله و رسوله أن لا ضير عليهم و لو أتوا بكل كذب افتراء أو اقرتوا كل منكر و فحشاء و الناس يعلمون منهم ذلك.

و يجري ذلك في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و هو سيد أهل بدر و قد أرسله الله شاهدا و مبشرا و نذيرا و داعيا إلى الله بإذنه و سراجا منيرا فكيف تطمئن القلوب إلى دعوة من يجوز تلبسه بكل كذب و افتراء و منكر و فحشاء؟ و أنى تسلم النفوس له الاتصاف بتلك الصفات الكريمة التي مدحه الله بها؟ بل كيف يجوز في حكمته تعالى أن يقلد الشهادة و الدعوة من لا يؤمن في حال أو مقال، و يعده سراجا منيرا و هو تعالى قد أباح له أن يحيي الباطل كما

ينير الحق و أذن له في أن يضل الناس و قد بعثه ليهديهم و الآيات المتعرضة لعصمة الأنبياء و حفظ الوحي تأبى ذلك كله.

على أن ذلك يفسد استقامة الخطاب في كثير من الآيات التي فيها عتاب الصحابة و المؤمنين على بعض تخلفاتهم كآيات النازلة في وقعة أحد و الأحزاب و حنين و غيرها المعاتبة لهم على انهزامهم و فرارهم من الزحف و قد أوعد الله عليه النار.

و من أوضح الآيات في ذلك آيات الإفك و في أهل الإفك مسطح بن أثاثة البديري و فيها قوله تعالى: **{لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ}** و لم يستثن أحدا منهم، و قوله: **{وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ}** و قوله: **{يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**.

و من أوضح الآيات في عدم ملاءمة معناها للرواية نفس هذه الآيات التي تذكر الرواية سبب نزولها: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ}** الآيات و فيها مثل قوله تعالى: **{وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}** و قوله: **{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}**.

فمن المعلوم أن الآيات إنما وجهت الخطاب و العتاب إلى عامة الذين آمنوا و تنسب إلقاء المودة و إسرار مودة الكفار إلى المؤمنين بما أن بعضهم و هو حاطب بن أبي بلتعة اتخذ الكفار أولياء و خان الإسلام و المسلمين فنسبت الآيات فعل البعض إلى الكل و وجهت العتاب و التهديد إلى الجميع.

فلو كان حاطب و هو بدري محرر مرفوع عنه القلم مخاطبا بمثل قوله: اعمل ما شئت فقد غفرت لك لا إثم عليه فيما يفعل و لا ضلال في حقه و لا يتصف بظلم و لا يتعلق به عتاب و لا تهديد فأبي وجهه لنسبة فعل البعض بما له من الصفات غير المرضية إلى الكل و لا صفة غير مرضية لفعل هذا البعض على الفرض.

فيقول الأمر إلى فرض أن يأتي البعض بفعل مأذون له فيه لا عتاب عليه و لا لوم يعتريه و يعاتب الكل و يهددوا عليه و بعبارة أخرى أن يؤذن لفاعل في معصية ثم يعاتب عليها غيره و لا صنع له فيها و يجل كلامه تعالى عن مثل ذلك.

و فيه، أخرج البخاري و ابن المنذر و النحاس و البيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت أبي بكر قالت: أتتني أمي راغبة و هي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فسألت النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أصلها؟ فأنزل الله **{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ}**

فقال: نعم صلي. وفيه، أخرج أبو داود في تاريخه و ابن المنذر عن قتادة: **{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ**
عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ} نسختها **{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}**.
أقول: قد عرفت الكلام فيه.

و في الكافي، بإسناده عن سعيد الأعرج عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **من أوثق**
عرى الإيمان أن تحب في الله و تبغض في الله و تعطي في الله و تمنع في الله جل و عز.
و في تفسير القمي، بإسناده إلى إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **كل**
من لم يحب على الدين و لم يبغض على الدين فلا دين له.

[سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ١٠ الى ١٣]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ
عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ أَوْلَهُنَّ مَا
أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ
وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٠﴾ وَ إِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا
أَنْفَقُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَى أَنْ
لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَ لَا يَسْرِقْنَ وَ لَا يَزْنِينَ وَ لَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَ لَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ
بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ

وَأَرْجُلَيْهِمْ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ آلِ آخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٨﴾

(بيان)

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ}** (الآية)، سياق الآية يعطي أنها نزلت بعد صلح الحديبية، و كان في العهد المكتوب بين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين أهل مكة أنه إن لحق من أهل مكة رجل بالمسلمين ردوه إليهم وإن لحق من المسلمين رجل بأهل مكة لم يردوه إليهم ثم إن بعض نساء المشركين أسلمت وهاجرت إلى المدينة فجاء زوجها يستردها فسأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يردها إليه فأجابته النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن الذي شرطوه في العهد رد الرجل دون النساء و لم يردها إليهم و أعطاه ما أنفق عليها من المهر و هو الذي تدل عليه الآية مع ما يناسب ذلك من أحكامهن.

فقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ}** سماهن مؤمنات قبل امتحانهن و العلم بإيمانهن لتظاهرهن بذلك.

و قوله: **{فَاْمْتَحِنُوهُنَّ}** أي اختبروا إيمانهن بما يظهر به ذلك من شهادة و حلف يفيد العلم و الوثوق، و في قوله: **{اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ}** إشارة إلى أنه يجزي في ذلك العلم العادي و الوثوق دون اليقين بحقيقة الإيمان الذي هو تعالى أعلم به علما لا يتخلف عنه معلومه.

و قوله: **{فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ}** ذكرهم بوصف الإيمان للإشارة إلى أنه السبب للحكم و انقطاع علة الزوجية بين المؤمنة و الكافر.

و قوله: **{لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ}** مجموع الجملتين كناية عن انقطاع علة الزوجية، و ليس من توجيه الحرمة إليهن و إليهم في شيء.

و قوله: **{وَأَتَوْهُمَ مَا أَنْفَقُوا}** أي أعطوا الزوج الكافر ما أنفق عليها من المهر.

و قوله: **{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ}** رفع المانع من نكاح المؤمنات المهاجرات إذا أوتين أجورهن والأجر المهر.

و قوله: **{وَلَا تُنْسِكُوا بَعْضَ الْكَوَافِرِ}** العصم جمع عصمة وهي النكاح الدائم يعصم المرأة ويحصنها، و إمساك العصمة إبقاء الرجل بعد ما أسلم زوجته الكافرة على زوجيتها فعليه بعد ما أسلم أن يخلي عن سبيل زوجته الكافرة سواء كانت مشركة أو كفاية.

و قد تقدم في تفسير قوله: **{وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ}** البقرة: ٢٢١، و قوله: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ}** المائدة: ٥، أن لا نسخ بين الآيتين و بين الآية التي نحن فيها.

و قوله: **{وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَ لَيْسَ لَكُمْ مَا أَنْفَقُوا}** ضمير الجمع في **{وَسَأَلُوا}** للمؤمنين و في **{لَيْسَ لَكُمْ}** للكفار أي إن لحقت امرأة منكم بالكفار فاسألوهم ما أنفقتم لها من مهر و لهم أن يسألوا مهر من لحقت بكم من نساءهم.

ثم تمم الآية بالإشارة إلى أن ما تضمنته الآية حكم الله الذي شرع لهم فقال: **{ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}**.

قوله تعالى: **{وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا}** إنح، قال الراغب: الفوت بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه، قال تعالى: **{وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ}**. انتهى. و فسر المعاقبة والعقاب بمعنى الوصول والانتفاء إلى عقبي الشيء، و المراد عاقبتهم من الكفار أي أصبتم منهم غنيمة وهي عقبي الغزو، و قيل: عاقب بمعنى عقب، و قيل: عاقب مأخوذ من العقبة بمعنى النوبة.

و الأقرب أن يكون المراد بالشيء المهر و **{مِنْ}** في **{مِنْ أَزْوَاجِكُمْ}** لا ابتداء الغاية و **{إِلَى الْكُفَّارِ}** متعلق بقوله: **{فَاتَكُمْ}** و المراد بالذين ذهب أزواجهم، بعض المؤمنين وإليهم يعود ضمير **{أَنْفَقُوا}**.

و المعنى: و إن ذهب و انفلت منكم إلى الكفار مهر من أزواجكم بلحوقهن بهم و عدم ردهم ما أنفقتم من المهر إليكم فأصبتم منهم بالغزو غنيمة فأعطوا المؤمنين الذين ذهب أزواجهم إليهم مما أصبتم من الغنيمة مثل ما أنفقوا من المهر.

و فسرت الآية بوجوه أخرى بعيدة عن الفهم أغمضنا عنها.

وقوله: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ}** أمر بالتقوى، و توصيفه تعالى بالموصول و الصلة لتعليل الحكم فإن من مقتضى الإيمان بالله تقواه.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ}** إلخ، تتضمن الآية حكم بيعة النساء المؤمنات للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، و قد شرطت عليهن في **{عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ}** إلخ، أموراً منها ما هو مشترك بين الصنفين: الرجال و النساء كالتحرز من الشرك و من معصية الرسول في معروف و منها ما هو أمس بهن من حيث إن تدبير المنزل بحسب الطبع إليهن و هن السبيل إلى حفظ عفة البيت و الحصول على الأنسال و طهارة موالدهم، و هي التجنب من السرقة و الزنا و قتل الأولاد و إلحاق غير أولاد أزواجهن بهم، و إن كانت هذه الأمور بوجه من المشتركات.

فقوله: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ}** شرط جوابه قوله: **{فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ}**.

وقوله: **{عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا}** أي من الأصنام و الأوثان و الأرباب، و هذا شرط لا غنى عنه لإنسان في حال.

وقوله: **{وَلَا يَسْرِقْنَ}** أي لا من أزواجهن و لا من غيرهم و خاصة من أزواجهن كما يفيد السياق، و قوله: **{وَلَا يَزْنِينَ}** أي باتخاذ الأخدان و غير ذلك و قوله: **{وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ}** بالوآد و غيره و إسقاط الأجنة. و قوله: **{وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ}** و ذلك بأن يحملن من الزنا ثم يضعنه و ينسبته إلى أزواجهن فإلحاقهن الولد كذلك بأزواجهن و نسبته إليهم كذبا بهتان يفتريه بين أيديهن و أرجلهن لأن الولد إذا وضعت أمه سقط بين يديها و رجلها، و لا يغني عن هذا الشرط شرط الاجتناب عن الزنا لأنهما متغايران و كل مستقل بالنهي و التحريم.

وقوله: **{وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ}** نسب المعصية إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دون الله مع أنها تنتمي إليه تعالى لأن المراد أن لا يتخلفن بالمعصية عن السنة التي يستنها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و ينفذها في المجتمع الإسلامي فيكون ما سنه هو المعروف عند المسلمين و في المجتمع الإسلامي.

و من هنا يظهر أن المعصية في المعروف أعم من ترك المعروف كترك الصلاة و الزكاة و فعل المنكر كتبرجهن تبرج الجاهلية الأولى.

و في قوله: **{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** بيان لمقتضى المغفرة و تقوية للرجاء.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}** إلخ، المراد بهم اليهود المغضوب عليهم و قد تكرر في كلامه تعالى فيهم **{وَبَاؤُا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ}** البقرة: ٦١، و يشهد بذلك ذيل الآية فإن الظاهر أن المراد بالقوم غير الكفار.

و قوله: **{يَيْسُوا مِن آلِ آخِرَةٍ كَمَا يَيْسُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}** المراد بالآخرة ثوابها، و المراد بالكفار الكافرون بالله المنكرون للبعث، و قيل: المراد مشركو مكة و اللام للعهد، و **{مِنَ}** في **{مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}** لا ابتداء الغاية.

و الجملة بيان لشقائهم الخالد و هلاكهم المؤبد ليحذر المؤمنون من موالاتهم و موادتهم و الاختلاط بهم و المعنى: قد يئس اليهود من ثواب الآخرة كما يئس منكرو البعث من الموتى المدفونين في القبور.

و قيل: المراد بالكفار الذين يدفنون الموتى و يوارونهم في الأرض - من الكفر بمعنى الستر -.

و قيل: المراد بهم كفار الموتى و **{مِنَ}** بيانية و المعنى: يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار المدفونون في القبور منه لقوله: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاثُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ}** البقرة: ١٦١.

(بحث روائي)

في الجمع، عن ابن عباس: صالح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحديبية مشركي مكة على أن من أتاه من أهل مكة رده عليهم، و من أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو لهم و لم يردوه عليه و كتبوا بذلك كتابا و ختموا عليه.

فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب و النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحديبية فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم و قال مقاتل: هو صيفي بن الراهب في طلبها و كان كافرا فقال: يا محمد اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا

من أذاك منا و هذه طينة الكتاب لم تجف بعد فنزلت الآية **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ }** من دار الكفر إلى دار الإسلام **{ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ }**.

قال ابن عباس: امتحانهم أن يستحلفن ما خرجت من بغض زوج، و لا رغبة عن أرض إلى أرض، و لا التماس دنيا، و ما خرجت إلا حبا لله و لرسوله، فاستحلفها رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) ما خرجت بغضا لزوجها، و لا عشقا لرجل منا، و ما خرجت إلا رغبة في الإسلام فحلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك فأعطى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) زوجها مهرها و ما أنفق عليها و لم يردها عليه فتزوجها عمر بن الخطاب.

فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يرد من جاءه من الرجال و يجبس من جاءه من النساء إذا امتحن و يعطي أزواجهن مهرهن.

قال: قال الزهري: و لما نزلت هذه الآية و فيها قوله: **{ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ }** طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا له بمكة مشركتين: قريبة¹ بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان و هما على شركهما بمكة، و الأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جرويل الخزاعية أم عبد الله بن عمر فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غانم رجل من قوما و هما على شركهما.

و كانت عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ففرق بينهما الإسلام حين نهي القرآن عن التمسك بعصم الكوافر، و كان طلحة قد هاجر و هي بمكة عند قوما كافرة ثم تزوجها في الإسلام بعد طلحة خالد بن سعيد بن العاص بن أمية و كانت ممن فرت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) من نساء الكفار فحبسها و زوجها خالدا.

و أمية بنت بشر كانت عند الثابت بن الدحداحة ففرت منه و هو يومئذ كافر إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فزوجها رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) سهل بن حنيف فولدت عبد الله بن سهل.

قال: قال الشعبي: و كانت زينب بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) امرأة أبي العاص بن الربيع فأسلمت و لحقت بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) في المدينة و أقام أبو العاص مشركا بمكة ثم أتى المدينة فأمنته زينب ثم أسلم فردها عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم).

قال: و قال الجبائي: لم يدخل في شرط صلح الحديدية إلا رد الرجال دون النساء و لم

¹ قريبة خ.

يجز للنساء ذكر، وإن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءت مسلمة مهاجرة من مكة فجاء أخوها إلى المدينة فسألا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ردها عليهما فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أن الشرط بيننا في الرجال لا في النساء فلم يردّها عليهما.

أقول: وهذه المعاني مروية في روايات أخرى من طرق أهل السنة أورد كثيرا منها السيوطي في الدر المنثور، وروى امتحان المهاجرات كما تقدم ثم عدم ردهن على الكفار وإعطاءهم المهر القمي في تفسيره.

وفيه، وقال الزهري: فكان جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين راجعات عن الإسلام ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري، وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان، وعبدية بنت عبد العزى بن فضلة وزوجها عمرو بن عبد ود، وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص بن وائل، وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر فأعطاهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مهور نساءهم من الغنيمة.

وفي الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **لا ينبغي نكاح أهل الكتاب قلت: جعلت فداك وأين تحريمه؟ قال: قوله: {وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ}.**

أقول: والرواية مبنية على عموم الإمساك بالعصم للنكاح الدائم إحدانا وإبقاء.

وفيه، بإسناده أيضا إلى زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام): **عن قول الله تعالى: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} فقال: هذه منسوخة بقوله: {وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ}.**

أقول: ولعل المراد بنسخ آية الإمساك بالعصم لآية حلية محصنات أهل الكتاب اختصاص آية الممتحنة بالنكاح الدائم وتخصص آية المائة بالنسبة إلى النكاح الدائم بها، واختصاص ما تدل عليه من الحلية بالنكاح المنقطع، وليس المراد به النسخ المصطلح كيف؟ وآية الممتحنة سابقة نزولا على آية المائة ولا وجه لنسخ السابق لللاحق. على أن آية المائة مسوقة سوق الامتنان، وما هذا شأنه يأبى النسخ.

وفي الجمع في قوله تعالى: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}** وروى أبو الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام): **أنه منسوخ بقوله: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ} وبقوله:**

{وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ}.

أقول: ويضعف الرواية - مضافا إلى ضعف راويها - أن قوله: **{وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ}** إِنْخ، إنما يشمل المشركات من الوثنيين، وقوله: **{وَالْمُحْصَنَاتُ}** إِنْخ، يفيد حلية نكاح أهل الكتاب فلا تدافع بين الآيتين حتى تنسخ إحداها الأخرى، وقد تقدم أنفا الكلام في نسخ آية الممتحنة لقوله: **{وَالْمُحْصَنَاتُ}** إِنْخ، وقد تقدم في تفسير قوله: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ}** المائة: ٥، ما ينفذ في هذا المقام.

وفي تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن **أبي جعفر (عليه السلام)**: **{وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ}** فلحقن بالكفار من أهل عهدكم فأسألوهم صداقها، وإن لحقن بكم من نسائهم شيء فأعطوهم صداقها ذلكم حكم الله يحكم بينكم.

أقول: ظاهره تفسير **{شَيْءٌ}** بالمرأة.

وفي الكافي، بإسناده عن أبان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: لما فتح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مكة بايع الرجال ثم جاءت النساء يبايعنه فأنزل الله عز وجل: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ}** إلى آخر الآية.

قالت هند: أما الولد فقد ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا، وقالت أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت عند عكرمة بن أبي جهل: يا رسول الله ما ذاك المعروف الذي أمرنا الله أن لا نعصيك فيه؟ قال: لا تلطن خدا، ولا تخمشن وجهها، ولا تنتفن شعرا، ولا تشققن جيبا، ولا تسودن ثوبا، ولا تدعين بويل، فبايعهن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على هذا.

فقالت: يا رسول الله كيف نبايعك؟ قال: إنني لا أصالح النساء فدعا بقدر من ماء فأدخل يده ثم أخرجها فقال: أدخلن أيديكن في هذا الماء.

أقول: و الروايات مستفيضة في هذه المعاني من طرق الشيعة وأهل السنة.

وفي تفسير القمي، بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله: **{وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ}** قال: هو ما فرض الله عليهن من الصلاة والزكاة وما أمرهن به من خير.

أقول: و الرواية تشهد بأن ما ورد في الروايات من تفسير المعروف بمثل قوله: لا تلطن خدا إِنْخ، وفي بعضها أن لا تتبرجن تبرج الجاهلية الأولى من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق.

(٦١) (سورة الصف مدنية و هي أربع عشرة آية) (١٤)

[سورة الصف (٦١): الآيات ١ الى ٩]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ
③ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ④ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ⑤ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ⑥ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى
الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑦ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ
لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ ⑨}

(بيان)

السورة ترغب المؤمنين وتحرضهم على أن يجاهدوا في سبيل الله ويقاتلوا أعداء دينه، و تنبئهم أن هذا الدين نور ساطع لله سبحانه يريد الكفار من أهل الكتاب أن يطفئوه بأفواههم والله متمه ولو كره الكافرون، و مظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

و أن هذا النبي الذي آمنوا به رسول من الله أرسله بالهدى و دين الحق، و بشر به عيسى بن مريم (عليهما السلام) بني إسرائيل.

فعلى المؤمنين أن يشدوا العزم على طاعته و امتثال ما يأمرهم به من الجهاد و نصره الله في دينه حتى يسعدهم الله في آخرتهم و ينصرهم و يفتح لهم في دنياهم و يؤيدهم على أعدائهم.

و عليهم أن لا يقولوا ما لا يفعلون و لا ينكصوا فيما يعدون فإن ذلك يستوجب مقتا من الله تعالى و إيذاء الرسول و فيه خطر أن يزيغ الله قلوبهم كما فعل بقوم موسى (عليه السلام) لما آذوه و هم يعلمون أنه رسول الله إليهم و الله لا يهدي القوم الظالمين.

و السورة مدنية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: **{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** تقدم تفسيره، و افتتاح الكلام بالتسبيح لما فيها من توبيخ المؤمنين بقولهم ما لا يفعلون و إنذارهم بمقت الله و إزاعته قلوب الفاسقين.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} {لِمَ} محفف لما، و «ما» استفهامية، و اللام للتعليل، و الكلام مسوق للتوبيخ ففيه توبيخ المؤمنين على قولهم ما لا يفعلون و لا يصغي إلى قول بعض المفسرين: أن المراد بالذين آمنوا هم المنافقون و التوبيخ لهم دون المؤمنين لجلالة قدرهم.**

و ذلك لوفور الآيات المتضمنة لتوبيخهم و معابرتهم و خاصة في الآيات النازلة في الغزوات و ما يلحق بها كأحد و الأحزاب و حنين و صلح الحديبية و تبوك و الإنفاق في سبيل الله و غير ذلك، و الصالحون من هؤلاء المؤمنين إنما صلحوا نفسا و جلوا قدرا بالتربية الإلهية التي تتضمنها أمثال هذه التوبيخات و العتابات المتوجهة إليهم تدريجا و لم يتصفوا بذلك من عند أنفسهم.

و مورد التوبيخ و إن كان بحسب ظاهر لفظ الآية مطلق تخلف الفعل عن القول و خلف

الوعد و نقض العهد و هو كذلك لكونه من آثار مخالفة الظاهر للباطن و هو النفاق لكن سياق الآيات و فيها قوله: **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا}** و ما سيأتي من قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ إِخْلَاجٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ يُفِيدُ أَنْ مَتَعَلَقِ التَّوْبِيخِ كَانَ هُوَ تَخَلُّفَ بَعْضِهِمْ عَمَّا وَعَدَهُ مِنَ الثَّبَاتِ فِي الْقِتَالِ وَ عَدَمِ الْإِنْهَامِ وَ الْفِرَارِ أَوْ تَثَاقُلِهِمْ أَوْ تَخَلُّفِهِمْ عَنِ الْخُرُوجِ أَوْ عَدَمِ الْإِنْفَاقِ فِي تَجْهِيزِ أَنْفُسِهِمْ أَوْ تَجْهِيزِ غَيْرِهِمْ.**

قوله تعالى: **{كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}** المقت البغض الشديد، و الآية في مقام التعليل لمضمون الآية السابقة فهو تعالى يبغض من الإنسان أن يقول ما لا يفعله لأنه من النفاق، و أن يقول الإنسان ما لا يفعله غير أن لا يفعل ما يقوله فالأول من النفاق و الثاني من ضعف الإرادة و وهن العزم و هو رذيلة منافية لسعادة النفس الإنسانية فإن الله بنى سعادة النفس الإنسانية على فعل الخير و اكتساب الحسنة من طريق الاختيار و مفتاحه العزم و الإرادة، و لا تأثير إلا للراسخ من العزم و الإرادة، و تخلف الفعل عن القول معلول و وهن العزم و ضعف الإرادة و لا يرجى للإنسان مع ذلك خير و لا سعادة.

قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}** الصف جعل الأشياء على خط مستو كالناس و الأشجار. كذا قاله الراغب، و هو مصدر بمعنى اسم الفاعل و لذا لم يجمع، و هو حال من ضمير الفاعل في **{يُقَاتِلُونَ}**، و المعنى: يقاتلون في سبيله حال كونهم صافين.

و البنيان هو البناء، و المرصوص من الرصاص، و المراد به ما أحكم من البناء بالرصاص فيقاوم ما يصادمه من أسباب الانهدام.

و الآية تعلل خصوص المورد - و هو أن يعدوا الثبات في القتال ثم يهزموا - بالالتزام كما أن الآية السابقة تعلل التوبيخ على مطلق أن يقولوا ما لا يفعلون، و ذلك أن الله سبحانه إذا أحب الذين يقاتلون فيلزمون مكانهم و لا يزولون كان لازمه أن يبغض الذين يعدون أن يثبتوا ثم يهزمون إذا حضروا معركة القتال.

قوله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَأْتُونَنِي وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ}** إخل، في الآية إشارة إلى إيذاء بني إسرائيل رسولهم موسى (عليه السلام) و لجأهم حتى آل إلى إزاغة الله قلوبهم. و في ذلك نهي التزامي للمؤمنين عن أن يؤذوا رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فيثول أمرهم إلى ما آل إليه أمر قوم موسى من إزاغة القلوب و قد قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ}**

يُؤذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً { الأحزاب: ٥٧ .

و الآية بما فيها من النهي الالتزامي في معنى قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ

اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً { الأحزاب: ٧٠ .

و سياق الآيتين و ذكر تبرئة موسى (عليه السلام) يدل على أن المراد بإيذائه بما برأه الله منه ليس معصيتهم لأوامره و خروجهم عن طاعته إذ لا معنى حينئذ لتبرئته بل هو أنهم وقعوا فيه (عليه السلام) و قالوا فيه ما فيه عار و شين فتأذى فبرأه الله مما قالوا و نسبوا إليه، و قوله في الآية التالية: {اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً} يؤيد هذا الذي ذكرناه.

و يؤيد ذلك إشارته تعالى إلى بعض مصاديق إيذاء النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بقول أو فعل في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ } - إلى أن قال - {وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } - إلى أن قال - {وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدأً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً} الأحزاب: ٥٣ .

فتحصل أن في قوله: {وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ} إلخ، تلويحا إلى النهي عن إيذاء النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بقول أو فعل على علم بذلك كما أن في ذيل الآية تحويفا و إنذارا أنه فسق ربما أدى إلى إزاغته تعالى قلب من تلبس به .

و قوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} الزيف الميل عن الاستقامة و لازمه الانحراف عن الحق إلى الباطل .

و إزاغته تعالى إمساك رحمته و قطع هدايته عنهم كما يفيدته التعليل بقوله: {وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} حيث علل الإزاغة بعدم الهداية، و هي إزاغة على سبيل المجازاة و تثبيت للزيف الذي تلبسوا به أولا بسبب فسقهم المستدعي للمجازاة كما قال تعالى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} البقرة: ٢٦، و ليس بإزاغة بدئية و إضلال ابتدائي لا يليق بساحة قدسه تعالى .

و من هنا يظهر فساد ما قيل: إنه لا يجوز أن يكون المراد بقوله: {أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} الإزاغة عن الإيمان لأن الله تعالى لا يجوز أن يزيف أحدا عن الإيمان، و أيضا كون المراد

به الإزاعة عن الإيمان يخرج الكلام عن الفائدة لأنهم إذا زاغوا عن الإيمان فقد صاروا كفارا فلا معنى لقوله: أزاغهم الله عن الإيمان.

وجه الفساد أن قوله: لا يجوز له تعالى أن يزيغ أحدا عن الإيمان ممنوع بإطلاقه فإن الملاك فيه لزوم الظلم وإنما يلزم فيما كان من الإزاعة والإضلال ابتدائيا وأما ما كان على سبيل المجازاة وحقيقته إمساك الرحمة و قطع الهداية لتسبب العبد لذلك بفسقه وإعراضه عن الرحمة والهداية فلا دليل على منعه لا عقلا ولا نقلا.

وأما قوله: إن الكلام يخرج بذلك عن الفائدة فيدفعه أن الذي ينسب من الزيغ إلى العبد ويحصل معه الكفر تحقق ما له بالفسق والذي ينسب إليه تعالى تثبيت الزيغ في قلب العبد والطبع عليه به فزيغ العبد عن الإيمان بسبب فسقه و حصول الكفر بذلك لا يغني عن تثبيت الله الزيغ والكفر في قلبه على سبيل المجازاة.

قوله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}** تقدم في صدر الكلام أن هذه الآية والتي قبلها والآيات الثلاث بعدها مسوقة لتسجيل أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رسول معلوم الرسالة عند المؤمنين أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون من أهل الكتاب، وما جاء به من الدين نور ساطع من عند الله يريد المشركون ليطفئوه بأفواههم والله متم نوره ولو كره المشركون.

فعلى المؤمنين أن لا يؤذوه (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم يعلمون أنه رسول الله إليهم، وأن ينصروه و يجاهدوا في سبيل ربهم لإحياء دينه ونشر كلمته.

ومن ذلك يعلم أن قوله: **{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}** إنخ، كالتوسط لما سيذكر من كون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رسولا مبشرا به من قبل أرسله الله بالهدى ودين الحق ودينه نوره تعالى يهتدي به الناس.

والذي حكاه تعالى عن عيسى بن مريم (عليهما السلام) أعني قوله: **{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}** ملخص دعوته و قد آذن بأصل دعوته بقوله: **{إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ}** فأشار إلى أنه لا شأن له إلا أنه حامل رسالة من الله إليهم، ثم بين متن ما أرسل إليهم لأجل تبليغه في رسالته بقوله: **{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ}** إنخ.

فقوله: **{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ}** بيان أن دعوته لا تغاير دين التوراة ولا تناقض شريعتها بل تصدقها ولم تنسخ من أحكامها إلا يسيرا والنسخ بيان انتهاء أمد الحكم وليس بإبطال، ولذا جمع (عليه السلام) بين تصديق التوراة ونسخ بعض أحكامها فيما حكاه الله تعالى من قوله: **{وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}** آل عمران: ٥٠، ولم يبين لهم إلا بعض ما يختلفون فيه كما في قوله المحكي: **{قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا}** الزخرف: ٦٣.

وقوله: **{وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي إِسْمُهُ أَحْمَدُ}** إشارة إلى الشطر الثاني من رسالته (عليه السلام) و قد أشار إلى الشطر الأول بقوله: **{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ}**.

و من المعلوم أن البشرى هي الخبر الذي يسر المبشر ويفرحه ولا يكون إلا بشيء من الخير يوافيه ويعود إليه، والخير المترقب من بعثة النبي و دعوته هو انفتاح باب من الرحمة الإلهية على الناس فيه سعادة دنياهم و عقباهم من عقيدة حقة أو عمل صالح أو كليهما، و البشرى بالنبي بعد النبي و بالدعوة الجديدة بعد حلول دعوة سابقة و استقرارها و الدعوة الإلهية واحدة لا تبطل بمرور الدهور و تقضي الأزمنة و اختلاف الأيام و الليالي إنما تتصور إذا كانت الدعوة الجديدة أرقى فيما تشتمل عليه من العقائد الحقة و الشرائع المعدلة لأعمال المجتمع و أشمل لسعادة الإنسان في دنياه و عقباه.

و بهذا البيان يظهر أن معنى قوله (عليه السلام): **{وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي}** إنخ، يفيد كون ما أتى به النبي أحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أرقى و أكمل مما تضمنته التوراة و بعث به عيسى (عليه السلام) و هو (عليه السلام) متوسط رابط بين الدعوتين.

و يعود معنى كلامه: **{إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا}** إنخ، إلى أني رسول من الله إليكم أدعو إلى شريعة التوراة و منهاجها - و لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم - و هي شريعة سيكملها الله ببعث نبي يأتي من بعدي اسمه أحمد.

و هو كذلك فإمعان التأمل في المعارف الإلهية التي يدعو إليها الإسلام يعطي أنها أدق مما في غيره من الشرائع السماوية السابقة و خاصة ما يندب إليه من التوحيد الذي هو أصل الأصول الذي يبتني عليه كل حكم و يعود إليه كل من المعارف الحقيقية و قد تقدم شطر من الكلام فيه في المباحث السابقة من الكتاب.

و كذا الشرائع و القوانين العملية التي لم تدع شيئاً مما دق و جل من أعمال الإنسان

الفردية و الاجتماعية إلا عدلته و حدث حدوده و قررته على أساس التوحيد و وجهته إلى غرض السعادة.

و إلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: **{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}** الأعراف: ١٥٧، و آيات أخرى يصف القرآن.

و الآية أعني قوله: **{و مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ بَعْدِي}** و إن كانت مصرحة بالبشارة لكنها لا تدل على كونها مذكورة في كتابه (عليه السلام) غير أن آية الأعراف المنقولة آنفا: **{يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ}** و كذا قوله في صفة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): **{ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ}** الآية: الفتح: ٢٩، يدلان على ذلك.

و قوله: **{إِسْمُهُ أَحْمَدُ}** دلالة السياق على تعبير عيسى (عليه السلام) عنه (صلى الله عليه وآله و سلم) بأحمد و على كونه اسما له يعرف به عند الناس كما كان يسمى بجمد ظاهرة لا سترة عليها. و يدل عليه قول حسان:

صلى الإله و من يحف بعرشه * و الطيبون على المبارك أحمد**

و من أشعار أبي طالب قوله:

و قالوا لأحمد أنت امرؤ * خلوف اللسان ضعيف السبب**

ألا إن أحمد قد جاءهم * بحق و لم يأتهم بالكذب**

و قوله مخاطبا للعباس و حمزة و جعفر و علي يوصيهم بنصر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم):

كونوا فدى لكم أمي و ما ولدت * في نصر أحمد دون الناس أتراسا**

و من شعره فيه (صلى الله عليه وآله و سلم) و قد سماه باسمه الآخر محمد:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا * نبيا كوسى خط في أول الكتب**

و يستفاد من البيت أنهم عثروا على وجود البشارة به (صلى الله عليه وآله و سلم) في الكتب السماوية

التي كانت عند أهل الكتاب يومئذ ذلك.

و يؤيده أيضا إيمان جماعة من أهل الكتاب من اليهود و النصارى و فيهم قوم من علمائهم كعبد الله بن

سلام و غيره و قد كانوا يسمعون هذه الآيات القرآنية التي تذكر البشارة

به (صلى الله عليه وآله وسلم) و ذكره في التوراة و الإنجيل فتلقوه بالقبول و لم يكذبوه و لا أظهروا فيه شيئاً من الشك و التردد.

و أما خلو الأناجيل الدائرة اليوم عن بشارة عيسى بما فيها من الصراحة فالقرآن - و هو آية معجزة باقية - في غنى عن تصديقها، و قد تقدم البحث عن سندها و اعتبارها في الجزء الثالث من الكتاب.

و قوله: **{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}** ضمير «جاء» لأحمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، و ضمير **{جَاءَهُمْ}** لبني إسرائيل أو لهم و لغيرهم، و المراد بالبينات البشارة و معجزة القرآن و سائر آيات النبوة. و المعنى: فلما جاء أحمد المبشر به بني إسرائيل أو أتاهم و غيرهم بالآيات البينة التي منها بشارة عيسى (عليه السلام) قالوا هذا سحر مبين، و قرئ هذا ساحر مبين.

و قيل: ضمير «جاء» لعيسى (عليه السلام)، و السياق لا يلائمه.

قوله تعالى: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ}** إلخ، الاستفهام للإنكار و هو رد لقولهم: **{هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}** فإن معناه أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس برسول و أن ما بلغه من دين الله ليس منه تعالى.

و المراد بالإسلام الدين الذي يدعو إليه رسول الله بما أنه تسليم لله فيما يريد و يأمر به من اعتقاد و عمل، و لا ريب أن مقتضى ربوبيته و ألوهيته تعالى تسليم عباده له تسليمًا مطلقًا فلا ريب أن الدين الذي هو الإسلام لله دينه الحق الذي يجب أن يدان به فدعوى أنه باطل ليس من الله افتراء على الله.

و من هنا يظهر أن قوله: **{وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ}** يتضمن الحجة على كون قولهم: **{هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}** افتراء على الله.

و الافتراء ظلم لا يرتاب العقل في كونه ظلماً و ينهى عنه الشرع و يعظم الظلم بعظمة من وقع عليه فإذا كان هو الله سبحانه كان أعظم الظلم فلا أظلم ممن افترى على الله الكذب.

و المعنى: و لا أظلم ممن افترى على الله الكذب بنفي نسبة دين الله إليه و الحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الذي لا يتضمن إلا التسليم لله فيما أراد و لا ريب أنه من الله، و الله لا يهدي القوم الظالمين.

قوله تعالى: **{يُرِيدُونَ لِيُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ}** إلخ، إطفاء النور إبطاله وإذهاب شروقه، وإطفاء النور بالأفواه إنما هو بالنفخ بها.

وقد وقعت الآية في سورة التوبة و فيها: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ}** قال الراغب: قال تعالى: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ}** {يُرِيدُونَ لِيُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ} و الفرق بين الموضعين أن في قوله: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُظْفِقُوا}** يقصدون إطفاء نور الله، و في قوله: **{لِيُظْفِقُوا}** يقصدون أمرا يتوصلون به إلى إطفاء نور الله. انتهى و محصله أن متعلق الإرادة في قوله: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ}** نفس الإطفاء، و في قوله: **{يُرِيدُونَ لِيُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ}** السبب الموصل إلى الإطفاء و هو النفخ بالأفواه و الإطفاء غرض و غاية.

و الآية و ما يتلوها كالشارح لمعنى ما تقدم في الآية السابقة من ظلمهم برمي الدعوة بالسحر و عدم هدايته تعالى لهم بما أنهم ظالمون، و المحصل أنهم يريدون إطفاء نور الله بنفخة أفواههم لكن الله لا يهديهم إلى مقصدهم بل يتم نوره و يظهر دينه على الدين كله.

فقوله: **{يُرِيدُونَ لِيُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ}** أي بالنفخ بالأفواه كما يطفأ الشمعة بالنفخة كناية عن أنهم زعموا أن نور الله و هو دينه نور ضعيف كنور الشمعة يطفأ بأدنى نفخة فرموه بالسحر و انقطع نسبتته إلى الله. و قد أخطئوا في مزعمتهم فهو نور الله الذي لا يطفأ و قد شاء أن يتمه و لو كره الكافرون و الله بالغ أمره، و هو قوله: **{وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}**.

قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}** الإضافة في **{دِينِ الْحَقِّ}** بيانية كما قيل، و الظاهر أنها في الأصل إضافة لامية بعناية لطيفة هي أن لكل من الحق و الباطل دينا يقتضيه و يختص به، و قد ارتضى الله تعالى الدين الذي للحق و هو الحق تعالى فأرسل رسوله.

و إظهار شيء على غيره نصرته و تغليبه عليه، و المراد بالدين كله كل سبيل مسلك غير سبيل الله الذي هو الإسلام و الآية في مقام تعليل قوله في الآية السابقة: **{وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ}**، و المعنى: و الله متم نوره لأنه هو الذي أرسل رسوله بنوره الذي هو الهدى و دين الحق ليجعله غالبا على جميع الأديان و لو كره المشركون من أهل الأوثان.

و يستفاد من الآيتين أن دين الحق نور الله في الأرض كما يستفاد ذلك من قوله: **{مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ}** الآية: النور: ٣٥، و قد تقدم في تفسير الآية.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}** قال: يصطفون كالبنيان الذي لا يزول.

وفي المجمع في قوله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُلَاقُونَني وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ}** روي في قصة قارون أنه دس إليه امرأة وزعم أنه زنى بها، ورموه بقتل هارون.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي إِسْمُهُ أَحْمَدُ}** (الآية) قال: **و سأل بعض اليهود لعنهم الله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لم سميت أحمد و محمدا و بشيرا و نذيرا؟ فقال: أما محمد فإني في الأرض محمود، و أما أحمد فإني في السماء أحمد مني في الأرض، و أما البشير فأبشر من أطاع الله بالجنة، و أما النذير فأندر من عصى الله بالنار.**

وفي الدر المنثور، في الآية أخرج ابن مردويه عن العرياض بن سارية سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: **إني عبد الله في أم الكتاب و خاتم النبيين و إن آدم لمنجدل في طينته و سوف أنبئكم تأويل ذلك، أنا دعوة إبراهيم، و بشارة عيسى قومه و رؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام.**

وفي العيون، بإسناده إلى صفوان بن يحيى صاحب السابري قال: **سألني أبو قرعة صاحب الجاثليق أن أوصله إلى الرضا (عليه السلام) فاستأذنته في ذلك، قال: أدخله علي فلما دخل عليه قبل بساطه و قال: هكذا علينا في ديننا أن نفعل بأشراف أهل زماننا.**

ثم قال: **أصلحك الله ما تقول في فرقة ادعت دعوى فشهدت لهم فرقة أخرى معدلون؟ قال: الدعوى لهم، قال: فادعت فرقة أخرى فلم يجدوا شهودا من غيرهم؟ قال: لا شيء لهم.**

قال: **فإننا نحن ادعينا أن عيسى روح الله و كلمته فوافقنا على ذلك المسلمون، و ادعى المسلمون أن محمدا نبي فلم يتابعهم عليه، و ما أجمعنا عليه خير مما افترقنا فيه.**

فقال أبو الحسن (عليه السلام) **ما اسمك؟ قال: يوحنا، قال: يا يوحنا إنا آمننا بعيسى روح الله و كلمته الذي كان يؤمن بمحمد و يبشر به و يقر على نفسه أنه عبد مربوب فإن كان عيسى الذي هو عندك روح الله و كلمته ليس هو الذي آمن بمحمد و بشر به و لا هو**

الذي أقر الله بالعبودية فنحن منه براء فأين اجتمعنا؟ فقام وقال لصفوان بن يحيى: قم فما كان أغنانا عن

هذا المجلس.

أقول: كأنه يريد بقوله: قم فما كان أغنانا عن هذا المجلس، أن دخوله (عليه السلام) لم يفده فائدة حيث لم ينجح ما أتى به من الحجّة.

وفي كمال الدين، بإسناده إلى يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: كان بين عيسى ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) خمس مائة عام منها مائتان وخمسون عاما ليس فيها نبي ولا عالم ظاهر، قلت: فما كانوا؟ قال: كانوا متمسكين بدين عيسى (عليه السلام)، قلت: فما كانوا؟ قال: كانوا مؤمنين. ثم قال: ولا يكون إلا وفيها عالم.

أقول: المراد بالعالم الإمام الذي هو الحجّة، وهناك روايات واردة في قوله تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُظْفِرُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ}، وقوله: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} تذكر أن النور والهدى ودين الحق ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) وهي من الجري والتطبيق أو من البطن وليست بمفسرة، وعد الفصل بين المسيح وبين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) خمس مائة عام يخالف ما عليه مشهور التاريخ لكن المحققين ذكروا أن في التاريخ الميلاد اختلالا وقد مرت إشارة ما إلى ذلك في الجزء الثالث من الكتاب.

[سورة الصف (٦١): الآيات ١٠ الى ١٤]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ

اللَّهُ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَاْمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ
طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

(بيان)

دعوة للمؤمنين إلى الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله و وعد جميل بالمغفرة والجنة في الآخرة و
بالنصر و الفتح في الدنيا، و دعوة لهم إلى أن يثبتوا على نصرهم لله و وعد جميل بالتأييد.

و المعنيان هما الغرض الأقصى في السورة و الآيات السابقة كالتوطئة و التمهيد بالنسبة إليهما.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}** الاستفهام للعرض و
هو في معنى الأمر.

و التجارة - على ما ذكره الراغب - التصرف في رأس المال طلبا للربح، و لا يوجد في كلام العرب تاء
بعده جيم إلا هذه اللفظة.

فقد أخذ الإيمان و الجهاد في الآية تجارة رأس مالها النفس و ربحتها النجاة من عذاب أليم، و الآية في
معنى قوله: **{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ
يُقْتَلُونَ}** - إلى أن قال - **{فَاسْتَبَشِرُوا ببيعكم الذي بايعتم به}** التوبة: ١١١.

و قد نفخ تعالى أمر هذه التجارة حيث قال: **{على تجارة}** أي تجارة جليلة القدر عظيمة الشأن، و جعل
الربح الحاصل منها النجاة من عذاب أليم لا يقدر قدره.

و مصداق هذه النجاة الموعودة المغفرة و الجنة، و لذا بدل ثانيا النجاة من العذاب من قوله: **{يَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ}** إنخ، و أما النصر و الفتح الموعودان فهما خارجان عن النجاة الموعودة، و لذا
فصلهما عن المغفرة و الجنة فقال: **{وَ أُخْرَى نُحِبُّونَهَا}**

نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} فلا تغفل.

قوله تعالى: **{تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ}** إِنْخ، استئناف بياني يفسر التجارة المعروضة عليهم كأنه قيل: ما هذه التجارة؟ فقيل: **{تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ}** إِنْخ، وقد أخذ الإيمان بالرسول مع الإيمان بالله للدلالة على وجوب طاعته فيما أمر به وإلا فالإيمان لا يعد إيماناً بالله إلا مع الإيمان برسالة الرسول قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ}** - إلى أن قال - **{أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا}** النساء: ١٥١.

وقوله: **{ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** أي ما ذكر من الإيمان والجهاد خير لكم إن كنتم من أهل العلم وأما الجهلة فلا يعتد بأعمالهم.

وقيل: المراد تعلمون خيرية ذلك إن كنتم من أهل العلم والفقه.

قوله تعالى: **{يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}** إِنْخ، جواب للشرط المقدر المفهوم من الآية السابقة أي إن تؤمنوا بالله ورسوله وتجاهدوا في سبيله يغفر لكم، إِنْخ.

وقد أطلقت الذنوب المتعلقة بها المغفرة فالمغفور جميع الذنوب والاعتبار يساعده إذ هذه المغفرة مقدمة الدخول في جنة الخلد ولا معنى لدخولها مع بقاء بعض الذنوب على حاله، ولعله للإشارة إلى هذه النكتة عقبها بقوله: **{وَمَسَاكِينٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ}** أي جنات ثبات واستقرار فكونها محل ثبات وموضع قرار يلوح أن المغفرة تتعلق بجميع الذنوب.

مضافاً إلى ما فيه من مقابلة النفس المبدولة وهي متاع قليل معجل بجنات عدن التي هي خالدة فتطيب بذلك نفس المؤمن وتقوى إرادته لبذل النفس وتضحيتها واختيار البقاء على الفناء.

ثم زاد في تأكيد ذلك بقوله: **{ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}**.

قوله تعالى: **{وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ}** إِنْخ، عطف على قوله: **{يَغْفِرْ لَكُمْ}** إِنْخ، و **{أُخْرَى}** وصف قائم مقام الموصوف وهو خبر لمبتدأ محذوف، وقوله: **{نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ}** بيان لأخرى، والتقدير ولكم نعمة أو خصلة أخرى تحبونها وهي نصر من الله وفتح قريب عاجل.

وقوله: **{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}** معطوف على الأمر المفهوم من سابق الكلام كأنه قيل: «قل يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم» إنلخ، وبشر المؤمنين.

وتحاذي هذه البشرى ما في قوله: **{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ}** - إلى أن قال - **{فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ}** التوبة: ١١١، وبه يظهر أن الذي أمر أن يبشروا به مجموع ما يؤتيهم الله من الأجر في الآخرة و الدنيا لا خصوص النصر و الفتح.

هذا كله ما يعطيه السياق في معنى الآية و إعراب أجزائها، و قد ذكر فيها أمور أخرى لا يساعد عليها السياق تلك المساعدة أغمضنا عن ذكرها، و احتمال أن يكون قوله: **{وَبَشِّرِ}** إنلخ استثناءفا.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ}** إنلخ، أي اتموا بهذه السمة و دوموا و اثبتوا عليها فالآية في معنى الترقى بالنسبة إلى قوله السابق: **{هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}** و مآل المعنى: اتجروا بأنفسكم و أموالكم فانصروا الله بالإيمان و الجهاد في سبيله و دوموا و اثبتوا على نصره.

و المراد بنصرتهم لله أن ينصروا نبيه في سلوك السبيل الذي يسلكه إلى الله على بصيرة كما قال: **{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي}** يوسف: ١٠٨.

و الدليل على هذا المعنى تنظيره تعالى قوله: **{كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ}** بقوله بعده: **{كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ}** فكون الحواريين أنصار الله معناه كونهم أنصارا لعيسى بن مريم (عليهما السلام) في سلوكه سبيل الله و توجهه إلى الله و هو التوحيد و إخلاص العبادة لله سبحانه فحاذاة قولهم: **{نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ}** لقوله: **{مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}** و مطابقتة له تقتضي اتحاد معنى الكلمتين بحسب المراد فكون هؤلاء المخاطبين بقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ}** أنصارا لله معناه كونهم أنصارا للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) في نشر الدعوة و إعلاء كلمة الحق بالجهاد، و هو الإيمان بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و طاعته فيما يأمر و ينهى عن قول جازم و عمل صادق - كما هو مؤدى سياق آيات السورة -.

و قوله: **{فَآمَنْتُ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}** إشارة إلى ما جرى عليه و انتهى إليه أمر استنصار عيسى

و تلبية الحواريين حيث تفرق الناس إلى طائفة مؤمنة و أخرى كافرة فأيد الله المؤمنين على عدوهم و هم الكفار فأصبحوا ظاهرين بعد ما كانوا مستخفين مضطهدين.

و فيه تلويح إلى أن أمة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) يجري فيهم ما جرى في أمة عيسى (عليه السلام) تؤمن منهم طائفة و تكفر طائفة فإن أجاب المؤمنون استنصاره - و قد قام هو تعالى مقامه في الاستنصار إعظاما لأمره و إعزازا له - أيدهم الله على عدوهم فيصبحون ظاهرين كما ظهر أنصار عيسى و المؤمنون به.

و قد أشار تعالى إلى هذه القصة في آخر قصص عيسى (عليه السلام) من سورة آل عمران حيث قال: **{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ}** آل عمران: ٥٢، إلى تمام ست آيات، و بالتدبر فيها يتضح معنى الآية المبحوث عنها.

(بحث روائي)

في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}** فقالوا: لو نعلم ما هي لنبدن فيه الأموال و الأنفس و الأولاد، **فقال الله: {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ} - إلى قوله - {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}**.

أقول: و هذا المعنى مروى من طرق أهل السنة أيضا.

و فيه في قوله تعالى: **{وَ أُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ}** يعني في الدنيا بفتح القائم (عليه السلام)، و أيضا قال: فتح مكة.

في الاحتجاج، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث: و لم يخل أرضه من عالم بما يحتاج الخليفة إليه و متعلم على سبيل نجاة أولئك هم الأقلون عددا، و قد بين الله ذلك من أمم الأنبياء، و جعلهم مثلا لمن تأخر مثل قوله في حوارى عيسى حيث قال لسائر بني إسرائيل: **{مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ إِشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}** يعني مسلمون لأهل الفضل فضلهم و لا يستكبرون عن أمر ربهم فما أجابه منهم إلا الحواريون.

أقول: الرواية و إن وردت في تفسير آية آل عمران لكنها مفيدة فيما نحن فيه.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن إسحاق و ابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) للنفر الذين لاقوه بالعقبة: **أخرجوا إلى اثني عشر رجلا منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم.**

(٢) (سورة الجمعة مدنية و هي إحدى عشرة آية) (١١)

[سورة الجمعة (٦٢): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

(بيان)

غرض السورة هو الحث البالغ على الاهتمام بأمر صلاة الجمعة والقيام بواجب أمرها فهي من شعائر الله المعظمة التي في تعظيمها والاهتمام بأمرها صلاح أخراهم وديناهم، وقد سلك تعالى إلى بيان أمره بافتتاح الكلام بتسبيحه والثناء عليه بما من على قوم أميين برسول منهم أمي يتلو عليهم آياته ويزكهم بصالحات الأعمال والزايكات من الأخلاق ويعلمهم الكتاب والحكمة فيحملهم كتاب الله ومعارف دينه أحسن التحميل هم ومن يلحق بهم أو يخلفهم من بعدهم من المؤمنين فليحملوا ذلك أحسن الحمل، وليحذروا أن يكونوا كاليهود حملوا التوراة ثم لم يحملوا معارفها وأحكامها فكانوا مثل الحمار يحمل أسفارا.

ثم تخلص إلى الأمر بترك البيع والسعي إلى ذكر الله إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، وقرعهم على ترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قائماً يخطب والانفضاض والانسلال إلى التجارة واللهو، وذلك آية عدم تحملهم ما حملوا من معارف كتاب الله وأحكام، والسورة مدنية.

قوله تعالى: **{ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }** التسبيح تنزيه الشيء ونسبته إلى الطهارة والنزاهة من العيوب والنقائص، والتعبير بالمضارع للدلالة على الاستمرار، والملك هو الاختصاص بالحكم في نظام المجتمع، والقدوس مبالغة في القدس وهو النزاهة والطهارة، والعزیز هو الذي لا يغلبه غالب، والحكيم هو المتقن فعله فلا يفعل عن جهل أو جزاف.

وفي الآية توطئة وتمهيد برهاني لما يتضمنه قوله: **{ هُوَ الَّذِي بَعَثَ }** إله، من بعثة الرسول لتكميل الناس وإسعادهم وهدايتهم بعد إذ كانوا في ضلال مبین.

وذلك أنه تعالى يسبحه وينزهه الموجودات السماوية والأرضية بما عندهم من النقص الذي هو متممه والحاجة التي هو قاضيا لها من نقيصة أو حاجة إلا وهو المرجو في تمامها وقضاءها فهو المسبح المنزه عن كل نقص وحاجة فله أن يحكم في نظام التكوين بين خلقه بما شاء، وفي نظام التشريع في عبادته بما أراد، كيف لا؟ وهو ملك له أن يحكم في أهل مملكته وعليهم أن يطيعوه.

وإذا حكم وشرع بينهم دينا لم يكن ذلك منه لحاجة إلى تعبيدهم ونقص فيه يتممه بعبادتهم لأنه قدوس منزه عن كل نقص وحاجة.

ثم إذا حكم و شرع و بلغه إياهم عن غنى منه و دعاهم إليه بوساطة رسله فلم يستجيبوا دعوته و تمردوا عن طاعته لم يكن ذلك تعجيزاً منهم له تعالى لأنه العزيز لا يغلبه فيما يريد غالباً.

ثم إن الذي حكم و شرعه من الدين بما أنه الملك القدوس العزيز ليس يذهب لغى لا أثر له لأنه حكيم على الإطلاق لا يفعل ما يفعل إلا لمصلحة و لا يريد منهم ما يريد إلا لنفع يعود إليهم و خير ينالونه فيستقيم به حالهم في دنياهم و آخراهم.

و بالجملة فتشريعه الدين و إنزاله الكتاب ببعث رسول يبلغهم ذلك بتلاوة آياته، و يزكيهم و يعلمهم من منه تعالى و فضل كما قال: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ} إِنْخ.**

قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ}** إِنْخ، الأميون جمع أمي و هو الذي لا يقرأ و لا يكتب، و المراد بهم - كما قيل - العرب لقلة من كان منهم يقرأ و يكتب و قد كان الرسول (صلى الله عليه وآله و سلم) منهم أي من جنسهم و هو غير كونه مرسلًا إليهم فقد كان منهم و كان مرسلًا إلى الناس كافة.

و احتمال أن يكون المراد بالأميين غير أهل الكتاب كما قال اليهود - على ما حكى الله عنهم -: **{لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ}** آل عمران: ٧٥.

و فيه أنه لا يناسب قوله في ذيل الآية: **{يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}** إِنْخ، فإنه (صلى الله عليه وآله و سلم) لم يخص غير العرب و غير أهل الكتاب بشيء من الدعوة لم يلقه إليهم.

و احتمال أن يكون المراد بالأميين أهل مكة لكونهم يسمونها أم القرى.

و فيه أنه لا يناسب كون السورة مدنية لإيهامه كون ضمير **{يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُم}** راجعاً إلى المهاجرين و من أسلم من أهل مكة بعد الفتح و أخلافهم و هو بعيد من مذاق القرآن.

و لا منافاة بين كونه (صلى الله عليه وآله و سلم) من الأميين مبعوثاً فيهم و بين كونه مبعوثاً إليهم و إلى غيرهم و هو ظاهر، و تلاوته عليهم آياته و تزكيتهم و تعليمهم لهم الكتاب و الحكمة لنزوله بلغتهم و هو أول مراحل دعوته و لذا لما استقرت الدعوة بعض الاستقرار أخذ (صلى الله عليه وآله و سلم) يدعو اليهود و النصارى و المجوس و كاتب العظماء و الملوك.

و كذا دعوة إبراهيم و إسماعيل (عليهما السلام) على ما حكى الله تعالى: **{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}** - إلى أن قال - **{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}** البقرة: ١٢٩، تشمل جميع آل

إسماعيل من عرب مضر أعم من أهل مكة وغيرهم، ولا ينافي كونه (صلى الله عليه وآله وسلم) مبعوثاً إليهم وإلى غيرهم.

وقوله: **{يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}** أي آيات كتابه مع كونه أمياً. صفة للرسول.

وقوله: **{وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** التزكية تفعيل من الزكاة بمعنى النمو الصالح الذي يلازم الخير والبركة فتزكيتهم لهم تميته لهم نماء صالحاً بتعودهم الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة فيكلمون بذلك في إنسانيتهم فيستقيم حالهم في دنياهم وآخرتهم يعيشون سعداء ويموتون سعداء.

وتعليم الكتاب بيان ألفاظ آياته وتفسير ما أشكل من ذلك، ويقابله تعليم الحكمة وهي المعارف الحقيقية التي يتضمنها القرآن، والتعبير عن القرآن تارة بالآيات وتارة بالكتاب للدلالة على أنه بكل من هذه العناوين نعمة يمتن بها كما قيل .

وقد قدم التزكية هاهنا على تعليم الكتاب والحكمة بخلاف ما في دعوة إبراهيم (عليه السلام) لأن هذه الآية تصف تربيته (صلى الله عليه وآله وسلم) لمؤمني أمته، والتزكية مقدمة في مقام التربية على تعليم العلوم الحقة والمعارف الحقيقية وأما ما في دعوة إبراهيم (عليه السلام) فإنها دعاء وسؤال أن يتحقق في ذريته هذه الزكاة والعلم بالكتاب والحكمة، والعلوم والمعارف أقدم مرتبة وأرفع درجة في مرحلة التحقق والاتصاف من الزكاة الراجعة إلى الأعمال والأخلاق.

وقوله: **{وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}** {إِنْ} مخففة من الثقيلة والمراد أنهم كانوا من قبل بعثة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في ضلال مبين، والآية تحميد بعد تسييح ومسوقة للامتنان كما سيأتي.

قوله تعالى: **{وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** عطف على الأيمن و ضمير **{مِنْهُمْ}** راجع إليهم و «من» للتبعيض والمعنى: بعث في الأيمن وفي آخرين منهم لم يلحقوا بهم بعد وهو العزيز الذي لا يغلب في إرادته الحكيم الذي لا يلغو ولا يجازف في فعله.

قوله تعالى: **{ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}** الإشارة بذلك إلى بعث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - وقد نغم أمره بالإشارة البعيدة - فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) المخصوص بالفضل، والمعنى: ذلك البعث و كونه يتلو آيات الله ويزكي الناس ويعلمهم الكتاب والحكمة من فضل الله و عطاؤه يعطيه من تعلقته به مشيئته وقد شاء أن يعطيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والله ذو

الفضل العظيم كذا قال المفسرون.

و من الممكن أن تكون الإشارة بذلك إلى البعث بما له من النسبة إلى أطرافه من المرسل والمرسل إليهم، والمعنى: ذلك البعث من فضل الله يؤتية من يشاء وقد شاء أن يخص بهذا الفضل محمدا (صلى الله عليه وآله و سلم) فاختاره رسولا، وأمه فاختارهم لذلك فجعله منهم وأرسله إليهم.

و الآية و الآياتان قبلها أعني قوله: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ}** إلى قوله **{الْعَظِيمِ}** مسوقة سوق الامتنان.

قوله تعالى: **{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}** إِنْخ، قال الراغب: السفر - بالفتح فالسكون - كشف الغطاء و يختص ذلك بالأعيان نحو سفر العمامة عن الرأس و الخمار عن الوجه - إلى أن قال - و السفر - بالكسر فالسكون - الكتاب الذي يسفر عن الحقائق قال تعالى: **{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}** انتهى.

و المراد بتحميل التوراة تعليمها، و المراد بحملها العمل بها على ما يؤيده السياق و يشهد به ما في ذيل الآية من قوله: **{بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}**، و المراد بالذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها اليهود الذين أنزل الله التوراة على رسولهم موسى (عليه السلام) فعلهم ما فيها من المعارف و الشرائع فتركوها و لم يعملوا بها فحملوها و لم يحملوها فضرب الله لهم مثل الحمار يحمل أسفارا و هو لا يعرف ما فيها من المعارف و الحقائق فلا يبقى له من حملها إلا التعب بتحمل ثقلها.

و وجه اتصال الآية بما قبلها أنه تعالى لما افتتح الكلام بما من به على المسلمين من بعث نبي أمي من بين الأميين يتلو عليهم آيات كتابه و يذكيمهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة فيخرجهم من ظلمات الضلال إلى نور الهدى و من حضيض الجهل إلى أوج العلم و الحكمة و سيشير تعالى في آخر السورة إشارة عتاب و توبيخ إلى ما صنعوه من الانفضاض و الانسلاخ إلى اللهو و التجارة و النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قائم يخطبهم يوم الجمعة و هو من الاستهانة بما هو من أعظم المناسك الدينية و يكشف أنهم لم يقدروها حق قدرها و لا نزلوها منزلتها.

فاعترض الله سبحانه بهذا المثل و ذكرهم بحال اليهود حيث حملوا التوراة ثم لم يحملوها فكانوا كالحمار يحمل أسفارا و لا ينتفع بما فيها من المعرفة و الحكمة، فعليهم أن يهتموا بأمر الدين و يراقبوا الله في حركاتهم و سكاتهم و يعظموا رسوله (صلى الله عليه وآله و سلم) و يوقروه و لا يستهينوا

بما جاء به، و ليحذروا أن يحل بهم من سخطه تعالى ما حل باليهود حيث لم يعملوا بما علموا فعدهم الله جهلة ظالمين و شبههم بالحمار يحمل أسفارا.

و في روح المعاني: وجه ارتباط الآية بما قبلها تضمنها الإشارة إلى أن ذلك الرسول المبعوث قد بعثه الله تعالى بما نعته به في التوراة و على السنة أنبياء بني إسرائيل كأنه قيل: هو الذي بعث المبشر به في التوراة المنعوت فيها بالنبي الأمي المبعوث إلى أمة أميين، مثل من جاءه نعته فيها و علمه ثم لم يؤمن به مثل الحمار. انتهى.
و أنت خبير بأنه تحكم لا دليل عليه من جهة السياق.

قوله تعالى: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** احتجاج على اليهود يظهر به كذبهم في دعواهم أنهم أولياء الله و أحبائه، و قد حكى الله تعالى ما يدل على ذلك عنهم بقوله: **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}** المائدة: ١٨، و قوله: **{قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ}** البقرة: ٩٤، و قوله: **{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا}** البقرة: ١١١.

و محصل المعنى: قل لليهود مخاطبا لهم يا أيها الذين تهودوا إن كنتم تعتقدتم أنكم أولياء الله من دون الناس إن كنتم صادقين في دعواكم فتمنوا الموت لأن الولي يجب لقاء وليه و من أيقن أنه ولي الله و جبت له الجنة و لا حاجب بينه و بينها إلا الموت أحب الموت و تمنى أن يحل به فيدخل دار الكرامة و يتخلص من هذه الحياة الدنية التي ما فيها إلا الهم و الغم و الحنة و المصيبة.

قيل: و في قوله: **{أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ}** من غير إضافة إشارة إلى أنه دعوى منهم من غير حقيقة.

قوله تعالى: **{وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}** أخبر تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله و سلم) أنهم لا يتمنونه أبدا بعد ما أمره أن يعرض عليهم تمني الموت.

و قد علل عدم تمنيم الموت بما قدمت أيديهم و هو كفاية عن الظلم و الفسوق، فعنى الآية: و لا يتمنون الموت أبدا بسبب ما قدمته أيديهم من الظلم فكانوا ظالمين و الله عليم بالظالمين يعلم أنهم لا يحبون لقاءه لأنهم أعداؤه لا ولاية بينه و بينهم و لا محبة.

و الآيتان في معنى قوله تعالى: **{قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** و لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ

قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** الفاء في قوله: **{فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ}** في معنى جواب الشرط، وفيه وعيد لهم بأن الموت الذي يكرهونه كراهة أن يؤاخذوا بوبال أعمالهم فإنه سيلاقهم لا محالة ثم يردون إلى ربهم الذي خرجوا من زي عبوديته بمظالمهم وعادوه بأعمالهم وهو عالم بحقيقة أعمالهم ظاهرها وباطنها فإنه عالم الغيب والشهادة فينبؤهم بحقيقة أعمالهم و تبعاتها السيئة وهي أنواع العذاب.

ففي الآية إيذانهم أولاً: أن فرارهم من الموت خطأ منهم فإنه سيدركهم ويلاقهم، وثانياً: أن كراهتهم لقاء الله خطأ آخر فإنهم مردودون إليه محاسبون على أعمالهم السيئة، وثالثاً: أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ظاهرها وباطنها ولا يحيق به مكرهم فإنه عالم الغيب والشهادة.

ففي الآية إشارة أولاً: إلى أن الموت حق مقضي كما قال: **{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}** الأنبياء: ٣٥، وقال: **{نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}** الواقعة: ٦٠.

وثانياً: أن الرجوع إلى الله لحساب الأعمال حق لا ريب فيه.

وثالثاً: أنهم سيوقفون على حقيقة أعمالهم فيوفونها.

ورابعاً: أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وللإشارة إلى ذلك بدل اسم الجلالة من قوله: **{عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}**.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ}** عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال: **كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتاب من عند الله ولا بعث إليهم رسول فنسبهم الله إلى الأميين.**

وفيه في قوله تعالى: **{وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ}** قال: دخلوا الإسلام بعدهم.

وفي الجمع، وروي: أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ هذه الآية فقبل له: من هؤلاء؟ فوضع يده على كتف سلمان وقال: لو كان الإيمان بالثرثرا لثارت رجال من هؤلاء.

أقول: ورواه في الدر المنثور، عن عدة من جوامع الحديث منها صحيح البخاري

و مسلم و الترمذي و النسائي عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، و فيه: **فوضع يده على رأس سلمان الفارسي و قال: و الذي نفسي بيده لو كان العلم بالثريا لناله رجال من هؤلاء.**

و روي أيضا عن سعيد بن منصور و ابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **لو أن الإيمان بالثريا لناله رجال من أهل فارس.**

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ}** قال: الحمار يحمل الكتب و لا يعلم ما فيها و لا يعمل به كذلك بنو إسرائيل قد حملوا مثل الحمار لا يعلمون ما فيه و لا يعملون.

و في الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة و الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **من تكلم يوم الجمعة و الإمام يخطب فهو كالحمار يحمل أسفارا و الذي يقول له: أنصت ليس له جمعة.** أقول: و فيه تأييد لما قدمناه في وجه اتصال الآية بما قبلها.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا}** (الآية)، قال: إن في التوراة مكتوب: أولياء الله يتمنون الموت.

و في الكافي، بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **جاء رجل إلى أبي ذر فقال: يا أبا ذر ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمرتم الدنيا و خربتم الآخرة فتكروهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب**

كلام في معنى تعليم الحكمة

لا محيص للإنسان في حياته المحدودة التي يعمرها في هذه النشأة من سنة يستن بها فيما يريد و يكره، و يجري عليها في حركاته و سكاته و بالجملة جميع مساعيه في الحياة.

و تتبع هذه السنة في نوعها ما عند الإنسان من الرأي في حقيقة الكون العام و حقيقة نفسه و ما بينهما من الربط، و يدل على ذلك ما نجد من اختلاف السنن و الطرائق في الأمم باختلاف آرائهم في حقيقة نشأة الوجود و الإنسان الذي هو جزء منها.

فن لا يرى لما وراء المادة وجودا، و يقصر الوجود في المادي، و ينهي الوجود إلى الاتفاق، و يرى الإنسان مربكا ماديا محدود الحياة بين التولد و الموت لا يرى لنفسه من

السعادة إلا سعادة المادة ولا غاية له في أعماله إلا المزايا المادية من مال و ولد و جاه و غير ذلك، ولا بغية له إلا التمتع بأمته الدنيا و الظفر بلذائذها المادية أو ما يرجع إليها و تنتهي جميعا إلى الموت الذي هو عنده انحلال للتركيب و بطلان.

و من يرى كينونة العالم عن سبب فوقه منزه عن المادة، و أن وراء الدار دارا و بعد الدنيا آخرة نجده يخالف في سنته و طريقته الطائفة المتقدم ذكرها فيتوخى في أعماله وراء سعادة الدنيا سعادة الأخرى و يختلف صور أعمالهم و غاياتهم و آراؤهم مع الطائفة الأولى.

و يختلف سنن هؤلاء باختلافهم أنفسهم فيما بينهم كاختلاف سنن الوثنيين من البرهمنين و البوذيين و غيرهم و المليين من المجوسية و الكليمية و المسيحية و المسلمين فلكل وجهة هو موليا.

و بالجملة الملي يراعي في مساعيه جانب ما يراه لنفسه من الحياة الخالدة المؤبدة و يدعن من الآراء بما يناسب ذلك كادعائه أنه يجب على الإنسان أن يمهد لعالم البقاء و أن يتوجه إلى ربه، و أن لا يفرط في الاشتغال بعرض الحياة الدنيا الفانية و غير الملي الخاضع للمادة يلوي إلى خلاف ذلك، هذا كله مما لا ريب فيه.

غير أن الإنسان لما كان بحسب طبعه المادي رهينا للمادة مترددا بين الأسباب الظاهرية فاعلا بها منفلا عنها لا يزال يدفعه سبب إلى سبب لا فراغ له من ذلك، يرى - بحسب ما يخيل إليه - أن الأصالة لحياته الدنيوية المنقطعة، و أنها و ما تنتهي إليه من المقاصد و المزايا هي الغاية الأخيرة و الغرض الأقصى من وجوده الذي يجب عليه أن يسعى لتحصيل سعادته.

فالحياة الدنيا هي الحياة و ما عند أهلها من القنية و النعمة و المنية و القوة و العزة هي هي بحقيقة معنى الكلمة، و ما يعدونه فقرا و نقمة و حرمانا و ضعفا و ذلة و رزية و مصيبة و خسرانا هي هي و بالجملة كل ما تهواه النفس من خير معجل أو نفع مقطوع فهو عندهم خير مطلق و نفع مطلق، و كل ما لا تهواه فهو شر أو ضرر.

فمن كان منهم من غير أهل الملة جرى على هذه الآراء و لا خبر عنده عما وراء ذلك، و من كان منهم من أهل الملة جرى عليها عملا و هو معترف بخلافها قولا فلا يزال في تدافع بين قوله و فعله قال تعالى: **كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَنشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا** البقرة: ٢٠.

و الذي تندب إليه الدعوة الإسلامية من الاعتقاد و العمل هو ما يطابق مقتضى الفطرة

الإنسانية التي فطر عليها الإنسان و تثبت عليه خلقته كما قال: **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}** الروم: ٣٠.

و من المعلوم أن الفطرة لا تهتدي علما و لا تميل عملا إلا إلى ما فيه كمالها الواقعي و سعادتها الحقيقية فما تهتدي إليه من الاعتقادات الأصلية في المبدأ و المعاد و ما يتفرع عليها من الآراء و العقائد الفرعية علوم و آراء حقة لا تتعدى سعادة الإنسان و كذا ما تميل إليه من الأعمال.

ولذا سمي الله تعالى هذا الدين المبني على الفطرة بدين الحق في مواضع من كلامه كقوله: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}** الصف: ٠٩ و قال في القرآن المتضمن لدعوته: **{يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ}** الأحقاف: ٣٠.

و ليس الحق إلا الرأي و الاعتقاد الذي يطابقه الواقع و يلازمه الرشد من غير غي، و هذا هو الحكمة - الرأي الذي أحكم في صدقه فلا يتخلله كذب، و في نفعه فلا يعقبه ضرر - و قد أشار تعالى إلى اشتغال الدعوة على الحكمة بقوله: **{وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ}** النساء: ١١٣، و وصف كلامه المنزل بها فقال: **{وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ}** يس: ٢، و عد رسوله (صلى الله عليه وآله و سلم) معلما للحكمة في مواضع من كلامه كقوله: **{وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ}** الجمعة: ٢.

فالتعليم القرآني الذي تصداه الرسول (صلى الله عليه وآله و سلم) المبين لما نزل من عند الله من تعليم الحكمة و شأنه بيان ما هو الحق في أصول الاعتقادات الباطلة الخرافية التي دبت في أفهام الناس من تصور عالم الوجود و حقيقة الإنسان الذي هو جزء منه كما تقدمت الإشارة إليه و ما هو الحق في الاعتقادات الفرعية المترتبة على تلك الأصول مما كان مبدءاً للأعمال الإنسانية و عناوين لغاياتها و مقاصدها.

فالناس - مثلا - يرون أن الأصالة لحياتهم المادية حتى قال قائلهم: **{مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا}** الجاثية: ٢٤، و القرآن ينبهم بقوله: **{وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}** العنكبوت: ٦٤، و يرون أن العلل و الأسباب هي المولدة للحوادث الحاكمة فيها من حياة و موت و صحة و مرض و غنى و فقر و نعمة و نقمة و رزق و حرمان **{بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ}** سبأ: ٣٣، و القرآن يذكرهم بقوله: **{أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ}** الأعراف: ٥٤، و قوله: **{إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ}** يوسف: ٦٧،

وغير ذلك من آيات الحكمة، ويرون أن لهم الاستقلال في المشية يفعلون ما يشاءون و القرآن يخطهم بقوله: **{وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}** الإنسان: ٣٠، ويرون أن لهم أن يطيعوا ويعصوا ويهدوا ويهتدوا و القرآن ينبئهم بقوله: **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}** القصص: ٥٦.

ويرون أن لهم قوة و القرآن ينكر ذلك بقوله: **{أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}** البقرة: ١٦٥. ويرون أن لهم عزة بمال و بنين و أنصار و القرآن يحكم بخلافه بقوله: **{أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}** النساء: ١٣٩. و قوله: **{وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ}** المنافقون: ٨.

ويرون أن القتل في سبيل الله موت و انعدام و القرآن يعده حياة إذ يقول: **{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَ لَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ}** البقرة: ١٥٤، إلى غير ذلك من التعاليم القرآنية التي أمر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يدعو بها الناس قال: **{أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ}** النحل: ١٢٥.

و هي علوم و آراء جمعة صورت الحياة الدنيا خلافا في نفوس الناس و زينة فنبه تعالى لها في كتابه و أمر بتعليمها رسوله و ندب المؤمنين أن يتواصوا بها كما قال: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ}** العصر: ٣، و قال: **{يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَ مَا يَدْرُكُهُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}** البقرة: ٢٦٩.

فالقرآن بالحقيقة يقبل الإنسان في قلب من حيث العلم و العمل حديث و يصوغه صوغا جديدا فيحيي حياة لا يتعقبها موت أبدا، و إليه الإشارة بقوله تعالى: **{اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}** الأنفال: ٢٤، و قوله: **{أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا}** الأنعام: ١٢٢.

و قد بينا وجه الحكمة في كل من آياتها عند التعرض لتفسيرها على قدر مجال البحث في الكتاب. و مما تقدم يتبين فساد قول من قال: إن تفسير القرآن تلاوته، و إن التعمق في مداليل آيات القرآن من التأويل الممنوع فما أبعد من قول.

[سورة الجمعة (٦٢): الآيات ٩ الى ١١]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوا قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَ اللَّهِ خَيْرُ الرَّاغِبِينَ ﴿١١﴾}

(بيان)

تأكيد إيجاب صلاة الجمعة و تحريم البيع عند حضورها و فيها عتاب لمن انفض إلى اللهو و التجارة عند ذلك و استهجان لفعالهم.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ} إلخ، المراد بالنداء للصلاة من يوم الجمعة الأذان كما في قوله: {وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَ لَعِبًا} المائة:

٥٨

و الجمعة بضمين أو بالضم فالسكون أحد أيام الأسبوع و كان يسمى أولاً يوم العروبة ثم غلب عليه اسم الجمعة، و المراد بالصلاة من يوم الجمعة صلاة الجمعة المشرعة يومها، و السعي هو المشي بالإسراع، و المراد بذكر الله الصلاة كما في قوله: {وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} العنكبوت: ٤٥، على ما قيل و قيل: المراد به الخطبة قبل الصلاة و قوله: {وَ ذَرُوا الْبَيْعَ} أمر بتركه، و المراد به على ما يفيد السياق النهي عن الاشتغال بكل عمل يشغل عن صلاة الجمعة سواء كان بيعاً أو غيره و إنما علق النهي بالبيع لكونه من أظهر مصاديق ما يشغل عن الصلاة.

و المعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا أذن لصلاة الجمعة يومها فجدوا في المشي إلى الصلاة و اتركوا البيع و كل ما يشغلكم عنها.

و قوله: **{ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}** حث و تحريض لهم لما أمر به من الصلاة و ترك البيع.

قوله تعالى: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}** إلخ، المراد بقضاء الصلاة إقامة صلاة الجمعة، و الانتشار في الأرض التفرق فيها، و ابتغاء فضل الله طلب الرزق نظرا إلى مقابلته ترك البيع في الآية السابقة لكن تقدم أن المراد ترك كل ما يشغل عن صلاة الجمعة، و على هذا فابتغاء فضل الله طلب مطلق عطيته في التفرق لطلب رزقه بالبيع و الشرى، و طلب ثوابه بعبادة مريض و السعي في حاجة مسلم و زيارة أخ في الله، و حضور مجلس علم و نحو ذلك.

و قوله: **{فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ}** أمر واقع بعد الحظر فيفيد الجواز و الإباحة دون الوجوب و كذا قوله: **{وَ ابْتَغُوا}**، **{وَ أذْكُرُوا}**.

و قوله: **{وَ أذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظي فيشمل ذكره تعالى قلبا بالتوجه إليه باطنا، و الفلاح النجاة من كل شقاء، و هو في المورد بالنظر إلى ما تقدم من حديث التزكية و التعليم و ما في الآية التالية من التوبيخ و العتاب الشديد، الزكاة و العلم و ذلك أن كثرة الذكر يفيد رسوخ المعنى المذكور في النفس و انتقاشه في الذهن فتنتقع به منابت الغفلة و يورث التقوى الديني الذي هو مظنة الفلاح قال تعالى: **{وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** آل عمران: ٢٠٠.

قوله تعالى: **{وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَ تَرَكُوكَ قَائِمًا}** إلخ، الانفضاض - على ما ذكره الراغب - استعارة عن الانفضاض بمعنى انكسار الشيء و تفرق بعضه من بعض.

و قد اتفقت روايات الشيعة و أهل السنة على أنه ورد المدينة غير معها تجارة و ذلك يوم الجمعة و النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قائم يخطب فضربوا بالطبل و الدف لإعلام الناس فانفض أهل المسجد إليهم و تركوا النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قائما يخطب فنزلت الآية. فالمراد باللغو استعمال المعازف و آلات الطرب ليجتمع الناس للتجارة، و ضمير **{إِلَيْهَا}** راجع إلى التجارة لأنها كانت المقصودة في نفسها و اللغو مقصود لأجلها، و قيل: الضمير لأحدهما كأنه قيل: انفضوا

إليه وانفضوا إليها و ذلك أن كلا منهما سبب لانفضاض الناس إليه و تجمعهم عليه، و لذا ردد بينهما و قال: **{تِجَارَةٌ أَوْ لَهْوٌ}** و لم يقل: تجارة و لهوا و الضمير يصلح للرجوع إلى كل منهما لأن اللهو في الأصل مصدر يجوز فيه الوجهان التذكير و التأنيث.

و لذا أيضا عد **{مَا عِنْدَ اللَّهِ}** خيرا من كل منهما بحياله فقال: **{مِنَ اللَّهِ وَ مِنَ التِّجَارَةِ}** و لم يقل: من اللهو و التجارة.

و قوله: **{قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِهِ وَ مِنَ التِّجَارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}** أمر للنبي أن ينبههم على خطئهم فيما فعلوا و ما أفضعه و المراد بما عند الله الثواب الذي يستعبه سماع الخطبة و الموعظة.

و المعنى قل لهم: ما عند الله من الثواب خير من اللهو و من التجارة لأن ثوابه تعالى خير حقيقي دائم غير منقطع، و ما في اللهو و التجارة من الخير أمر خيالي زائل باطل و ربما استتبع سخطه تعالى كما في اللهو.

و قيل: خير مستعمل في الآية مجردا عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى: **{أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ}** يوسف: ٣٩، و هو شائع في الاستعمال.

و في الآية أعني قوله: **{وَ إِذَا رَأَوْا}** التفات من الخطاب إلى الغيبة، و النكتة فيه تأكيد ما يفيد السياق من العتاب و استهجان الفعل بالإعراض عن تشریفهم بالخطاب و تركهم في مقام الغيبة لا يواجههم بهم بوجهه الكريم.

و يلوح إلى هذا الإعراض قوله: **{قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ}** حيث لم يشر إلى من يقول له، و لم يقل: قل لهم كما ذكرهم بضميرهم أولا من غير سبق مرجعه فقال: **{وَ إِذَا رَأَوْا}** و اكتفى بدلالة السياق.

و خير الرازقين من أسمائه تعالى الحسنى كالرزاق و قد تقدم الكلام في معنى الرزق فيما تقدم.

(بحث روائي)

في الفقيه روي: **أنه كان بالمدينة إذا أذن المؤذن يوم الجمعة نادى مناد: حرم البيع لقول الله عز و جل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ}**.

أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن أبي شيبه و عبد بن حميد و ابن المنذر عن ميمون بن مهران و لفظه كان بالمدينة إذا أذن المؤذن من يوم الجمعة ينادون في الأسواق: حرم البيع حرم البيع.

و تفسير القمي و قوله: **{فَاسْعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ}** قال: الإسراع في المشي، و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية يقال: فاسعوا أي امضوا، و يقال: اسعوا اعملوا لها و هو قص الشارب و نتف الإبط و تقليم الأظفار و الغسل و لبس أنظف الثياب و التطيب للجمعة فهو السعي يقول الله: **{وَمَنْ أَرَادَ آلَ آخِرَةٍ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ}**.

أقول: يريد أن السعي ليس هو الإسراع في المشي فحسب.

و في المجمع، و روى أنس عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قال في قوله: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ}** (الآية) ليس بطلب الدنيا و لكن عيادة مريض و حضور جنازة و زيارة أخ في الله.

أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن جرير عن أنس عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و عن ابن مردويه عن ابن عباس عنه (صلى الله عليه وآله و سلم).

و فيه، و روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: **الصلاة يوم الجمعة و الانتشار يوم السبت.**

أقول: و في هذا المعنى روايات أخر.

و فيه، و روى عمر بن يزيد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **إني لأركب في الحاجة التي كفاها الله ما أركب فيها إلا التماس أن يراني الله أخفي في طلب الحلال أ ما تسمع قول الله عز اسمه: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}؟ أ رأيت لو أن رجلا دخل بيتا و طين عليه بابه ثم قال: رزقي ينزل علي أ كان يكون هذا؟ أما أنه أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم.**

قال: قلت: من هؤلاء؟ قال: رجل يكون عنده المرأة فيدعو عليها فلا يستجاب له لأن عصمتها في يده لو شاء أن يخلي سبيلها، و الرجل يكون له الحق على الرجل فلا يشهد عليه فيجده حقه فيدعو عليه فلا يستجاب له لأنه ترك ما أمر به، و الرجل يكون عنده الشيء فيجلس في بيته و لا ينتشر و لا يطلب و لا يلتمس حتى يأكله ثم يدعو فلا يستجاب له.

و فيه، قال جابر بن عبد الله: أقبل عير و نحن نصلي مع رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فانفض الناس إليها فما بقي غير اثني عشر رجلا أنا فيهم فنزلت الآية **{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا}**.

و عن عوالي اللثالي، روى مقاتل بن سليمان قال: بينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحية الكلبي من الشام بتجارة، وكان إذا قدم لم يبق في المدينة عاتق^١ إلا أسته، وكان يقدم - إذا قدم - بكل ما يحتاج إليه الناس من دقيق وبر وغيره ثم ضرب الطبل ليؤذن الناس بقدمه فيخرج الناس فيبتاعون منه.

فقدم ذات جمعة، وكان قبل أن يسلم، ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يخطب على المنبر فخرج الناس فلم يبق في المسجد إلا اثنا عشر فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **لو لا هؤلاء لسومت عليهم الحجارة من السماء** و أنزل الله الآية في سورة الجمعة.

أقول: والقصة مروية بطرق كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة واختلفت الأخبار في عدد من بقي منهم في المسجد بين سبعة إلى أربعين.

وفيه: **{انْقَضُوا}** أي تفرقوا، وروى عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: **انصرفوا إليها وتركوا قائماً تخطب**

على المنبر.

قال جابر بن سمرة: ما رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يخطب إلا وهو قائم فمن حدثك أنه خطب وهو جالس فكذبه.

أقول: وهو مروى أيضاً في روايات أخرى.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة عن طاووس قال: خطب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قائماً و أبو بكر وعمر وعثمان، وإن أول من جلس على المنبر معاوية بن أبي سفيان.

(٦٣) سورة المنافقون مدنية، وهي إحدى عشرة آية (١١)

[سورة المنافقون (٦٣): الآيات ١ الى ٨]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ

^١ العاتق: الجارية أوائل ما أدركت.

سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٥﴾ وَ
 إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
 عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ ﴿٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ
 اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٧﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ
 لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ
 رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ
 لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾

(بيان)

تصف السورة المنافقين و تسمهم بشدة العداوة و تأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن
 يحذرهم و تعظ المؤمنين أن يتحرزوا من خصائص النفاق فلا يقعوا في مهلكته و لا يجرهم إلى النار،
 و السورة مدنية.

قوله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ
 إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} المنافق اسم فاعل من النفاق و هو في عرف القرآن إظهار الإيمان و إبطان
 الكفر.

و الكذب خلاف الصدق و هو عدم مطابقة الخبر للخارج فهو وصف الخبر كالصدق و ربما اعتبرت مطابقة الخبر و لا مطابقتة بالنسبة إلى اعتقاد المخبر فيكون مطابقتة لاعتقاد المخبر صدقا منه و عدم مطابقتة له كذبا فيقال: فلان كاذب إذا لم يطابق خبره الخارج و فلان كاذب إذا أخبر بما يخالف اعتقاده و يسمى النوع الأول صدقا و كذبا خبريين، و الثاني صدقا و كذبا مخبريين.

فقوله: **{إِذَا جَاءَكَ الْمُنافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}** حكاية لإظهارهم الإيمان بالشهادة على الرسالة فإن في الشهادة على الرسالة إيمانا بما جاء به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) و يتضمن الإيمان بوحدايته تعالى و بالمعاد، و هو الإيمان الكامل.

و قوله: **{وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}** تثبيت منه تعالى لرسالته (صلى الله عليه وآله وسلم)، و إنما أورده مع أن وحي القرآن و مخاطبته (صلى الله عليه وآله وسلم) كان كافيا في تثبيت رسالته، ليكون قرينة مصرحة بأنهم كاذبون من حيث عدم اعتقادهم بما يقولون و إن كان قولهم في نفسه صادقا فهم كاذبون في قولهم كذبا مخبريا لا خبريا فقوله: **{وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}** أريد به الكذب المخبري لا الخبري.

قوله تعالى: **{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}** إلخ، الأيمان جمع يمين بمعنى القسم، و الجنة الترس و المراد بها ما يتقى به من باب الاستعارة، و الصديجيء بمعنى الإعراض و عليه فالمراد إعراضهم أنفسهم عن سبيل الله و هو الدين و بمعنى الصرف و عليه فالمراد صرفهم العامة من الناس عن الدين و هم في وقاية من إيمانهم الكاذبة.

و المعنى: اتخذوا أيمانهم الكاذبة التي يملفون وقاية لأنفسهم فأعرضوا عن سبيل الله و دينه أو فصرفوا العامة من الناس عن دين الله بما يستطيعونه من الصرف بتقليب الأمور و إفساد العزائم.

و قوله: **{إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** تقييح لأعمالهم التي استمروا عليها منذ نافقوا إلى حين نزول السورة.

قوله تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}** الظاهر أن الإشارة بذلك إلى سوء ما عملوا كما قيل، و قيل: الإشارة إلى جميع ما تقدم من كذبهم و استجنانهم بالأيمان الفاجرة و صدهم عن سبيل الله و مساءة أعمالهم.

و المراد بإيمانهم - على ما قيل - إيمانهم بألسنتهم ظاهرا بشهادة أن لا إله إلا الله و أن

محمدًا رسوله ثم كفرهم بخلو باطنهم عن الإيمان كما قال تعالى فيهم: **{وَأِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ}** البقرة: ١٤٠.

ولا يبعد أن يكون فيهم من آمن حقيقة ثم ارتد و كتم ارتداده فلهذا بالمنافقين يترى بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و بالمؤمنين الدوائر كما يظهر من بعض آيات سورة التوبة كقوله: **{فَأَعْقَبَهُمْ نِقَافًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْتَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ}** التوبة: ٧٧، و قد عبر تعالى عن من لم يدخل الإيمان في قلبه منهم بمثل قوله: **{وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ}** التوبة: ٧٤.

فالظاهر أن المراد بقوله: **{آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا}** إظهارهم للشهادتين أعم من أن يكون عن ظهر القلب أو بظاهر من القول ثم كفرهم بإتيان أعمال تستصحب الكفر كالاستهزاء بالدين و رد بعض الأحكام.

و قوله: **{فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}** تفرغ عدم الفقه على طبع القلوب دليل على أن الطبع ختم على القلب يستتبع عدم قبوله لورود كلمة الحق فيه فهو آيس من الإيمان محروم من الحق.

و الطبع على القلب جعله بحيث لا يقبل الحق و لا يتبعه فلا محالة يتبع الهوى كما قال تعالى: **{طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}** سورة محمد: ١٦، فلا يفقه و لا يسمع و لا يعلم كما قال تعالى: **{وَوَطَّيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}** التوبة: ٨٧، و قال: **{وَوَطَّيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}** الأعراف: ١٠٠، و قال: **{وَوَطَّيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** التوبة: ٩٣، و الطبع على أي حال لا يكون منه تعالى إلا مجازة لأنه إضلال و الذي ينسب إليه تعالى من الإضلال إنما هو الإضلال على سبيل المجازة دون الإضلال الابتدائي و قد مر مرارا.

قوله تعالى: **{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ}** إنخ، الظاهر أن الخطاب في **{رَأَيْتَهُمْ}** و **{تَسْمَعُ}** خطاب عام يشمل كل من رآهم و سمع كلامهم لكونهم في أزياء حسنة و بلاغة من الكلام، و ليس خطابا خاصا بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، و المراد أنهم على صباحة من المنظر و تناسب من الأعضاء إذا رآهم الرائي أعجبه أجسامهم، و فصاحة و بلاغة من القول إذا سمع السامع كلامهم مال إلى الإصغاء إلى قولهم لحلاوة ظاهره و حسن نظمه.

و قوله: **{كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ}** ذم لهم بحسب باطنهم و الخشب بضمين جمع خشبة،

والتسنيّد نصب الشيء معتمداً على شيء آخر كحائط ونحوه.

والجملة مسوقة لذمهم وهي متممة لسابقتها، والمراد أن لهم أجساماً حسنة معجبة وقولاً رائعاً إذا حلاوة لكنهم كالخشب المسندة أشباح بلا أرواح لا خير فيها ولا فائدة تعترها لكونهم لا يفقهون.

وقوله: **{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ}** ذم آخر لهم أي إنهم لإبطنهم الكفر وكتمانهم ذلك من المؤمنين يعيشون على خوف ووجل ووحشة يخافون ظهور أمرهم وإطلاع الناس على باطنهم ويظنون أن كل صيحة سمعوها فهي كائنة عليهم وأنهم المقصودون بها.

وقوله: **{هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ}** أي هم كاملون في العداوة بالغون فيها فإن أعدى أعدائك من يعاديك وأنت تحسبه صديقك.

وقوله: **{قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}** دعاء عليهم بالقتل وهو أشد شداًء الدنيا وكان استعمال المقاتلة دون القتل للدلالة على الشدة.

وقيل: المراد به الطرد والإبعاد من الرحمة، وقيل: المراد به الإخبار دون الدعاء، والمعنى: أن شمول اللعن والطردهم مقرر ثابت، وقيل: الكلمة مفيدة للتعجب كما يقال: قاتله الله ما أشعره، والظاهر من السياق ما تقدم من الوجه.

وقوله: **{أَنَّى يُؤْفَكُونَ}** مسوق للتعجب أي كيف يصرفون عن الحق؟ وقيل: هو توبيخ وتقريع وليس باستفهام.

قوله تعالى: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُؤُسَهُمْ}** إلخ، التلوية تفعيل من لوى يلوي لياً بمعنى مال.

والمعنى: وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله - وذلك عند ما ظهر منهم بعض خياناتهم وفسوقهم - أمالوا رؤوسهم إعراضاً واستكباراً ورأهم الرائي يعرضون عن القائل وهم مستكبرون عن إجابة قوله.

قوله تعالى: **{سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}** إلخ، أي يتساوى الاستغفار وعدمه في حقهم وتساوي الشيء وعدمه كناية عن أنه لا يفيد الفائدة المطلوبة منه، فالمعنى: لا يفيدهم استغفارك ولا ينفعهم.

وقوله: **{لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}** دفع دخل كان سائلاً يسأل: لما إذا يتساوى الاستغفار لهم وعدمه؟ فأجيب: لن يغفر الله لهم.

وقوله: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}** تعليل لقوله: **{لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}**، والمعنى: لن يغفر الله لهم لأن مغفرته لهم هداية لهم إلى السعادة والجنة وهم فاسقون خارجون عن زي العبودية لإبطانهم الكفر والطبع على قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين.

قوله تعالى: **{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا}** إلخ، الانفضاض التفرق، والمعنى: المنافقون هم الذين يقولون: لا تنفقوا أموالكم على المؤمنين الفقراء الذين لازموا رسول الله واجتمعوا عنده لنصرته وإنفاذ أمره وإجراء مقاصده حتى يتفرقوا عنه فلا يتحكم علينا.

وقوله: **{وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** جواب عن قولهم: **{لَا تُنْفِقُوا}** إلخ، أي إن الدين دين الله ولا حاجة له إلى إنفاقهم فله خزائن السماوات والأرض ينفق منها ويرزق من يشاء كيف يشاء فلو شاء لأغنى الفقراء من المؤمنين لكنه تعالى يختار ما هو الأصلح فيمتحنهم بالفقر ويتعبدهم بالصبر ليوجرهم أجرا كريما ويهديهم صراطا مستقيما والمنافقون في جهل من ذلك.

وهذا معنى قوله: **{وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ}** أي لا يفقهون وجه الحكمة في ذلك واحتمل أن يكون المعنى أن المنافقين لا يفقهون أن خزائن العالم بيد الله وهو الرازق لا رازق غيره فلو شاء لأغناهم لكنهم يحسبون أن الغنى والفقر بيد الأسباب فلو لم ينفقوا على أولئك الفقراء من المؤمنين لم يجدوا رازقا يرزقهم.

قوله تعالى: **{يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** القائل هو عبد الله بن أبي بن سلول، وكذا قائل الجملة السابقة: لا تنفقوا إلخ، وإنما عبر بصيغة الجمع تشريكا لأصحابه الراضين بقوله معه.

ومراداه بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويريد بهذا القول تهديد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بإخراجه من المدينة بعد المراجعة إليها وقد رد الله عليه وعلى من يشاركه في نفاقه بقوله: **{وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** فقصر العزة في نفسه ورسوله والمؤمنين فلا يبقى لغيرهم إلا الذلة ونفى عن المنافقين العلم فلم يبق لهم إلا الذلة والجهالة.

(بحث روائي)

في الجمع: نزلت الآيات في عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بلغه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

فلما سمع بهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل منهم من قتل و نفل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أبناءهم ونساءهم وأموالهم.

فبينما الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود له فرسه فازدحم جهجاه و سنان الجهني من بني عوف بن خزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين فأعان الغفاري رجل من المهاجرين يقال له: جعال وكان فقيرا فقال عبد الله بن أبي لجعال: إنك لهتاك فقال: وما يمنعني أن أفعل ذلك؟ واشتد لسان جعال على عبد الله. فقال عبد الله: والذي يحلف به لأزرنك ويهتك غير هذا.

و غضب ابن أبي و عنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم حديث السن فقال ابن أبي: قد نافرنا و كاثرونا في بلادنا، و الله ما مثلنا و مثلهم إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك أما و الله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يعني بالأعز نفسه و بالأذل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما جعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم و قاسمتموهم أموالكم أما و الله لو أمسكتم عن جعال و ذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم و لأوشكوا أن يتحولوا من بلادكم و يلحقوا بعشائرتهم و مواليهم.

فقال زيد بن أرقم: أنت و الله الذليل القليل المبعوض في قومك و محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في عز من الرحمن و مودة من المسلمين و الله لا أحبك بعد كلامك هذا فقال عبد الله: اسكت فإنما كنت ألعب.

فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و ذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر فأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالرحيل و أرسل إلى عبد الله فأتاه فقال: ما هذا الذي بلغني عنك؟ فقال عبد الله و الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك قط و إن زيدا

لكاذب، و قال من حضر من الأنصار: يا رسول الله شيخنا و كبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام من غلمان الأنصار عسى أن يكون هذا الغلام وهم في حديثه.

فعدره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و فشت الملامة من الأنصار لزيد.

و لما استقل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسار لقيه أسيد بن الحضير فياه بتحية النبوة ثم قال: يا رسول الله لقد رحمت في ساعة منكورة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **أ و ما بلغك ما قال صاحبكم؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج منها الأذل.** فقال أسيد: فأنت و الله يا رسول الله تخرجه إن شئت. هو و الله الذليل و أنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله ارفق به فو الله لقد جاء الله بك و إن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه و إنه ليرى أنك قد استلبته ملكا.

و بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد قتل أبي فإن كنت لا بد فاعلا فبرني به فأنا أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت انخرج ما كان بها رجل أبر بوالديه مني و إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي أن يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار، **فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): بل ترفق به و تحسن صحبته ما بقي معنا.**

قالوا: و سار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالناس يومهم ذلك حتى أمسى و ليلتهم حتى أصبح و صدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نياما، إنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي خرج من عبد الله بن أبي.

ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فوق البقيع يقال له: بقعاء فهاجت ريح شديدة آذتهم و تخوفوها و ضلت ناقة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و ذلك ليلا فقال: **مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة قيل: من هو؟ قال: رفاعة.** فقال رجل من المنافقين: كيف يزعم أنه يعلم الغيب و لا يعلم مكان ناقته؟ ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي؟ فأتاه جبريل فأخبره بقول المنافق و بمكان الناقة، و أخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك أصحابه و قال: **ما أزعم أنني أعلم الغيب و ما أعلمه و لكن الله تعالى أخبرني بقول المنافق و بمكان ناقتي.** هي في الشعب فإذا هي كما قال فجاءوا بها و آمن ذلك المنافق.

فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد في التابوت أحد بني قينقاع و كان من عظماء اليهود مات ذلك

اليوم.

قال زيد بن أرقم: فلما وافى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة جلست في البيت لما بي من الهم والحياء فنزلت سورة المنافقون في تصديق زيد وتكذيب عبد الله بن أبي. ثم أخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأذن زيد فرفعه عن الرحل ثم قال: **يا غلام صدق فوك، ووعت أذنك، ووعى قلبك، وقد أنزل الله فيما قلت قرآنا.**

و كان عبد الله بن أبي بقرب المدينة فلما أراد أن يدخلها جاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي حتى أناخ على مجامع طرق المدينة فقال: ما لك ويحك؟ فقال: والله لا تدخلها إلا بإذن رسول الله ولتعلمن اليوم من الأعز؟ ومن الأذل؟ فشكا عبد الله ابنه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأرسل إليه أن خل عنه يدخل فقال: أما إذا جاء أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فنعم فدخل فلم يلبث إلا أياما قلائل حتى اشتكى ومات.

فلما نزلت هذه الآيات و بان كذب عبد الله قيل له: نزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يستغفر لك فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أومن فقد آمنت وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد فنزل: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُؤُسَهُمْ}** إلى قوله **{لَا يَعْلَمُونَ}**.

أقول: ما أورده من القصة مأخوذ من روايات مختلفة مروية عن زيد بن أرقم و ابن عباس و عكرمة و محمد بن سيرين و ابن إسحاق و غيرهم دخل حديث بعضهم في بعض.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ}** الآية قال: قال: نزلت في غزوة المريسيع و هي غزوة بني المصطلق في سنة خمس من الهجرة، و كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج إليها فلما رجع منها نزل على بئر و كان الماء قليلا فيها.

و كان أنس بن سيار حليف الأنصار، و كان جهجاه بن سعيد الغفاري أجيرا لعمر بن الخطاب فاجتمعوا على البئر فتعلق دلو سيار بدلو جهجاه فقال سيار: دلوي و قال جهجاه: دلوي، فضرب جهجاه على وجه سيار فسال منه الدم فنادى سيار بالخزرج و نادى جهجاه بقريش و أخذ الناس السلاح و كاد أن تقع الفتنة.

فسمع عبد الله بن أبي النداء فقال: ما هذا؟ فأخبروه بالخبر فغضب غضبا شديدا ثم قال: قد كنت كارها لهذا المسير إني لأذل العرب ما ظننت أني أبقى إلى أن أسمع مثل هذا فلا يكن عندي تغيير.

ثم أقبل على أصحابه فقال: هذا عملكم أنزتموهم منازلكم و واسيتموهم بأموالكم

و وقتيموهم بأنفسكم و أبرزتم نحوركم للقتل فأرمل نساؤكم و أيتم صبيانكم و لو أخرجتموهم لكانوا عيالا على غيركم. ثم قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

و كان في القوم زيد بن أرقم و كان غلاما قد راهق، و كان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) في ظل شجرة في وقت الهجرة و عنده قوم من أصحابه من المهاجرين و الأنصار فجاء زيد فأخبره بما قال عبد الله بن أبي فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **لعلك وهمت يا غلام، قال: لا و الله ما وهمت. قال: فلعلك غضبت عليه؟ قال: لا و الله ما غضبت عليه، قال: فلعله سفه عليك، فقال: لا و الله.**

فقال رسول الله لشقران مولاه: أحدج فأحدج راحلته و ركب و تسمع الناس بذلك فقالوا: ما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) ليرحل في مثل هذا الوقت، فرحل الناس و لحقه سعد بن عبادة فقال: السلام عليك يا رسول الله و رحمة الله و بركاته، فقال: **و عليك السلام، فقال: ما كنت لترحل في مثل هذا الوقت، فقال: أ و ما سمعت قولاً قال صاحبكم؟ قال: و أي صاحب لنا غيرك يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبي زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال: يا رسول الله فإنك و أصحابك الأعز و هو و أصحابه الأذل.**

فسار رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يومه كله لا يكلمه أحد فأقبلت الخزرج على عبد الله بن أبي يعذلونه - فحلف عبد الله أنه لم يقل شيئا من ذلك فقالوا: فقم بنا إلى رسول الله حتى نعتذر إليه فلوى عنقه.

فلما جن الليل سار رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) ليله كله فلم ينزلوا إلا للصلاة فلما كان من الغد نزل رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و نزل أصحابه و قد أمهدهم^١ الأرض من السفر الذي أصابهم فجاء عبد الله بن أبي إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فحلف عبد الله له أنه لم يقل ذلك، و أنه يشهد أن لا إله إلا الله و أنك لرسول الله و إن زيدا قد كذب علي، فقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) منه و أقبلت الخزرج على زيد بن أرقم يشتمونه و يقولون له: كذبت على عبد الله سيدنا.

فلما رحل رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) كان زيد معه يقول: اللهم إنك لتعلم أنني لم أكذب على عبد الله بن أبي فما سار إلا قليلا حتى أخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) ما كان يأخذه من البرحاء^٢

^١ أمهدهم الأرض: أي صارت لهم مهادا فناموا.

^٢ البرحاء: حالة شبه الإغماء كانت تأخذ النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) عند نزول الوحي.

عند نزول الوحي فثقل حتى كادت ناقته أن تبرك من ثقل الوحي فسري عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يسكب العرق عن جبهته ثم أخذ بأذن زيد بن أرقم فرفعه من الرحل ثم قال: **يا غلام صدق قولك ووعى قلبك وأنزل الله فيما قلت قرآنا.**

فلما نزل جمع أصحابه وقرأ عليهم سورة المنافقين: **{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ}** - إلى قوله - **{وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** ففضح الله عبد الله بن أبي.

وفي تفسير القمي أيضا، في رواية أبي الجارود **عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: {كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مُسْنَدَةٌ}** يقول: لا يسمعون ولا يعقلون **{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ}** يعني كل صوت **{هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرَهُمْ فَأَتْلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}**.

فلما أنبأ الله رسوله خبرهم مشى إليهم عشائرهم وقالوا افتضحتم ويلكم فأتوا رسول الله يستغفر لكم فلووا رؤوسهم وزهدوا في الاستغفار، يقول الله: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ}**.

وفي الكافي، بإسناده إلى سماعة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **إن الله تبارك وتعالى فوض إلى المؤمن أموره كلها، ولم يفوض إليه أن يذل نفسه أ لم تر قول الله سبحانه وتعالى ها هنا **{لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}** والمؤمن ينبغي أن يكون عزيزا ولا يكون ذليلا.**

أقول: وروي هذا المعنى بإسناده عن داود الرقي والحسن الأحمسي وبطريق آخر عن سماعة. وفيه بإسناده عن مفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): **لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه. قلت: بما يذل نفسه؟ قال: يدخل فيما يعتذر منه.**

(كلام حول النفاق في صدر الإسلام)

يهتم القرآن بأمر المنافقين اهتماما بالغا ويكر عليهم كرامة عنيفة بذكر مساوي أخلاقهم وأكاذيبهم وخدائهم ودسائسهم والفتن التي أقاموها على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى المسلمين، وقد تكرر ذكرهم في السور القرآنية كسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والعنكبوت والأحزاب والفتح والحديد والحشر والمنافقون والتحريم.

وقد أوعدهم الله في كلامه أشد الوعيد ففي الدنيا بالطبع على قلوبهم وجعل الغشاوة

على سمعهم و على أبصارهم و إذهاب نورهم و تركهم في ظلمات لا يبصرون و في الآخرة يجعلهم في الدرك الأسفل من النار.

و ليس ذلك إلا لشدة المصائب التي أصابت الإسلام و المسلمين من كيدهم و مكرمهم و أنواع دسائسهم فلم ينل المشركون و اليهود و النصارى من دين الله ما نالوه، و ناهيك فيهم قوله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله و سلم) يشير إليهم: **{هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ}** المنافقون: ٤.

و قد ظهر آثار دسائسهم و مكائدهم أوائل ما هاجر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) إلى المدينة فورد ذكرهم في سورة البقرة و قد نزلت - على ما قيل - على رأس ستة أشهر من الهجرة ثم في السور الأخرى النازلة بعد بالإشارة إلى أمور من دسائسهم و فنون من مكائدهم كانسلاهم من الجند الإسلامي يوم أحد و هم ثلثهم تقريبا، و عقدهم الحلف مع اليهود و استنهابهم على المسلمين و بنائهم مسجد الضرار و إشاعتهم حديث الإفك، و إثارتهم الفتنة في قصة السقاية و قصة العقبة إلى غير ذلك مما تشير إليه الآيات حتى بلغ أمرهم في الإفساد و تقليب الأمور على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) إلى حيث هددهم الله بمثل قوله: **{لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِلُوا نَفْتِيلًا}** الأحزاب: ٦١.

و قد استفاضت الأخبار و تكاثرت في أن عبد الله بن أبي بن سلول و أصحابه من المنافقين و هم الذين كانوا يقبلون الأمور على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و يتربصون به الدوائر و كانوا معروفين عند المؤمنين يقربون من ثلث القوم و هم الذين خذلوا المؤمنين يوم أحد فآمازوا منهم و رجعوا إلى المدينة قائلين لو نعلم قتالا لا تبعناكم و هم عبد الله بن أبي و أصحابه.

و من هنا ذكر بعضهم أن حركة النفاق بدأت بدخول الإسلام المدينة و استمرت إلى قرب وفاة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم).

هذا ما ذكره جمع منهم لكن التدبر في حوادث زمن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و الإمعان في الفتن الواقعة بعد الرحلة و الاعتناء بطبيعة الاجتماع الفعالة يقضي عليه بالنظر:

أما أولا: فلا دليل مقنعا على عدم تسرب النفاق في متبعي النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) المؤمنين بمكة قبل الهجرة، و قول القائل: إن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و المسلمين بمكة قبل الهجرة لم يكونوا من القوة و نفوذ الأمر و سعة الطول بحيث يهابهم الناس و يتقوهم أو يرجوا منهم خيرا حتى يظهروا لهم الإيمان ظاهرا و يتقربوا منهم بالإسلام، و هم مضطهدون مفتنون معذبون

بأيدي صناديد قريش و مشركي مكة المعادين لهم المعاندين للحق بخلاف حال النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بالمدينة بعد الهجرة فإنه (صلى الله عليه وآله و سلم) هاجر إليها و قد كسب أنصارا من الأوس و الخزرج و استوثق من أقوياء رجالهم أن يدفعوا عنه كما يدفعون عن أنفسهم و أهلهم، و قد دخل الإسلام في بيوت عامتهم فكان مستظها بهم على العدة القليلة الذين لم يؤمنوا به و بقوا على شركهم و لم يكن يسعهم أن يعلنوا مخالفتهم و يظهروا شركهم فتوقوا الشر بإظهار الإسلام فآمنوا به ظاهرا و هم على كفرهم باطنا فسدوا الدسائس و مكروا ما مكروا.

غير تام، فما القدرة و القوة المخالفة المهيبة و رجاء الخير بالفعل و الاستدرار المعجل علة منحصرة للنفاق حتى يحكم بانتفاء النفاق لانتفائها فكثيرا ما نجد في المجتمعات رجالا يتبعون كل داع و يتجمعون إلى كل ناعق و لا يعبتون بمخالفة القوى المخالفة القاهرة الطاحنة، و يعيشون على خطر مصرين على ذلك رجاء أن يوفقوا يوما لإجراء مرامهم و يتحكموا على الناس باستقلالهم بإدارة رحي المجتمع و العلو في الأرض و قد كان النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) يذكر في دعوته لقومه أن لو آمنوا به و اتبعوه كانوا ملوك الأرض.

فمن الجائز عقلا أن يكون بعض من آمن به يتبعه في ظاهر دينه طمعا في البلوغ بذلك إلى أمنيته و هي التقدم و الرئاسة و الاستعلاء، و الأثر المترتب على هذا النوع من النفاق ليس هو تقلب الأمور و تربص الدوائر على الإسلام و المسلمين و إفساد المجتمع الديني بل تقويته بما أمكن و تفديته بالمال و الجاه لينتظم بذلك الأمور و يتهيأ لاستفادته منه و استدراجه لنفع شخصه. نعم يمكر مثل هذا المنافق بالمخالفة و المضادة فيما إذا لاح من الدين مثلا ما يخالف أمنية تقدمه و تسلطه إرجاعا للأمر إلى سبيل ينتهي إلى غرضه الفاسد.

و أيضا من الممكن أن يكون بعض المسلمين يرتاب في دينه فيرتد و يكتم ارتداده كما مرت الإشارة إليه في قوله تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا}** (الآية)، و كما يظهر من لحن مثل قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ}** المائدة: ٥٤.

و أيضا الذين آمنوا من مشركي مكة يوم الفتح لا يؤمن أكثرهم أن لا يؤمنوا إيمان صدق و إخلاص و من البديهي عند من تدبر في حوادث سني الدعوة أن كفار مكة و ما والاها و خاصة صناديد قريش ما كانوا ليؤمنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) لو لا سواد جنود غشيتهم و بريق

سيوف مسلطة فوق رؤوسهم يوم الفتح و كيف يمكن مع ذلك القضاء بأنه حدث في قلوبهم و الظرف هذا الظرف نور الإيمان و في نفوسهم الإخلاص و اليقين فآمنوا بالله طوعا عن آخرهم و لم يدب فيهم ديب النفاق أصلا.

و أما ثانيا: فلأن استمرار النفاق إلى قرب رحلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و انقطاعه عند ذلك ممنوع نعم انقطع الخبر عن المنافقين بالرحلة و انعقاد الخلافة و انحى أثرهم فلم يظهر منهم ما كان يظهر من الآثار المضادة و المكائد و الدسائس المشؤمة.

فهل كان ذلك لأن المنافقين وفقوا للإسلام و أخلصوا الإيمان عن آخرهم برحلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و تأثرت قلوبهم من موته ما لم يتأثر بحياته؟ أو أنهم صالحوا أولياء الحكومة الإسلامية على ترك المزاحمة بأن يسمح لهم ما فيه أمنيتهم مصالحة سرية بعد الرحلة أو قبلها؟ أو أنه وقع هناك تصالح اتفاقي بينهم و بين المسلمين فوردوا جميعا في مشرعة سواء فارتفع التصاك و التصادم؟

و لعل التدبير الكافي في حوادث آخر عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و الفتن الواقعة بعد رحلته يهدي إلى الحصول على جواب شاف لهذه الأسئلة.

و الذي أوردناه في هذا الفصل إشارة إجمالية إلى سبيل البحث.

[سورة المنافقون (٦٣): الآيات ٩ الى ١١]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

(بيان)

تنبيه للمؤمنين أن يتجنبوا عن بعض الصفات التي تورث النفاق و هو التلهي بالمال و الأولاد و البخل .

قوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ } إنلخ، الإلهاء الإشغال،** و المراد بالهاء الأموال و الأولاد عن ذكر الله إشغالها القلب بالتعلق بها بحيث يوجب الإعراض عن التوجه إلى الله بما أنها زينة الحياة الدنيا، قال تعالى: **{ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } الكهف: ٤٦،** و الاشتغال بها يوجب خلو القلب عن ذكر الله و نسيانه تعالى فلا يبقى له إلا القول من غير عمل و تصديق قلبي و نسيان العبد لربه يستعقب نسيانه تعالى له، قال تعالى: **{ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ } التوبة: ٦٧،** و هو الخسران المبين، قال تعالى في صفة المنافقين: **{ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } البقرة: ١٦.**

و إليه الإشارة بما في ذيل الآية من قوله: **{ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }.**

و الأصل هو نهى المؤمنين عن التلهي بالأموال و الأولاد و تبديله من نهى الأموال و الأولاد عن إلهائهم للتلويح إلى أن من طبعها الإلهاء فلا ينبغي لهم أن يتعلقوا بها فتلهيهم عن ذكر الله سبحانه فهو نهى كئائي أكد من التصريح .

قوله تعالى: **{ وَ أَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ } إنلخ،** أمر بالإنفاق في البر أعم من الإنفاق الواجب كالزكاة و الكفارات أو المندوب، و تقييده بقوله: **{ مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ } للإشعار بأن أمره هذا ليس سؤالاً لما يملكونه دونه، وإنما هو شيء هو معطيه لهم و رزق هو رازقه و ملك هو ملكهم إياه من غير أن يخرج عن ملكه يأمرهم بإنفاق شيء منه فيما يريد فله المنة عليهم في كل حال.**

و قوله: **{ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ } أي فينقطع أمد استطاعته من التصرف في ماله بالإنفاق في سبيل الله.**

و قوله: **{ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ } عطف على قوله: **{ أَنْ يَأْتِيَ } إنلخ،** و تقييد الأجل بالقريب للإشعار بأنه قانع بقليل من التمديد - و هو مقدار ما يسع**

الإِنْفَاقِ مِنَ الْعَمْرِ - لِيَسْهَلَ إِجَابَتُهُ، وَ لِأَنَّ الْأَجَلَ أَيَا مَا كَانَ فَهُوَ قَرِيبٌ، وَ مِنْ كَلَامِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ): كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ.

وَ قَوْلُهُ: **{فَأَصَّدَّقْ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}** نَصَبٌ **{فَأَصَّدَّقْ}** لِكَوْنِهِ فِي جَوَابِ التَّمَنِّيِّ، وَ جَزْمٌ **{أَكُنْ}** لِكَوْنِهِ فِي مَعْنَى جِزَاءِ الشَّرْطِ، وَ التَّقْدِيرُ إِنْ أَتَصَدَّقَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **{وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا}** إِيَّاسَ لَهُمْ مِنْ اسْتِجَابَةِ دَعَاءٍ مِنْ يَسْأَلُ تَأْخِيرَ الْأَجْلِ بَعْدَ حُلُولِهِ وَ الْمَوْتِ بَعْدَ نَزْوِهِ وَ ظُهُورِ آيَاتِ الْآخِرَةِ، وَ قَدْ تَكَرَّرَ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى أَنَّ الْأَجَلَ الْمَسْمُومَ مِنْ مِصَادِيقِ الْقَضَاءِ الْمَحْتَمِّ كَقَوْلِهِ: **{إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَفِيدُونَ}** يُونُسَ: ٤٩.

وَ قَوْلُهُ: **{وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}** حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ **{أَحَدِكُمْ}** أَوْ عَطْفٌ عَلَى أَوَّلِ الْكَلَامِ وَ يَفِيدُ فَائِدَةَ التَّعْلِيلِ، وَ الْمَعْنَى: لَا تَتَلَهَوْا وَ أَنْفَقُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِأَعْمَالِكُمْ بِجَازِيَتِكُمْ بِهَا.

(بَحْثُ رَوَائِي)

فِي الْفَقِيهِ: وَ سَأَلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: **{فَأَصَّدَّقْ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}** قَالَ: **{فَأَصَّدَّقْ}** مِنَ الصَّدَقَةِ، وَ **{أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}** أَمْجٌ.

أَقُولُ: الظَّاهِرُ أَنَّ ذِيْلَ الْحَدِيثِ مِنْ قَبِيلِ الْإِشَارَةِ إِلَى بَعْضِ الْمِصَادِيقِ.

وَ فِي الْمَجْمَعِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ وَ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ وَ أَطَاقَ الْحَجَّ فَلَمْ يَحْجِ إِلَّا سَأَلَ الرَّجْعَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ.

قَالُوا: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ اتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّمَا نَرَى هَذَا الْكَافِرَ يَسْأَلُ الرَّجْعَةَ فَقَالَ: أَنَا أَقْرَأُ بِهِ عَلَيْكُمْ قِرَانًا ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ يَعْنِي قَوْلَهُ: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ}** إِلَى قَوْلِهِ **{مِنَ الصَّالِحِينَ}** قَالَ: الصَّلَاحُ هُنَا الْحَجُّ، وَ رَوَى ذَلِكَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ).

أَقُولُ: وَ رَوَاهُ فِي الدَّرِّ الْمَنْثُورِ، عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَرْبَابِ الْجَوَامِعِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَ فِي تَفْسِيرِ الْقَمِي، بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي قَوْلِ اللَّهِ: **{وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا}** قَالَ: إِنْ عِنْدَ اللَّهِ كِتَابٌ مَوْقُوفَةٌ يَقْدُمُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَ يُؤَخِّرُ مَا يَشَاءُ فَإِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا كُلَّ شَيْءٍ يَكُونُ إِلَى مِثْلِهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ: **{وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا}** إِذَا نَزَلَهُ اللَّهُ وَ كَتَبَهُ كِتَابَ السَّمَاوَاتِ وَ هُوَ الَّذِي لَا يُؤَخِّرُ.

(٦٤) سورة التغابن مدنية و هي ثمانى عشرة آية (١٨)

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ١ الى ١٠]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ② خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③ يَعْلَمُ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ④ أَلَمْ
يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑤ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ
تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
⑥ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَ رَبِّي لَسُبْعُ تُمَّ لَسُنْبُونٌ بِمَا عَمِلْتُمْ وَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرٌ ⑦ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ⑧ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ
لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑨

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٧﴾

(بيان)

السورة شبيهة بسورة الحديد في سياق كسياقها ونظم كمنظما كأنها ملخصة منها و غرضها تحريض المؤمنين و ترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله و رفع ما يهيجس في قلوبهم و يدب في نفوسهم من الأسى و الأسف على المصائب التي تهجم عليهم في تحمل مشاق الإيمان بالله و الجهاد في سبيل الله و الإنفاق فيها بأن ذلك كله بإذن الله.

و الآيات التي أوردناها من صدر السورة تقدمه و تمهيد لبيان الغرض المذكور تبين أن أسماءه تعالى الحسنی و صفاته العليا تقضي بالبعث و رجوع الكل إليه تعالى رجوعا يساق فيه أهل الإيمان و العمل الصالح إلى جنة خالدة، و أهل الكفر و التكذيب إلى نار مؤبدة فهي تمهيد للأمر بطاعة الله و رسوله و الصبر على المصائب و الإنفاق في سبيل الله من غير تأثر من منع مانع و لا خوف من لومة لائم.

و السورة مدنية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: **{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** تقدم الكلام في معنى التسبيح و الملك و الحمد و القدرة، و أن المراد بما في السماوات و الأرض يشمل نفس السماوات و الأرض و من فيها و ما فيها.

و قوله: **{لَهُ الْمُلْكُ}** مطلق يفيد إطلاق الملك و عدم محدوديته بحد و لا تقيده بقيد أو شرط فلا حكم نافذا إلا حكمه، و لا حكم له إلا نافذا على ما أراد.

و كذا قوله: **{وَ لَهُ الْحَمْدُ}** مطلق يفيد رجوع كل حمد من كل حامد - و الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري - إليه تعالى لأن الخلق و الأمر إليه فلا ذات و لا صفة و لا فعل جميلا محمودا إلا منه و إليه.

و كذا قوله: **{وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** بما يدل عليه من عموم متعلق القدرة غير محدودة و لا مقيدة بقيد أو شرط.

و إذ كانت الآيات - كما تقدمت الإشارة إليه - مسوقة لإثبات المعاد كانت الآية كالمقدمة الأولى لإثباته، وتفيد أن الله منزه عن كل نقص و شين في ذاته و صفاته و أفعاله يملك الحكم على كل شيء و التصرف فيه كيفما شاء و أراد، و لا يتصرف إلا جميلا و قدرته تسع كل شيء فله أن يتصرف في خلقه بالإعادة كما تصرف فيهم بالإيذاء الإحداث و الإبقاء فله أن يبعثهم إن تعلقت به إرادته و لا تتعلق إلا بحكمه.

قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** الفاء في **{فَمِنْكُمْ}** تدل على مجرد ترتب الكفر و الإيمان على الخلق فلا دلالة في التفرع على كون الكفر و الإيمان مخلوقين لله تعالى أو غير مخلوقين، وإنما المراد انشعابهم فرقتين: بعضهم كافر و بعضهم مؤمن، و قدم ذكر الكافر لكثرة الكفار و غلبتهم.

و «من» في قوله: **{فَمِنْكُمْ}** و **{فَمِنْكُمْ}** للتبعيض أي فبعضكم كافر و بعضكم مؤمن.

و قد نبه بقوله: **{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** على أن انقسامهم قسمين و تفرقهم فرقتين حق كما ذكر، و هم متميزون عنده لأن الملاك في ذلك أعمالهم ظاهرها و باطنها و الله بما يعملون بصير لا تخفى عليه و لا تشبهه. و تتضمن الآية مقدمة أخرى لإثبات المعاد و تجزئه و هي أن الناس مخلوقون له تعالى متميزون عنده بالكفر و الإيمان و صالح العمل و طالحه.

قوله تعالى: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}** المراد بالحق خلاف الباطل و هو خلقها من غير غاية ثابتة و غرض ثابت كما قال: **{لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخِذْنَا مِنْ لَدُنَّا}** الأنبياء: ١٧، و قال: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** الدخان: ٣٩.

و قوله: **{وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}** المراد بالتصوير إعطاء الصورة و صورة الشيء قوامه و نحو وجوده كما قال: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** التين: ٤، و حسن الصورة تناسب تجهيزاتها بعضها لبعض و المجموع لغاية وجودها، و ليس هو الحسن بمعنى صباحة المنظر و ملاحظته بل الحسن العام الساري في الأشياء كما قال تعالى: **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** الم السجدة: ٧.

و لعل اختصاص حسن صورهم بالذكر للتنبيه على أنها ملائمة للغاية التي هي الرجوع إلى الله فتكون الجملة من جملة المقدمات المسوقة لإثبات المعاد على ما تقدمت الإشارة إليه.

و بهذه الآية تتم المقدمات المنتجة للزوم البعث و رجوع الخلق إليه تعالى فإنه تعالى لما كان ملكا قادرا على الإطلاق له أن يحكم بما شاء و يتصرف كيف أراد و هو منزه عن كل نقص و شين محمود في أفعاله، و كان الناس مختلفين بالكفر و الإيمان و هو بصير بأعمالهم، و كانت الحلقة لغاية من غير لغو و جزاف كان من الواجب أن يبعثوا بعد نشأتهم الدنيا لنشأة أخرى دائمة خالدة فيعيشوا فيها عيشة باقية على ما يقتضيه اختلافهم بالكفر و الإيمان و هو الجزاء الذي يسعد به مؤمنهم و يشقى به كافرهم.

و إلى هذه النتيجة يشير بقوله: **{وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}**.

قوله تعالى: **{يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** دفع شبهة لمنكري المعاد مبنية على الاستبعاد و هي أنه كيف يمكن إعادة الموجودات و هي فانية بائدة و حوادث العالم لا تحصى و الأعمال و الصفات لا تعد، منها ظاهرة علنية و منها باطنة سرية و منها مشهودة و منها مغيبية، فأجيب بأن الله يعلم ما في السماوات و الأرض و يعلم ما تسرون و ما تعلنون.

و قوله: **{وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** قيل: إنه اعتراض تذييلي مقرر لشمول علمه تعالى بما يسرون و ما يعلنون و المعنى: أنه تعالى محيط علما بالمضرات المستكنة في صدور الناس مما لا يفارقها أصلا فكيف يخفى عليه شيء مما تسرونه و ما تعلنونه.

و في قوله: **{وَ اللَّهُ عَلِيمٌ}** إنلخ، وضع الظاهر موضع الضمير و الأصل «و هو عليم» إنلخ و النكتة فيه الإشارة إلى علة الحكم، و ليكون ضابطا يجري مجرى المثل.

قوله تعالى: **{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** و بال الأمر تبعته السيئة و المراد بأمرهم كفرهم و ما تفرع عليه من فسوقهم.

لما كان مقتضى أسمائه الحسنی و صفاته العليا المعدودة في الآيات السابقة وجوب معاد الناس و مصيرهم إلى ربهم للحساب و الجزاء فمن الواجب إعلامهم بما يجب عليهم أن يأتوا به أو يجتنبوا عنه و هو الشرع، و الطريق إلى ذلك الرسالة فمن الواجب إرسال رسول على أساس الإنذار و التبشير بعقاب الآخرة و ثوابها و سخطه تعالى و رضاه.

ساق تعالى الكلام بالإنذار بالإشارة إلى نأ الذين كفروا من قبل و أنهم ذاقوا وبال أمرهم و لهم في الآخرة عذاب أليم ثم انتقل إلى بيان سبب كفرهم و هو تكذيب الرسالة ثم إلى سبب ذلك و هو إنكار البعث و المعاد.

ثم استنتج من ذلك كله وجوب إيمانهم بالله ورسوله والدين الذي أنزله عليه و ختم التمهيد المذكور بالتبشير والإنذار بالإشارة إلى ما هيئ للمؤمنين الصالحين من جنة خالدة ولغيرهم من الكفار المكذبين من نار مؤبدة.

فقوله: **{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ}** الخطاب للمشركين وفيه إشارة إلى قصص الأمم السالفة الهالكة كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، ممن أهلكتهم الله بذنوبهم، وقوله: **{فَدَاوُودَ وَبَالَ أَمْرِهِمْ}** إشارة إلى ما نزل عليهم من عذاب الاستئصال وقوله: **{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** إشارة إلى عذابهم الأخرى.

قوله تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا}** إلخ، بيان لسبب ما ذكر من تعذيبهم بعذاب الاستئصال وعذاب الآخرة، ولذلك جيء بالفصل دون العطف كأنه جواب لسؤال مقدر كان سائلا يسأل فيقول: لم أصابهم ما أصابهم من العذاب؟ فقيل: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ}** إلخ، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من العذاب.

وفي التعبير عن إتيان الرسل ودعوتهم بقوله: **{كَانَتْ تَأْتِيهِمْ}** الدال على الاستمرار، وعن كفرهم وقولهم بقوله: **{فَقَالُوا}** و **{فَكَفَرُوا}** و **{تَوَلَّوْا}** الدال بالمقابلة على المرة دلالة على أنهم قالوا ما قالوا كلمة واحدة قاطعة لا معدل عنها و ثبتوا عليها وهو العناد واللجاج فتكون الآية في معنى قوله تعالى: **{تِلْكَ الْأَقْرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ}** {الأعراف: ١٠١}، وقوله: **{ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ}** (أي بعد نوح) **{رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ}** يونس: ٧٤.

وقوله: **{فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا}** يطلق البشر على الواحد والجمع والمراد به الثاني بدليل قوله: **{يَهْدُونَنَا}** و التنكير للتحقير، والاستفهام للإنكار أي قالوا على سبيل الإنكار: أآحاد من البشر لا فضل لهم علينا يهدوننا؟ وهذا القول منهم مبني على الاستكبار، على أن أكثر هؤلاء الأمم الهالكة كانوا وثنيين وهم منكرون للنبوة وهو أساس تكذيبهم لدعوة الأنبياء، ولذلك فرع تعالى على قولهم: **{أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا}** قوله: **{فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا}** أي بنوا عليه كفرهم وإعراضهم.

وقوله: **{وَاسْتَعْنَى اللَّهُ}** الاستغناء طلب الغنى وهو من الله سبحانه - وهو غني بالذات - إظهار الغنى وذلك أنهم كانوا يرون أن لهم من العلم والقوة والاستطاعة ما يدفع عن جمعهم

الفناء ويضمن لهم البقاء كأنه لا غنى للوجود عنهم كما حكي الله سبحانه عن قائلهم: **{قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا}** الكهف: ٣٥، و قال: **{وَلَيْنِ أَدْفُنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}** حم السجدة: ٥٠.

و مآل هذا الظن بالحقيقة إلى أن الله سبحانه حاجة إليهم وفيهم - وهو الغني بالذات - فإهلاكه تعالى لهم وإفناؤهم إظهار منه لغناه عن وجودهم، و على هذا فالمراد بقوله: **{وَاسْتَغْنَى اللَّهُ}** استئصالهم المدلول عليه بقوله: **{فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ}**.

على أن الإنسان معجب بنفسه بالطبع يرى أن له على الله كرامة كان من الواجب عليه أن يحسن إليه أينما كان كان الله سبحانه حاجة إلى إسعاده و الإحسان إليه كما يشير إليه قوله تعالى: **{وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنِ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى}** حم السجدة: ٥٠، و قوله: **{وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنِ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا}** الكهف: ٣٦.

و مآل هذا الزعم بالحقيقة إلى أن من الواجب على الله سبحانه أن يسعدهم كيفما كان كأن له إليهم حاجة فإذاقتهم لهم وبال أمرهم و تعذيبهم في الآخرة إظهار منه تعالى لغناه عنهم، فالمراد باستغنائه تعالى عنهم مجموع ما أفيد بقوله: **{فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**.

فهذان وجهان في معنى قوله تعالى: **{وَاسْتَغْنَى اللَّهُ}** و الثاني منهما أشمل، و في الكلمة على أي حال من سطوع العظمة و القدرة ما لا يخفى، و هو في معنى قوله: **{ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ}** المؤمنون: ٤٤.

و قيل: المراد و استغنى الله بإقامة البرهان و إتمام الحجّة عليهم عن الزيادة على ذلك بإرشادهم و هدايتهم إلى الإيمان.

و قيل: المراد و استغنى الله عن طاعتهم و عبادتهم أزلا و أبدا لأنه غني بالذات، و الوجهان كما ترى. و قوله: **{وَإِلَّا اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}** في محل التعليل لمضمون الآية، و المعنى: و الله غني في ذاته محمود فيما فعل، فما فعل بهم من إذاقتهم وبال أمرهم و تعذيبهم بعذاب أليم على كفرهم و توليهم من غناه و عدله لأنه مقتضى عملهم المردود إليهم.

قوله تعالى: **{زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ}** ذكر ركن آخر من أركان كفر الوثنيين وهو إنكارهم الدين السماوي بإنكار المعاد إذ لا يبقى مع انتفاء المعاد أثر للدين المبني على الأمر والنهي والحساب والجزاء ويصلح تعليلاً لإنكار الرسالة إذ لا معنى حينئذ للتبليغ والوعيد.

والمراد بالذين كفروا عامة الوثنيين ومنهم من عاصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) منهم كأهل مكة وما والاها، وقيل: المراد أهل مكة خاصة.

وقوله: **{قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ}** أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يجيب عن زعمهم أن لن يبعثوا، بإثبات ما نفوه بما في الكلام من أصناف التأكيد بالقسم واللام والنون.

و **{ثُمَّ}** في **{ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ}** للتراخي بحسب رتبة الكلام، وفي الجملة إشارة إلى غاية البعث وهو الحساب و قوله: **{وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ}** أي ما ذكر من البعث والإنباء بالأعمال يسير عليه تعالى غير عسير، وفيه رد لإحالتهم أمر البعث على الله سبحانه استبعاداً، وقد عبر عنه في موضع آخر من كلامه بمثل قوله: **{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}** الروم: ٢٧.

والدليل عليه ما عده في صدر الآيات من أسمائه تعالى وصفاته من الخلق والملك والعلم وأنه مسبح محمود، ويجمع الجميع أنه الله المستجمع لجميع صفات الكمال.

ويظهر من هنا أن التصريح باسم الجلالة في الجملة أعني قوله: **{وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ}** للإيماء إلى التعليل، والمفاد أن ذلك يسير عليه تعالى لأنه الله، والكلام حجة برهانية لا دعوى مجردة.

وذكروا أن الآية الثالثة الآيات التي أمر الله نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقسم بربه على وقوع المعاد وهي ثلاث: إحداها قوله: **{وَإِسْتَنْبِئُونَا بِحَقِّ حَقِّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي}** يونس: ٥٣، والثانية قوله: **{وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ}** سبأ: ٣، والثالثة الآية التي نحن فيها.

قوله تعالى: **{فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** تفريع على مضمون الآية السابقة أي إذا كنتم مبعوثين لا محالة منبئين بما عملتم وجب عليكم أن تؤمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزله على رسوله وهو القرآن الذي يهدي بنوره الساطع إلى مستقيم الصراط، ويبين شرائع الدين.

وفي قوله: **{وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا}** التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير ولعل النكتة فيه تتمم الحجة بالسلوك من طريق الشهادة وهي أقطع للعدر فكم فرق بين قولنا: والنور الذي أنزل وهو إخبار، وقوله: **{وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا}** ففيه شهادة منه تعالى على أن القرآن كتاب سماوي نازل من عنده تعالى، والشهادة أكد من الإخبار المجرد.

لا يقال: ما ذا ينفع ذلك وهم ينكرون كون القرآن كلامه تعالى النازل من عنده ولو صدقوا ذلك كفاهم ما مر من الحجة على المعاد وأغنى عن التمسك بذيل الالتفات المذكور.

لأنه يقال: كفى في إبطال إنكارهم كونه كلام الله ما في القرآن من آيات التحدي المثبتة لكونه كلام الله، والشهادة على أي حال أكد وأقوى من الإخبار وإن كان مدللاً.

وقوله: **{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** تذكرة بعلمه تعالى بدقائق أعمالهم ليتأكد به الأمر في قوله: **{فَأْمِنُوا}** والمعنى: آمنوا وجدوا في إيمانكم فإنه عليم بدقائق أعمالكم لا يغفل عن شيء منها وهو مجازيكم بها لا محالة.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ}** إِنْخ، **{يَوْمَ}** ظرف لقوله السابق: **{لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤَنَّ}** إِنْخ، والمراد بيوم الجمع يوم القيامة الذي يجمع فيه الناس لفصل القضاء بينهم قال تعالى: **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا}** الكهف: ٩٩، وقد تكرر في القرآن الكريم حديث الجمع ليوم القيامة، ويفسره أمثال قوله تعالى: **{إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}** الجاثية: ١٧، وقوله: **{فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}** البقرة: ١١٣، وقوله: **{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}** السجدة: ٢٥، فالآيات تشير إلى أن جمعهم للقضاء بينهم.

وقوله: **{ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ}** قال الراغب: الغبن أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء. قال: ويوم التغابن يوم القيامة لظهور الغبن في المعاملة المشار إليها بقوله: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ}** وبقوله: **{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْآيَةَ}**، وبقوله: **{الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا}** فعلوا أنهم غبنوا فيما تركوا من المبايعة وفيما تعاطوه من ذلك جميعاً.

وسئل بعضهم عن يوم التغابن فقال: تبدو الأشياء لهم بخلاف مقاديرهم في الدنيا. انتهى موضع الحاجة.

وما ذكره أولاً مبني على تفسير التغابن بسريان المغبونية بين الكفار بأخذهم لمعاملة

خاسرة و تركهم معاملة رابحة، و هو معنى حسن غير أنه لا يلائم معنى باب التفاعل الظاهر في فعل البعض في البعض.

و ما نقله عن بعضهم وجه ثان لا يخلو من دقة، و يؤيده مثل قوله تعالى: **{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}** الم السجدة: ١٧، و قوله: **{لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}** ق: ٣٥، و قوله: **{وَبَدَأَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ}** الزمر: ٤٧.

و مقتضى هذا الوجه عموم التغابن لجميع أهل الجمع من مؤمن و كافر أما المؤمن فلها أنه لم يعمل لآخرته أكثر مما عمل، و أما الكافر فلأنه لم يعمل أصلاً، و الوجه المشترك بينهما أنهما لم يقدرنا اليوم حق قدره. و يرد على هذا الوجه ما يرد على سابقه.

و هناك وجه ثالث و هو أن يعتبر التغابن بين أهل الضلال متبوعهم و تابعيهم فالتبوعون و هم المستكبرون يغبنون تابعيهم و هم الضعفاء حيث يأمرهم بأخذ الدنيا و ترك الآخرة فيضلون، و التابعون يغبنون المتبوعين حيث يعينونهم في استكبارهم باتباعهم فيضلون، فكل من الفريقين غابن لغيره و مغبون من غيره.

و هناك وجه رابع وردت به الرواية و هو أن لكل عبد منزلاً في الجنة لو أطاع الله لدخله، و منزلاً في النار لو عصى الله لدخله و يوم القيامة يعطى منازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، و يعطى منازل أهل الجنة في النار لأهل النار فيكون أهل الجنة و هم المؤمنون غابنين لأهل النار و هم الكفار و الكفار هم المغبونون.

و قال بعض المفسرين بعد إيراد هذا الوجه: و قد فسر التغابن قوله ذيلًا: **{وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ}** - إلى قوله - **{وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** انتهى. و ليس بظاهر ذاك الظهور.

و قوله: **{وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلُ صَالِحًا}** - إلى قوله - **{وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** تقدم تفسيره مراراً.

(بحث روائي)

في صحيح البخاري، عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً. و ما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة.**

أقول: وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق العامة والخاصة وقد تقدم بعضها في تفسير أول سورة المؤمنون.

وفي تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **يوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء والأرض، ويوم التناد يوم ينادي أهل النار أهل الجنة {أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} ويوم التغابن يوم يغبن أهل الجنة أهل النار، ويوم الحسرة يوم يؤتى بالموت فيذبح.**

أقول: وفي ذيل آيات صدر السورة المبحوث عنها عدة من الروايات توجه الآيات بشئون الولاية كالذي ورد أن الإيمان والكفر هما الإيمان والكفر بالولاية يوم أخذ الميثاق، وما ورد أن المراد بالبينات الأئمة، وما ورد أن المراد بالنور الإمام وهي جميعاً ناظرة إلى بطن الآيات وليست بمفسرة البتة.

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ١١ الى ١٨]

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

(بيان)

شروع فيما هو الغرض من السورة بعد ما مر من التمهيد و التوطئة و هو الندب إلى الإنفاق في سبيل الله و الصبر على ما يصيبهم من المصائب في خلال المجاهدة في الله سبحانه.

و قدم ذكر المصيبة و الإشارة إلى الصبر عليها ليصفو المقام لما سيندب إليه من الإنفاق و ينقطع العذر.

قوله تعالى: **{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** المصيبة صفة شاع استعمالها في الحوادث السوء التي تصحب الضر، و الإذن الاعلام بالرخصة و عدم المانع و يلازم علم الإذن بما أذن فيه، و ليس هو العلم كما قيل.

فظهر بما تقدم أولاً أن إذنه تعالى في عمل سبب من الأسباب هو التخلية بينه و بين مسببيه برفع الموانع التي تتخلل بينه و بين مسببه فلا تدعه يفعل فيه ما يقتضيه بسببته كالنار تقتضي إحراق القطن مثلاً لو لا الفصل بينهما و الرطوبة فرفع الفصل بينهما و الرطوبة من القطن مع العلم بذلك إذن في عمل النار في القطن بما تقتضيه ذاتها أعني الإحراق.

و قد كان استعمال الإذن في العرف العام مختصاً بما إذا كان المأذون له من العقلاء لمكان أخذ معنى الاعلام في مفهومه فيقال: أذنت لفلان أن يفعل كذا و لا يقال: أذنت للنار أن تحرق، و لا أذنت للفرس أن يعدو، لكن القرآن الكريم يستعمله فيما يعم العقلاء و غيرهم بالتحليل كقوله: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ}** النساء: ٦٤، و قوله: **{وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ}** الأعراف: ٥٨، و لا يعد أن يكون هذا التعميم مبنياً على ما يفيدته القرآن من سريان العلم و الإدراك في الموجودات كما قدمناه في تفسير قوله: **{قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}** حم السجدة: ٢١.

و كيف كان فلا يتم عمل من عامل و لا تأثير من مؤثر إلا بإذن من الله سبحانه فما كان من الأسباب غير تام له موانع لو تحققت منعت من تأثيره فإذنه تعالى له في أن يؤثر رفعه

الموانع، و ما كان منها تاما لا مانع له يمنعه فإذنه له عدم جعله له شيئا من الموانع فتأثيره يصاحب الإذن من غير انفكاك.

و ثانيا: أن المصائب و هي الحوادث التي تصيب الإنسان فتؤثر فيه آثارا سيئة مكروهة إنما تقع بإذن من الله سبحانه كما أن الحسنات كذلك لاستيعاب إذنه تعالى صدور كل أثر من كل مؤثر.

و ثالثا: أن هذا الإذن إذن تكويني غير الإذن التشريعي الذي هو رفع الحظر عن الفعل فإصابة المصيبة تصاحب إذنا من الله في وقوعها وإن كانت من الظلم الممنوع فإن كون الظلم ممنوعا غير مأذون فيه إنما هو من جهة التشريع دون التكوين.

و لذا كانت بعض المصائب غير جائزة الصبر عليها و لا مأذونا في تحملها و يجب على الإنسان أن يقاومها ما استطاع كالمظالم المتعلقة بالأعراض و النفوس.

و من هنا يظهر أن المصائب التي ندب إلى الصبر عندها هي التي لم يؤمر المصاب عندها بالذب و الامتناع عن تحملها كالمصائب العامة الكونية من موت و مرض مما لا شأن لاختيار الإنسان فيها، و أما ما للاختيار فيها دخل كالمظالم المتعلقة نوع تعلق بالاختيار من المظالم المتوجهة إلى الأعراض فلا إنسان أن يتوقاها ما استطاع.

و قوله: **{وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}** كان ظاهر سياق قوله: **{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}** يفيد أن لله سبحانه في الحوادث التي تسوء الإنسان علما و مشية فليست تصيبه مصيبة إلا بعد علمه تعالى و مشيته فليس لسبب من الأسباب الكونية أن يستقل بنفسه فيما يؤثره وإنما هو نظام الخلق لا رب يملكه إلا خالقه فلا تحدث حادثة و لا تقع واقعة إلا بعلم منه و مشية فلم يكن ليخطئه ما أصابه و لم يكن ليصيبه ما أخطأه.

و هذه هي الحقيقة التي بينها بلسان آخر في قوله: **{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}** الحديد: ٢٢.

فالله سبحانه رب العالمين و لازم ربوبيته العامة أنه وحده يملك كل شيء لا مالك بالحقيقة سواه، و النظام الجاري في الوجود مجموع من أنحاء تصرفاته في خلقه فلا يتحرك متحرك و لا يسكن ساكن إلا عن إذن منه، و لا يفعل فاعل و لا يقبل قابل إلا عن علم سابق منه و مشية لا يخطئ علمه و مشيته و لا يرد قضاؤه.

فالإذعان بكونه تعالى هو الله يستعقب اهتداء النفس إلى هذه الحقائق و اطمئنان

القلب و سكونه و عدم اضطرابه و قلقه من جهة تعلقه بالأسباب الظاهرية و إسناده المصائب و النوائب المرة إليها دون الله سبحانه.

و هذا معنى قوله تعالى: **{وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}**.

و قيل: معنى الجملة: و من يؤمن بتوحيد الله و يصبر لأمر الله يهد قلبه للاسترجاع حتى يقول: إنا لله و إنا إليه راجعون، و فيه إدخال الصبر في معنى الإيمان.

و قيل: المعنى: و من يؤمن بالله يهد قلبه إلى ما عليه أن يفعل فإن ابتلي صبر و إن أعطي شكر و إن ظلم غفر، و هذا الوجه قريب مما قدمناه.

و قوله: **{وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** تأكيد للاستثناء المتقدم، و يمكن أن يكون إشارة إلى ما يفيدته قوله: **{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}** الحديد: ٢٢.

قوله تعالى: **{وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}** ظاهر تكرار **{أَطِيعُوا}** دون أن يقال: أطيعوا الله و الرسول اختلاف المراد بالإطاعة، فالمراد بإطاعة الله تعالى الانقياد له فيما شرعه لهم من شرائع الدين و المراد بإطاعة الرسول الانقياد له و امتثال ما يأمر به بحسب ولايته للأمة على ما جعلها الله له.

و قوله: **{فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}** التولي الإعراض، و البلاغ التبليغ، و المعنى: فإن أعرضتم عن إطاعة الله فيما شرع من الدين أو عن إطاعة الرسول فيما أمركم به بما أنه ولي أمركم، فلم يكرهكم رسولنا على الطاعة فإنه لم يؤمر بذلك، وإنما أمر بالتبليغ و قد بلغ.

و من هنا يظهر أن أمر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فيما وراء الأحكام و الشرائع من تبليغ رسالة الله فأمره و نهيه فيما توليه من أمر الله و نهيه، و طاعته فيهما من طاعة الله تعالى كما يدل عليه إطلاق قوله تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ}** النساء: ٦٤. الظاهر في أن طاعة الرسول فيما يأمر و ينهى مطلقا مأذون فيه بإذن الله، و إذنه في طاعته يستلزم علمه و مشيئته لطاعته، و إرادة طاعة الأمر و النهي إرادة لنفس الأمر و النهي فأمر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و نهيه من أمر الله و نهيه و إن كان فيما وراء الأحكام و الشرائع المجعولة له تعالى.

و لما تقدم من رجوع طاعة الرسول إلى طاعة الله التفت من الغيبة إلى الخطاب في قوله:

{رَسُولِنَا} وفيه مع ذلك شيء من شائبة التهديد.

قوله تعالى: **{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** في مقام التعليل لوجوب إطاعة الله على ما تقدم أن طاعة الرسول من طاعة الله، توضيح ذلك أن الطاعة بمعنى الانقياد والائتمار للأمر والانتها عن النهي من شئون العبودية حيث لا أثر لملك المولى رقبة عبده إلا مالكيته لإرادته وعمله فلا يريد إلا ما يريد المولى أن يريده ولا يعمل إلا ما يريد المولى أن يعمل فطاعة نحو من العبودية كما يشير إليه قوله: **{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ}** يس: ٦٠، يعاتبهم بعبادة الشيطان وإنما أطاعوه.

فطاعة المطيع بالنسبة إلى المطاع نوع عبادة له، وإذا لا معبود إلا الله فلا طاعة إلا لله عز اسمه أو من أمر بطاعته فالمعنى: أطيعوا الله سبحانه إذ لا طاعة إلا لمعبود ولا معبود بالحق إلا الله فيجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به بطاعة غيره وعبادته كالشيطان وهوى النفس وهذا معنى كون الجملة في مقام التعليل. وبما مر يظهر وجه تخصيص صفة الألوهية التي تفيد معنى المعبودية، بالذكر دون صفة الربوبية فلم يقل: الله لا رب غيره.

وقوله: **{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** تأكيد لمعنى الجملة السابقة أعني قوله: **{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}**.

توضيحه: أن التوكيل إقامة الإنسان غيره مقام نفسه في إدارة أموره و لازم ذلك قيام إرادته مقام إرادة موكلة وفعله مقام فعله فينطبق بوجهه على الإطاعة فإن المطيع يجعل إرادته وعمله تبعا لإرادة المطاع فتقوم إرادة المطاع مقام إرادته ويعود عمله متعلقا لإرادة المطاع صادرا منها اعتبارا فترجع الإطاعة توكيلا بوجه كما أن التوكيل إطاعة بوجه.

فإطاعة العبد لربه اتباع إرادته لإرادة ربه والإتيان بالفعل على هذا النمط وبعبارة أخرى إيثار إرادته و ما يتعلق بها من العمل على إرادة نفسه و ما يتعلق بها من العمل.

فطاعته تعالى فيما شرع لعباده و ما يتعلق بها نوع تعلق من التوكل عليه، و طاعته واجبة لمن عرفه و آمن به فعلى الله فليتوكل المؤمنون وإياه فليطيعوا، و أما من لم يعرفه و لم يؤمن به فلا تتحقق منه طاعة.

و قد بان بما تقدم أن الإيمان و العمل الصالح نوع من التوكل على الله تعالى.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}** إلخ

{مِنْ} في {أَزْوَاجِكُمْ} للتبعيض، و سياق الخطاب بلفظ **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}** و تعليق العداوة بهم يفيد التعليل أي إنهم يعادونهم بما أنهم مؤمنون، و العداوة من جهة الإيمان لا تتحقق إلا باهتمامهم أن يصرفوهم عن أصل الإيمان أو عن الأعمال الصالحة كالإنفاق في سبيل الله و الهجرة من دار الكفر أو أن يحملوهم على الكفر أو المعاصي الموبقة كالبلخل عن الإنفاق في سبيل الله شفقة على الأولاد و الأزواج و الغصب و اكتساب المال من غير طريق حله.

فالله سبحانه يعد بعض الأولاد و الأزواج عدوا للمؤمنين في إيمانهم حيث يحملونهم على ترك الإيمان بالله أو ترك بعض الأعمال الصالحة أو اقرار بعض الجائر الموبقة و ربما أطاعوهم في بعض ذلك شفقة عليهم و حبا لهم فأمرهم الله بالحدز منهم.

و قوله: **{وَأِنْ تَعَفُّوا وَ تَصَفَّحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** قال الراغب: العفو القصد لتناول الشيء يقال: عفاه و اعتفاه أي قصده متناولا ما عنده - إلى أن قال - و عفوت عنه قصدت إزالة ذنبه صارفا عنه، و قال: الصفح ترك التثريب و هو أبلغ من العفو، و لذلك قال تعالى: **{فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ}** و قد يعفو الإنسان و لا يصفح، و قال: الغفر البأس ما يصونه عن الدنس، و منه قيل: اغفر ثوبك في الوعاء و اصبح ثوبك فإنه أغفر للوسخ، و الغفران و المغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب قال: **{غُفْرَانَكَ رَبَّنَا} و {مَغْفِرَةً مِنْ رَبِّكُمْ} {وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} انتهى.**

ففي قوله: «فاعفوا و اصفحوا و اغفروا» ندب إلى كمال الإغماض عن الأولاد و الأزواج.

إذا ظهر منهم شيء من آثار المعادة المذكورة - مع الحدز من أن يفتتن بهم -.

و في قوله: **{فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** إن كان المراد خصوص مغفرته و رحمته للمخاطبين أن يعفوا و يصفحوا و يغفروا كان وعدا جميلا لهم تجاه عملهم الصالح كما في قوله تعالى: **{وَلْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}** النور: ٢٢.

و إن أريد مغفرته و رحمته العامتان من غير تقييد بمورد الخطاب أفاد أن المغفرة و الرحمة من صفات الله سبحانه فإن عفوا و صفحوا و غفروا فقد اتصفوا بصفات الله و تخلقوا بأخلاقه.

قوله تعالى: **{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}** الفتنة ما يبتلى و يمتحن

به، و كون الأموال و البنين فتنة إنما هو لكونهما زينة الحياة تنجذب إليهما النفس المنجذبا فتفتتن و تلهو بهما عما يههما من أمر آخرته و طاعة ربه، قال تعالى: **{الْمَالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** الكهف: ٥٦.

و الجملة كناية عن النهي عن التلهي بهما و التفريط في جنب الله باللي إليهما ويؤكد قوله: **{وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}**.

قوله تعالى: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** إلخ، أي مبلغ استطاعتكم على ما يفيد السيق فإن السيق سياق الدعوة و الندب إلى السمع و الطاعة و الإنفاق و المجاهدة في الله و الجملة تفريع على قوله: **{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ}** إلخ، فالمعنى: اتقوه مبلغ استطاعتكم و لا تدعوا من الاتقاء شيئا تسعه طاقتكم و جهدكم فتجري الآية مجرى قوله: **{اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}** آل عمران: ١٠٢، و ليست الآية ناظرة إلى نفي التكليف بالاتقاء فيما وراء الاستطاعة و فوق الطاقة كما في قوله: **{وَ لَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ}** البقرة: ٢٨٦.

و قد بان مما مر:

أولا: أن لا منافاة بين الآيتين أعني قوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** و قوله: **{اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}** و أن الاختلاف بينهما كالاختلاف بالكمية و الكيفية، فقوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** أمر باستيعاب جميع الموارد التي تسعها الاستطاعة بالتقوى، و قوله: **{اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}** أمر بالتلبس في كل من موارد التقوى بحق التقوى دون شبحها و صورتها.

و ثانيا: فساد قول بعضهم: إن قوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** ناسخ لقوله: **{اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}** و هو ظاهر.

و قوله: **{وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ}** توضيح و تأكيد لقوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** و السمع الاستجابة و القبول و هو في مقام الالتزام القلبي، و الطاعة الانقياد و هو في مقام العمل، و الإنفاق المراد به بذل المال في سبيل الله.

و **{خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ}** منصوب بمحذوف على ما في الكشاف، و التقدير آمنوا خيرا لأنفسكم، و يحتمل أن يكون **{أَنْفِقُوا}** مضمنا معنى قدموا أو ما يقرب منه بقرينة المقام، و في قوله: **{لِّأَنْفُسِكُمْ}** دون أن يقال: خيرا لكم زيادة تطيب لنفوسهم أي إن الإنفاق خير لكم لا ينتفع به إلا أنفسكم لما فيه من بسط أيديكم و سعة قدرتكم على رفع حوائج مجتمعكم.

و قوله: **{وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** تقدم تفسيره في تفسير سورة الحشر.

قوله تعالى: **{إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ}** المراد بإقراض الله الإنفاق في سبيله سماه الله إقراضا لله و سمي المال المنفق قرضا حسنا حثا و ترغيبا لهم فيه.

و قوله: **{يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ}** إشارة إلى حسن جزائه في الدنيا و الآخرة.

و الشكور و الحليم و عالم الغيب و الشهادة و العزيز و الحكيم خمسة من أسماء الله الحسنى تقدم شرحها، و وجه مناسبتها لما أمر به في الآية من السمع و الطاعة و الإنفاق ظاهر.

(بحث روائي)

في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: **{إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}** و ذلك أن الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به ابنه و امرأته و قالوا: ننشدك الله أن تذهب عنا فنضيع بعدك فمنهم من يطيع أهله فيقيم فخرهم الله أبناءهم و نساءهم و نساءهم عن طاعتهم، و منهم من يمضي و يذرهم و يقول: أما و الله لئن لم تهاجروا معي ثم جمع الله بيني و بينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبدا.

فلما جمع الله بينه و بينهم أمر الله أن يتوق بحسن وصله فقال: **{وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}**.

أقول: و روي هذا المعنى في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن ابن عباس.

و في الدر المنثور: في قوله تعالى: **{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}** عن ابن مردويه عن عبادة بن الصامت و عبد الله بن أبي أوفى عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): **لكل أمة فتنة و فتنة أمتي المال.**

أقول: و روي مثله أيضا عنه عن كعب بن عياض عنه (صلى الله عليه وآله و سلم).

و فيه، أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجه و الحاكم و ابن مردويه عن بريدة قال: **كان النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) يخطب فأقبل الحسن و الحسين عليهما قيصان أحمران يمشيان و يعثران فنزل رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) من المنبر فحملهما واحدا من ذا الشق**

و واحدا من ذا الشق ثم صعد المنبر فقال: صدق الله قال: **{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}**، إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر إن قطعت كلامي و نزلت إليهما.

أقول: و الرواية لا تخلو من شيء و أنى تنال الفتنة من النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و هو سيد الأنبياء المخلصين معصوم مؤيد بروح القدس.

و أفضح لحنا من هذا الحديث ما رواه عن ابن مردويه عن عبد الله بن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) بينما هو يخاطب الناس على المنبر خرج الحسين بن علي فوطأ في ثوب كان عليه فسقط فبكى فنزل رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) عن المنبر.

فلما رأى الناس أسرعوا إلى الحسين يتعاطونه يعطيه بعضهم بعضا حتى وقع في يد رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فقال: قاتل الله الشيطان إن الولد لفتنة، و الذي نفسي بيده ما دريت أني نزلت عن منبري.

و مثله ما عن ابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير قال: سمع النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بكاء حسن أو حسين فقال النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) الولد فتنة لقد قت إليه و ما أعقل.

فألوجه طرح الروايات إلا أن تؤول.

و في تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع حدثنا سفيان بن مرة الهمداني عن عبد خير سألت علي بن أبي طالب عن قوله تعالى: **{اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ}** قال: و الله ما عمل بها غير أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم). نحن ذكرنا الله فلا ننساه و نحن شكرناه فلن نكفره، و نحن أطعناه فلم نعصه.

فلما نزلت هذه قالت الصحابة: لا نطبق ذلك فأنزل الله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}**. (الحديث).

و في تفسير القمي، حدثني أبي عن الفضل بن أبي مرة قال: رأيت أبا عبد الله (عليه السلام) يطوف من أول الليل إلى الصباح و هو يقول: اللهم و قني شح نفسي فقلت: جعلت فداك ما رأيتك تدعو بغير هذا الدعاء فقال: و أي شيء أشد من شح النفس؟ إن الله يقول: **{وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**.

(٦٥) سورة الطلاق مدنية و هي اثنتا عشرة آية (١٢)

[سورة الطلاق (٦٥): الآيات ١ الى ٧]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ
وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ تِلْكَ
حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ①
فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ
أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
مَخْرَجًا ② وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ
جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ③ وَ الْوَالِي يَبْسُتُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ
ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَ الْوَالِي لَمْ يَحِضْنَ وَ أُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ
لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ④ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ
أَجْرًا ⑤ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ
أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ

فَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسْتَزِضِعْ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا

{٧}

(بيان)

تتضمن السورة بيان كليات من أحكام الطلاق تعقبه عظة وإنذار و تبشير، و السورة مدنية بشهادة سياقها.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ}** إلى آخر الآية، بدئ الخطاب بنداء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنه الرسول إلى الأمة وإمامهم فيصالح لخطابه أن يشملهم وأتباعه من أمته وهذا شائع في الاستعمال يخص مقدم القوم وسيدهم بالنداء ويخاطب بما يعمله وقومه فلا موجب لقول بعضهم: إن التقدير يا أيها النبي قل لأمتك: إذا طلقتم النساء إلخ.

وقوله: **{إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ}** أي إذا أردتم أن تطلقوا النساء وأشرفتم على ذلك إذ لا معنى لتحقق الطلاق بعد وقوع الطلاق فهو كقوله: **{إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا}** الآية: المائدة: ٦.

والعدة قعود المرأة عن الزوج حتى تنقضي المدة المرتبة شرعاً، والمراد بتطليقهن لعدتهن تطليقهن لزمان عدتهن بحيث يأخذ زمان العدة من يوم تحقق التطليقة وذلك بأن تكون التطليقة في طهر لا موقعة فيه حتى تنقضي أقرؤها.

وقوله: **{وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ}** أي عدوا الأقرء التي تعدد بها، وهو الاحتفاظ عليها لأن للمرأة فيها حق النفقة والسكنى على زوجها وللزوج فيها حق الرجوع.

وقوله: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ}** ظاهر السياق كون **{لَا تُخْرِجُوهُنَّ}** إلخ، بدلا من **{اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ}** ويفيد ذلك تأكيد النهي في **{لَا تُخْرِجُوهُنَّ}** والمراد

بيوتهن البيوت التي كن يسكنه قبل الطلاق أضيفت إليهن بعناية السكنى.

وقوله: **{وَلَا يَخْرُجَنَّ}** نهي عن خروجهن أنفسهن كما كان سابقه نهيا عن إخراجهن.

وقوله: **{إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}** أي ظاهرة كالزنا والبذاء وإيذاء أهلها كما في الروايات المأثورة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

وقوله: **{وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}** أي الأحكام المذكورة للطلاق حدود الله حد بها أعمالكم و من يتعد ويتجاوز حدود الله بأن لم يراعها و خالفها فقد ظلم نفسه أي عصى ربه.

وقوله: **{لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}** أي أمرا يقضي بتغير الحال و تبدل رأي الزوج في طلاقها بأن يميل إلا الالتيام و يظهر في قلبه محبة حب الرجوع إلى سابق الحال.

قوله تعالى: **{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}** - إلى قوله - **{وَالْيَوْمَ أَلْأَخِرِ}** المراد من بلوغهن أجلهن اقترابهن من آخر زمان العدة و إشرافهن عليه، و المراد بإمساكنهن الرجوع على سبيل الاستعارة، و بمفارقتهن تركهن ليخرجن من العدة و يبين.

و المراد بكون الإمساك بمعروف حسن الصحبة و رعاية ما جعل الله لهن من الحقوق، و بكون فراقهن بمعروف أيضا استرام الحقوق الشرعية فالتقدير بمعروف من الشرع.

وقوله: **{وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ}** أي أشهدوا على الطلاق رجلين منكم صاحبي عدل، و قد مر توضيح معنى العدل في تفسير سورة البقرة.

وقوله: **{وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ}** تقدم توضيحه في تفسير سورة البقرة.

وقوله: **{ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ أَلْأَخِرِ}** أي ما مر من الأمر بتقوى الله و إقامة الشهادة لله و النهي عن تعدي حدود الله أو مجموع ما مر من الأحكام و البعث إلى التقوى و الإخلاص في الشهادة و الزجر عن تعدي حدود الله يوعظ به المؤمنون ليركنوا إلى الحق و ينقلعوا عن الباطل، و فيه إيهام أن في الإعراض عن هذه الأحكام أو تغييرها خروجا من الإيمان.

قوله تعالى: **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}** - إلى قوله - **{قَدَرًا}** أي **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ}**

{مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ} و يتورع عن محارمه و لم يتعد حدوده و احترم

لشرائعه فعمل بها **{يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا}** من مضائق مشكلات الحياة فإن شريعته فطرية يهدي بها الله الإنسان إلى ما تستدعيه فطرته و تقضي به حاجته و تضمن سعاده في الدنيا و الآخرة **{وَيَرْزُقُهُ}** من الزوج و المال و كل ما يفتقر إليه في طيب عيشه و زكاة حياته **{مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}** و لا يتوقع فلا يخف المؤمن أنه إن اتقى الله و احترم حدوده حرم طيب الحياة و ابتلي بضعك المعيشة فإن الرزق مضمون و الله على ما ضمنه قادر.

{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} باعتزله عن نفسه فيما تهواه و تأمر به و إثارة إرادة الله سبحانه على إرادة نفسه و العمل الذي يريده الله على العمل الذي تهواه و تريده نفسه و بعبارة أخرى تدين بدين الله و عمل بأحكامه **{فَهُوَ حَسْبُهُ}** أي كفيه فيما يريده من طيب العيش و يتمناه من السعادة بفطرته لا بواهته الكاذبة.

و ذلك أنه تعالى هو السبب الأعلى الذي تنتهي إليه الأسباب فإذا أراد شيئاً فعله و بلغ ما أراد من غير أن تتغير إرادته فهو القائل: **{مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيْ} ق: ٢٩،** أو يحول بينه و بين ما أراد من غير أن يتغير إرادته فهو القائل: **{وَأَللَّهُ يَحْكُمُ لَمْ يُعْقَبْ لِحُكْمِهِ}** الرعد: ٤١، و أما الأسباب الآخر التي يتشبث بها الإنسان في رفع حوائجه فإنما تملك من السببية ما ملكها الله سبحانه و هو المالك لما ملكها و القادر على ما عليه أقدرها و لها من الفعل مقدار ما أذن الله فيه.

فالله كاف لمن توكل عليه لا غيره **{إِنَّ اللَّهَ بِأَلْعِ أَمْرِهِ}** يبلغ حيث أراد، و هو القائل: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** **{قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}** فما من شيء إلا له قدر مقدور و حد محدود و الله سبحانه لا يحده حد و لا يحيط به شيء و هو المحيط بكل شيء.

هذا هو معنى الآية بالنظر إلى وقوعها في سياق آيات الطلاق و انطباقها على المورد.

و أما بالنظر إلى إطلاقها في نفسها مع الغض عن السياق الذي وقعت فيه فقوله: **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}** مفاده أن من اتقى الله بحقيقة معنى تقواه و لا يتم ذلك إلا بمعرفته تعالى بأسمائه و صفاته ثم تورعه و اتقائه بالاجتناب عن المحرمات و تحرز ترك الواجبات خالصاً لوجهه الكريم، و لازمه أن لا يريد إلا ما يريده الله من فعل أو ترك، و لازمه أن يستهلك إرادته في إرادة الله فلا يصدر عنه فعل إلا عن إرادة من الله.

و لازم ذلك أن يرى نفسه و ما يترتب عليها من سمة أو فعل ملكا طلقا لله سبحانه يتصرف فيها بما يشاء و هو ولاية الله يتولى أمر عبده فلا يبقى له من الملك بحقيقة معناه شيء إلا ما ملكه الله سبحانه و هو المالك لما ملكه و الملك لله عز اسمه.

و عند ذلك ينجي الله من مضيق الوهم و سجن الشرك بالتعلق بالأسباب الظاهرية و **{يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}** أما الرزق المادي فإنه كان يرى ذلك من عطايا سعيه و الأسباب الظاهرية التي كان يطمئن إليها و ما كان يعلم من الأسباب إلا قليلا من كثير كقبس من نار يضيء للإنسان في الليلة الظلماء موضع قدمه و هو غافل عما وراءه، لكن الله سبحانه محيط بالأسباب و هو الناظم لها ينظمها كيف يشاء و يأذن في تأثير ما لا علم له به من خباياها.

و أما الرزق المعنوي الذي هو حقيقة الرزق الذي يعيش به النفس الإنسانية و تبقى فهو مما لم يكن يحتسبه و لا يحتسب طريق و روده عليه.

و بالجملة هو سبحانه يتولى أمره و يخرج من مهبط الهلاك و يرزقه من حيث لا يحتسب، و لا يفقد من كماله و النعم التي كان يرجو نيلها بسعيه شيئا لأنه توكل على الله و فوض إلى ربه ما كان لنفسه **{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}** دون سائر الأسباب الظاهرية التي تخطئ تارة و تصيب أخرى **{إِنَّ اللَّهَ بِأَلْبَاحِ أَمْرِهِ}** لأن الأمور محدودة محاطة له تعالى و **{قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}** فهو غير خارج عن قدره الذي قدره به. و هذا نصيب الصالحين من الأولياء من هذه الآية.

و أما من هو دونهم من المؤمنين المتوسطين من أهل التقوى النازلة درجاتهم من حيث المعرفة و العمل فلهم من ولاية الله ما يلائم حالهم في إخلاص الإيمان و العمل الصالح و قد قال تعالى و أطلق: **{وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}** آل عمران: ٦٨، و قال و أطلق: **{وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}** الجاثية: ١٩.

و تدينهم بدين الحق و هي سنة الحياة و ورودهم و صدورهم في الأمور عن إرادته تعالى هو تقوى الله و التوكل عليه بوضع إرادته تعالى موضع إرادته أنفسهم فينالون من سعادة الحياة بحسبه و يجعل الله لهم مخرجا و يرزقهم من حيث لا يحتسبون، و حسبهم ربهم فهو بالغ أمره و قد جعل لكل شيء قدرا.

و عليهم من حرمان السعادة قدر ما دب من الشرك في إيمانهم و عملهم و قد قال تعالى:

{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} يوسف: ١٠٦، وقال وأطلق: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ

بِهِ} النساء: ٤٨.

وقال: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} طه: ٨٢، أي لمن تاب من الشرك وقال وأطلق:

{وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} المزمل: ٢٠.

فلا يرقى المؤمن إلى درجة من درجات ولاية الله إلا بالتوبة من خفي الشرك الذي دونها.

والآية من غرر الآيات القرآنية وللمفسرين في جملها كلمات متشعبة أضربنا عنها.

قوله تعالى: {وَاللَّائِي يَيْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ إِرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ} المراد بالارتياب

الشك في يأسهن من الحيض أ هو لكبر أم لعارض، فالمعنى: واللأئي يئسن من الحيض من نساءكم وشككم في أمر يأسهن أ هو لبلوغ سنهن سن اليأس أم لعارض فعدتهن ثلاثة أشهر.

وقوله: {وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ} عطف على قوله: {وَاللَّائِي يَيْسَنَ} إلخ، والمعنى: واللأئي لم يحضن و هو

في سن من تحيض فعدتهن ثلاثة أشهر.

وقوله: {وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} أي منتهى زمان عدتهن وضع الحمل.

وقوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} أي يسهل عليه ما يستقبله من الشدائد والمشاق، وقيل:

المراد أنه يسهل عليه أمور الدنيا والآخرة إما بفرج عاجل أو عوض آجل.

قوله تعالى: {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ} أي ما بينه في الآيات المتقدمة حكم الله أنزله إليكم، وفي قوله:

{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} دلالة على أن اتباع الأوامر من التقوى كاجتناب المحرمات

ولعله باعتبار أن امتثال الأمر يلازم اجتناب تركه.

وتكفير السيئات سترها بالمغفرة، والمراد بالسيئات المعاصي الصغيرة فيبقى للتقوى كجائر المعاصي، ويكون

مجموع قوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} في معنى قوله: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ

نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا

كريمًا النساء: ٣١، و من الآيتين يظهر أن المراد بالمحارم في قوله (عليه السلام) في تعريف التقوى: أنها الورع عن محارم الله المعاصي الكبيرة.

ويظهر أيضا أن مخالفة ما أنزله الله من الأمر في الطلاق و العدة من الكبائر إذ التقوى المذكورة في الآية تشمل ما ذكر من أمر الطلاق و العدة لا محالة فهو غير السيئات المكفرة و إلا اختل معنى الآية.

قوله تعالى: **{أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ}** إلى آخر الآية، قال في المفردات: وقوله تعالى: **{مِنْ وَجْدِكُمْ}** أي تمكنكم و قدر غناكم، ويعبر عن الغنى بالوجدان و الجدة، و قد حكي فيه الوجد و الوجد و الوجد بالحرركات الثلاث في الواو، انتهى.

و ضمير **{أَسْكِنُوهُنَّ}** للمطلقات على ما يؤيده السياق، و المعنى: اسكنوا المطلقات من حيث سكنتم من المساكن على قدر تمكنكم و غناكم على الموسر قدره و على المعسر قدره.

و قوله: **{وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ}** أي لا توجهوا إليهن ضررا يشق عليهن تحمله من حيث السكنى و الكسوة و النفقة لتوردوا الضيق و الحرج عليهن.

و قوله: **{وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}** معناه ظاهر.

و قوله: **{فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}** فلهن عليكم أجر الرضاعة و هو من نفقة الولد التي على الوالد.

و قوله: **{وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ}** الأتمار بشيء تشاور القوم فيه بحيث يأمر بعضهم فيه بعضا، و هو خطاب للرجل و المرأة أي تشاوروا في أمر الولد و توافقوا في معروف من العادة بحيث لا يتضرر الرجل بزيادة الأجر الذي ينفقه و لا المرأة بنقيصته و لا الولد بنقص مدة الرضاع إلى غير ذلك.

و قوله: **{وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَسْرُوعٌ لَهُ أُخْرَى}** أي و إن أراد كل منكم من الآخر ما فيه عسر و اختلافتم فمسترضع الولد امرأة أخرى أجنبية غير والدته أي فليسترضع الوالد غير والدة الصبي.

قوله تعالى: **{لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ}** الإنفاق من سعة هو التوسعة في الإنفاق و هو أمر لأهل السعة بأن يوسعوا على نساءهم المطلقات المرزعات أولادهم.

و قوله: **{وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ}** قدر الرزق ضيقه، و الإيتاء

الإعطاء، والمعنى: و من ضاق عليه رزقه و كان فقيرا لا يتمكن من التوسع في الإنفاق فلينفق على قدر ما أعطاه الله من المال أي فلينفق على قدر تمكنه.

و قوله: **{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا}** أي لا يكلف الله نفسا إلا بقدر ما أعطاه من القدرة فالجملة تنفي الحرج من التكليف الإلهية و منها إنفاق المطلقة.

و قوله: **{سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا}** فيه بشرى و تسلية.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت سورة النساء القصوى بعد التي في البقرة بسبع سنين.

أقول: سورة النساء القصوى هي سورة الطلاق.

و فيه، أخرج مالك و الشافعي و عبد الرزاق في المصنف و أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و أبو يعلى و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن ابن عمر أنه طلق امرأته و هي حائض فذكر ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فتغيظ فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) ثم قال: ليراجعها ثم يمسه حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسه فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء، و قرأ النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قَبْلِ عَدَّتِهِنَّ}**.

أقول: قوله: «في قبل عدتهن» قراءة ابن عمر و ما في المصحف **{لِعِدَّتِهِنَّ}**.

و فيه، أخرج ابن المنذر عن ابن سيرين في قوله: **{لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}** قال: في حفصة بنت عمر طلقها النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) واحدة - فنزلت **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ}** - إلى قوله - **{يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}** قال: فراجعها.

و في الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: كل طلاق لا يكون على السنة أو على العدة فليس بشيء. قال زرارة فقلت لأبي جعفر (عليه السلام): فسر لي طلاق السنة و طلاق العدة فقال: أما طلاق السنة فإذا أراد الرجل أن يطلق امرأته فينتظر بها حتى تطمئ و تطهر فإذا خرجت من طمئها طلقها تطليقة من غير جماع

و يشهد شاهدين على ذلك ثم يدعها حتى تطمئط طمئين فتتقضي عدتها بثلاث حيض و قد بانت منه و يكون خاطبا من الخطاب إن شاءت تزوجته و إن شاءت لم تزوجه، و عليه نفقتها و السكنى ما دامت في مدتها، و هما يتوارثان حتى تنقضي العدة.

قال: و أما طلاق العدة الذي قال الله تعالى: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ} فإذا أراد الرجل منكم أن يطلق امرأته طلاق العدة فلينتظر بها حتى تحيض و تخرج من حيضتها ثم يطلقها تطليقة من غير جماع و يشهد شاهدين عدلين و يراجعها من يومه ذلك إن أحب أو بعد ذلك بأيام قبل أن تحيض و يشهد على رجعتها و يواقعها و تكون معه حتى تحيض فإذا حاضت و خرجت من حيضها طلقها تطليقة أخرى من غير جماع و يشهد على ذلك ثم يراجعها أيضا متى شاء قبل أن تحيض و يشهد على رجعتها و يواقعها و تكون معه إلى أن تحيض الحيضة الثالثة فإذا خرجت من حيضتها الثالثة طلقها التطليقة الثالثة بغير جماع و يشهد على ذلك فإذا فعل ذلك فقد بانت منه و لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره.

قيل له: فإن كانت ممن لا تحيض؟ قال: مثل هذه تطلق طلاق السنة.

و في قرب الإسناد، بإسناده عن صفوان قال: سمعت يعني أبا عبد الله: و جاء رجل فسأله فقال: إني طلقت امرأتي ثلاثا في مجلس فقال: ليس بشيء. ثم قال: أما تقرأ كتاب الله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ}.

ثم قال: أ لا تدري {لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} ثم قال: كلما خالف كتاب الله و السنة فهو يرد إلى كتاب الله و السنة.

و في تفسير القمي: في معنى قوله: {لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ} قال: لا يحل لرجل أن يخرج امرأته إذا طلقها و كان له عليها رجعة من بيته و هي لا تحل لها أن تخرج من بيته إلا أن يأتين بفاحشة مبينة.

و معنى الفاحشة أن تزني أو تسرق على الرجل، و من الفاحشة أيضا السلاطة على زوجها فإن فعلت شيئا من ذلك حل له أن يخرجها.

و في الكافي، بإسناده عن وهب بن حفص عن أحدهما (عليهما السلام) في المطلقة تعتد في بيتها، و تظهر له زينتها لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

أقول: وفي هذه المعاني و معاني جمل الآيتين روايات أخرى عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

وفيه، بإسناده عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: من أعطي ثلاثا لم يمنع ثلاثا: من أعطي الدعاء أعطي الإجابة، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة، ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية.

قال: أتولت كتاب الله عز وجل؟ {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} وقال: {لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} وقال: {أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}.

وفيه، بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} قال: في دنياه.

وفي الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سالم بن أبي الجعد قال: نزلت هذه الآية: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} في رجل من أشجع أصابه جهد وبلاء وكان العدو أسروا ابنه فأتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: اتق الله واصبر، فرجع ابن له كان أسيرا قد فكاه الله فأتاهم وقد أصاب أعزنا فجاء فذكر ذلك للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فنزلت فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **هي لك.**

وفيه، أخرج أبو يعلى وأبو نعيم والديلمي من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} قال: من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة.

وفيه، أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر قال: جعل رسول الله يتلو هذه الآية {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} فجعل يرددها حتى نعست. ثم قال: يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتمهم. وفيه، أخرج ابن أبي حاتم والطبراني والخطيب عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): من انقطع إلى الله كفاه الله كل مثونة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها.

وفيه، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رفع الحديث إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليقت الله.

أقول: وقد تقدم في ذيل الكلام على الآيات معنى هذه الروايات.

وفي الكافي، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **عدة المرأة التي لا تحيض و المستحاضة التي لا تطهر ثلاثة أشهر، و عدة التي تحيض ويستقيم حيضها ثلاثة قروء، و سألته عن قول الله عز و جل: {إِنْ إِرْتَبْتُمْ} ما الريبة؟ فقال: ما زاد على شهر فهو ريبة فلتعتد ثلاثة أشهر و لترك الحيض الحديث.**

وفيه، بإسناده عن محمد بن قيس عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **عدة الحامل أن تضع حملها و عليه نفقتها بالمعروف حتى تضع حملها.**

وفيه، بإسناده عن أبي الصباح الكاظمي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **إذا طلق الرجل المرأة و هي حبلى أنفق عليها حتى تضع حملها فإذا وضعته أعطاها أجرها و لا تضارها إلا أن يجد من هي أرخص أجرا منها فإن رضيت بذلك الأجر فهي أحق بابنها حتى تفظمه.**

وفي الفقيه، بإسناده عن ربعي بن عبد الله و الفضيل بن يسار عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله عز و جل: **{وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ} قال: إن أنفق عليها ما يقيم ظهرها مع الكسوة و إلا فرق بينهما.**

أقول: و رواه في الكافي بإسناده عن أبي بصير عنه (عليه السلام).

وفي تفسير القمي في قوله: **{وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} قال: المطلقة الحامل أجلها أن تضع ما في بطنها إن وضعت يوم طلقها زوجها فلها أن تتزوج إذا طهرت، و أن تضع ما في بطنها إلى تسعة أشهر لم تتزوج إلا أن تضع.**

وفي الكافي، بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: سألته عن الحبلى إذا طلقها زوجها فوضعت سقطا تم أو لم يتم أو وضعت مضغة؟ قال: كل شيء وضعته يستبين أنه حمل تم أو لم يتم فقد انقضت عدتها.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن المنذر عن مغيرة قال: قلت للشعبي: **ما أصدق إن علي بن أبي طالب كان يقول: عدة المتوفى عنها زوجها آخر الأجلين.**

قال: بلى فصدق به كأشد ما صدقت بشيء كان علي يقول: **إنما قوله: {وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} في المطلقة.**

وفيه، أخرج عبد الرزاق عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أبا عمرو بن حفص بن المغيرة خرج مع علي إلى اليمن فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت من طلاقها، وأمر لها الحارث بن هشام وعباس بن أبي ربيعة بنفقة فاستقلتها فقالا لها والله ما لك نفقة إلا أن تكوني حاملاً فأنت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فذكرت له أمرها فقال لها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): لا نفقة لك فاستأذنته في الانتقال فأذن لها.

فأرسل إليها مروان يسألها عن ذلك فحدثته فقال مروان: لم أسمع بهذا الحديث إلا من امرأة سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها فقالت فاطمة: بيني وبينكم كتاب الله قال الله عز وجل: **{وَلَا يَخْرُجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}** حتى بلغ **{لَا تَذَرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}** قالت: هذا لمن كانت له مراجعة فأمر يحدث بعد الثلاث؟ فكيف تقولون: لا نفقة إذا لم تكن حاملاً؟ فعلا م تحبسونها؟ ولكن يتركها حتى إذا حاضت و طهرت طلقها تطليقة فإن كانت تحيض فعدتها ثلاث حيض، وإن كانت لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر، وإن كانت حاملاً فعدتها أن تضع حملها وأن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد على ذلك رجلين كما قال الله: **{وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ}** عند الطلاق وعند المراجعة.

فإن راجعها فهي عنده على طلقين وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانت عدتها منه بواحدة وهي أملك لنفسها ثم تزوج من شاءت هو أو غيره.

[سورة الطلاق (٦٥): الآيات ٨ الى ١٢]

{ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

(بيان)

موعظة و إنذار و تبشير تؤكد التوصية بالتمسك بما شرع الله لهم من الأحكام و من جملتها ما شرعه من أحكام الطلاق و العدة و لم يوص القرآن الكريم و لا أكد في التوصية في شيء من الأحكام المشرعة كما وصى و أكد في أحكام النساء، و ليس إلا لأن لها نبأ.

قوله تعالى: **{وَوَكَّايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا}** قال الراغب: العتو النبوء عن الطاعة انتهى. فهو قريب المعنى من الاستكبار، و قال: النكر الدهاء و الأمر الصعب الذي لا يعرف انتهى. و المراد بالنكر في الآية المعنى الثاني، و في الجمع، النكر المنكر الفظيع الذي لم ير مثله انتهى.

و المراد بالقربة أهلها على سبيل التجوز كقوله: **{وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ}** يوسف: ٨٢، و في قوله: **{عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ}** إشارة إلى أنهم كفروا بالله سبحانه بالشرك و كفروا كفرا آخر برسله بتكذيبهم في دعوتهم. على أنهم كفروا بالله تعالى في ترك شرائعه المشرعة و كفروا برسله فيما أمروا به بولايتهم لهم كما مر نظيره في قوله: **{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}** التغابن: ١٢.

و شدة الحساب المناقشة فيه و الاستقصاء لتوفية الأجر كما هو عليه، و المراد به حساب الدنيا غير حساب الآخرة و الدليل على كونه حساب الدنيا قوله تعالى: **{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ}** الشورى: ٣٠، و قوله: **{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى}**

آمَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{
الأعراف: ٩٦.

فما يصيب الإنسان من مصيبة - وهي المصيبة في نظر الدين - هو حاصل محاسبة أعماله و الله يعفو عن كثير منها بالمساحة و المساهلة في المحاسبة غير أنه تعالى يحاسب العاتين المستكبرين عن أمره و رسله حساباً شديداً بالمناقشة و الاستقصاء و التثريب فيعذبهم عذاباً نكراً.

و المعنى: و كم من أهل قرية عتوا و استكبروا عن أمر ربهم و رسله فلم يطيعوا الله و رسله فحاسبناها حساباً شديداً ناقشنا فيه و استقصيناها، و عذبناهم عذاباً صعباً غير معهود و هو عذاب الاستئصال في الدنيا. و ما قيل: إن المراد به عذاب الآخرة، و التعبير بالفعل الماضي للدلالة على تحقق الوقوع غير سديد.

و في قوله: {فَحَاسِبْنَاَهَا حِسَاباً شَدِيداً وَ عَذَّبْنَاَهَا} النفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير، و نكته الدلالة على العظمة.

قوله تعالى: {فَدَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً} هذا جزاؤهم في الأخرى كما كان ما في قوله: {فَحَاسِبْنَاَهَا حِسَاباً شَدِيداً وَ عَذَّبْنَاَهَا عَذَاباً نُكْراً فَدَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا} جزاؤهم في الدنيا.

و الفضل في قوله: {أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ} إلخ، لكونه في مقام دفع الدخل كأنه لما قيل: {وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً}، قيل: ما المراد بخسرهم؟ فقيل: {أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً}.

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً} استنتاج مما تقدم خوطب به المؤمنون ليأخذوا حذرهم و يقوا أنفسهم أن يعتوا عن أمر ربهم و يطغوا عن طاعته فيبتلوا بوبال عتوهم و خسran عاقبتهم كما ابتليت بذلك القرى الهالكة.

و قد وصف المؤمنين بأولى الألباب فقال: {فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا}

استمدادا من عقولهم على ما يريد من التقوى فإنهم لما سمعوا أن قوما عتوا عن أمر ربهم فحوسبوا حسابا شديدا و عذبوا عذابا نكرا و كان عاقبة أمرهم خسران ثم سمعوا أن ذلك تكرر مرة بعد مرة و أباد قوما بعد قوم، قضت عقولهم بأن العتو و الاستكبار عن أمر الله تعرض لشديد حساب الله و منكر عذابه فتنبهم و تبعثهم إلى التقوى و قد أنزل الله إليهم ذكرا يذكرهم به ما لهم و ما عليهم و يهديهم إلى الحق و إلى طريق مستقيم.

قوله تعالى: **{رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ}** إنخ، عطف بيان أو بدل من **{ذِكْرًا}** فالمراد بالذكر الذي أنزله هو الرسول سمي به لأنه وسيلة التذكرة بالله و آياته و سبيل الدعوة إلى دين الحق، و المراد بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله و سلم) على ما يؤيده ظاهر قوله: **{يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ}** إنخ.

و على هذا فالمراد بإنزال الرسول بعثه من عالم الغيب و إظهاره لهم رسولا من عنده بعد ما لم يكونوا يحسبون كما في قوله: **{وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ}** الحديد: ٢٥.

و قد دعي ظهور الإنزال في كونه من السماء بعضهم كصاحب الكشاف إلى أن فسر **{رَسُولًا}** بجبريل و يكون حينئذ معنى تلاوته الآيات عليهم تلاوته على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بما أنه متبوع لقومه و وسيلة الإبلاغ لهم لكن ظاهر قوله: **{يَتْلُوا عَلَيْكُمْ}** تقدم تفسيره في نظائره.

و قوله: **{وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}** وعد جميل و تبشير.

و قوله: **{قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}** وصف لإحسانه تعالى إليهم فيما رزقهم به من الرزق و المراد بالرزق ما رزقهم من الإيمان و العمل الصالح في الدنيا و الجنة في الآخرة، و قيل المراد به الجنة.

قوله تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ}** إنخ، بيان يتأكد به ما تقدم في الآيات من حديث ربوبيته تعالى و بعثة الرسول و إنزاله

الذكر ليطيعوه فيه و أن في تمرده و مخالفته الحساب الشديد و العذاب الأليم و في طاعته الجنة الخالدة كل ذلك لأنه قدير عليم.

فقوله: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}** تقدم بعض الكلام فيه في تفسير سورة حم السجدة.

و قوله: **{وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}** ظاهره المثلية في العدد، و عليه فالمعنى: و خلق من الأرض سبعا كما خلق من السماء سبعا فهل الأرضون السبع سبع كرات من نوع الأرض التي نحن عليها و التي نحن عليها إحداها؟ أو الأرض التي نحن عليها سبع طبقات محيطية بعضها ببعض و الطبقة العليا بسيطها الذي نحن عليه؟ أو المراد الأقاليم السبعة التي قسموا إليها المعمور من سطح الكرة؟ وجوه ذهب إلى كل منها جمع و ربما لاح بالرجوع إلى ما تقدم في تفسير سورة حم السجدة محتمل آخر غيرها.

و ربما قيل: إن المراد بقوله: **{وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}** أنه خلق من الأرض شيئا هو مثل السماوات السبع و هو الإنسان المركب من المادة الأرضية و الروح السماوية التي فيها نماذج سماوية ملكوتية.

و قوله: **{يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ}** الظاهر أن الضمير للسماوات و الأرض جميعا و الأمر هو الأمر الإلهي الذي فسره بقوله: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ}** يس: ٨٣، و هو كلمة الإيجاد، و تنزله هو أخذه بالنزول من مصدر الأمر إلى سماء بعد سماء حتى ينتهي إلى العالم الأرضي فيتكون ما قصد بالأمر من عين أو أثر أو رزق أو موت أو حياة أو عزة أو ذلة أو غير ذلك قال تعالى: **{وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا}** حم السجدة: ١٢، و قال: **{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}** الم السجدة: ٥.

و قيل: المراد بالأمر الأمر التشريعي ينزل ملائكة الوحي به من السماء إلى النبي و هو بالأرض. و هو تخصيص من غير مخصص و ذيل الآية **{لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ} إخ، لا يلائمه.**

و قوله: **{أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}** من الغايات المترتبة على خلقه السماوات السبع و من الأرض مثلهن و تنزله الأمر بينهن، و في ذلك انتساب الخلق و الأمر إليه و اختصاصهما به فإن المتفكر في ذلك لا يرتاب في قدرته على كل

شيء و علمه بكل شيء فليتق مخالفة أمره أولوا الأبواب من المؤمنين فإن سنة هذا القدير العليم تجري على إثابة المطيعين لأوامره، و مجازاة العاتين المستكبرين و كذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى و هي ظالمة إن أخذه أليم شديد.

(بحث روائي)

في تفسير القمي: في قوله تعالى: **{وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ}** قال: أهل القرية.

و في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن الريان بن الصلت عن الرضا (عليه السلام) في حديث المأمون قال: **الذكر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ونحن أهله و ذلك بين في كتاب الله حيث يقول في سورة الطلاق: {فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبَيِّنَاتٍ} قال: فالذكر رسول الله ونحن أهله.**

و في تفسير القمي، حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: **قلت له: أخبرني عن قول الله عز و جل: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ} فقال: هي محبوكة إلى الأرض و شبك بين أصابعه فقلت: كيف تكون محبوكة إلى الأرض و الله يقول: {رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}؟ فقال: سبحان الله أ ليس الله يقول: بغير عمد ترونها؟ قلت: بلى. قال: فثم عمد و لكن لا ترونها.**

قلت: فكيف ذلك جعلني الله فداك؟ قال: فبسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال: هذه أرض الدنيا و السماء الدنيا فوقها قبة، و الأرض الثانية فوق السماء الدنيا و السماء الثانية فوقها قبة، و الأرض الثالثة فوق السماء الثانية و السماء الثالثة فوقها قبة، و الأرض الرابعة فوق السماء الثالثة و السماء الرابعة فوقها قبة، و الأرض الخامسة فوق السماء الرابعة و السماء الخامسة فوقها قبة، و الأرض السادسة فوق السماء السادسة و السماء السادسة فوقها قبة و عرش الرحمن تبارك و تعالى فوق السماء السابعة و هو قول الله عز و جل: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ}.

فأما صاحب الأمر فهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و الوصي بعد رسول الله قائم على وجه الأرض فإمّا يتنزل الأمر إليه من فوق السماء من بين السماوات و الأرضين.

قلت: فما تحتنا إلا أرض واحدة؟ فقال: ما تحتنا إلا أرض واحدة وإن الست لهن فوقنا.

أقول: و عن الطبرسي عن العياشي عن الحسين بن خالد عن الرضا (عليه السلام): مثله. و الحديث نادر في بابه، و هو و خاصة ما في ذيله من تنزل الأمر أقرب إلى الحمل على المعنى منه إلى الحمل على الصورة و الله أعلم.

(٦٦) سورة التحريم مدنية و هي اثنتا عشرة آية (١٢)

[سورة التحريم (٦٦): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَ إِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَ إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَ أَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ

شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا
 الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن
 يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ
 الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَإِغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاعْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ
 الْمَصِيرُ ﴿٩﴾

(بيان)

تبدأ السورة بالإشارة إلى ما جرى بين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين بعض أزواجه من قصة
 التحريم فيعاتب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بتحريمه ما أحل الله له ابتغاء لمرضاة بعض أزواجه و مرجعه
 إلى عتاب تلك البعض و الانتصار له (صلى الله عليه وآله وسلم) كما يدل عليه سياق الآيات.

ثم تخاطب المؤمنين أن يقوا أنفسهم من عذاب الله النار التي وقودها الناس و الحجارة و ليسوا يجزون إلا
 بأعمالهم و لا مخلص منها إلا للنبي و الذين آمنوا معه ثم تخاطب النبي بجهاد الكفار و المنافقين.

و تختتم السورة بضره تعالى مثلا من النساء للكفار و مثلا منهن للمؤمنين.

و ظهور السياق في كون السورة مدنية لا ريب فيه.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** خطاب
 مشوب بعتاب لتحريمه (صلى الله عليه وآله وسلم) لنفسه بعض ما أحل الله له، و لم يصرح تعالى به و لم يبين
 أنه ما هو؟ و ما ذا كان؟ غير أن قوله: **{تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ}** يومئ

أنه كان عملاً من الأعمال المحللة التي يقترفها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا ترتضيه أزواجه فضيقن عليه وآذينه حتى أَرْضاهن بالحلف على أن يتركه ولا يأتي به بعد.

فقوله: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}** علق الخطاب و النداء بوصف النبي دون الرسول لاختصاصه به في نفسه دون غيره حتى يلائم وصف الرسالة.

وقوله: **{لِمَ نُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}** المراد بالتحريم التسبب إلى الحرمة بالحلف على ما تدل عليه الآية التالية فإن ظاهر قوله: **{قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}** إلخ، إنه (صلى الله عليه وآله وسلم) حلف على ذلك و من شأن اليمين أن يوجب عروض الوجوب إن كان الحلف على الفعل و الحرمة إن كان الحلف على الترك، و إذ كان (صلى الله عليه وآله وسلم) حلف على ترك ما أحل الله له فقد حرم ما أحل الله له بالحلف.

و ليس المراد بالتحريم تشريعه (صلى الله عليه وآله وسلم) على نفسه الحرمة فيما شرع الله له فيه الحلية فليس له ذلك.

وقوله: **{تَبَتَّغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ}** أي تطلب بالتحريم رضاهن بدل من **{تُحَرِّمُ}** إلخ، أو حال من فاعله، و الجملة قرينة على أن العتاب بالحقيقة متوجه إليهن، و يؤيده قوله خطاباً لهما: **{إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا}** إلخ، مع قوله فيه: **{وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}**.

قوله تعالى: **{قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}** قال الراغب: كل موضع ورد فرض الله عليه ففي الإيجاب الذي أدخله الله فيه، و ما ورد من فرض الله له فهو في أن لا يحظره على نفسه نحو **{مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ}** و قوله: **{قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}**. انتهى. و التحلة أصلها تحللة على وزن تذكرة و تكرمة مصدر كالتحليل، قال الراغب: و قوله عز و جل: **{قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}** أي بين ما تحل به عقدة أيمانكم من الكفارة.

فالمعنى: قد قدر الله لكم - كأنه قدره نصيباً لهم حيث لم يمنعهم عن حل عقدة اليمين - تحليل أيمانكم بالكفارة و الله وليكم الذي يتولى تدبير أموركم بالتشريع و الهداية و هو العليم الحكيم.

و في الآية دلالة على أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد حلف على الترك، و أمر له بتحلة يمينه.

قوله تعالى: **{وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ}**

عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} السر هو الحديث الذي تكتمه في نفسك وتخفيه، والإسرار إفشاءك الحديث إلى غيرك مع إيصائك بإخفائه، و ضمير {نَبَّأَتْ} لبعض أزواجه، و ضمير {بِهِ} للحديث الذي أسره النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إليها، و ضمير {أَظْهَرَهُ} للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، و ضمير {عَلَيْهِ} لإنبائها به غيرها وإفشاءها السر، و ضمير {عَرَفَ} و {أَعْرَضَ} للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، و ضمير {بَعْضُهُ} للحديث، و الإشارة بقوله: {هَذَا} لإنبائها غيره وإفشاءها السر.

و محصل المعنى: و إذ أفضى النبي إلى بعض أزواجه - و هي حفصة بنت عمر بن الخطاب - حديثا و أوصاها بكتمانه فلما أخبرت به غيرها و أفشت السر خلافا لما أوصاها به، و أعلم الله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنها نبأت به غيرها و أفشت السر عرف و أعلم بعضه و أعرض عن بعض آخر، فلما خبرها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحديث قالت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم): من أنبأك و أخبرك أني نبأت به غيري و أفشيت السر؟ قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): نبأني و خبرني العليم الخبير و هو الله العليم بالسر و العلانية الخبير بالسراير.

قوله تعالى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} أي إن تتوبا إلى الله فقد تحققت منكما ما يستوجب عليكما التوبة و إن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه، إنلخ.

و قد اتفق النقل على أنهما عائشة و حفصة زوجا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

و الصغو الميل و المراد به الميل إلى الباطل و الخروج عن الاستقامة و قد كان ما كان منهما من إيذائه و التظاهر عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) من الكبائر و قد قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ آلِ آخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} الأحزاب: ٥٧، و قال: {وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} التوبة: ٦١.

و التعبير بقلوبكما و إرادة معنى التثنية من الجمع كثير النظير في الاستعمال.

و قوله: {وَ إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ} إنلخ، التظاهر التعاون، و أصل {وَ إِنْ تَظَاهَرَا} و إن تظاهرا، و ضمير الفصل في قوله: {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ} للدلالة على أن لله سبحانه عناية خاصة به (صلى الله عليه وآله وسلم) ينصره و يتولى أمره من غير واسطة من خلقه، و المولى الولي الذي يتولى أمره و ينصره على من يريد به بسوء.

و {جِبْرِيلُ} عطف على لفظ الجلالة، و {صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ} عطف كجبريل، و المراد

بصالح المؤمنين على ما قيل الصلحاء من المؤمنين فصالح المؤمنين واحد أريد به الجمع كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس تريد به الجنس كقولك لا يفعله من صلح منه و مثله قولك: كنت في السامر والحاضر. وفيه قياس المضاف إلى الجمع إلى مدخول اللام فظاهر **{صَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ}** غير ظاهر «الصالح من المؤمنين». ووردت الرواية من طرق أهل السنة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أن المراد بصالح المؤمنين علي (عليه أفضل السلام)، و ستوافيك إن شاء الله. وفي المراد منه أقوال أخر أغمضنا عنها لعدم دليل عليها.

وقوله: **{وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ}** إفراد الخبر للدلالة على أنهم متفقون في نصره متحدون صفا واحداً، وفي جعلهم بعد ذلك أي بعد ولاية الله و جبريل و صالح المؤمنين تعظيم و تفخيم.

و لحن الآيات في إظهار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على من يؤذيه و يريده بسوء و تشديد العتاب على من يتظاهر عليه عجيب، و قد خوطب فيها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أولاً و عوتب على تحريمه ما أحل الله له و أشير عليه بتخلة يمينه و هو إظهار و تأييد و انتصار له و إن كان في صورة العتاب.

ثم التفت من خطابه إلى خطاب المؤمنين في قوله: **{وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ}** يشير إلى القصة و قد أبهما إبهاما و قد كان أيد النبي و أظهره قبل الإشارة إلى القصة و إفشائها محتوما عليها، و فيه مزيد إظهاره. ثم التفت من خطاب المؤمنين إلى خطابهما و قرر أن قلوبهما قد صغت بما فعلتا و لم يأمرهما أن تتوبا من ذنبهما بل بين لهما أنهما واقعتان بين أمرين إما أن تتوبا و إما أن تظاهرا على من الله هو مولاه و جبريل و صالح المؤمنين و الملائكة بعد ذلك أجمع ثم أظهر الرجاء إن طلقهن أن يرزقه الله نساء خيرا منهن. ثم أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يجاهد الكفار و المنافقين و يغلظ عليهم.

و انتهى الكلام إلى ضربه تعالى مثلين مثلا للذين كفروا و مثلا للذين آمنوا.

و قد أدار تعالى الكلام في السورة بعد التعرض لخالهما بقوله: **{إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَ**

إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} إلخ، بين التعرض لحال المؤمنين و التعرض لحال الكفار

فقال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ}** إِنْخ، و **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا}** إِنْخ، و قال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا توبوا}** إِنْخ، و **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ}** إِنْخ، و قال: **{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا}**، **{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا}**.

قوله تعالى: **{عسى ربه إن طلقك أن يبدله أزواجاً خيراً منك}** إلى آخر الآية استغناء إلهي فإنهن وإن كن مشرفات بشرف زوجية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لكن الكرامة عند الله بالتقوى كما قال تعالى: **{فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً}** الأحزاب: ٢٩، انظر إلى مكان **{منكن}** و قال: **{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا وَ مَنْ يَفْعَلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا}** الأحزاب: ٣١.

و لذا ساق الاستغناء بترجي إبداله إن طلقهن أزواجاً خيراً منهن، و علق الخبر بما ذكر لأزواجه الجديدة من صفات الكرامة و هي أن يكن مسلمات مؤمنات قانتات ثابتات عابدات سائحات - أي صائمات - ثيبات و أبكاراً.

فمن تزوج بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و كانت متصفة بمجموع هذه الصفات كانت خيراً منهن و ليس إلا لأجل اختصاص منها بالقنوت و التوبة أو القنوت فقط مع مشاركتها لهن في باقي الصفات، و القنوت هو لزوم الطاعة مع الخضوع.

و يتأيد هذا المعنى بما في مثل مريم الآتي في آخر السورة من ذكر القنوت **{وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}** فالقنوت هو الذي يفقدنه و هو لزوم طاعة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) التي فيها طاعة الله و اتقاؤهن أن يعصين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و يؤذينه.

و بما مر يظهر فساد قول من قال إن وجه خيرية أزواجه اللاحقة من أزواجه السابقة إن طلقهن، هو تزوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بهن و انفصال الأزواج السابقة و زوجيته (صلى الله عليه وآله وسلم) شرف لا يقدر قدره.

و ذلك أنه لو كان ملاك ما ذكر في الآية من الخير هو الزوجية كان كل من تزوج (صلى الله عليه وآله وسلم) من النساء أفضل و أشرف منهن إن طلقهن و إن لم تتلبس بشيء مما ذكر من صفات الكرامة فلم يكن مورد لعد ما عد من الصفات.

قال في الكشاف: فإن قلت: لم أخليت الصفات كلها عن العاطف و وسط بين الثيبات و الأبكار؟ قلت: لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات. انتهى.

قوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ }** إنلخ، **{ قُوا }** أمر من الوقاية بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، و الوقود بفتح الواو اسم لما توقد به النار من حطب ونحوه. و المراد بالنار نار جهنم و كون الناس المعذبين فيها وقودا لها معناه اشتعال الناس فيها بأنفسهم كما في قوله تعالى: **{ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ }** المؤمن: ٧٢. فيناسب تجسم الأعمال كما هو ظاهر الآية التالية **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا }** إنلخ، و فسرت الحجارة بالأصنام.

و قوله: **{ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }** أي وكل عليها لإجراء أنواع العذاب على أهلها ملائكة غلاظ شداد.

و الغلاظ جمع غليظ ضد الرقيق و الأنسب للمقام كون المراد بالغلظة خشونة العمل كما في قوله الآتي: **{ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ }** الآية ٩ من السورة، و الشداد جمع شديد بمعنى القوي في عزمه و فعله.

و قوله: **{ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }** كالمفسر لقوله: **{ غِلَاظٌ شِدَادٌ }** أي هم ملتزمون بما أمرهم الله من أنواع العذاب لا يعصونه بالمخالفة و الرد و يفعلون ما يؤمرون به على ما أمروا به من غير أن يفوت منهم فائت أو ينقص منه شيء لضعف فيهم أو فتور فهم غلاظ شداد.

و بهذا يظهر أن قوله: **{ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ }** ناظر إلى التزامهم بالتكليف، و قوله: **{ وَيَفْعَلُونَ }** إنلخ، ناظر إلى العمل على طبقه فلا تكرر كما قيل.

قال في التفسير الكبير، في ذيل الآية: و فيه إشارة إلى أن الملائكة مكلفون في الآخرة بما أمرهم الله تعالى به و بما ينهاهم عنه، و العصيان منهم مخالفة للأمر و النهي.

و فيه أن الآية و غيرها مما تصف الملائكة بحض الطاعة من غير معصية مطلقة تشمل الدنيا و الآخرة فلا وجه لتخصيص تكليفهم بالآخرة.

ثم إن تكليفهم غير سنخ التكليف المعهود في المجتمع الإنساني بمعنى تعليق المكلف - بالكسر - إرادته بفعل المكلف - بالفتح - تعليقا اعتباريا يستتبع الثواب و العقاب في ظرف الاختيار و إمكان الطاعة و المعصية بل هم خلق من خلق الله لهم ذوات طاهرة نورية لا يريدون إلا ما أراد الله و لا يفعلون إلا ما يؤمرون، قال تعالى: **{ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَّهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ }** الأنبياء، ٢٧ و لذلك لا جزاء لهم

على أعمالهم من ثواب أو عقاب فهم مكلفون بتكليف تكويني غير تشريعي مختلف باختلاف درجاتهم، قال تعالى: **{وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ}** الصفات: ١٦٤، و قال عنهم: **{وَمَا تَنْزِيلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا}** مريم: ٦٤.

والآية الكريمة بعد الآيات السابقة كالتعميم بعد التخصيص فإنه تعالى لما أدب نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ببيان ما لا يذاتهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الأثر السيئ عمم الخطاب نفاطب المؤمنين عامة أن يؤدبوا أنفسهم وأهليهم ويقوهم من النار التي وقودها نفس الداخلين فيها أي إن أعمالهم السيئة تلزمهم وتعود نارا تعذبهم ولا مخلص لهم منها ولا مناص عنها.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** خطاب عام للكفار بعد ما جوزوا بالنار فإنهم يعتذرون عن كفرهم و معاصيهم فيخطبون أن لا تعتذروا اليوم - وهو يوم الجزاء إنما تجزون نفس ما كنتم تعملون أي إن العذاب الذي تعذبون بها هو عملكم السيئ الذي عملتموه وقد برز لكم اليوم حقيقته و إذ عملتموه فقد لزمكم أنكم عملتموه و الواقع لا يتغير و ما حق عليكم من كلمة العذاب لا يعود باطلا فهذا ظاهر الخطاب.

و قيل: المعنى: لا تعتذرو - اليوم - بعد دخول النار فإن الاعتذار توبة و التوبة غير مقبولة بعد دخول النار إنما تجزون ما لزم في مقابل عملكم من الجزاء في الحكمة.

و في اتباع الآيات السابقة بما في هذه الآية من خطاب القهر تهديد ضمني وإشعار بأن معصية الله و رسوله ربما أدى إلى الكفر.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}** إنخ، النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، و يأتي بمعنى الإخلاص نحو نصحت له الود أي أخلصته - على ما ذكره الراغب - فالتوبة النصوح ما يصرف صاحبه عن العود إلى المعصية أو ما يخلص العبد للرجوع عن الذنب فلا يرجع إلى ما تاب منه.

لما أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم و أهليهم من النار أمرهم جميعا ثانيا بالتوبة و فرع عليه رجاء أن يستر الله سيئاتهم و يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

و قوله: **{يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}** قال الراغب: يقال: خزي الرجل يخزي من باب علم يعلم إذا لحقه انكسار إما من نفسه و إما من غيره فالذي يلحقه

من نفسه و هو الحياء المفرط مصدره الخزية، و الذي يلحقه من غيره و يعد ضربا من الاستخفاف مصدره الخزي و الإخزاء من الخزية و الخزي جميعا قال: و على نحو ما قلنا في خزي ذل و هان فإن ذلك متى كان من الإنسان نفسه يقال له الهون بفتح الهاء و الذل و يكون محمودا، و متى كان من غيره يقال له: الهون بضم الهاء و الهوان و الذل و يكون مذموما. انتهى ملخصا.

فقوله: **{يَوْمٌ}** ظرف لما تقدمه، و المعنى: توبوا إلى الله عسى أن يكفر عنكم سيئاتكم و يدخلكم الجنة في يوم لا يخزي و لا يكسر الله النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) يجعلهم محرومين من الكرامة و خلفه ما وعدهم من الوعد الجميل.

و في قوله: **{الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}** اعتبار المعية في الإيمان في الدنيا و لازمه ملازمتهم النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و طاعتهم له من غير مخالفة و مشاقة.

و من المحتمل أن يكون قوله: **{الَّذِينَ آمَنُوا}** مبتدأ خبره **{مَعَهُ}** و قوله: **{نُورُهُمْ يَسْعَى}** إِنْخ، خبرا ثانيا، و قوله: **{يَقُولُونَ}** إِنْخ، خبرا ثالثا فيفيد أنهم لا يفارقون النبي و لا يفارقهم يوم القيامة، و هذا وجه جيد لازمه كون عدم الخزي خاصا بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و سعي النور و سؤال إتمامه خاصا بالذين معه من المؤمنين و تؤيده آية الحديد الآتية. و من الممكن أن يكون **{مَعَهُ}** متعلقا بقوله: **{آمَنُوا}** و قوله: **{نُورُهُمْ يَسْعَى}** إِنْخ، خبرا أولا و ثانيا للوصول.

و قوله: **{يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ}** تقدم بعض الكلام في معناه في قوله تعالى: **{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ}** الحديد: ١٢، و لا يبعد أن يكون ما بين أيديهم من النور نور الإيمان و ما بأيمنهم نور العمل.

و قوله: **{يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورَنَا وَ إِغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** يفيد السياق أن المغفرة المسئلة سبب لتمام النور أو هو ملازم لتمام النور فيفيد أن في نورهم نقصا و النور نور الإيمان و العمل فلهم نقائص بحسب درجات الإيمان أو آثار السيئات التي خلت محلها في صحائفهم من العبودية في العمل فيسألون ربهم أن يتم لهم نورهم و يغفر لهم، و إليه الإشارة بقوله تعالى: **{وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَ الشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ}** الحديد: ١٩.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَا وَأَهُمْ جَهَنَّمَ}**

وَبِئْسَ الْمَصِيرُ المراد بالجهاد بذل الجهد في إصلاح الأمر من جهتهم و دفع شرهم ففي الكفار بيان الحق و تبليغه فإن آمنوا و إلا فالحرب و في المنافقين باستمالتهم و تأليف قلوبهم حتى تطمئن قلوبهم إلى الإيمان و إلا فلم يقاتل النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) منافقا قط.

و قيل: المراد اشدد عليهم في إقامة الحدود لأن أكثر من يصيب الحد في ذلك الزمان المنافقون. و هما كما ترى.

(بحث روائي)

في تفسير القمي، بإسناده عن ابن سيار عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ}** قال: اطلعت عائشة و حفصة على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و هو مع مارية فقال النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): و الله لا أقربها فأمر الله أن يكفر بها عن يمينه.

و في الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سألته عن رجل قال لامرأته: أنت علي حرام فقال: لو كان لي عليه سلطان لأوجعت رأسه و قلت: الله أحلها لك فما حرما عليك؟ أنه لم يزد على أن كذب فزعم أن ما أحل الله له حرام و لا يدخل عليه طلاق و لا كفارة.

فقلت: قول الله عز و جل: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}** فجعل فيه كفارة؟ فقال: إنما حرم عليه جاريته مارية القبطية و حلف أن لا يقربها، و إنما جعل على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) الكفارة في الحلف و لم يجعل عليه في التحريم.

و في الدر المنثور، أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يشرب من شراب عند سودة من العسل فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحا، فدخل على حفصة فقالت: إني أجد منك ريحا فقال: أراه من شراب شربته عند سودة و الله لا أشربه، فأنزل الله: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}** (الآية).

أقول: و الحديث مروى بطرق متشعبة و ألفاظ مختلفة، و في انطباقها على الآيات - و هي ذات سياق واحد - خفاء.

و فيه، أخرج ابن سعد و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كانت عائشة و حفصة متحابتين فذهبت حفصة إلى بيت أبيها تحدث عنده فأرسل النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) إلى جاريتها فطلت معه في بيت حفصة و كان اليوم الذي يأتي فيه عائشة فوجدتهما في بيتها فجعلت تنتظر خروجها و غارت غيرة شديدة فأخرج النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) جاريتها و دخلت حفصة فقالت: قد رأيت من كان عندك و الله لقد سوأتني، فقال النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): و الله لأرضينك و إني مسر إليك سرا فاحفظيه، قالت: ما هو؟ قال: إني أشهدك أن سرיתי هذه علي حرام رضا لك.

فانطلقت حفصة إلى عائشة فأسرت إليها أن أبشري أن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قد حرم عليه فتاته فلما أخبرت بسر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أظهر الله النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) عليه فأنزل الله: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}**.

أقول: انطبق ما في الحديث على الآيات و خاصة قوله: «عرف بعضه و أعرض عن بعض» فيه خفاء.

و فيه، أخرج الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **{وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا}** قال: دخلت حفصة على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) في بيتها و هو يظأ مارية، فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): لا تخبري عائشة حتى أبشرك بشارة فإن أباك يلي الأمر بعد أبي بكر إذا أنا مت.

فذهبت حفصة فأخبرت عائشة فقالت عائشة للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم): من أنباك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير، فقالت عائشة: لا أنظر إليك حتى تحرم مارية فخرمها فأنزل الله **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ}**.

أقول: و الآثار في هذا الباب كثيرة على اختلاف فيها، و في أكثرها أنه (صلى الله عليه وآله و سلم) حرم مارية على نفسه لقول حفصة لا لقول عائشة، و أن التي قالت للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم): **{مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا}** هي حفصة تريد من أخبرك أني أفشيت السر دون عائشة.

و هي مع ذلك لا تزيل إبهام قوله تعالى: **{عَرَفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ}**. نعم فيما رواه ابن مردويه عن علي قال: **ما استقصى كريم قط لأن الله يقول: {عَرَفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ}**، و روي عن أبي حاتم عن مجاهد، و ابن مردويه عن ابن عباس: أن الذي عرف أمر مارية و الذي أعرض عنه قوله: إن أباك و أبها يبيان الناس بعدي مخافة أن يفشوا.

و يتوجه عليه أنه ما وجه الكرم في أن يعرف (صلى الله عليه وآله وسلم) ما قاله من تحريم مارية و يعرض عما أخبرها من ولايتهما مع أن العكس أولى وأقرب.

و قد روي بعده طرق عن عمر بن الخطاب سبب نزول الآيات و لم يذكر ذلك ففي عدة من جوامع الحديث منها البخاري و مسلم و الترمذي عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي اللتين قال الله: **{إِنَّ تَثُوبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا}** حتى حج عمر و حججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل عمر و عدلت معه بالإداوة فتبرز ثم أتى فصبيت على يديه فتوضأ.

فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اللتان قال الله: **{إِنَّ تَثُوبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا}** فقال: وا عجباً لك يا ابن عباس هما عائشة و حفصة ثم أنشأ يحدثني.

فقال: كما معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تنكر من ذلك؟ فوالله إن أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليراجعنه و تهجره إحداهن اليوم إلى الليل. قلت: قد خابت من فعلت ذلك منهن و خسرت.

قال: و كان منزلي بالعوالي و كان لي جار من الأنصار كما تتناوب النزول إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فينزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي و غيره و أنزل يوماً فآتته بمثل ذلك.

قال: و كما نحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا فجاء يوماً فضرب على الباب فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم. فقلت: أ جاءت غسان؟ قال: أعظم من ذلك طلق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نساءه. قلت في نفسي: قد خابت حفصة و خسرت قد كنت أرى ذلك كائناً فلما صلينا الصبح شددت علي ثيابي ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة فإذا هي تبكي فقلت: أ طلقك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قالت: لا أدري هو ذا معتزل في المشربة فانطلقت فأتيت غلاماً أسود فقلت: استأذن لعمر فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرت لك له فلم يقل شيئاً فانطلقت إلى المسجد فإذا حول المسجد نفر يبكون فجلست إليهم.

ثم غلبني ما أجد فانطلقت فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر فدخل ثم خرج فقال: قد ذكرت لك له فلم يقل شيئاً فوليت منطلقاً فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل فقد أذن لك فدخلت فإذا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) متكئ على حصير قد رأيت أثره في جنبه فقلت: يا رسول الله

أطلقت نساءك؟ قال: لا. قلت: الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله و كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نساءهم فغضبت يوما على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت ذلك - فقالت: ما تنكر؟ فوالله إن أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليراجعنه و تهجره إحداهن اليوم إلى الليل فقلت: قد خاب من فعل ذلك منهن، فدخلت على حفصة فقلت: أ تراجع إحداكن رسول الله و تهجره اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. فقلت: قد خابت من فعلت ذلك منكن و خسرت أ تأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فإذا هي قد هلكت فتبسم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

فقلت لحفصة: لا تراجعني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و لا تسأليه شيئا و سليني ما بدا لك و لا يغرنك إن كانت جارتك أو سم منك و أحب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتبسم أخرى.

فقلت: يا رسول الله أستأنس قال: نعم. فرفعت رأسي فما رأيت في البيت إلا أهبة ثلاثة فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس و الروم و هم لا يعبدون الله فاستوى جالسا و قال: **أ و في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طبيباتهم في الحياة الدنيا، و كان قد أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهرا فعاتبه الله في ذلك و جعل له كفارة اليمين.**

أقول: و هذا المعنى مروى عنه مفصلا و مختصرا بطرق مختلفة، و الرواية كما ترى لا تذكر ما أسره النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى بعض أزواجه؟ و ما هو بعض النبي الذي عرفه و ما هو الذي أعرض عنه و له شأن من الشأن.

و هي مع ذلك ظاهرة في أن المراد بالتحريم في الآية تحريم عامة أزواجه و ذلك لا ينطبق عليها و فيها قوله تعالى: **{لِمَ نُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرْصَاتٍ أَزْوَاجِكَ}** مضافا إلى أنه لا تبيين به وجه التخصيص في قوله: **{إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} إِنْ**.

و في تفسير القمي، بإسناده عن أبي بصير قال: **سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَ جَبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ} قال: صالح المؤمنين علي (عليه السلام).**

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس: **سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)**

(سلم)

يقول: {وَصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ} قال: علي بن أبي طالب.

أقول: ذكر صاحب البرهان بعد إيراد رواية أبي بصير السابقة أن محمد بن العباس أورد في هذا المعنى اثنين و خمسين حديثاً من طرق الخاصة و العامة ثم أورد نبذة منها.

و في الكافي، بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: لما نزلت هذه الآية **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا}** جلس رجل من المؤمنين يبكي و قال: أنا عجزت عن نفسي و كلفت أهلي. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك، و تنهاهم عما تنهى عنه نفسك.

و فيه، بإسناده عن سماعة عن أبي بصير في قوله: **{قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا}** قلت: كيف أقيهم؟ قال: تأمرهم بما أمر الله و تنهاهم عما نهى الله فإن أطاعوك كنت قد وقيتهم و إن عصوك كنت قد قضيت ما عليك.

أقول: و رواه بطريق آخر عن ذرعة عن أبي بصير عنه (عليه السلام).

و في الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و الفاريابي و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه و البيهقي في المدخل **عن علي بن أبي طالب في قوله: {قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا}** قال: علموا أنفسكم و أهليكم الخير و أدبوهم.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن زيد بن أسلم قال: تلا رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) هذه الآية **{قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا}** فقالوا: يا رسول الله كيف نقي أهلنا ناراً؟ قال: تأمروهم بما يحبه الله و تنهونهم عما يكره الله.

و في الكافي، بإسناده عن أبي الصباح الكافي قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز و **جل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا}** قال: يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه.

قال محمد بن الفضيل: سألت عنها أبا الحسن (عليه السلام) فقال: يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه، الحديث.

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال معاذ بن جبل: يا رسول الله ما التوبة النصوح؟ قال: أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

أقول: و الروايات في هذا المعنى كثيرة من الفريقين.

و في الكافي، بإسناده عن صالح بن سهل الهمداني قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام) في قوله: {يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} أئمة المؤمنين يوم القيامة يسعون^١ بين أيدي المؤمنين و بأيمانهم حتى ينزلوهم منازل أهل الجنة.

و في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية: من كان له نور يومئذ نجا، و كل مؤمن له نور.

[سورة التحريم (٦٦): الآيات ١٠ الى ١٢]

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَ صَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ أَنْ يَقُولَ بِرَأْسِهَا وَ كَانَتْ مِنَ الْمُحْسِنَاتِ ﴿١٢﴾}

(بيان)

تتضمن الآيات الكريمة مثلين يمثل بهما الله سبحانه حال الكفار و المؤمنين في أن شقاء الكفار و هلاكهم إنما كان بخيانتهم لله و رسوله و كفرهم و لم ينفعهم اتصال بسبب إلى الأنبياء المكرمين، و أن سعادة المؤمنين و فلاحهم إنما كان بإخلاصهم بالإيمان بالله و رسوله و القنوت و حسن الطاعة و لم يضرهم اتصال بأعداء الله بسبب فإنما ملاك الكرامة عند الله التقوى.

^١ يسعون، ظ.

يمثل الحال أولاً: بحال امرأتين كانتا زوجين لنبين كريمين عدهما الله سبحانه عبدین صالحین - و یا له من کرامة - نجاتهما فأمرتا بدخول النار مع الداخلین فلم ینفعهما زوجیتها للنبین الکریمین شیئاً فهلکتا فی ضمن الهالکین من غیر أدنی تميز و کرامة.

و ثانياً: بحال امرأتين إحداهما امرأة فرعون الذي كانت منزلته في الكفر بالله أن نادى في الناس فقال: أنا ربکم الأعلى، فأمنت بالله وأخلصت الإیمان فأنجاها الله وأدخلها الجنة ولم يضرها زوجية مثل فرعون شيئاً، و ثانيتهما مريم ابنة عمران الصديقة القانتة أكرمها الله بكرامته و نفخ فيها من روحه.

و في التمثيل تعريض ظاهر شديد لزوجي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث خانتاه في إفشاء سره و تظاهرتا عليه و آذتاه بذلك، و خاصة من حيث التعبير بلفظ الكفر و الخيانة و ذكر الأمر بدخول النار.

قوله تعالى: **{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا}** إلخ، قال الراغب: الخيانة و النفاق واحد إلا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد و الأمانة، و النفاق يقال اعتباراً بالدين ثم يتداخلان فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر و نقيض الخيانة الأمانة، يقال: خنت فلاناً و خنت أمانة فلان. انتهى.

و قوله: **{لِلَّذِينَ كَفَرُوا}** إن كان متعلقاً بالمثل كان المعنى: ضرب الله مثلاً يمثل به حال الذين كفروا أنهم لا ینفعهم الاتصال بالعباد الصالحین، و إن كان متعلقاً بضرب كان المعنى: ضرب الله الامرأتين و ما انتهت إليه حالهما مثلاً للذين كفروا ليعتبروا به و يعلموا أنهم لا ینفعهم الاتصال بالصالحین من عباده و أنهم بخيانتهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أهل النار لا محالة.

و قوله: **{امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ}** مفعول **{ضَرَبَ}** و المراد بكونهما تحتها زوجيتهما لهما.

و قوله: **{فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}** ضمير التثنية الأولى للعبدين، و الثانية للامرأتين، و المراد أنه لم ینفع المرأتين زوجيتهما للعبدين الصالحین.

و قوله: **{وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ}** أي مع الداخلين فيها من قوميهما كما يلوح من قوله في امرأة نوح: **{حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التُّنُورُ قُلْنَا اِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ}**

إِثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ هود: ٤٠، وقوله في امرأة لوط: **{فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ}** هود: ٨١، أو المعنى مع الداخلين فيها من الكفار. وفي التعبير بـقيل بالبناء للمفعول، وإطلاق الداخلين إشارة إلى هوان أمرهما وعدم كرامة لهما أصلاً فلم يبال بهما أين هلكتا.

قوله تعالى: **{وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ}** إنح، الكلام في قوله: **{لِلَّذِينَ آمَنُوا}** كالللام في قوله: **{لِلَّذِينَ كَفَرُوا}**.

وقوله: **{إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ}** نلخص سبحانه جميع ما كانت تبتغيه في حياتها و ترومه في مسير عبوديتها في مسألة سألت ربها و ذلك أن الإيمان إذا كل تواطأ الظاهر و الباطن و توافق القلب و اللسان فلا يقول الإنسان إلا ما يفعل و لا يفعل إلا ما يقول فيكون ما يرجوه أو يتمناه أو يسأله بلسانه هو الذي يريده كذلك بعمله.

و إذ حكى الله فيما يمثل به حالها و يشير إلى منزلتها الخاصة في العبودية دعاء دعت به دل ذلك على أنه عنوان جامع لعبوديتها و على ذلك كانت تسير مدى حياتها، و الذي تتضمنه مسألتها أن يبني الله لها عنده بيتا في الجنة و ينجيها من فرعون و عمله و ينجيها من القوم الظالمين فقد اختارت جوار ربه و القرب منه على أن تكون أنيسة فرعون و عشيقته و هي ملكة مصر و آثرت بيتا يبنيه لها ربها على بيت فرعون الذي فيه مما تشبهه الأنفس و تتمناه القلوب ما تقف دونه الآمال فقد كانت عزفت نفسها ما هي فيه من زينة الحياة الدنيا و هي لها خاضعة و تعلقت بما عند ربه من الكرامة و الزلفى فأمنت بالغيب و استقامت على إيمانها حتى قضت.

و هذه القدم هي التي قدمتها إلى أن جعلها الله مثلاً للذين آمنوا و نلخص حالها و ما كانت تبتغيه و تعمل له مدى حياتها في مسير العبودية في مسألة حكى عنها و ما معناها إلا أنها انتزعت من كل ما يلهوها عن ربها و لاذت بربها تريد القرب منه تعالى و الإقامة في دار كرامته.

فقوله: **{امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ}** اسمها على ما في الرواية آسية، و قوله: **{إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ}** الجمع بين كون البيت المبني لها عند الله و في الجنة لكون الجنة

دار القرب من الله و جوار رب العالمين كما قال تعالى: **{بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ}** آل عمران: ١٦٩ .
على أن الحضور عنده تعالى و القرب منه كرامة معنوية و الاستقرار في الجنة كرامة صورية، و سؤال الجمع
بينهما سؤال الجمع بين الكرامتين .

و قوله: **{وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ}** تبر منها و سؤال أن ينجيها الله من شخص فرعون و من عمله الذي
تدعو ضرورة المصاحبة و المعاشرة إلى الشركة فيه و التلبس به، و قيل: المراد بالعمل الجماع .

و قوله: **{وَنَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ}** و هم قوم فرعون و هو تبر آخر و سؤال أن ينجيها الله من المجتمع
العام كما أن الجملة السابقة كانت سؤال أن ينجيها من المجتمع الخاص .

قوله تعالى: **{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا}** إنلخ، عطف على امرأة
فرعون و التقدير و ضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم إنلخ .

ضربها الله مثلا باسمها و أثنى عليها و لم يذكر في كلامه تعالى امرأة باسمها غيرها ذكر اسمها في القرآن في
بضع و ثلاثين موضعا في نيف و عشرين سورة .

و قوله: **{الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا}** ثناء عليها على عفتها، و قد تكرر في القرآن ذكر ذلك
و لعل ذلك بإزاء ما افتعله اليهود من البهتان عليها كما قال تعالى: **{وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا}** النساء: ١٥٦ ،
و في سورة الأنبياء في مثل القصة: **{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا}** الأنبياء: ٩١ .

و قوله: **{وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا}** أي بما تكلم به الله سبحانه من الوحي إلى أنبيائه كما قيل، و قيل: المراد
بها وعده تعالى و وعيده و أمره و نهيه، و فيه أنه يستلزم كون ذكر الكتب مستدركا .

و قوله: **{وَكُتِبَ}** و هي المشتملة على شرائع الله المنزلة من السماء كالتوراة و الإنجيل كما هو مصطلح
القرآن و لعل المراد من تصديقها كلمات ربها و كتبه كونها صديقة كما في قوله تعالى: **{مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا
رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}** المائدة: ٧٥ .

و قوله: **{وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}** أي من القوم المطيعين لله الخاضعين له الدائمين عليه غلب فيه المذكور على
المؤنث .

ويؤيد هذا المعنى كون القنوت بهذا المعنى واقعا فيما حكي الله من نداء الملائكة لها **{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}** آل عمران: ٤٣، وقيل: يجوز أن يراد بالقانتين رهطها و عشيرتها الذين كانت مريم منهم و كانوا أهل بيت صلاح و طاعة، و هو بعيد لما تقدم.

على أن المناسب لكون المثل تعريضا لزوجي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يراد بالقانتين مطلق أهل الطاعة و الخضوع لله تعالى.

(بحث روائي)

في تفسير البرهان، عن شرف الدين النجفي رفعه عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال قوله تعالى: **{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ}** (الآية) مثل ضربه الله لعائشة و حفصة أن تظاهرتا على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و أفشتا سره.

و في الجمع: عن أبي موسى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **كل من الرجال كثير و لم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، و مريم بنت عمران، و خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).**

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و الطبراني و الحاكم و صححه عن ابن عباس قال: قال رسول الله: **أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) و مريم بنت عمران و آسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص الله علينا من خبرهما في القرآن {قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ}**.

و فيه، أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران و امرأة فرعون و أخت موسى.**

أقول: و امرأة فرعون على ما وردت به الروايات مقتولة قتلها زوجها فرعون لما اطلع أنها آمنت بالله وحده، و قد اختلفت الروايات في كيفية قتلها.

ففي بعضها أنه لما اطلع على إيمانها كلفها الرجوع إلى الكفر فأبت إلا الإيمان فأمر بها أن ترمى عليها بصخرة عظيمة حتى ترضح تحتها ففعل بها ذلك.

و في بعضها لما أحضرت للعذاب دعت بما حكي الله عنها في كلامه من قولها: **{رَبِّ}**

إِنِّي لِي عِنْدَكَ بِئْتًا فِي الْحُتَّةِ {إِنح، فاستجاب الله لها ورأت بيتها في الجنة و انتزعت منها الروح
و ألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح.

و في بعضها أن فرعون وتد لها أربعة أوتاد و أضجعها على صدرها و جعل على صدرها رحي و
استقبل بها عين الشمس. و الله أعلم.

(٦٧) سورة الملك مكية و هي ثلاثون آية (٣٠)

[سورة الملك (٦٧): الآيات ١ الى ١٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ
الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا
مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ
يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَ هُوَ حَسِيرٌ ④ وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا
لِلشَّيَاطِينِ وَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤ وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ ⑥
إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَ هِيَ تَفُورُ ⑦ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ⑧ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَ قُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ كَبِيرٍ ⑨ وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑩

فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ
أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ إِجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ
الْلَطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

(بيان)

غرض السورة بيان عموم ربوبيته تعالى للعالمين تجاه قول الوثنية إن لكل شطر من العالم ربا من الملائكة
وغيرهم وإنه تعالى رب الأرباب فقط.

ولذا يعد سبحانه كثيرا من نعمه في الخلق والتدبير وهو في معنى الاحتجاج على ربوبيته ويفتح الكلام
بتباركه وهو كثرة صدور البركات عنه، ويكرر توصيفه بالرحمن وهو مبالغة في الرحمة التي هي العطية قبل
الاستدعاء فقرا وفيها إنذار ينتهي إلى ذكر الحشر والبعث.

و تتلخص مضامين آياتها في الدعوة إلى توحيد الربوبية والقول بالمعاد.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** تبارك الشيء كثرة صدور الخيرات و
البركات عنه.

و قوله: **{الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}** يشمل بإطلاقه كل ملك، و جعل الملك في يده استعارة بالكناية عن كمال
تسلطه عليه و كونه متصرفا فيه كيف يشاء كما يتصرف ذو اليد فيما بيده و يقبله كيف يشاء فهو تعالى يملك بنفسه
كل شيء من جميع جهاته، و يملك ما يملكه كل شيء.

فتوصيفه تعالى بالذي بيده الملك أوسع من توصيفه بالملك في قوله: **{عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ}** القمر: ٥٥، و
أصرح و أكد من توصيفه في قوله: **{لَهُ الْمُلْكُ}** التغابن: ١.

و قوله: **{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** إشارة إلى كون قدرته غير محدودة بحد ولا منتية

إلى نهاية وهو لازم إطلاق الملك بحسب السياق، وإن كان إطلاق الملك وهو من صفات الفعل من لوازم إطلاق القدرة وهي من صفات الذات.

وفي الآية مع ذلك إيماء إلى الحجة على إمكان ما سيأتي من أمر المعاد.

قوله تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}** الحياة كون الشيء بحيث يشعر ويريد، والموت عدم ذلك لكن الموت على ما يظهر من تعليم القرآن انتقال من نشأة من نشآت الحياة إلى نشأة أخرى كما تقدم استفادة ذلك من قوله تعالى: **{نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ}** إلى قوله **{فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}** الواقعة: ٦١، فلا مانع من تعلق الخلق بالموت كالحياة.

على أنه لو أخذ عدميا كما عند العرف فهو عدم ملكة الحياة وله حظ من الوجود يصح تعلق الخلق به كالعمى من البصر والظلمة من النور.

وقوله: **{لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}** غاية خلقه تعالى الموت والحياة، والبلاء الامتحان والمراد أن خلقكم هذا النوع من الخلق وهو أنكم تحيون ثم تموتون خلق مقامي امتحاني يمتاز به منكم من هو أحسن عملا من غيره ومن المعلوم أن الامتحان والتمييز لا يكون إلا لأمر ما يستقبلكم بعد ذلك وهو جزاء كل بحسب عمله.

وفي الكلام مع ذلك إشارة إلى أن المقصود بالذات من الحلقة هو إيصال الخير من الجزاء حيث ذكر حسن العمل وامتياز من جاء بأحسنه فالمحسنون عملا هم المقصودون بالحلقة وغيرهم مقصودون لأجلهم.

وقد ذيل الكلام بقوله: **{وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}** فهو العزيز لأن الملك والقدرة المطلقين له وحده فلا يغلبه غالب وما أقدر أحدا على مخالفته إلا بلاء و امتحانا و سينتقم منهم وهو الغفور لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم في الدنيا و سينغفر كثيرا منها في الآخرة كما وعد.

وفي التذييل بالاسمين مع ذلك تخويف وطميع على ما يدعو إلى ذلك سياق الدعوة.

واعلم أن مضمون الآية ليس مجرد دعوى خالية عن الحجة يراد به التلقين كما ربما يتوهم بل هي مقدمة قريبة من الضرورة - أو هي ضرورة - تستدعي الحكم بضرورة البعث للجزاء فإن الإنسان المتلبس بهذه الحياة الدنيوية الملحوقة للهوت لا يخلو من أن يحصل له وصف حسن العمل أو خلافه وهو مجهز بحسب الفطرة بما لو لا عروض عارض السوء لساقه

إلى حسن العمل، وقلها يخلو إنسان من حصول أحد الوصفين كالأطفال و من في حكمهم.

و الوصف الحاصل المترتب على وجود الشيء الساري في أغلب أفراده غاية في وجوده مقصودة في إيجادها فكما أن الحياة النباتية لشجرة كذا إذ كانت تؤدي في الغالب إلى أثمارها ثمرة كذا يعد ذلك غاية لوجودها مقصودة منها كذلك حسن العمل و الصلاح غاية لخلق الإنسان، و من المعلوم أيضا أن الصلاح و حسن العمل لو كان مطلوباً لكان مطلوباً لغيره لا لنفسه، و المطلوب بالذات الحياة الطيبة التي لا يشوبها نقص و لا يعرضها لغو و لا تأثيم فالآية في معنى قوله: **{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَ الخَيْرِ فِتْنَةً}** الأنبياء: ٣٥.

قوله تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}** إنخ، أي مطابقة بعضها فوق بعض أو بعضها يشبه البعض - على ما احتمال - و قد مر في تفسير حم السجدة بعض ما يمكننا من القول فيها.

و قوله: **{مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}** قال الراغب: الفوت بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه، قال تعالى: **{وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ}**.

قال: و التفاوت الاختلاف في الأوصاف كأنه يفوت وصف أحدهما الآخر أو وصف كل واحد منهما الآخر، قال تعالى: **{مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}** أي ليس فيها ما يخرج عن مقتضى الحكمة. انتهى.

فالمراد بنفي التفاوت اتصال التدبير و ارتباط الأشياء بعضها ببعض من حيث الغايات و المنافع المترتبة على تفاعل بعضها في بعض، فاصطكاك الأسباب المختلفة في الحلقة و تنازعها كتشاجر كفتي الميزان و تصارعهما بالثقل و الخفة و الارتفاع و الانخفاض فإنهما في عين أنهما تختلفان تنفقان في إعانة من بيده الميزان فيما يريد من تشخيص وزن السلعة الموزونة.

فقد رتب الله أجزاء الحلقة بحيث تؤدي إلى مقاصدها من غير أن يفوت بعضها غرض بعض أو يفوت من بعضها الوصف اللازم فيه لحصول الغاية المطلوبة.

و الخطاب في **{مَا تَرَى}** خطاب عام لكل من يمكنه الرؤية و في إضافة الخلق إلى الرحمن إشارة إلى أن الغاية منه هي الرحمة العامة، و تنكير **{تَفَاوُتٍ}** و هو في سياق النفي و إدخال **{الرَّحْمَنِ}** عليه لإفادة العموم.

و قوله: **{فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}** الفطور الاختلال و الوهي، و المراد بإرجاع البصر النظر ثانياً و هو كناية عن المداقة في النظر و الإمعان فيه.

قوله تعالى: **{ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}** الخاسئ من خسأ البصر إذا انقبض عن مهانة كما قال الراغب، وقال أيضا: الخاسر المعيا لانكشاف قواه، ويقال للمعيا: حاسر ومحسور: أما الخاسر فتصور أنه بنفسه قد حسر قوته، وأما المحسور فتصور أن التعب قد حسرة، وقوله عز وجل: **{يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}** يصح أن يكون بمعنى حاسر وأن يكون بمعنى محسور. انتهى.

وقوله: **{كَرَّتَيْنِ}** الكرة الرجعة والمراد بالتثنية الكثير والتكرير، والمعنى: ثم ارجع البصر رجعة بعد رجعة أي رجعات كثيرة ينقلب إليك البصر منقبضة مهينة والحال أنه قليل معيا لم يجد فطورا.

فقد أشير في الآيتين إلى أن النظام الجاري في الكون نظام واحد متصل الأجزاء مرتبط الأبعاد.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ}** إلى آخر الآية، المصابيح جمع مصباح وهو السراج سمي الكواكب مصابيح لإنارتها وإضاءتها وقد تقدم كلام في ذلك في تفسير سورة حم السجدة.

وقوله: **{وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ}** أي وجعلنا الكواكب التي زيننا بها السماء رجوما يرمم بها من استرق السمع من الشياطين كما قال تعالى: **{إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ}** الحجر: ١٨، وقال: **{إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ}** الصافات: ١٠.

قيل: إن الجملة دليل أن المراد بالكواكب المزينة بها السماء مجموع الكواكب الأصلية والشهب السماوية فإن الكواكب الأصلية لا تزول عن مستقرها والكواكب والنجم يطلقان على الشهب كما يطلقان على الأجرام الأصلية.

وقيل: تنفصل من الكواكب شهب تكون رجوما للشياطين أما الكواكب أنفسها فليست تزول إلا أن يريد الله إفناءها.

وهذا الوجه أوفق للأنظار العلمية الحاضرة، وقد تقدم بعض الكلام في معنى رمي الشياطين بالشهب.

وقوله: **{وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ}** أي و هيأنا للشياطين وهم أشرار الجن عذاب النار المسعرة المشتعلة.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** لما أورد بعض آيات ربوبيته تعالى عقبها بالوعيد على من كفر بربوبيته على ما هو شأن هذه السورة من تداخل الحجج والوعيد والإنذار.

والمراد بالذين كفروا بربوبيته أعم من الوثنيين النافين لربوبيته غير أربابهم القائلين بأنه تعالى رب الأرباب فقط، و النافين لها مطلقا و المثبتين لربوبيته مع التفريق بينه و بين رسله كاليهود و النصارى حيث آمنوا ببعض رسله و كفروا ببعض.

و الآية مع ذلك متصلة بقوله: **{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}** لما فيها من الإشارة إلى البعث و الجزاء متصلة بما قبلها كالتعميم بعد التخصيص.

قوله تعالى: **{إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَ هِيَ تَفُورٌ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ}** قال الراغب: الشهيق طول الزفير و هورد النفس و الزفير مدة انتهى، و الفوران كما في المجمع، ارتفاع الغليان، و التميز: التقطع و التفرق، و الغيظ: شدة الغضب، و المعنى: إذا طرح الكفار في جهنم سمعوا لها شهيقا أي تجذبهم إلى داخلها كما يجذب الهواء بالشهيق إلى داخل الصدر و هي تغلي بهم فترفعهم و تخفضهم تكاد تتلاشى من شدة الغضب.

قوله تعالى: **{كُلَّمَا أُلْتَمِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ}** الفوج - كما قاله الراغب - الجماعة المارة المسرعة، و في قوله: **{كُلَّمَا أُلْتَمِيَ فِيهَا فَوْجٌ}** إشارة إلى أن الكفار يلقون في النار جماعة جماعة كما يشير إليه قوله: **{وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا}** الزمر: ٧١، وإنما يلقون كذلك بلحوق التابعين لمتبوعهم في الضلال كما قال تعالى: **{وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ}** الأنفال: ٣٧، و قد تقدم بعض توضيحه في ذيل الآية من سورة الأنفال.

و الخزنة جمع خازن و هو الحافظ على الشيء المدخر و المراد بهم الملائكة الموكلون على النار المدبرون لأنواع عذابها قال تعالى: **{عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ}** التحريم: ٦، و قال: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ}** - إلى أن قال - **{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ وَ مَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً}** المدثر: ٣١.

و المعنى: كلما طرح في جهنم جماعة من جماعات الكفار المسوقين إليها سألهم الملائكة الموكلون على النار الحافظون لها - تويخا - ألم يأتكم نذير؟ و هو النبي المنذر.

قوله تعالى: **{قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا}** إلى آخر الآية حكاية جوابهم لسؤال الخزنة، وفيه تصديق أنهم قد جاءهم نذير فنسبوه إلى الكذب و اعتراف.

و قوله: **{مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ}** بيان لتكذيبهم، و كذا قوله: **{إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ}** و قيل: قوله: **{إِنَّ أَنْتُمْ}** إنح، كلام الملائكة يخاطبون به الكفار بعد جوابهم عن سؤالهم بما أجابوا، و هو بعيد من السياق، و كذا احتمال كونه من كلام الرسل الذين كذبوهم تحكيه الملائكة لأولئك الكفار.

قوله تعالى: **{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** يطلق السمع و يراد به إدراك الصوت و القول بالجراحة و ربما يراد به ما هو الغاية منه عند العقلاء و هو الالتزام بمقتضاه من الفعل و الترك، و يطلق العقل على تمييز الخير من الشر و النافع من الضار، و ربما يراد به ما هو الغاية منه و هو الالتزام بمقتضاه من طلب الخير و النفع و اجتناب الشر و الضر، قال تعالى: **{لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَىٰ هُمْ أَضَلُّ}** الأعراف: ١٧٩.

و أكثر ما ينتفع بالسمع عامة الناس لقصورهم عن تعقل دقائق الأمور و إدراك حقيقتها و الاهتداء إلى مصالحها و مفسدها و إنما ينتفع بالعقل الخاصة.

فقوله: **{لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ}** أريد بالسمع استجابة دعوة الرسل و الالتزام بمقتضى قولهم و هم النصحاء الأمناء، و بالعقل الالتزام بمقتضى ما يدعون إليه من الحق بتعقله و الاهتداء العقلي إلى أنه حق و من الواجب أن يخضع الإنسان للحق.

و إنما قدم السمع على العقل لأن استعماله من شأن عامة الناس و هم الأكثرون و العقل شأن الخاصة و هم آحاد قليلون.

و المعنى: لو كنا في الدنيا نطيع الرسل في نصائحهم و مواعظهم أو عقلنا حجة الحق ما كنا اليوم في أصحاب السعير و هم مصاحبو النار المخلدون فيها.

و قيل: إنما جمع بين السمع و العقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع و العقل.

قوله تعالى: **{فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُخِّقُوا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ}** كانوا إنما قالوا: **{لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** ندامة على ما فرطوا في جنب الله و فوتوا على

أنفسهم من الخير فاعترفوا بأن ما أتوا به كان تبعته دخول النار و كان عليهم أن لا يأتوا به، و هذا هو الذنب فقد اعترفوا بذنبهم.

و إنما أفرد الذنب بناء على إرادة معنى المصدر منه و هو في الأصل مصدر.

و قوله: **{فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ}** السحق تفتيت الشيء كما ذكره الراغب و هو دعاء عليهم.

قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}** لما ذكر حال الكفار و ما يجازون به على كفرهم قابلة بحال المؤمنين بالغيب لتام التقسيم و ذكر من وصفهم الخشية لأن المقام مقام الإنذار و الوعيد. و عد خشيتهم خشية بالغيب لكون ما آمنوا به محبوباً عنهم تحت حجب الغيب.

قوله تعالى: **{وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** رفع شبهة يمكن أن تختلج في قلوبهم مبنية على الاستبعاد و ذلك أنه تعالى ساق الكلام في بيان ربوبيته لكل شيء المستتعبة للبعث و الجزاء و ذكر ملكه و قدرته المطلقين و خلقه و تديره و لم يذكر علمه المحيط بهم و بأحوالهم و أعمالهم و هو مما لا يتم البعث و الجزاء بدونه.

و كان من الممكن أن يتوهموا أن الأعمال على كثرتها الخارجة عن الإحصاء لا يتأتى ضبطها و خاصة ما تكنه الصدور منها فإن الإنسان يقيس الأشياء بنفسه و يزنها بزنة نفسه و هو غير قادر على إحصاء جزئيات الأعمال التي هي حركات مختلفة متقضية و خاصة أعمال القلوب المستكنة في زواياها.

فدفعه بأن إظهار القول و إخفائه سواء بالنسبة إليه تعالى فإنه عليم بذات الصدور، و السياق يشهد أن المراد استواء خفايا الأعمال و جلاياها بالنسبة إليه، و إنما ذكر أسرار القول و جهره من حيث ظهور معنى الخفاء و الظهور فيه بالجهر و الإسرار.

قوله تعالى: **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}** استفهام إنكاري مأخوذ حجة على علمه تعالى بأعمال الخلق ظاهرها و باطنها و سرها و جهرها و ذلك أن أعمال الخلق و من جملتها أعمال الإنسان الاختيارية و إن نسبت إلى فواعلها لكن الله سبحانه هو الذي يريد لها و يوجد لها من طريق اختيار الإنسان و اقتضاء سائر الأسباب فهو الخالق لأعيان الأشياء و المقدر لها آثارها كيفما كانت و الرابط بينها و بين آثارها الموصل لها إلى آثارها، قال تعالى: **{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}** الزمر: ٦٢، و قال:

{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ} الأعلى: ٣، فهو سبحانه محيط بعين من خلقه و أثره و من أثره أعماله الظاهرة و الباطنة و ما أسره و ما جهر به و كيف يحيط به و لا يعلمه.

و في الآية إشارة إلى أن أحوال الأشياء و أعمالها غير خارجة عن خلقها لأنه تعالى استدل بعلمه بمن خلق على علمه بخصوصيات أحواله و أعماله و لو لا كون الأحوال و الأعمال غير خارجة عن وجود موضوعاتها لم يتم الاستدلال.

على أن الأحوال و الأعمال من مقتضيات موضوعاتها و الذي ينتسب إليه وجود الشيء ينتسب إليه آثار وجوده.

و قوله: **{وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}** أي النافذ في بواطن الأشياء المطلع على جزئيات وجودها و آثارها، و الجملة حالية تعلل ما قبلها و الاسمان الكريمان من الأسماء الحسنى ذيلت بهما الآية لتأكيد مضمونها.

(بحث روائي)

في الكافي، بإسناده عن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز و جل: **{لِيَبْلُوكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}** قال: ليس يعني أكثركم عملا و لكن أصوبكم عملا، و إنما الإصابة خشية الله و النية الصادقة و الخشية.

ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل.

ألا و العمل الخالص الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله، و النية أفضل من العمل ألا و إن النية هي العمل. ثم تلا قوله: **{قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ}** يعني على نيته.

و في الجمع، قال أبو قتادة: سألت النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) عن قوله تعالى: **{أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}** ما عني به؟ فقال: يقول: أيكم أحسن عقلا. ثم قال: أتمكم عقلا و أشدكم لله خوفا، و أحسنكم فيما أمر الله به و نهى عنه نظرا و إن كان أقلكم تطوعا.

و فيه، عن ابن عمر عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أنه تلا قوله تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}** - إلى قوله - **{أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}** ثم قال: أيكم أحسن عقلا، و أروع عن محارم الله و أسرع في طاعة الله.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}** قال: بعضها طبق لبعض.

و فيه: في قوله تعالى: {مِنْ تَفَاوُتٍ} قال: من فساد.

و فيه: في قوله تعالى: {ثُمَّ إِرْجِعِ الْبَصَرَ} قال: انظر في ملكوت السماوات والأرض.

و فيه: في قوله تعالى: {بِمَصَابِيحٍ} قال: بالنجوم.

و فيه: في قوله تعالى: {سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا} قال: وقعا.

و فيه: في قوله تعالى: {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ} قال: على أعداء الله.

و فيه: في قوله تعالى: {وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} قال: قد سمعوا و عقلوا

ولكنهم لم يطيعوا و لم يقبلوا، و الدليل على أنهم قد سمعوا و عقلوا و لم يقبلوا، قوله: {فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ}.

أقول: يعني (عليه السلام) أنه يدل على أن المراد من عدم السمع و العقل عدم الإطاعة و القبول بعد السمع و العقل أنه تعالى سمى قولهم ذلك اعترافاً بالذنب، و لا يعد فعل ذنباً من فاعله إلا بعد العلم بجهة مساءته بسمع أو عقل.

[سورة الملك (٦٧): الآيات ١٥ الى ٢٢]

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أ

أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ

عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أ وَ

لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِتٍ وَ يَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَذَا

الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ

إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ

لَجُؤًا فِي عُثْوٍ وَ نُفُورٍ ﴿١١﴾ أَفَمَنْ يَمُنُّ بِمُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمُنُّ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢﴾

(بيان)

في الآيات كرة بعد كرة بآيات التدبير الدالة على ربوبيته تعالى مقرونة بالإندار و التخويف أعني قوله: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا}** الآية، و قوله: **{أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ}** الآية بعد قوله: **{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ}** الآية، و قوله: **{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}** الآية، و قوله: **{وَلَقَدْ زَيَّنَّا}** الآية.

قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}** الذلول من المراكب ما يسهل ركوبه من غير أن يضطرب و يجمح و المناكب جمع منكب و هو مجتمع ما بين العضد و الكتف و أستعير لسطح الأرض، قال الراغب: و استعارته للأرض كاستعارة الظهر لها في قوله: **{مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ}** و تسمية الأرض ذلولا و جعل ظهورها مناكب لها يستقر عليها و يمشي فيها باعتبار انقيادها لأنواع التصرفات الإنسانية من غير امتناع، و قد وجه كونها ذلولا ذا مناكب بوجوه مختلفة تؤول جميعها إلى ما ذكرنا.

و الأمر في قوله: **{وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ}** للإباحة و النشور و النشر إحياء الميت بعد موته و أصله من نشر الصحيفة و الثوب إذا بسطهما بعد طيها.

و المعنى: هو الذي جعل الأرض مطاوعة منقادة لكم يمكنكم أن تستقروا على ظهورها و تمشوا فيها تأكلون من رزقه الذي قدره لكم بأنواع الطلب و التصرف فيها.

و قوله: **{وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ}** أي و يرجع إليه نشر الأموات بإخراجهم من الأرض و إحيائهم للحساب و الجزاء، و اختصاص رجوع النشر به كناية عن اختصاص الحكم بالنشور به و الإحياء يوم القيامة فهو ربكم المدبر لأمر حياتكم الدنيا بالإقرار على الأرض و الهداية إلى مآرب الحياة، و له الحكم بالنشور للحساب و الجزاء.

و في عد الأرض ذلولا و البشر على مناكبها تلويح ظاهر إلى ما أدت إليه الأبحاث العلمية

أخيراً من كون الأرض كرة سياراً.

قوله تعالى: **{أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}** إنذار و تخويف بعد إقامة الحجة و توبيخ على مساهلتهم في أمر الربوبية و إهمالهم أمر الشكر على نعم ربهم بالخضوع لربوبيته و رفض ما اختلقوه من الأنداد.

و المراد بمن في السماء الملائكة المقيمون فيها الموكلون على حوادث الكون و إرجاع ضمير الأفراد إلى **{مَنْ}** باعتبار لفظه و خسف الأرض يقوم كذا شقها و تغييرهم في بطنها و المور على ما في الجمع التردد في الذهاب و المجيء مثل الموج.

و المعنى: ء أمنتم في كفركم بربوبيته تعالى الملائكة المقيمين في السماء الموكلين بأمر العالم أن يشقوا الأرض و يغيبوكم فيها بأمر الله فإذا الأرض تضطرب ذهاباً و مجيئاً بزلزالها.

و قيل: المراد بمن في السماء هو الله سبحانه و المراد بكونه في السماء كون سلطانه و تديره و أمره فيها لاستحالة أن يكون تعالى في مكان أو جهة أو محاطاً بعالم من العوالم، و هذا المعنى و إن كان لا بأس به لكنه خلاف الظاهر.

قوله تعالى: **{أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}** الحاصب الريح التي تأتي بالحصاة و الحجارة، و المعنى: أ أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم ريحا ذات حصاة و حجارة كما أرسلها على قوم لوط قال تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ}** القمر: ٣٤.

و قوله: **{فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}** النذير مصدر بمعنى الإنذار و الجملة متفرعة على ما يفهم من سابق الكلام من كفرهم بربوبيته تعالى و أمنهم من عذابه و المعنى ظاهر.

و قيل: النذير صفة بمعنى المنذر و المراد به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و هو سخيّف.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}** المراد بالنكير العقوبة و تغيير النعمة أو الإنكار، و الآية كالشاهد يستشهد به على صدق ما في قوله: **{فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}** من الوعيد و التهديد.

و المعنى: و لقد كذب الذين من قبلهم من الأمم الهالكة رسلي و مجدوا بربوبيتي فكيف كان عقوبتي و تغيير النعمة عليهم أو كيف كان إنكاري ذلك عليهم حيث أهلكتهم و استأصلتهم.

و في الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: **{مِنْ قَبْلِهِمْ}** إشعاراً بسقوطهم

لجهالتهم وإهمالهم في التدبر في آيات الربوبية و عدم مخافتهم من سخط ربهم عن تشریف الخطاب فأعرض عن مخاطبتهم فيما يلقي إليهم من المعارف إلى خطاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

قوله تعالى: **{أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَاقَاتٍ وَ يَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ}** المراد بكون الطير فوقهم طيرانه في الهواء، و صفيف الطير بسطه جناحه حال الطيران و قبضه قبض جناحه حاله، و الجمع في **{صَاقَاتٍ وَ يَقْبِضْنَ}** لكون المراد بالطير استغراق الجنس.

و قوله: **{مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ}** كالجواب لسؤال مقدر كان سائلا يسأل فيقول: ما هو المراد بإلفات نظرهم إلى صفيف الطير و قبضه فوقهم؟ فأجيب بقوله: **{مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ}**.

و قرار الطير حال الطيران في الهواء من غير سقوط و إن كان مستندا إلى أسباب طبيعية كقرار الإنسان على بسيط الأرض و السمك في الماء و سائر الأمور الطبيعية المستندة إلى علل طبيعية تنتهي إليه تعالى لكن لما كان بعض الحوادث غير ظاهر السبب للإنسان في بادي النظر سهل له إذا نظر إليه أن ينتقل إلى أن الله سبحانه هو السبب الأعلى الذي ينتهي إليه حدوثه و وجوده، و لذا نبههم الله سبحانه في كلامه بإرجاع نظرهم إليها و دلالتهم على وحدانيته في الربوبية.

و قد ورد في كلامه تعالى شيء كثير من هذا القبيل كإمسك السماوات بغير عمد و إمساك الأرض و حفظ السفن على الماء و اختلاف الأثمار و الألوان و الألسنة و غيرها مما كان سببه الطبيعي القريب خفيا في الجملة سهل للذهن الساذج الانتقال إلى استناده إليه تعالى ثم إذا تنبه لوجود أسبابه القريبة بنوع من المجاهدة الفكرية وجد الحاجة بعينها في أسبابه حتى تنتهي إليه تعالى و أن إلى ربك المنتهى.

قال في الكشاف: فإن قلت: لم قيل: و يقبضن و لم يقل: و قابضات؟ قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء و الأصل في السباحة هو مد الأطراف و بسطها و أما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهم صافات و يكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح. انتهى.

و هو مبني على أن تكون الآية هي مجموع قوله: **{صَاقَاتٍ وَ يَقْبِضْنَ}** و هو الطيران،

و يمكن أن يستفاد أن الآية عدم سقوطهن و هن صفات، و آية أخرى أنهن ربما يقبضن و لا يسقطن حينما يقبضن.

و لا يخفى ما في ذكر طيران الطير في الهواء بعد ذكر جعل الأرض ذلولا و الإنسان على مناكبها من اللطف.

قوله تعالى: **{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ}** توبيخ و تقرير لهم في اتخاذهم آلهة من دون الله لينصروهم و لذا التفت عن الغيبة إلى الخطاب مخاطبهم ليشتد عليهم التقرير.

و قوله: **{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي}** إنلح، معناه بل من الذي يشار إليه فيقال: هذا جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن أرادكم بسوء أو عذاب؟ فليس دون الله من ينصركم عليه، و فيه إشارة إلى خطئهم في اتخاذ بعض خلق الله آلهة لينصروهم في النوائب و هم مملوكون لله لا يملكون لأنفسهم نفعا و ضرا و لا لغيرهم.

و إذ لم يكن لهم جواب أجاب تعالى بقوله: **{إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ}** أي أحاط بهم الغرور و غشيم نفيل إليهم ما يدعون من ألوهية آلهتهم.

قوله تعالى: **{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ}** أي بل من الذي يشار إليه بأن هذا هو الذي يرزقكم إن أمسك الله رزقه فينوب مقامه فيرزقكم؟ ثم أجاب سبحانه بقوله: **{بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ}** أي إن الحق قد تبين لهم لكنهم لا يخضعون للحق بتصديقه ثم اتباعه بل تمادوا في ابتعادهم من الحق و نفورهم منه، و لجوا في ذلك.

قوله تعالى: **{أَفَمَنْ يَمُنُّ مَكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمُنُّ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** إيجاب الشيء على وجهه إسقاطه عليه، و قال في الكشاف: معنى أكب دخل في الكب و صار ذا كب.

استفهام إنكاري عن استواء الحاليين تعريضا لهم بعد ضرب حجاب الغيبة عليهم و تحريمهم من تشريف الحضور و الخطاب بعد استقرار اللجاج فيهم، و المراد أنهم بلجاجهم في عتو عجيب و نفور من الحق كمن يسلك سبيلا و هو مكب على وجه لا يرى ما في الطريق من ارتفاع و انخفاض و مزلق و معاثر فليس هذا السائر كمن يمشي سويا على صراط مستقيم فيرى موضع قدمه و ما يواجهه من الطريق على استقامة، و ما يقصده من الغاية

وهؤلاء الكفار سائرون سبيل الحياة وهم يعاندون الحق على علم به فيغمضون عن معرفة ما عليهم أن يعرفوه والعمل بما عليهم أن يعملوا به ولا يخضعون للحق حتى يكونوا على بصيرة من الأمر ويسلكوا سبيل الحياة وهم مستوون على صراط مستقيم فيأمنوا الهلاك.

وقد ظهر أن ما في الآية مثل عام يمثل حال الكافر الجاهل اللجوج المتماذي على جهله والمؤمن المستبصر الباحث عن الحق.

(بحث روائي)

في الكافي، بإسناده عن سعد عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **القلب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان، وقلب منكوس، وقلب مطبوع، وقلب أزهر.** فقلت: ما الأزهر، قال: **فيه كهيئة السراج.**

فأما المطبوع فقلب المنافق، وأما الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر، وأما المنكوس فقلب المشرك ثم قرأ هذه الآية **{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}**، فأما القلب الذي فيه إيمان ونفاق فقوم كانوا بالطائف فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك وإن أدركه على إيمانه نجي.

أقول: ورواه في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن الفضيل عن سعد الخفاف عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: إن القلوب أربعة، وساق الحديث إلى آخره إلا أن فيه: وقلب أزهر أنور. وقوله: «فهم قوم كانوا بالطائف» المراد به الطائف الشيطاني الذي ربما يمس الإنسان قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}**، الأعراف: ٢٠١، فالمنعنى أنهم يعيشون مع طائف شيطاني يسهم حيناً بعد حين فإن أدركهم الأجل والطائف معهم هلكوا وإن أدركهم وهم في حال الإيمان نجوا.

واعلم أن هناك روايات تطبق قوله: **{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ}** الآية على من حاد عن ولاية علي (عليه السلام) ومن يتبعه ويواليه، وهي من الجري والله أعلم.

[سورة الملك (٦٧): الآيات ٢٣ الى ٣٠]

{قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾}

(بيان)

آيات أخر يذكرهم الله تعالى بها دالة على وحدانيته تعالى في الخلق و التدبير مقرونة بالإندار و التخويف، جارية على غرض السورة و هو التذكرة بالوحدانية مع الإندار غير أنه تعالى لما أشار إلى لجاجهم و عنادهم للحق في قوله السابق: {بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ} غير السياق بالإعراض عن خطابهم و الالتفات إلى خطاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأمره أن يتصدى خطابهم و يقرع أسماعهم آياته في الخلق و التدبير الدالة على توحده في الربوبية و إندارهم بعذاب الله، و ذلك قوله: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ} إلخ، {قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ} إلخ، {قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ} إلخ، {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ} إلخ، {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ} إلخ، {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا} إلخ.

قوله تعالى: **{قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}** الإنشاء إحداهن الشيء ابتداءً و تربيته.

ما في ذيل الآية من لحن العتاب في قوله: **{قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}** وقد تكرر نظيره في غير موضع من كلامه كما في سورة المؤمنون^١ و الم السجدة^٢ يدل على أن إنشاءه تعالى الإنسان و تجهيزه بجهاز الحس و الفكر من أعظم نعمه تعالى التي لا يقدر قدرها.

و ليس المراد بإنشائه مجرد خلقه كيفما كان بل خلقه و إحدائه من دون سابقه في مادته كما أشار إليه في قوله يصف خلقه طورا بعد طور: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً}** - إلى أن قال - **{ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ}** المؤمنون: ١٤، فصيورة المضغعة إنسانا سميعا بصيرا متفكرا بتركيب النفس الإنسانية عليها خلق آخر لا يساخي أنواع الحلقة المادية الواردة على مادة الإنسان من أخذها من الأرض ثم جعلها نطفة ثم علقه ثم مضغعة فإنما هي أطوار مادية متعاقبة بخلاف صيرورتها إنسانا ذا شعور فلا سابقة لها تماثلها أو تشابهها فهو الإنشاء.

و مثله قوله: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}** الروم: ٢٠ (انظر إلى موضع إذا الفجائية).

فقوله: **{هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ}** إشارة إلى خلق الإنسان.

و قوله: **{وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ}** إشارة إلى تجهيزه بجهاز الحس و الفكر، و جعل إنشائي يجعل نفس الإنسان كما يشير إليه قوله: **{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}** المؤمنون: ٧٨.

فالإنسان بخصوصية إنشائه و كونه بحيث يسمع و يبصر يمتاز من الجماد و النبات و الاقتصار بالسمع و البصر من سائر الحواس كاللمس و الذوق و الشم لكونهما العمدة و لا يبعد أن يكون المراد بالسمع و البصر مطلق الحواس الظاهرة من باب إطلاق الجزء و إرادة الكل - و بالفؤاد و هو النفس المتفكرة يمتاز من سائر الحيوان.

^١ الآية ٧٨.

^٢ الآية ٩.

وقوله: **{قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}** أي تشكرون قليلا على هذه النعمة أو النعم العظمى فما زائدة و قليلا مفعول مطلق تقديره تشكرون شكرا قليلا، وقيل: ما مصدرية والمعنى: قليلا شكركم.

قوله تعالى: **{قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}** الذرة الخلق و المراد بذريتهم في الأرض خلقهم متعلقين بالأرض فلا يتم لهم كمالهم إلا بأعمال متعلقة بالمادة الأرضية بما زينها الله تعالى بما تنجذب إليه النفس الإنسانية في حياتها المعجلة ليمتاز به الصالح من الطالح قال تعالى: **{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا}** الكهف: ٥٨.

وقوله: **{وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}** إشارة إلى البعث و الجزاء و وعد جازم.

قوله تعالى: **{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** المراد بهذا الوعد الحشر الموعود، و هو استعجال منهم استهزاء.

قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّمَا أَلْغِمْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ}** جواب عن قولهم: **{مَتَى هَذَا الْوَعْدُ}** إلخ، و محصله أن العلم به عند الله لا يعلم به إلا هو كما قال: **{لَا يُجَلِّيهَا لِوَفَّيْتَهَا إِلَّا هُوَ}** الأعراف: ١٨٧، و ليس لي إلا أني نذير مبين أمرت أن أخبركم أنكم إليه تحشرون و أما أنه متى هو فليس لي بذلك علم.

هذا على ما يفيد و قوع الآية في سياق الجواب عن السؤال عن وقت الحشر، و على هذا تكون اللام في العلم للعهد، و المراد العلم بوقت الحشر، و أما لو كانت للجنس على ما تفيد جملة **{إِنَّمَا أَلْغِمْتُ عِنْدَ اللَّهِ}** في نفسها فالمعنى: إنما حقيقة العلم عند الله و لا يحاط بشيء منه إلا بإذنه كما قال: **{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}** البقرة: ٢٥٥، و لم يشأ أن أعلم من ذلك إلا أنه سيقع و أنذركم به و أما أنه متى يقع فلا علم لي به.

قوله تعالى: **{فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا}** إلخ، الزلفة القرب و المراد به القريب أو هو من باب زيد عدل، و ضمير **{رَأَوْهُ}** للوعد و قيل للعذاب و المعنى: فلما رأوا الوعد المذكور قريبا قد أشرف عليهم ساء ذلك وجوه الذين كفروا به فظهر في سيماهم أثر الخيبة و الحسران.

وقوله: **{وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ}** قيل تدعون و تدعون بمعنى واحد

كتدنرون و تدنرون و المعنى: و قيل لهم: هذا هو الوعد الذي كنتم تسألونه و تستعجلون به بقولكم: متى هذا الوعد، و ظاهر السياق أن القائل هم الملائكة بأمر من الله، و قيل القائل من الكفار يقوله بعضهم لبعض.

قوله تعالى: **{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ} [إِنْ]** شرطية شرطها قوله: **{أَهْلَكْنِي اللَّهُ}** و جزاؤها قوله: **{فَمَنْ يُجِيرُ}** إلخ، و المعنى: قل لهم أخبروني إن أهلكني الله و من معي من المؤمنين أو رحمنا فلم يهلكنا فمن الذي يجير و يعيد الكافرين و هم أنتم كفرتم بالله فاستحققتم أليم العذاب من عذاب أليم يهددهم تهديدا قاطعا أي إن هلاكي و من معي و بقاؤنا برحمة ربي لا ينفعكم شيئا في العذاب الذي سيصيبكم قطعا بكفركم بالله.

قيل: إن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و على المؤمنين بالهلاك فأمر (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقول لهم إن أهلكنا الله تعالى أو أبقانا فأمرنا إلى الله و نرجو الخير من رحمته و أما أنتم فما تصنعون؟ من يجيركم من أليم العذاب على كفركم بالله؟

قوله تعالى: **{قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}** الضمير للذي يدعو إلى توحيدده و هم يدعونه عليه، و المعنى: قل الذي أدعوكم إلى توحيدده و تدعونه علي و على من معي هو الرحمن الذي عمت نعمته كل شيء آمنا به و عليه توكلنا من غير أن نميل و نعتمد على شيء دونه فستعلمون أيها الكفار من هو في ضلال مبين؟ نحن أم أنتم؟

قال في الكشاف: فإن قيل: لم أحر مفعول **{آمَنَّا}** و قدم مفعول **{تَوَكَّلْنَا}**؟ قلت: لوقوع آمنا تعريضا بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم كأنه قيل: آمنا و لم نكفر كما كفرتم، ثم قال: و عليه توكلنا خصوصا لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم و أموالكم.

قوله تعالى: **{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ}** الغور ذهاب الماء و نضوبه في الأرض و المراد به الغائر، و المعين الظاهر الجاري من الماء، و المعنى: أخبروني إن صار ماؤكم غائرا ناضبا في الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر جار.

و هناك روايات تطبق الآيات على ولاية علي (عليه السلام) و محادثه، و هي من الجري و ليست بمفسرة.

(٦٨) سورة القلم مكية و هي اثنتان و خمسون آية (٥٢)

[سورة القلم (٦٨): الآيات ١ الى ٣٣]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ١ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ٢ وَ
إِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ٣ وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ٥ بِأَيْكُمْ
الْمُفْتُونَ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ٧ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ
٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ٩ وَ لَا تُطِعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ١٠ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ١١ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ
مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ١٣ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَنِينَ ١٤ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ١٥ سَنَسِيحُهُ عَلَى الْخُرطومِ ١٦ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْبِحِينَ ١٧ وَ لَا يَسْتَشْنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نَائِمُونَ ١٩ فَأَصْبَحَتْ
كَالصَّرِيمِ ٢٠ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ٢١ أَنْ أُغْدُوا عَلَى حَرِثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ٢٢ فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ
يَتَخَفَتُونَ ٢٣ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ٢٤ وَ غَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ٢٥ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ ٢٨
قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ٣٠ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا
كُنَّا طَاغِينَ ٣١ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ٣٢ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَ لَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٣٣}

(بيان)

السورة تعزى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إثر ما رماه المشركون بالجنون و تطيب نفسه بالوعد الجميل والشكر على خلقه العظيم و تنهاه نهيا بالغا عن طاعتهم و مدهانتهم، و تأمره أمرا أكيدا بالصبر لحكم ربه.

و سياق آياتها على الجملة سياق مكّي، و نقل عن ابن عباس و قتادة أن صدرها إلى قوله: **{سَنَسِيْمُهُ عَلَيَّ الْخُرْطُومَ}** - ست عشرة آية - مكّي، و ما بعده إلى قوله: **{لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}** - سبع عشرة آية - مدني، و ما بعده إلى قوله: **{يَكْتُتُبُونَ}** - خمس عشرة آية - مكّي، و ما بعده إلى آخر السورة - أربع آيات - مدني.

و لا يخلو من وجه بالنسبة إلى الآيات السبع عشرة **{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ}** إلى قوله **{لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}** فإنها أشبه بالمدينة منها بالمكية.

قوله تعالى: **{ن}** تقدم الكلام في الحروف المقطعة التي في أوائل السور في تفسير سورة الشورى.

قوله تعالى: **{وَ الْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ}** القلم معروف، و السطر بالفتح فالسكون و ربما يستعمل بفتحتين - كما في المفردات - الصف من الكتابة، و من الشجر المغروس و من القوم الوقوف و سطر فلان كذا كتب سطرًا سطرًا.

أقسم سبحانه بالقلم و ما يسطرون به و ظاهر السياق أن المراد بذلك مطلق القلم -

و مطلق ما يسطرون به و هو المكتوب فإن القلم و ما يسطر به من الكتابة من أعظم النعم الإلهية التي اهتدى إليها الإنسان يتلو الكلام في ضبط الحوادث الغائبة عن الأنظار و المعاني المستكنة في الضمائر، و به يتيسر للإنسان أن يستحضر كل ما ضرب مرور الزمان أو بعد المكان دونه حجابا.

و قد امتن الله سبحانه على الإنسان بهديته إليهما و تعليمهما له فقال في الكلام **{خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}** الرحمن: ٤ و قال في القلم: **{عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}** العلق: ٥.

فإقسامه تعالى بالقلم و ما يسطرون إقسام بالنعمة، و قد أقسم تعالى في كلامه بكثير من خلقه بما أنه رحمة و نعمة كالسما و الأرض و الشمس و القمر و الليل و النهار إلى غير ذلك حتى التين و الزيتون.

و قيل: **{مَا}** في قوله: **{وَمَا يَسْطُرُونَ}** مصدرية و المراد به الكتابة.

و قيل: المراد بالقلم القلم الأعلى الذي في الحديث أنه أول ما خلق الله و بما يسطرون ما يسطره الحفظة و الكرام الكاتبون و احتمال أيضا أن يكون الجمع في **{يَسْطُرُونَ}** للتعظيم لا للتكثير و هو كما ترى، و احتمال أن يكون المراد ما يسطرون فيه و هو اللوح المحفوظ و احتمال أن يكون المراد بالقلم و ما يسطرون أصحاب القلم و مسطوراتهم و هي احتمالات واهية.

قوله تعالى: **{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}** مقسم عليه و الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم)، و الباء في **{بِنِعْمَةٍ}** للسببية أو المصاحبة أي ما أنت بمجنون بسبب النعمة - أو مع النعمة - التي أنعمها عليك ربك.

و السياق يؤيد أن المراد بهذه النعمة النبوة فإن دليل النبوة يدفع عن النبي كل اختلال عقلي حتى تستقيم الهداية الإلهية اللازمة في نظام الحياة الإنسانية، و الآية ترد ما رموه به من الجنون كما يحكي عنهم في آخر السورة **{وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ}**.

و قيل: المراد بالنعمة فصاحته (صلى الله عليه وآله و سلم) و عقله الكامل و سيرته المرضية و براءته من كل عيب و اتصافه بكل مكرمة فظهور هذه الصفات فيه (صلى الله عليه وآله و سلم) ينافي حصول الجنون فيه و ما قدمناه أقطع حجة و الآية و ما يتلوها كما ترى تعزية للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و تطيب لنفسه الشريفة و تأييد له كما أن فيها تكذيبا لقولهم.

قوله تعالى: **{وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ}** الممنون من المن بمعنى القطع يقال: منه لسير منا إذا قطعه و أضعفه لا من المنة بمعنى تثقيل النعمة قولاً.

و المراد بالأجر أجر الرسالة عند الله سبحانه، و فيه تطيب لنفس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و أن له على تحمل رسالة الله أجراً غير مقطوع و ليس يذهب سدى.

و ربما أخذ المن بمعنى ذكر المنعم إنعامه على المنعم عليه بحيث يثقل عليه و يكدر عيشه بتقريب أن ما يعطيه الله أجر في مقابل عمله فهو يستحقه عليه تعالى فلا منه عليه و هو غير سديد فإن كل عامل مملوك لله سبحانه بحقيقة معنى الملك بذاته و صفاته و أعماله فما يعطيه العبد من ذلك فهو موهبة و عطية و ما يملكه العبد من ذلك فإنما يملكه بتملك الله و هو المالك لما ملكه من قبل و من بعد فهو تفضل منه تعالى و لئن سمي ما يعطيه بإزاء العمل أجراً و سمي ما بينه و بين عبده من مبادلة العمل و الأجر معاملة فذلك تفضل آخر فله سبحانه المنة على جميع خلقه و الرسول و من دونه فيه سواء.

قوله تعالى: **{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}** الخلق هو الملكة النفسانية التي تصدر عنها الأفعال بسهولة و ينقسم إلى الفضيلة و هي الممدوحة كالعفة و الشجاعة، و الرذيلة و هي المذمومة كالشره و الجبن لكنه إذا أطلق فهم منه الخلق الحسن.

قال الراغب: و الخلق - بفتح الخاء - و الخلق - بضم الخاء - في الأصل واحد كالشرب و الشرب و الصرم و الصرم لكن خص الخلق بالفتح بالهيئات و الأشكال و الصور المدركة بالبصر، و خص الخلق بالضم بالقوى و السجایا المدركة بالبصيرة قال تعالى: **{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}** انتهى.

و الآية و إن كانت في نفسها تمدح حسن خلقه (صلى الله عليه وآله وسلم) و تعظمه غير أنها بالنظر إلى خصوص السياق ناظرة إلى أخلاقه الجميلة الاجتماعية المتعلقة بالمعاشرة كالثبات على الحق و الصبر على أذى الناس و جفاء أجلافهم و العفو و الإغماض و سعة البذل و الرفق و المداراة و التواضع و غير ذلك، و قد أوردنا في آخر الجزء السادس من الكتاب ما روي في جوامع أخلاقه (صلى الله عليه وآله وسلم).

و مما تقدم يظهر أن ما قيل: إن المراد بالخلق الدين و هو الإسلام غير مستقيم إلا بالرجوع إلى ما تقدم.

قوله تعالى: **{ فَسْتَبْصِرْ وَيُبَصِّرُونَ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ }** تفريع على محصل ما تقدم أي فإذا لم تكن مجنوناً بل متلبساً بالنبوة و متخلقاً بالخلق و لك عظيم الأجر من ربك فسيظهر أمر دعوتك و ينكشف على الأبصار و البصائر من المفتون بالجنون أنت أو المكذبون الرامون لك بالجنون.

و قيل: المراد ظهور عاقبة أمر الدعوة له و لهم في الدنيا أو في الآخرة؟ الآية تقبل الحمل على كل منها. و لكل قائل، و لا مانع من الجمع فإن الله تعالى أظهر نبيه عليهم و دينه على دينهم، و رفع ذكره (صلى الله عليه وآله و سلم) و محا أثرهم في الدنيا و سيدوقون و بال أمرهم غدا و يعلمون^١ أن الله هو الحق المبين يوم هم^٢ على النار يفتنون ذوقوا فنتنكم هذا الذي كنتم به تستعجلون.

و قوله: **{ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ }** الباء زائدة للصلة، و المفتون اسم مفعول من الفتنة بمعنى الابتلاء يريد به المبتلى بالجنون و فقدان العقل، و المعنى: فستبصر و يبصرون أيكم المفتون المبتلى بالجنون؟ أنت أم هم؟

و قيل: المفتون مصدر على زنة مفعول كمعقول و ميسور و معسور في قولهم: ليس له معقول، و خذ ميسوره، و دع معسوره، و الباء في **{ بِأَيِّكُمْ }** بمعنى في و المعنى: فستبصر و يبصرون في أي الفريقين الفتنة.

قوله تعالى: **{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }** لما أفيد بما تقدم من القول إن هناك ضلالاً و اهتداءً، و أشير إلى أن الرامين للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بالجنون هم المفتونون الضالون و سيظهر أمرهم و أن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) مهتد و كان ذلك ببيان من الله سبحانه أكد ذلك بأن الله أعلم بمن ضل عن سبيله و هو أعلم بالمهتدين لأن السبيل سبيله و هو أعلم بمن هو في سبيله و من ليس فيه و إليه أمر الهداية.

قوله تعالى: **{ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ }** تفريع على المحصل من معنى الآيات السابقة و في المكذبين معنى العهد و المراد بالطاعة مطلق الموافقة عملاً أو قولاً، و المعنى: فإذا كان هؤلاء المكذبون لك مفتونين ضالين فلا تطعهم.

^١ النور: ٣٥.

^٢ الذاريات: ١٤.

قوله تعالى: **{وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}** الإدهان من الدهن يراد به التليين أي ود وأحب هؤلاء المكذبون أن تليينهم بالاقتراب منهم في دينك فيلينوك بالاقتراب منك في دينهم، ومحصله أنهم ودوا أن تصالحهم ويصالحوك على أن يتسامح كل منكم بعض المسامحة في دين الآخر كما قيل: إنهم عرضوا عليه أن يكف عن ذكر آلهتهم فيكفوا عنه وعن ربه.

و بما تقدم ظهر أن متعلق مودتهم مجموع **{لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}** و أن الفاء في **{فَيُدْهِنُونَ}** للتفريع لا للسببية.

قوله تعالى: **{وَلَا تَطْغُ كُلُّ جَلَّافٍ مَهِينٍ}** - إلى قوله - **{رَزِينٍ}** الخلاف كثير الحلف، و لازم كثرة الحلف و الإقسام في كل يسير و خطير و حق و باطل أن لا يحترم الخالف شيئاً مما يقسم به، وإذا كان حلفه بالله فهو لا يستشعر عظمة الله عز اسمه و كفى به رذيلة.

و المهين من المهانة بمعنى الحقارة و المراد به حقارة الرأي، و قيل: هو المكثار في الشر، و قيل: هو الكذاب. و الهماز مبالغة من الهمز و المراد به العياب و الطعان، و قيل: الطعان بالعين و الإشارة و قيل: كثير الاغتياب.

و المشاء بنميم النميم: السعاية و الإفساد، و المشاء به هو نقال الحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم.

و المناع للخير كثير المنع لفعل الخير أو للخير الذي ينال أهله.

و المعتدي من الاعتداء و هو المجاوزة للحد ظلماً.

و الأثيم هو الذي كثر إثمه حتى استقر فيه من غير زوال و الإثم هو العمل السيئ الذي يبطنه الخير.

و العتل بضم تين هو الفظ الغليظ الطبع، و فسر بالفاحش السيئ الخلق، و بالجافي الشديد الخصومة بالباطل، و بالأكول المنوع للغير، و بالذي يعتل الناس و يجرحهم إلى حبس أو عذاب.

و الزنيم هو الذي لا أصل له، و قيل: هو الدعي الملحق بقوم و ليس منهم، و قيل: هو المعروف باللؤم، و قيل: هو الذي له علامة في الشر يعرف بها وإذا ذكر الشر سبق هو إلى الدهن، و المعاني متقاربة.

فهذه صفات تسع رذيلة وصف الله بها بعض أعداء الدين ممن كان يدعو النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) إلى الطاعة والمداهنة، وهي جماع الرذائل.

وقوله: **{عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ}** معناه أنه بعد ما ذكر من مثالبه و رذائله عتل زنيم قيل: وفيه دلالة على أن هاتين الرذيلتين أشد معايبه.

والظاهر أن فيه إشارة إلى أن له خبائث من الصفات لا ينبغي معها أن يطاع في أمر الحق ولو أغمض عن تلك الصفات فإنه فظ خشن الطبع لا أصل له لا ينبغي أن يعباً بمثله في مجتمع بشري فليطرد و لا يطع في قول و لا يتبع في فعل.

قوله تعالى: **{أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَنِينَ}** الظاهر أنه بتقدير لام التعليل و هو متعلق بفعل محصل من مجموع الصفات الرذيلة المذكورة أي هو يفعل كذا و كذا لأن كان ذا مال و بنين فبطر بذلك و كفر بنعمة الله و تلبس بكل رذيلة خبيثة بدل أن يشكر الله على نعمته و يصلح نفسه، فالآية في إفادة الذم و التهمك تجري مجرى قوله: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ}**.

وقيل: إنه متعلق بقوله السابق **{لَا تُطْع}**، و المعنى: لا تطعه لكونه ذا مال و بنين أي لا يملك كونه ذا مال و بنين على طاعته، و المعنى المتقدم أقرب و أوسع.

قيل: و لا يجوز تعلقه بقوله: **{قَالَ}** في الشرطية التالية لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله عند النحاة.

قوله تعالى: **{إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}** الأساطير جمع أسطورة و هي القصة الخرافية، و الآية تجري مجرى التعليل لقوله السابق: **{لَا تُطْع}**.

قوله تعالى: **{سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطوم}** الوسم و السمة وضع العلامة، و الخرطوم الأنف، و قيل: إن في إطلاق الخرطوم على أنفه و إنما يطلق في الفيل و الخنزير تهكماً، و في الآية و عيد على عداوته الشديدة لله و رسوله و ما نزله على رسوله.

و الظاهر أن الوسم على الأنف أريد به نهاية إذلاله بذلة ظاهرة يعرفه بها كل من رآه فإن الأنف مما يظهر فيه العزة و الذلة كما يقال: شمخ فلان بأنفه و حمي فلان أنفه و أرغمت أنفه و جدع أنفه.

و الظاهر أن الوسم على الخرطوم مما سيقع يوم القيامة لا في الدنيا و إن تكلف بعضهم في توجيه حمله على فضاحته في الدنيا.

قوله تعالى: **{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}** إلى قوله **{كَالصَّرِيم}** البلاء الاختبار وإصابة المصيبة، والصرم قطع الثمار من الأشجار، والاستثناء عزل البعض من حكم الكل وأيضا الاستثناء قول إن شاء الله عند القطع بقول وذلك أن الأصل فيه الاستثناء فالأصل في قولك: أخرج غدا إن شاء الله هو أخرج غدا إلا أن يشاء الله أن لا أخرج، والطائف العذاب الذي يأتي بالليل، والصريم الشجر المقطوع ثمره، وقيل: الليل الأسود، وقيل: الرمل المقطوع من سائر الرمل وهو لا ينبت شيئا ولا ينفيد فائدة.

الآيات أعني قوله: **{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}** إلى تمام سبع عشرة آية وعيد لمكذبي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الرامين له بالجنون، وفي التشبيه والتنظير دلالة على أن هؤلاء المكذبين معذبون لا محالة والعذاب الواقع عليهم قائم على ساقه، غير أنهم غافلون وسيعلمون، فهم مولعون اليوم بجمع المال وتكثير البنين مستكبرون بها معتمدون عليها وعلى سائر الأسباب الظاهرية التي توافقهم وتشايح أهواءهم من غير أن يشكروا ربهم على هذه النعم ويسلكوا سبيل الحق ويعبدوا ربهم حتى يأتيهم الأجل ويفاجئهم عذاب الآخرة أو عذاب دنيوي من عنده كما فاجأهم يوم بدر فيروا انقطاع الأسباب عنهم وأن المال والبنين سدى لا ينفعهم شيئا كما شاهد نظير ذلك أصحاب الجنة من جنتهم وسيندمون على صنيعهم ويرغبون إلى ربهم ولا يرد ذلك عذاب الله كما ندم أصحاب الجنة وتلاوموا ورغبوا إلى ربهم فلم ينفعهم ذلك شيئا كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون، هذا على تقدير اتصال الآيات بما قبلها ونزولها معها.

وأما على ما رووا أن الآيات نزلت في القحط والسنة الذي أصاب أهل مكة وقريشا إثر دعاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عليهم بقوله: اللهم اشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فالمراد بالبلاء إصابتهم بالقحط وتناظر قصتهم قصة أصحاب الجنة غير أن في انطباق ما في آخر قصتهم من قوله: **{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}** إلخ، على قصة أهل مكة خفاء.

و كيف كان فالمعنى: **{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ}** أصبناهم بالبلية **{كَمَا بَلَوْنَا}** وأصبنا بالبلية **{أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}** وكانوا قوما من اليمن وجنتهم فيها وسيأتي إن شاء الله قصتهم في البحث الروائي الآتي **{إِذْ}** ظرف لبلونا **{أَفْسَمُوا}** و حلفوا **{لَيَصْرِمُنَّهَا}** أي ليقطعن ويقطفن ثمار جنتهم **{مُصْبِحِينَ}** داخلين في الصباح وكانهم ائتمروا وتشاوروا ليلا فعزموا على

الصرم صبيحة ليلتهم **{وَلَا يَسْتَتْنُونَ}** لم يقولوا إلا أن يشاء الله اعتمادا على أنفسهم و اتكاء على ظاهر الأسباب. أو المعنى: قالوا وهم لا يعزلون نصيبا من ثمارهم للفقراء و المساكين.

{فَطَافَ عَلَيْهَا} على الجنة **{طَائِفٌ}** أي بلاء يطوف عليها و يحيط بها ليلا **{مِنْ}** ناحية **{رَبِّكَ}**، **{فَأُصْبِحَتْ}** و صارت الجنة **{كَالصَّرِيمِ}** و هو الشجر المقطوع ثمره أو المعنى: فصارت الجنة كالليل الأسود لما اسودت بإحراق النار التي أرسلها الله إليها أو المعنى: فصارت الجنة كالقطعة من الرمل لا نبات بها و لا فائدة.

قوله تعالى: **{فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ}** - إلى قوله - **{قَادِرِينَ}** التنادي نداء بعض القوم بعضا، و الإصباح الدخول في الصباح، و صارمين من الصرم بمعنى قطع الثمار من الشجرة، و المراد به في الآية القاصدون لقطع الثمار، و الحرث الزرع و الشجر، و الخفت الإخفاء و الكتمان، و الحرد المنع و قادرين من القدر بمعنى التقدير.

و المعنى: **{فَتَنَادُوا}** أي فنادى بعض القوم بعضا **{مُصْبِحِينَ}** أي و الحال أنهم داخلون في الصباح **{أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ}** تفسير للتنادي أي بكروا مقبلين على جنتكم، - فاغدوا أمر بمعنى بكروا مضمن معنى أقبلوا و لذا عدي بعلى و لو كان غير مضمن عدي بإلى كما في الكشف - **{إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ}** أي قاصدين عازمين على الصرم و القطع.

«فانطلقوا» و ذهبوا إلى جنتهم **{وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ}** أي و الحال أنهم يأتمرون فيما بينهم بطريق الخفافة و المكاتمة **{أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا}** أي الجنة **{الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ}** أي أخفوا و رودكم الجنة للصرم من المساكين حتى لا يدخلوا عليكم فيحملكم ذلك على عزل نصيب من الثمر المصروم لهم **{وَوَعَدُوا}** و بكروا إلى الجنة **{عَلَى حَرْدٍ}** أي على منع للمساكين **{قَادِرِينَ}** مقدرين في أنفسهم أنهم سيصرمونها و لا يساهمون المساكين بشيء منها.

قوله تعالى: **{فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}** أي فلما رأوا الجنة و شاهدوها و قد أصبحت كالصريم بطواف طائف من عند الله قالوا: إنا لضالون عن الصواب في غدونا إليها بقصد الصرم و منع المساكين. و قيل: المراد إنا لضالون طريق جنتنا و ما هي بها.

و قوله: **{بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}** إضراب عن سابقه أي ليس مجرد الضلال عن الصواب بل حرماننا الزرع.

قوله تعالى: **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تَسْبِحُونَ}** - إلى قوله - **{رَاغِبُونَ}** أي

{قَالَ أَوْسَطُهُمْ} أي أعد لهم طريقا و ذلك أنه ذكرهم بالحق وإن تبعهم في العمل و قيل: المراد أوسطهم سنا و ليس بشيء **{أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ}** و قد كان قال لهم ذلك و إنما لم يذكر قبل في القصة إيجازا بالتعويل على ذكره هاهنا.

{لَوْلَا تَسْبِيحُونَ} المراد بتسبيحهم له تعالى تنزيههم له من الشركاء حيث اعتمدوا على أنفسهم و على سائر الأسباب الظاهرية فأقسموا ليصرمها مصبحين و لم يستثنوا لله مشية فعزلوه تعالى عن السببية و التأثير و نسبوا التأثير إلى أنفسهم و سائر الأسباب الظاهرية، و هو إثبات للشريك، و لو قالوا: لنصرمها مصبحين إلا أن يشاء الله كان معنى ذلك نفي الشركاء و أنهم إن لم يصرموا كان لمشية من الله و إن صرموا كان ذلك بإذن من الله فله الأمر وحده لا شريك له.

و قيل: المراد بتسبيحهم لله ذكر الله تعالى و توبتهم إليه حيث نوا أن يصرموها و يحرموا المساكين منها، و له وجه على تقدير أن يراد بالاستثناء عزل نصيب من الثمار للمساكين.

قوله تعالى: **{قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}** تسبيح منهم لله سبحانه إثر توبيخ أوسطهم لهم، أي ننزه الله تنزيها من الشركاء الذين أثبتناهم فيما حلفنا عليه فهو ربنا الذي يدبر بمشيئته أمورنا لأننا كنا ظالمين في إثباتنا الشركاء فهو تسبيح و اعتراف بظلمهم على أنفسهم في إثبات الشركاء.

و على القول الآخر توبة و اعتراف بظلمهم على أنفسهم و على المساكين.

قوله تعالى: **{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ}** أي يلوم بعضهم بعضا على ما ارتكبه من الظلم.

قوله تعالى: **{قَالُوا يَا وَيْلَنَا}** - إلى قوله - **{رَاغِبُونَ}** الطغيان تجاوز الحد و ضمير **{مِنْهَا}** للجنة باعتبار ثمارها و المعنى: قالوا يا ويلنا إنا كنا متجاوزين حد العبودية إذ أثبتنا شركاء لربنا و لم نوحده، و نرجو من ربنا أن يبدلنا خيرا من هذه الجنة التي طاف عليها طائف منه لأننا راغبون إليه معرضون عن غيره.

قوله تعالى: **{كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ أَلْ آخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}** العذاب مبتدأ مؤخر، و كذلك خبر مقدم أي إنما يكون العذاب على ما وصفناه في قصة أصحاب الجنة و هو أن الإنسان يمتحن بالمال و البنين فيطغى مغترا بذلك فيستغني بنفسه و ينسى ربه و يشرك بالأسباب الظاهرية و بنفسه و يجترئ على المعصية و هو غافل عما يحيط به من وبال

عمله و يهين له من العذاب كذلك حتى إذا فاجأه العذاب و برز له بأهول وجوهه و أمرها انتبه من نومة الغفلة و تذكر ما جاءه من النصح قبلا و ندم على ما فرط بالطغيان و الظلم و سأل الله أن يعيد عليه النعمة فيشكر كما انتهى إليه أمر أصحاب الجنة، ففي ذلك إعطاء الضابط بالمثال.

و قوله: **{وَلَعَذَابُ آلِ آخِرَةٍ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}** لأنه ناش عن قهر إلهي لا يقوم له شيء لا رجاء للتخلص منه و لو بالموت و الفناء كما في شدائد الدنيا، محيط بالإنسان من جميع أقطار وجوده لا كعذاب الدنيا دائم لا انتهاء لأمده كما في الابتلاءات الدنيوية.

(بحث روائي)

في المعاني، بإسناده عن سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق (عليه السلام) في تفسير الحروف المقطعة في القرآن قال: و أما من فهو نهر في الجنة قال الله عز و جل: احمد فحمد فصار مدادا ثم قال للقلم: اكتب فسطر القلم في اللوح المحفوظ ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة فالمداد مداد من نور و القلم قلم من نور و اللوح لوح من نور.

قال سفيان: فقلت له: يا بن رسول الله بين أمر اللوح و القلم و المداد فضل بيان و علمي مما علمك الله فقال: يا ابن سعيد لو لا أنك أهل للجواب ما أحببتك فنون ملك يؤدي إلى القلم و هو ملك، و القلم يؤدي إلى اللوح و هو ملك، و اللوح يؤدي إلى إسرافيل و إسرافيل يؤدي إلى ميكائيل و ميكائيل يؤدي إلى جبرائيل و جبرائيل يؤدي إلى الأنبياء و الرسل.

قال: ثم قال: قم يا سفيان فلا آمن عليك. و فيه، بإسناده عن إبراهيم الكرخي قال: سألت جعفر بن محمد (عليه السلام) عن اللوح و القلم قال: هما ملكان.

و فيه، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين (عليه السلام): **{ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}** القلم قلم من نور و كتاب من نور في لوح محفوظ يشهده المقربون و كفى بالله شهيدا.

أقول: و في المعاني المتقدمة روايات أخرى عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، و قد تقدم في ذيل قوله تعالى: **{هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ}** الجاثية: ٢٩، حديث القمي عن عبد الرحيم القصير عن الصادق (عليه السلام) في اللوح و القلم و فيه: ثم ختم على فم القلم فلم ينطق بعد ذلك و لا ينطق أبدا و هو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن جرير عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **{ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}** قال: لوح من نور وقلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة.

أقول: وفي معناه روايات أخرى، وقوله: يجري بما هو كائن إلخ، أي منطبق على متن الكائنات من دون أن يتخلف شيء منها عما كتب هناك ونظيره ما في رواية أبي هريرة: ثم ختم علي في القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة.

وفي المعاني، بإسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز وجل: **{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}** قال: هو الإسلام.

وفي تفسير القمي، عن أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: **{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}** قال: على دين عظيم.

أقول: يريد اشتمال الدين والإسلام على كمال الخلق واستنانه (صلى الله عليه وآله وسلم) به، وفي الرواية المعروفة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): **بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.**

وفي المجمع، بإسناده عن الحاكم بإسناده عن الضحاك قال: لما رأت قريش تقديم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عليا وإعظامه له نالوا من علي وقالوا: قد افتتن به محمد فأنزل الله تعالى: **{ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}** قسم أقسم الله به **{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}** - يعني القرآن - إلى قوله **{بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ}** وهم نفر الذين قالوا ما قالوا **{وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}** يعني علي بن أبي طالب.

أقول: ورواه في تفسير البرهان، عن محمد بن العباس بإسناده إلى الضحاك وساق نحو مما مر وفي آخره: وسبيله علي بن أبي طالب.

وفيه في قوله تعالى: **{وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ}** إلخ، قيل: يعني الوليد بن المغيرة عرض على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المال ليرجع عن دينه، وقيل: يعني الأخنس بن شريق عن عطاء، وقيل: يعني الأسود بن عبد يغوث: عن مجاهد.

أقول: وفي ذلك روايات في الدر المنثور وغيره تركنا إيرادها من أرادها فليراجع جوامع الروايات.

وفيه، عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظري ولا عتل زنيم. قلت: فما الجواظ؟ قال: كل جماع مناع. قلت: فما الجعظري؟**

قال: الفظ الغليظ. قلت: فما العتل الزنيم؟ قال: كل رحيب الجوف سيء الخلق أكل شروب غشوم

ظلوم زنيم.

وفيه، في معنى الزنيم: قيل: هو الذي لا أصل له.

وفيه، في تفسير القمي في قوله: **{عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمًا}** قال: العتل العظيم الكفر الزنيم الدعي.

وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام): في قوله: **{إِنَّا بَلَوْنَاكُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ**

الْجَنَّةِ} إن أهل مكة ابتلوا بالجوع كما ابتلي أصحاب الجنة وهي كانت في الدنيا و كانت باليمن يقال له الرضوان على تسعة أميال من صنعاء.

وفيه، بإسناده إلى ابن عباس: أنه قيل له إن قوما من هذه الأمة يزعمون أن العبد يذنب فيحرم به الرزق، فقال ابن عباس: فوالله الذي لا إله إلا هو هذا أنور في كتاب الله من الشمس الضاحية ذكره الله في سورة ن والقلم.

إنه كان شيخ و كان له جنة و كان لا يدخل إلى بيته ثمرة منها - و لا إلى منزله حتى يعطي كل ذي حق حقه فلما قبض الشيخ ورثه بنوه و كان له خمس من البنين فحملت جنتهم في تلك السنة التي هلك فيها أبوهم حملا لم يكن حملته قبل ذلك فراحوا الفتية إلى جنتهم بعد صلاة العصر فأشرفوا على ثمرة و رزق فاضل لم يعاينوا مثله في حياة أبيهم.

فلما نظروا إلى الفضل طغوا و بغوا و قال بعضهم لبعض: إن أبانا كان شيخا كبيرا قد ذهب عقله و خرف فهلوا تتعاقد فيما بيننا أن لا نعطي أحدا من فقراء المسلمين في عامنا شيئا حتى نستغني و يكثر أموالنا ثم نستأنف الصنعة فيما استقبل من السنين المقبلة فرضي بذلك منهم أربعة و سخط الخامس و هو الذي قال الله: **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}**.

فقال الرجل: يا ابن عباس كان أوسطهم في السن؟ فقال: لا بل كان أصغرهم سنا و أكبرهم عقلا و أوسط القوم خير القوم، و الدليل عليه في القرآن قوله: **{إِنكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَصْغَرُ الْأُمَمِ وَ خَيْرُ الْأُمَمِ قَوْلُهُ عَزَّ وَ جَلَّ: {وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}**.

قال لهم أوسطهم: اتقوا و كونوا على منهاج أبيكم تسلموا و تغنموا فبطشوا به و ضربوه ضربا مبرحا فلما أيقن الأخ منهم أنهم يريدون قتله دخل معهم في مشورتهم كارها لأمرهم غير طائع.

فراحوا إلى منازلهم ثم حلفوا بالله ليصر من إذا أصبحوا ولم يقولوا إن شاء الله فابتلاههم الله بذلك الذنب و حال بينهم و بين ذلك الرزق الذي كانوا أشرفوا عليه فأخبر عنهم في الكتاب فقال: **{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ}** قال: كالمحترق.

فقال الرجل: يا ابن عباس ما الصريم؟ قال: الليل المظلم، ثم قال: لا ضوء له و لا نور.

فلما أصبح القوم **{فَتَنَادَا مُصْبِحِينَ أَنْ أَعِدُوا عَلَيَّ حَرْثَكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَارِمِينَ}** قال: **{فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ}** قال الرجل: و ما التخافت يا ابن عباس؟ قال: يتشاورون فيشاور بعضهم بعضا لكيلا يسمع أحد غيرهم فقالوا: **{لَا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ وَ غَدُوا عَلَيَّ حَرْدٍ قَادِرِينَ}** في أنفسهم أن يصرموها و لا يعلمون ما قد حل بهم من سطوات الله و نعمته.

{فَلَمَّا رَأَوْهَا} و ما قد حل بهم **{قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}** فخرهم الله ذلك الرزق بذنوبهم و لم يظلمهم شيئا.

{قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تَسْبِحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ} قال: يلومون أنفسهم فيما عزموا عليه **{قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ}** فقال الله: **{كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَ لَعَذَابُ آلِ آخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}**.

أقول: و قد ورد ما يقرب من مضمون هذا الحديث و الذي قبله في روايات أخر و في بعض الروايات أن الجنة كانت لرجل من بني إسرائيل ثم مات و ورثه بنوه فكان من أمرهم ما كان.

[سورة القلم (٦٨): الآيات ٣٤ الى ٥٢]

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ

كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ
 الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلَهُمْ أَتِيَهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ
 كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً
 أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ
 بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ
 أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَعْرَمٍ مَثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا
 تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْ لَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَ
 هُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ
 بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

(بيان)

فيها تذييل لما تقدم من الوعيد لمكذبي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتسجيل العذاب
 عليهم في الآخرة إذ المتقون في جنات النعيم، و تثبت أنهم والمتقون لا يستون بحجة قاطعة فليس
 لهم أن

يرجوا كرامة من الله و هم مجرمون فما يجدونه من نعم الدنيا استدراج وإملاء.
و فيها تأكيد أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالصبر لحكم ربه.

قوله تعالى: **{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ}** بشرى و بيان لحال المتقين في الآخرة قبال ما بين من حال المكذبين فيها.

و في قوله: **{عِنْدَ رَبِّهِمْ}** دون أن يقال: عند الله إشارة إلى رابطة التدبير و الرحمة بينهم و بينه سبحانه و أن لهم ذلك قبال قصرهم الربوبية فيه تعالى و إخلاصهم العبودية له.

و إضافة الجنات إلى النعيم و هو النعمة للإشارة إلى أن ما فيها من شيء نعمة لا تشوبها نقمة و لذة لا يخالطها ألم، و سيجيء إن شاء الله في تفسير قوله تعالى: **{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}** التكاثر: ٨، أن المراد بالنعيم الولاية.

قوله تعالى: **{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ}** تحتل الآية في بادئ النظر أن تكون مسوقة حجة على المعاد كقوله تعالى: **{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}** ص: ٢٨، و قد تقدم تفسيره.

و أن تكون ردا على قول من قال منهم للمؤمنين: لو كان هناك بعث و إعادة لكنا منعمين كما في الدنيا و قد حكى سبحانه ذلك عن قائلهم: **{وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ}** حم السجدة: ٥٠.

ظاهر سياق الآيات التالية التي ترد عليهم الحكم بالتساوي هو الاحتمال الثاني، و هو الذي رووه أن المشركين لما سمعوا حديث البعث و المعاد قالوا: إن صح ما يقوله محمد و الذين آمنوا معه لم تكن حالنا إلا أفضل من حالهم كما في الدنيا و لا أقل من أن تتساوى حالنا و حالهم.

غير أنه يرد عليه أن الآية لو سيقت لرد قولهم، سنساويهم في الآخرة أو نزيد عليهم كما في الدنيا، كان مقتضى التطابق بين الرد و المردود أن يقال: أ فنجعل المجرمين كالمسلمين و قد عكس.

و التدبر في السياق يعطي أن الآية مسوقة لرد دعواهم التساوي لكن لا من جهة نفي مساواتهم على إجرامهم للمسلمين بل تزيد على ذلك بالإشارة إلى أن كرامة المسلمين تأتي أن يساويهم المجرمون كأنه قيل: إن قولكم: سنتساوى نحن و المسلمون باطل فإن الله لا يرضى أن يجعل المسلمين بما لهم من الكرامة عنده كالمجرمين و أنتم مجرمون.

فالأية تقيم الحجّة على عدم تساوي الفريقين من جهة منافاته لكرامة المسلمين عليه تعالى لا من جهة منافاة مساواة المجرمين للمسلمين عدله تعالى.

و المراد بالإسلام تسليم الأمر لله فلا يتبع إلا ما أَرادَه سبحانه من فعل أو ترك يقابله الاجرام و هو اكتساب السيئة و عدم التسليم.

و الآية و ما بعدها إلى قوله: **{أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُوبُونَ}** في مقام الرد لحكمهم بتساوي المجرمين و المسلمين حالا يوم القيامة تورد احتمالات هذا الحكم من حيث منشئه في صور استنفهات إنكارية و تردها. و تقرير الحجّة: أن كون المجرمين كالمسلمين يوم القيامة على ما حكموا به إما أن يكون من الله تعالى موهبة و رحمة و إما أن لا يكون منه.

و الأول إما أن يدل عليه دليل العقل و لا دليل عليه كذلك و ذلك قوله: **{مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}**.

و إما أن يدل عليه النقل و ليس كذلك و هو قوله: **{أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ}** إنخ، و إما أن يكون لا لدلالة عقل أو نقل بل عن مشافهة بينهم و بين الله سبحانه عاهدوه و واثقوه على أن يسوي بينهما و ليس كذلك فهذه ثلاثة احتمالات.

و إما أن لا يكون من الله فإما أن يكون حكمهم بالتساوي حكما جديا أو لا يكون فإن كان جديا فإما أن يكون التساوي الذي يحكمون به مستندا إلى أنفسهم بأن يكون لهم قدرة على أن يصيروا يوم القيامة كالمسلمين حالا و إن لم يشأ الله ذلك و ليس كذلك و هو قوله: **{سَلُّهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ}** أو يكون القائم بهذا الأمر المتصدي له شركاؤهم و لا شركاء و هو قوله: **{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ}** إنخ.

و إما أن يكون ذلك لأن الغيب عندهم و الأمور التي ستستقبل الناس قدرها و قضاؤها منوطان بمشيتهم تكون و تقع كيف يكتبون فكتبوا لأنفسهم المساواة مع المسلمين، و ليس كذلك و لا سبيل لهم إلى الغيب و ذلك قوله: **{أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُوبُونَ}** و هذه ثلاثة احتمالات.

و إن لم يكن حكمهم بالمساواة حكما جديا بل إنما تفوهوا بهذا القول تخلصا و فرارا من اتباعك على دعوتك لأنك تسألهم أجرا على رسالتك و هدايتك لهم إلى الحق فهم مثقلون من غرامته، و ليس كذلك، و هو قوله: **{أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ}**

و هذا سابع الاحتمالات.

هذا ما يعطيه التدبير في الآيات في وجه ضبط ما فيها من التردد و قد ذكروا في وجه الضبط غير ذلك من أراد الوقوف عليه فليراجع المطولات.

فقوله: **{مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}** مسوق للتعجب من حكمهم بكون المجرمين يوم القيامة كالمسلمين، و هو إشارة إلى تأبي العقل عن تجويز التساوي، و محصله نفي حكم العقل بذلك إذ معناه: أي شيء حصل لكم من اختلال الفكر و فساد الرأي حتى حكتم بذلك؟

قوله تعالى: **{أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ}** إشارة إلى انتفاء الحجّة على حكمهم بالتساوي من جهة السمع كما أن الآية السابقة كانت إشارة إلى انتفاءها من جهة العقل.

و المراد بالكتاب الكتاب السماوي النازل من عند الله و هو حجة، و درس الكتاب قراءته، و التخير الاختيار، و قوله: **{إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ}** في مقام المفعول لتدرسون و الاستفهام إنكاري. و المعنى: بل ألكم كتاب سماوي تقرأون فيه أن لكم في الآخرة أو مطلقا لما تختارونه فاخترتم السعادة و الجنة.

قوله تعالى: **{أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَهَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ}** إشارة إلى انتفاء أن يملكوا الحكم بعهد و يمين شفاهي لهم على الله سبحانه.

و الأيمان جمع يمين و هو القسم، و البلوغ هو الانتهاء في الكمال فالأيمان البالغة هي المؤكدة نهاية التوكيد، و قوله: **{إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** على هذا ظرف مستقر متعلق بمقدر و التقدير: أم لكم علينا أيمان كائنة إلى يوم القيامة مؤكدة نهاية التوكيد، إلخ.

و يمكن أن يكون **{إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** متعلقا بالغة و المراد ببلوغ الأيمان انطباقها على امتداد الزمان حتى ينتهي إلى يوم القيامة.

و قد فسروا الإيمان بالعهد و المواثيق فيكون من باب إطلاق اللازم و إرادة الملزوم كناية، و احتمال أن يكون من باب إطلاق الجزء و إرادة الكل.

و قوله: **{إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ}** جواب القسم و هو المعاهد عليه، و الاستفهام للإنكار.

و المعنى: بل ألكم علينا عهد أقسمنا فيها أقساما مؤكدا إلى يوم القيامة إنا سلمنا

لكم أن لكم لما تحكمون به.

قوله تعالى: **{سَلَّمُوا إِلَهُكُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ}** إعراض عن خطابهم و التفات إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بتوجيه الخطاب لسقوطهم عن درجة استحقاق الخطاب و لذلك أورد بقية السؤالات و هي مسائل أربع في سياق الغيبة أولها قوله: **{سَلَّمُوا إِلَهُكُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ}** و الزعيم القائم بالأمر المتصدي له، و الاستفهام إنكاري. و المعنى: سل المشركين أيهم قائم بأمر التسوية الذي يدعونه أي إذا ثبت أن الله لا يسوي بين الفريقين لعدم دليل يدل عليه فهل الذي يقوم بهذا الأمر و يتصداه هو منهم؟ فأيهم هو؟ و من الواضح بطلانه لا يتفوه به إلا مصاب في عقله.

قوله تعالى: **{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}** رد لهم على تقدير أن يكون حكمهم بالتساوي مبنيا على دعواهم أن لهم آلهة يشاركون الله سبحانه في الربوبية سيشفعون لهم عند الله فيجعلهم كالمسلمين و الاستفهام إنكاري يفيد نفي الشركاء.

و قوله: **{فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ}** إلخ، كناية عن انتفاء الشركاء يفيد تأكيد ما في قوله: **{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ}** من النفي. و قيل: المراد بالشركاء شركائهم في هذا القول، و المعنى: أم لهم شركاء يشاركونهم في هذا القول و يذهبون مذهبهم فليأتوا بهم إن كانوا صادقين. و أنت خبير بأن هذا المعنى لا يقطع الخصام.

و قيل: المراد بالشركاء الشهداء و المعنى: أم لهم شهداء على هذا القول فليأتوا بهم إن كانوا صادقين. و هو تفسير بما لا دليل عليه من جهة اللفظ. على أنه مستدرك لأن هؤلاء الشهداء شهداء على كتاب من عند الله أو وعد بعهد و يمين و قد رد كلا الاحتمالين فيما تقدم.

و قيل: المراد بالشركاء شركاء الألوهية على ما يزعمون لكن المعنى من إتيانهم بهم إتيانهم بهم يوم القيامة ليشهدوا لهم أو ليشفَعُوا لهم عند الله سبحانه. و أنت خبير بأن هذا المعنى أيضا لا يقطع الخصام.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ}** - إلى قوله - **{وَهُمْ سَالِمُونَ}** يوم ظرف متعلق بمخذوف كاذكر و نحوه، و الكشف عن الساق تمثيل في اشتداد الأمر اشتدادا بالغالما أنهم كانوا يشمرون عن سوقهم إذا اشتد الأمر

للعمل أو للفرار قال في الكشف: فعنى **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ}** في معنى يوم يشتد الأمر و يتفاقم، و لا كشف ثم و لا ساق كما تقول للأفطع الشحيح: يده مغلولة و لا يد ثم و لا غل وإنما هو مثل في البخل انتهى.
و الآية و ما بعدها إلى تمام خمس آيات اعتراض وقع في البين بمناسبة ذكر شركائهم الذين يزعمون أنهم سيسعدونهم لو كان هناك بعث و حساب فذكر سبحانه أن لا شركاء لله و لا شفاعة وإنما يحرز الإنسان سعادة الآخرة بالسجود أي الخضوع لله سبحانه بتوحيد الربوبية في الدنيا حتى يحمل معه صفة الخضوع فيسعد بها يوم القيامة.

و هؤلاء المكذبون المجرمون لم يسجدوا لله في الدنيا فلا يستطيعون السجود في الآخرة فلا يسعدون و لا تتساوى حالهم و حال المسلمين فيها البتة بل الله سبحانه يعاملهم في الدنيا لاستكبارهم عن سجوده معاملة الاستدراج و الإملاء حتى يتم لهم شقاؤهم فيردوا العذاب الأليم في الآخرة.

فقوله: **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ}** معناه اذكر يوم يشتد عليهم الأمر و يدعون إلى السجود لله خضوعاً فلا يستطيعون لاستقرار ملكة الاستكبار في سرائرهم و اليوم تلى السرائر.

و قوله: **{خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ}** حالان من نائب فاعل يدعون أي حال كون أبصارهم خاشعة و حال كونهم يغشاهم الذلة بقهر، و نسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها.

و قوله: **{وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ}** المراد بالسلامة سلامتهم من الآفات و العاهات التي لحقت نفوسهم بسبب الاستكبار عن الحق فسلبتها التمكن من إجابة الحق أو المراد مطلق استطاعتهم منه في الدنيا.

و المعنى: و قد كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود لله و هم سالمون متمكنون منه أقوى تمكن فلا يجيبون إليه.

و قيل: المراد بالسجود الصلاة و هو كما ترى.

قوله تعالى: **{فَدَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ}** المراد بهذا الحديث القرآن الكريم وقوله: **{فَدَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبُ}** إِنْخ، كناية عن أنه يكفيم وحده وهو غير تاركهم وفيه نوع تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و تهديد للمشركين.

قوله تعالى: **{سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}** استئناف فيه بيان كيفية أخذه تعالى لهم وتعذيبه إياهم المفهوم من قوله: **{فَدَرْنِي}** إِنْخ.

والاستدراج هو استنزاهم درجة فدرجة حتى يتم لهم الشقاء فيقعوا في ورطة الهلاك وذلك بأن يؤتيهم الله نعمة بعد نعمة وكلما أوتوا نعمة اشتغلوا بها وفرطوا في شكرها وزادوا نسياناً له وابتعدوا عن ذكره.

فالاستدراج إيتاؤهم النعمة بعد النعمة الموجب لنزولهم درجة بعد درجة واقترابهم من ورطة الهلاك، و كونه من حيث لا يعلمون إنما هو لكونه من طريق النعمة التي يحسبونها خيراً وسعادة لا شر فيها ولا شقاء.

قوله تعالى: **{وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ}** الإملاء الإمهال، والكيد ضرب من الاحتيال، والمتين القوي. والمعنى: وأمهلهم حتى يتوسعوا في نعمنا بالمعاصي كما يشاءون إن كيدي قوي.

و النكتة في الالتفات الذي في **{سَنَسْتَدْرِجُهُمْ}** عن التكلم وحده إلى التكلم مع الغير الدالة على العظمة و أن هناك موكلين على هذه النعم التي تصب عليهم صبا، والالتفات في قوله: **{وَأْمَلِي لَهُمْ}** عن التكلم مع الغير إلى التكلم وحده لأن الإملاء تأخير في الأجل ولم ينسب أمر الأجل في القرآن إلى غير الله سبحانه قال تعالى: **{ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجْلاً مُسَمًّى عِنْدَهُ}** الأنعام: ٥٢.

قوله تعالى: **{أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ}** المغرم الغرامة، والإثقال تحميل الثقل، والجملة معطوفة على قوله: **{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ}** إِنْخ.

و المعنى: أم تسأل هؤلاء المجرمين - الذين يحكمون بتساوي المجرمين و المسلمين يوم القيامة - أجرا على دعوتك فهم من غرامة تحملها عليهم مثقلون فيواجهونك بمثل هذا القول تخلصاً من الغرامة دون أن يكون ذلك منهم قولاً جدياً.

قوله تعالى: **{أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ}** ظاهر السياق أن يكون المراد بالغيب

غيب الأشياء الذي منه تنزل الأمور بقدر محدود فتستقر في منصة الظهور، والمراد بالكتابة على هذا هو التقدير والقضاء، والمراد بكون الغيب عندهم تسلطهم عليه وملكهم له.

فالمعنى: أم بيدهم أمر القدر والقضاء فهم يقضون كما شاءوا فيقضون لأنفسهم أن يساوا المسلمين يوم القيامة.

وقيل: المراد بكون الغيب عندهم علمهم بصحة ما حكموا به والكتابة على ظاهر معناه والمعنى: أم عندهم علم بصحة ما يدعونه اختصاصاً به ولا يعلمه غيرهم فهم يكتبونه ويتوارثونه وينبغي أن يبرزوه.

وهو بعيد بل مستدرك والاحتمالات الأخر المذكورة مغنية عنه.

وإنما آخر ذكر هذا الاحتمال عن غيره حتى عن قوله: **{أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا}** مع أن مقتضى الظاهر أن يتقدم عليه، لكونه أضعف الاحتمالات وأبعدها.

قوله تعالى: **{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}** صاحب الحوت يونس النبي (عليه السلام) والمكظوم من كظم الغيظ إذا تجرعه ولذا فسر بالختنق بالغم حيث لا يجد لغيظه شفاء، ونبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أن يكون كيونس (عليه السلام) وهو في زمن النداء مملوء بالغم نهي عن السبب المؤدي إلى نظير هذا الابتلاء وهو ضيق الصدر والاستعجال بالعذاب.

والمعنى: فاصبر لقاء ربك أن يستدرجهم ويملى لهم ولا تستعجل لهم العذاب لكفرهم ولا تكن كيونس فتكون مثله وهو مملوء غمًا أو غيظًا ينادي بالتسبيح والاعتراف بالظلم أي فاصبر واحذر أن تبتي بما يشبه ابتلاءه، ونداؤه قوله في بطن الحوت: **{لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}** كما في سورة الأنبياء.

وقيل: اللام في **{لِحُكْمِ رَبِّكَ}** بمعنى إلى وفيه تهديد لقومه ووعيد لهم أن سيحكم الله بينه وبينهم، والوجه المتقدم أنسب لسياق الآيات السابقة.

قوله تعالى: **{لَوْ لَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ}** في مقام التعليل للنهي السابق: **{لَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ}** والتدارك الإدراك والحق، وفسرت النعمة بقبول التوبة، والنبد الطرح، والعراء الأرض غير المستورة بسقف أو نبات، والذم مقابل المدح.

و المعنى: لو لا أن أدركته و لحقت به نعمة من ربه و هو أن الله قبل توبته ل طرح بالأرض العراء و هو مذموم بما فعل.

لا يقال: إن الآية تنافي قوله تعالى: **{فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}** الصافات: ١٤٤، فإن مدلوله أن مقتضى عمله أن يلبث في بطنه إلى يوم القيامة و مقتضى هذه الآية أن مقتضاه أن يطرح في الأرض العراء مذموما و هما تبعتان متنافيتان لا تجتمعان.

فإنه يقال: الآيتان تحكيان عن مقتضيين مختلفين لكل منهما أثر على حدة فأية الصافات تذكر أنه (عليه السلام) كان مداوما للتسبيح مستمرا عليه طول حياته قبل ابتلائه - و هو قوله: كان من المسبحين - و لو لا ذلك للبث في بطنه إلى يوم القيامة، و الآية التي نحن فيها تدل على أن النعمة و هو قبول توبته في بطن الحوت شملته فلم ينبذ بالعراء مذموما.

فمجموع الآيتين يدل على أن ذهابه مغاضبا كان يقتضي أن يلبث في بطنه إلى يوم القيامة فمنع عنه دوام تسبيحه قبل التقامه و بعده، و قدر أن ينبذ بالعراء و كان مقتضى عمله أن ينبذ مذموما فمنع من ذلك تدارك نعمة ربه له فنبذ غير مذموم بل اجتباه الله و جعله من الصالحين فلا منافاة بين الآيتين.

و قد تكرر في مباحثنا السابقة أن حقيقة النعمة الولاية و على ذلك يتعين لقوله: **{لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ} معنى آخر.**

قوله تعالى: **{فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}** تقدم توضيح معنى الاجتباء و الصلاح في مباحثنا المتقدمة.

قوله تعالى: **{وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ}** إن مخففة من الثقيلة، و الزلق هو الزلل، و الإزلاق الإزال و هو الصرع كناية عن القتل و الإهلاك.

و المعنى: أنه قارب الذين كفروا أن يصرعوك بأبصارهم لما سمعوا الذكر.

و المراد بإزلاقه بالأبصار و صرعة بها على ما عليه عامة المفسرين الإصابة بالأعين، و هو نوع من التأثير النفساني لا دليل على نفيه عقلا و ربما شوهد من الموارد ما يقبل الانطباق عليه، و قد وردت في الروايات فلا موجب لإنكاره.

و قيل: المعنى أنهم ينظرون إليك إذا سمعوا منك الذكر الذي هو القرآن نظرا مليئا بالعداوة و البغضاء يكادون يقتلونك بحديد نظرهم.

قوله تعالى: **{وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}** رميهم له بالجنون عند ما سمعوا الذكر دليل على أن مرادهم به رمي القرآن بأنه من إلقاء الشياطين، ولذا رد قولهم بأن القرآن ليس إلا ذكرا للعالمين. وقد رد قولهم: **{إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ}** في أول السورة بقوله: **{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}** وبه ينطبق خاتمة السورة على فاتحتها.

(بحث روائي)

في المعاني، بإسناده عن الحسين بن سعيد عن أبي الحسن (عليه السلام) في قوله عز وجل: **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ}** قال: حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجداً وتدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود.

وفيه، بإسناده عن عبيد بن زرارة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سألته عن قول الله عز وجل: **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ}** قال: كشف إزاره عن ساقه فقال: سبحان ربي الأعلى.

أقول: قال الصدوق بعد نقل الحديث: قوله: سبحان ربي الأعلى تنزيه الله سبحانه أن يكون له ساق. انتهى. وفي هذا المعنى رواية أخرى عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام).

وفيه، بإسناده عن معلى بن خنيس قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): ما يعني بقوله: **{وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ}** قال: وهم مستطيعون.

وفي الدر المنثور، أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد: سمعت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً.

وفيه، أخرج ابن مندة في الرد على الجهمية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ}** قال: يكشف الله عن ساقه.

وفيه، أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده و عبد بن حميد و ابن أبي الدنيا و الطبراني و الآجري في الشريعة و الدارقطني في الرؤية و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **يجمع الله الناس يوم القيامة و ينزل الله في ظلل من الغمام فينادي مناديا أيها الناس ألم ترضوا من ربكم [الذي] خلقكم و صوركم**

ورزقكم أن يولي كل إنسان منكم ما كان يعبد في الدنيا و يتولى؟ أليس ذلك من ربكم عدلا؟ قالوا: بلى.
قال: فينطلق كل إنسان منكم إلى ما كان يعبد في الدنيا و يتمثل لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيتمثل لمن
كان يعبد عيسى شيطان عيسى، و يتمثل لمن كان يعبد عزيزا شيطان عزيز حتى يمثل لهم الشجرة و العود و الحجر.
و يبقى أهل الإسلام جثوما فيتمثل لهم الرب عز و جل فيقول لهم: ما لكم لم تنطلقوا كما انطلق الناس؟
فيقولون: إن لنا ربا ما رأيناه بعد فيقول: فبم تعرفون ربكم إن رأيتموه؟ قالوا: بيننا و بينه علامة إن رأيناه عرفناه؟
قال: و ما هي؟ قالوا: يكشف عن ساق.

فيكشف عند ذلك عن ساق فيخر كل من كان يسجد طائعا ساجدا و يبقى قوم ظهورهم كصيافي
البحر يريدون السجود فلا يستطيعون. (الحديث).

أقول: و الروايات الثلاث مبنية على التشبيه المخالف للبراهين العقلية و نص الكتاب العزيز فهي مطروحة
أو مؤولة.

و في الكافي، بإسناده عن سفيان بن السمط قال قال أبو عبد الله (عليه السلام): **إن الله إذا أراد بعبد
خيرا فأذنب ذنبا أتبعه بنقمة و ذكره الاستغفار، فإذا أراد بعبد شرا فأذنب ذنبا أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار و
يتمادى بها، و هو قول الله عز و جل: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} بالنعمة و المعاصي.**

أقول: و قد تقدم بعض روايات الاستدراج في ذيل قوله تعالى: **{سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}**
الآية ١٨٢ من سورة الأعراف.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}** في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه
السلام): **يقول: مغموم.**

و فيه في قوله تعالى: **{لَوْ لَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ}** قال: النعمة الرحمة.

و فيه في قوله تعالى: **{لَتُنْبَذَ بِالْعَرَاءِ}** قال: الموضع الذي لا سقف له.

و في الدر المنثور: في قوله تعالى: **{وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا}** أخرج البخاري عن ابن عباس أن رسول الله
(صلى الله عليه وآله و سلم) قال: **العين حق.**

و فيه، أخرج أبو نعيم في الحلية عن جابر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر.**

أقول: وهناك روايات تطبق الآيات السابقة على الولاية وهي من الجري دون التفسير و لذلك لم نوردتها.

(٦٩) سورة الحاقة مكية وهي اثنتان وخمسون آية (٥٢)

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١ الى ١٢]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادُ
بِالقارِعَةِ ٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا عادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا
عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُخْلِ خاويَةٍ ٧ فَهَلْ
تَرَى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ ٨ وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ بِالخَاطِئَةِ ٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجاريةِ ١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا
أُذُنٌ واعيَةٌ ١٢}

(بيان)

السورة تذكر الحاقة وهي القيامة وقد سميتها أيضا بالقارعة والواقعة.

وقد ساق الكلام فيها في فصول ثلاثة: فصل تذكر فيه إجمالا الأمم الذين كذبوا بها

فأخذهم الله أخذة رابية، و فصل تصف فيه الحاقة و انقسام الناس فيها إلى أصحاب اليمين و أصحاب الشمال و اختلاف حالهم بالسعادة و الشقاء، و فصل تؤكد فيه صدق القرآن في إنائه بها و أنه حق اليقين، و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: **{الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}** المراد بالحاقة القيامة الكبرى سميت بها لثبوتها ثبوتاً لا مرد له و لا ريب فيه، من حق الشيء بمعنى ثبت و تقرر تقرراً واقعياً.

و **{مَا}** في **{مَا الْحَاقَّةُ}** استفهامية تفيد تفخيم أمرها، و لذلك بعينه وضع الظاهر موضع الضمير و لم يقل: ما هي، و الجملة الاستفهامية خبر الحاقة.

فقوله: **{الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ}** مسوق لتفخيم أمر القيامة يفيد تفخيم أمرها و إعظام حقيقتها إفادة بعد إفادة. و قوله: **{وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}** خطاب بنفي العلم بحقيقة اليوم و هذا التعبير كناية عن كمال أهمية الشيء و بلوغه الغاية في الفخامة و لعل هذا هو المراد مما نقل عن ابن عباس:

أن ما في القرآن من قوله تعالى: **{مَا أَدْرَاكَ}** فقد أدراه و ما فيه من قوله: **{مَا يُدْرِيكَ}** فقد طوى عنه، يعني أن **{مَا أَدْرَاكَ}** كناية و **{مَا يُدْرِيكَ}** تصريح.

قوله تعالى: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عَادُ بِالْقَارِعَةِ}** المراد بالقارعة القيامة و سميت بها لأنها تفرع و تدك السماوات و الأرض بتبديلها و الجبال بتسييرها و الشمس بتكويرها و القمر بخسفها و الكواكب بنثرها و الأشياء كلها بقهرها على ما نطقت به الآيات، و كان مقتضى الظاهر أن يقال: كذبت ثمود و عاد بها فوضع القارعة موضع الضمير لتأكيد تفخيم أمرها.

و هذه الآية و ما يتلوها إلى تمام تسع آيات و إن كانت مسوقة للإشارة إلى إجمال قصص قوم نوح و عاد و ثمود و فرعون و من قبله و المؤتفكات و إهلاكهم لكنها في الحقيقة بيان للحاقه ببعض أوصافها و هو أن الله أهلك أمماً كثيرة بالكذب بها فهي في الحقيقة جواب للسؤال بما الاستفهامية كما أن قوله: **{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ}** إلخ، جواب آخر.

و محصل المعنى: هي القارعة التي كذبت بها ثمود و عاد و فرعون و من قبله و المؤتفكات و قوم نوح فأخذهم الله أخذة رابية و أهلكتهم بعذاب الاستئصال.

قوله تعالى: **{فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}** بيان تفصيلي لأثر تكذيبهم بالقارعة،

و المراد بالطاغية الصيحة أو الرجفة أو الصاعقة على اختلاف ظاهر تعبير القرآن في سبب هلاكهم في قصتهم قال تعالى: **{وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ}** هود: ٦٧، و قال أيضا: **{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}** الأعراف: ٨٧، و قال أيضا: **{فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ}** حم السجدة: ١٧.

و قيل: الطاغية مصدر كالطغيان و الطغوى و المعنى: فأما ثمود فأهلكوا بسبب طغيانهم، و يؤيده قوله تعالى: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا}** الشمس: ١١.

و أول الوجهين أنسب لسياق الآيات التالية حيث سقت لبيان كيفية إهلاكهم من الإهلاك بالريح أو الأخذ الربابي أو طغيان الماء فليكن هلاك ثمود بالطاغية نظرا إلى كيفية إهلاكهم.

قوله تعالى: **{وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ}** الصرصر الريح الباردة الشديدة المهبوب، و عاتية من العتو بمعنى الطغيان و الابتعاد من الطاعة و الملاءمة.

قوله تعالى: **{سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}** تسخيرها عليهم تسليطها عليهم، و الحسوم جمع حاسم كشهود جمع شاهد من الحسم بمعنى تكرار الكي مرات متتالية، و هي صفة لسبع أي سبع ليال و ثمانية أيام متتالية متتابعة و صرعى جمع صريع و أعجاز جمع عجز بالفتح فالضم آخر الشيء، و خاوية الخالية الجوف الملقاة و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}** أي من نفس باقية، و الجملة كناية عن استيعاب الهلاك لهم جميعا، و قيل: الباقية مصدر بمعنى البقاء و قد أريد به البقية و ما قدمناه من المعنى أقرب.

قوله تعالى: **{وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ}** المراد بفرعون فرعون موسى، و بمن قبله الأمم المتقدمة عليه زمانا من المكذبين، و بالمؤتفكات قرى قوم لوط و الجماعة القاطنة بها، و «خاطئة» مصدر بمعنى الخطاء و المراد بالجيء بالخاطئة إخطاء طريق العبودية، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً}** ضمير **{فَعَصَوْا}** لفرعون

و من قبله و المؤتفكات، و المراد بالرسول جنسه، و الراهبة الزائدة من ربا يربو ربوة إذا زاد، و المراد بالأخذة الراهبة العقوبة الشديدة و قيل: العقوبة الزائدة على سائر العقوبات و قيل: الخارقة للعادة.

قوله تعالى: **{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ}** إشارة إلى طوفان نوح و الجارية السفينة، و عد المخاطبين محمولين في سفينة نوح و المحمول في الحقيقة أسلافهم لكون الجميع نوعا واحدا ينسب حال البعض منه إلى الكل و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}** تعليل لحملهم في السفينة فضمير **{لِنَجْعَلَهَا}** للحمل باعتبار أنه فعله أي فعلنا بكم تلك الفعلة لنجعلها لكم أمرا تتذكرون به و عبرة تعتبرون بها و موعظة تتعظون بها.

و قوله: **{وَ تَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}** الوعي جعل الشيء في الوعاء، و المراد بوعي الأذن لها تقريرها في النفس و حفظها فيها لترتب عليها فائدتها و هي التذكر و الاتعاظ.

و في الآية بجمليتها إشارة إلى الهداية الربوبية بكلا قسميها أعني الهداية بمعنى إراءة الطريق و الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب.

توضيح ذلك أن من السنة الربوبية العامة الجارية في الكون هداية كل نوع من أنواع الخليفة إلى كماله اللائق به بحسب وجوده الخاص بتجهيزه بما يسوقه نحو غايته كما يدل عليه قوله تعالى: **{الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** طه: ٥٠، و قوله: **{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}** الأعلى: ٣، و قد تقدم توضيح ذلك في تفسير سورتى طه و الأعلى و غيرهما.

و الإنسان يشارك سائر الأنواع المادية في أن له استكمالاً تكوينياً و سلوكاً وجودياً نحو كماله الوجودي بالهداية الربوبية التي تسوقه نحو غايته المطلوبة و يختص من بينها بالاستكمال التشريعي فإن للنفس الإنسانية استكمالاً من طريق أفعالها الاختيارية بما يلحقها من الأوصاف و النعوت و تتلبس به من الملكات و الأحوال في الحياة الدنيا و هي غاية وجود الإنسان التي تعيش بها عيشة سعيدة مؤبدة.

و هذا هو السبب الداعي إلى تشريع السنة الدينية بإرسال الرسل و إنزال الكتب و الهداية إليها **{لِتَلَّا}** **يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}** النساء: ١٦٥، و قد تقدم تفصيله في أبحاث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب و غيره، و هذه هداية بمعنى إراءة

الطريق وإعلام الصراط المستقيم الذي لا يسع الإنسان إلا أن يسلكه، قال تعالى: **{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ**
إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} الدهر: ٣، فإن لزم الصراط و سلكه حي بحياة طيبة سعيدة وإن تركه و أعرض عنه
هلك بشقاء دائم و تمت عليه الحجّة على أي حال، قال تعالى: **{لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنِنَةٍ}**
الأنفال: ٤٢.

إذا تقرر هذا تبين أن من سنة الربوبية هداية الناس إلى سعادة حياتهم بإراءة الطريق الموصل إليها، وإليها
الإشارة بقوله: **{لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً}** فإن التذكرة لا تستوجب التذكر ممن ذكر بها بل ربما أثرت و ربما تخلفت.
و من سنة الربوبية هداية الأشياء إلى كمالها بمعنى إنهاؤها و إيصالها إليها بتحريكها و سوقها نحوه، وإليها
الإشارة بقوله: **{وَوَعِيَهَا أَذُنٌ وَأَعِيَةٌ}** فإن الوعي المذكور من مصاديق الاهتداء بالهداية الربوبية وإنما لم ينسب
تعالى الوعي إلى نفسه كما نسب التذكرة إلى نفسه لأن المطلوب بالتذكرة إتمام الحجّة و هو من الله و أما الوعي فإنه
وإن كان منسوباً إليه كما أنه منسوب إلى الإنسان لكن السياق سياق الدعوة و بيان الأجر و المثوبة على إجابة
الدعوة و الأجر و المثوبة من آثار الوعي بما أنه فعل للإنسان منسوب إليه لا بما أنه منسوب إلى الله تعالى.

و يظهر من الآية الكريمة أن للحوادث الخارجية تأثيراً في أعمال الإنسان كما يظهر من مثل قوله: **{وَلَوْ أَنَّ**
أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ} الأعراف: ٩٦ أن لأعمال الإنسان تأثيراً
في الحوادث الخارجية و قد تقدم بعض الكلام فيه.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: **{لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً}** قال: لأمة محمد (صلى
الله عليه وآله و سلم)، و كم من سفينة قد هلكت و أثر قد ذهب يعني ما بقي من السفينة حتى أدركته أمة محمد
(صلى الله عليه وآله و سلم) فأرأوه كانت ألواحها ترى على الجودي.

أقول: و تقدم ما يؤيد ذلك في قصة نوح في تفسير سورة هود.

وفيه، أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن مكحول قال:
لما نزلت **{وَوَعِيَهَا أَذُنٌ وَأَعِيَةٌ}** قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **سألت ربي أن يجعلها**

أذن علي. قال مكحول: فكان علي يقول: ما سمعت عن رسول الله شيئاً فنسيته.

وفيه، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدي وابن مردويه وابن عساكر وابن النجاري عن بردة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلني: **إن الله أمرني أن أدنك ولا أقصيك وأن أعلمك وأن تعي وحق لك أن تعي فنزلت هذه الآية {وَتَعِيهَا أذُنٌ وَإِعْيَةٌ}**.

وفيه، أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **يا علي إن الله أمرني أن أدنك وأعلمك لتعي فأنزلت هذه الآية {وَتَعِيهَا أذُنٌ وَإِعْيَةٌ} فأنت أذن واعية لعلني**.

أقول: وروي هذا المعنى في تفسير البرهان، عن سعد بن عبد الله بإسناده عن أبي عبد الله (عليه السلام)، وعن الكليني بإسناده عنه (عليه السلام)، وعن ابن بابويه بإسناده عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام). ورواه أيضاً عن ابن شهر آشوب عن حلية الأولياء عن عمر بن علي، وعن الواحدي في أسباب النزول عن بريدة، وعن أبي القاسم بن حبيب في تفسيره عن زر بن حبيش عن علي (عليه السلام). وقد روي في غاية المرام، من طرق الفريقين ستة عشر حديثاً في ذلك وقال في البرهان إن محمد بن العباس روى فيه ثلاثين حديثاً من طرق العامة والخاصة.

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١٣ الى ٣٧]

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ كِتَابِيهِ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ ﴿٢٠﴾

فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٤١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٤٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٤٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي
الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٤٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ ﴿٤٥﴾ وَلَمْ أَدرِ مَا حِسَابِيهِ
﴿٤٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٤٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴿٤٨﴾ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴿٤٩﴾ خُدُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ
الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٥١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٥٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٥٣﴾
وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٥٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٥٦﴾ لَا
يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٥٧﴾

(بيان)

هذا هو الفصل الثاني من الآيات يعرف الحاقة ببعض أشراتها ونبذة مما يقع فيها.

قوله تعالى: **{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ}** قد تقدم أن النفخ في الصور كناية عن البعث و
الإحضار لفصل القضاء، وفي توصيف النفخة بالواحدة إشارة إلى مضي الأمر و نفوذ القدرة فلا
وهن فيه حتى يحتاج إلى تكرار النفخة، والذي يسبق إلى الفهم من سياق الآيات أنها النفخة الثانية
التي تحيي الموتى.

قوله تعالى: **{وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً}** الدك أشد الدق وهو كسر الشيء و
تبديله إلى أجزاء صغار، و حمل الأرض و الجبال إحاطة القدرة بها، و توصيف الدكة بالواحدة
للإشارة إلى سرعة تفتتها بحيث لا يفتقر إلى دكة ثانية.

قوله تعالى: **{فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ}** أي قامت القيامة.

قوله تعالى: **{وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ}** انشقاق الشيء انفصال شطر منه من شطر آخر، وواهية من الوهي بمعنى الضعف، وقيل: من الوهي بمعنى شق الأديم والثوب ونحوهما.

ويمكن أن تكون الآية أعني قوله: **{وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَ الْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا}** في معنى قوله: **{وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْعَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا}** الفرقان: ٢٥.

قوله تعالى: **{وَأَلْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}** قال الراغب: رجا البئر و السماء وغيرهما جانبها و الجمع أرجاء قال تعالى: **{وَأَلْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا}** انتهى، و الملك - كما قيل - يطلق على الواحد و الجمع و المراد به في الآية الجمع.

و قوله: **{وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}** ضمير **{فَوْقَهُمْ}** على ظاهر ما يقتضيه السياق للملائكة، و قيل: الضمير للخلائق.

و ظاهر كلامه أن للعرش اليوم حملة من الملائكة قال تعالى: **{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا}** المؤمن: ٧ و قد وردت الروايات أنهم أربعة، و ظاهر الآية أعني قوله: **{وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}** أن الحملة يوم القيامة ثمانية و هل هم من الملائكة أو من غيرهم؟ الآية ساكتة عن ذلك و إن كان لا يخلو السياق من إشعار ما بأنهم من الملائكة.

و من الممكن - كما تقدمت الإشارة إليه - أن يكون الغرض من ذكر انشقاق السماء و كون الملائكة على أرجائها و كون حملة العرش يومئذ ثمانية بيان ظهور الملائكة و السماء و العرش للإنسان يومئذ، قال تعالى: **{وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}** الزمر: ٧٥.

قوله تعالى: **{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}** الظاهر أن المراد به العرض على الله كما قال تعالى: **{وَ عَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا}** الكهف: ٤٨، و العرض إراءة البائع سلعته للمشتري بيسطها بين يديه، فالعرض يومئذ على الله و هو يوم القضاء إبراز ما عند الإنسان من اعتقاد و عمل إبرازا لا يخفى معه عقيدة خافية و لا فعلة خافية و ذلك بتبدل الغيب شهادة و السر علنا قال: **{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}** الطارق: ٩، و قال: **{يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ}** المؤمن: ١٦.

و قد تقدم في أبحاثنا السابقة أن ما عد في كلامه تعالى من خصائص يوم القيامة

كاختصاص الملك بالله، وكون الأمر له، وأن لا عاصم منه، و بروز الخلق له و عدم خفاء شيء منهم عليه و غير ذلك، كل ذلك دائمية الثبوت له تعالى، وإنما المراد ظهور هذه الحقائق يومئذ ظهورا لا ستر عليه و لا مرية فيه.

فالمعنى: يومئذ يظهر أنكم في معرض على علم الله و يظهر كل فعلة خافية من أفعالكم.

قوله تعالى: **{فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ}** قال في المجمع، هآؤم أمر للجماعة بمنزلة هاكم، تقول للواحد: هاء يا رجل، و للاثنين: هآؤما يا رجلان، و للجماعة: هآؤم يا رجال، و للمرأة: هاء يا امرأة بكسر الهمزة و ليس بعدها ياء، و للمرأتين: هآؤما، و للنساء: هآؤن. هذه لغة أهل الحجاز.

و تميم و قيس يقولون: هاء يا رجل مثل قول أهل الحجاز، و للاثنين: هاء، و للجماعة: هآؤا، و للمرأة: هآئي، و للنساء هآؤن.

و بعض العرب يجعل مكان الهمزة كافا فيقول: هاك هاكما هاكم هاك هاكما هاكلن، و معناه: خذ و تناول، و يؤمر بها و لا ينهى. انتهى.

و الآية و ما بعدها إلى قوله: **{الْخَاطِئُونَ}** بيان تفصيلي لاختلاف حال الناس يومئذ من حيث السعادة و الشقاء، و قد تقدم في تفسير قوله تعالى: **{فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ}** إسرائ: ٧١ كلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين، و الظاهر أن قوله: **{هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ}** خطاب للملائكة، و الهاء في **{كِتَابِيَهٗ}** و كذا في أواخر الآيات التالية للوقف و تسمى هاء الاستراحة.

و المعنى: فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول للملائكة: خذوا و اقرءوا كتابيه أي إنها كتاب يقضي بسعادتي.

قوله تعالى: **{إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ}** الظن بمعنى اليقين، و الآية تعليل لما يتحصل من الآية السابقة و محصل التعليل إنما كان كتابي ككتاب اليمين و قاضيا بسعادتي لأنني أيقنت في الدنيا أني سألاقي حسابي فأمنت بربي و أصلحت عملي.

قوله تعالى: **{فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ}** أي يعيش عيشة يرضاها فنسبة الرضا إلى العيشة من المجاز العقلي.

قوله تعالى: **{فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}** إلى قوله **{الْأَخَالِيَةِ}** أي هو في جنة عالية قدرا فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.

و قوله: **{قُطُوفَهَا دَانِيَةً}** القُطُوف جمع قطف بالكسر فالسكون وهو ما يجتنى من الثمر والمعنى: أثمارها قريبة منه يتناوله كيف يشاء.

و قوله: **{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}** أي يقال لهم: كلوا واشربوا من جميع ما يؤكل فيها وما يشرب حال كونه هنيئاً لكم بما قدمتم من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا التي تقضت أيامها.

قوله تعالى: **{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ}** وهؤلاء هم الطائفة الثانية وهم الأشقياء المجرمون يؤتون صحيفة أعمالهم بشمالهم وقد مر الكلام في معناه في سورة الإسراء، وهؤلاء يتمنون أن لو لم يكونوا يؤتون كتابهم ويدرون ما حسابهم يتمنون ذلك لما يشاهدون من أليم العذاب المعد لهم.

قوله تعالى: **{يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ}** ذكروا أن ضمير **{لَيْتَهَا}** للموتة الأولى التي ذاقها الإنسان في الدنيا. والمعنى: يا ليت الموتة الأولى التي ذقتها كانت قاضية علي تقضي بعدي فكنت انعدمت ولم أبعث حياً فأقع في ورطة العذاب الخالد وأشاهد ما أشاهد.

قوله تعالى: **{مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ}** كلمتا تحسر يقولهما حيث يرى خيبة سعيه في الدنيا فإنه كان يحسب أن مفتاح سعادته في الحياة هو المال والسلطان يدفعان عنه كل مكروه ويسلطانه على كل ما يحب ويرضى فبذل كل جهده في تحصيلهما وأعرض عن ربه وعن كل حق يدعى إليه و كذب داعيه فلما شاهد تقطع الأسباب وأنه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ذكر عدم نفع ماله وبطلان سلطانه تحسرا وتوجعا وما ذا ينفع التحسر؟ قوله تعالى: **{حُذُوهُ فَغُلُّهُ}** إلى قوله **{فَاسْلُكُوهُ}** حكاية أمره تعالى الملائكة بأخذه وإدخاله النار، والتقدير يقال للملائكة خذوه إنح، و **{فَعَلُّهُ}** أمر من الغل بالفتح وهو الشد بالغل الذي يجمع بين اليد والرجل والعنق.

و قوله: **{ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ}** أي أدخلوه النار العظيمة وألزموه إياها.

و قوله: **{ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ}** السلسلة القيد، والذرع الطول، والذراع بعد ما بين المرفق ورأس الأصابع وهو واحد الطول و سلوكه فيه جعله فيه، والمحصل ثم اجعلوه في قيد طوله سبعون ذراعاً.

قوله تعالى: **{إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ}** الحض التحريض والترغيب، والآيتان في مقام التعليل للأمر بالأخذ والإدخال في النار أي إن الأخذ ثم التصليّة في الحجيم والسلوك في السلسلة لأجل أنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين أي يساهل في أمر المساكين ولا يبالي بما يقاسونه.

قوله تعالى: **{فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ}** إلى قوله **{الْخَاطِئُونَ}** الحميم الصديق والآية تفرّج على قوله: **{إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ}** إنح، والمحصل: أنه لما كان لا يؤمن بالله العظيم فليس له اليوم هاهنا صديق ينفعه أي شفيع يشفع له إذ لا مغفرة لكافر فلا شفاعة.

و قوله: **{وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ}** الغسلين الغسالة و كان المراد به ما يسيل من أبدان أهل النار من قيح ونحوه والآية عطف على قوله في الآية السابقة: **{حَمِيمٌ}** و متفرّج على قوله: **{وَلَا يَحُضُّ}** إنح، والمحصل: أنه لما كان لا يحرض على طعام المسكين فليس له اليوم هاهنا طعام إلا من غسلين أهل النار. و قوله: **{لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ}** وصف لغسلين و الخاطئون المتلبسون بالخطيئة و الإثم.

بحث روائي

في الدر المنثور، في قوله تعالى: **{وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً}** - أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **يحملة اليوم أربعة و يوم القيامة ثمانية.**

أقول: و في تقييد الحاملين في الآية بقوله: **{يَوْمَئِذٍ}** إشعار بل ظهور في اختصاص العدد بالقيامة.

و في تفسير القمي، و في حديث آخر قال: **حملة ثمانية أربعة من الأولين و أربعة من الآخرين فأما الأربعة من الأولين فنوح و إبراهيم و موسى و عيسى، و أما الأربعة من الآخرين فمحمد و علي و الحسن و الحسين (عليه السلام).**

أقول: و في غير واحد من الروايات أن الثمانية مخصوصة بيوم القيامة، و في بعضها أن حملة العرش و العرش العلم أربعة منا و أربعة ممن شاء الله.

و في تفسير العياشي، عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إنه إذا كان يوم القيامة يدعى كل أناس بإمامه الذي مات في عصره فإن أثبته أعطي كتابه بيمينه لقوله: **{يَوْمَ نَدْعُوا}**

كُلُّ أَنَايِسٍ بِإِمَامِهِمْ} فن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم، و اليمين إثبات الإمام لأنه كتابه يقرؤه - إلى أن قال - و من أنكر كان من أصحاب الشمال الذين قال الله: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ} إِنْخ.

أقول: و في عدة من الروايات تطبيق قوله: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} إِنْخ، على علي (عليه السلام)، و في بعضها عليه و على شيعته، و كذا تطبيق قوله: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ} إِنْخ، على أعدائه، و هي من الجري دون التفسير.

و في الدر المنثور، أخرج الحاكم و صححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قال: لو أن دلوا من غسلين يهراق في الدنيا لأتت بأهل الدنيا.

و فيه، أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن صعصعة بن صوحان قال: جاء أعرابي إلى علي بن أبي طالب فقال: كيف هذا الحرف: لا يأكله إلا الخاطون كل و الله يخطوه. فتبسم علي و قال: يا أعرابي {لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِطُونَ} قال: صدقت و الله يا أمير المؤمنين ما كان الله ليسلم عبده.

ثم التفت علي إلى أبي الأسود فقال: إن الأعاجم قد دخلت في الدين كافة فضع للناس شيئاً يستدلون به على صلاح ألسنتهم فرسم لهم الرفع و النصب و الخفض.

و في تفسير البرهان، عن ابن بابويه في الدرود الواقية في حديث عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): و لو أن ذراعا من السلسلة التي ذكرها الله في كتابه وضع على جميع جبال الدنيا لذابت عن حرها.

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ٣٨ الى ٥٢]

{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَ لَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا

مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذَكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ

﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لِحَقِّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

(بيان)

هذا هو الفصل الثالث من آيات السورة يؤكد ما تقدم من أمر الحاققة بلسان تصديق القرآن الكريم ليثبت بذلك حقيقة ما أنبأ به من أمر القيامة.

قوله تعالى: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ}** ظاهر الآية أنه إقسام بما هو مشهود لهم و ما لا يشاهدون أي الغيب و الشهادة فهو إقسام بمجموع الخليقة و لا يشمل ذاته المتعالية فإن من البعيد من أدب القرآن أن يجمع الخالق و الخلق في صف واحد و يعظمه تعالى و ما صنع تعظيما مشتركا في عرض واحد.

و في الإقسام نوع تعظيم و تجليل للمقسم به و خلقه تعالى بما أنه خلقه جليل جميل لأنه تعالى جميل لا يصدر منه إلا الجميل و قد استحسنت تعالى فعل نفسه و أثنى على نفسه بخلقها في قوله: **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ}** الم السجدة: ٧، و قوله: **{فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}** المؤمنون: ١٤ فليس لله وجودات منه تعالى إلا الحسن و ما دون ذلك من مساءة فمن أنفسها و بقياس بعضها إلى بعض.

و في اختيار ما يبصرون و ما لا يبصرون للأقسام به على حقيقة القرآن ما لا يخفى من المناسبة فإن النظام الواحد المتشابه أجزاءه الجاري في مجموع العالم يقضي بتوحده تعالى و مصير الكل إليه و ما يترتب عليه من بعث الرسل و إنزال الكتب و القرآن خير كتاب سماوي يهدي إلى الحق في جميع ذلك و إلى طريق مستقيم.

و مما تقدم يظهر عدم استقامة ما قيل: إن المراد بما تبصرون و ما لا تبصرون الخلق و الخالق فإن السياق لا يساعد عليه، و كذا ما قيل: إن المراد النعم الظاهرة و الباطنة، و ما قيل: إن المراد الجن و الإنس و الملائكة أو الأجسام و الأرواح أو الدنيا و الآخرة أو ما يشاهد من آثار القدرة و ما لا يشاهد من أسرارها فاللفظ أعم مدلولاً من جميع ذلك.

قوله تعالى: **{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}** الضمير للقرآن، و المستفاد من السياق أن المراد برسول كريم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و هو تصديق لرسالته قبال ما كانوا يقولون إنه شاعر أو كاهن.

و لا ضمير في نسبة القرآن إلى قوله فإنه إنما ينسب إليه بما أنه رسول و الرسول بما أنه رسول لا يأتي إلا بقول مرسلة، و قد بين ذلك فضل بيان بقوله بعد: **{تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**.

و قيل: المراد برسول كريم جبريل، و السياق لا يؤيده إذ لو كان هو المراد لكان الأنسب نفي كونه مما نزلت به الشياطين كما فعل في سورة الشعراء.

على أن قوله بعد: **{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ}** و ما يتلوه إنما يناسب كونه (صلى الله عليه وآله وسلم) هو المراد برسول كريم.

قوله تعالى: **{وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ}** نفي أن يكون القرآن نظماً ألفه شاعر و لم يقل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) شعراً و لم يكن شاعراً.

و قوله: **{قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ}** توبيخ لمجتمعهم حيث إن الأكثرين منهم لم يؤمنوا و ما آمن به إلا قليل منهم.

قوله تعالى: **{وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ}** نفي أن يكون القرآن كهانة و النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كاهناً يأخذ القرآن من الجن و هم يلقونه إليه.

و قوله: **{قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ}** توبيخ أيضاً لمجتمعهم.

قوله تعالى: **{تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** أي منزل من رب العالمين و ليس من صنع الرسول نسبه إلى الله كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: **{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ}** - إلى قوله - **{حَاجِزِينَ}** يقال: تقول على فلان أي اختلق قولاً من نفسه و نسبه إليه، و الوتين - على ما ذكره الراغب - عرق يسقي الكبد و إذا انقطع مات صاحبه، و قيل: هو رباط القلب.

و المعنى: **{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا}** هذا الرسول الكريم الذي حملناه رسالتنا و أرسلناه إليكم بقرآن نزلناه عليه و اختلق **{بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ}** و نسبه إلينا **{لَأَحْذَنَّا مِنْهُ بِالْيَمِينِ}** كما يقبض على المجرم فيؤخذ بيده أو المراد قطعنا منه يده اليمنى أو المراد لانتقمنا منه بالقوة كما في رواية القمي **{ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ}** و قتلناه لتقوله علينا **{فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ}**

حَاجِزِينَ تحجبونه عنا وتجنونه من عقوبتنا وإهلاكنا.

و هذا تهديد للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على تقدير أن يفترى على الله كذبا و ينسب إليه شيئا لم يقله و هو رسول من عنده أكرمه بنبوته و اختاره لرسالته.

فلايات في معنى قوله: **{لَوْ لَا أَنْ تَبْتَنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذَا لَأَذْفُنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً}** إسرء: ٧٥، و كذا قوله في الأنبياء بعد ذكر نعمه العظمى عليهم: **{وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** الأنعام: ٨٨.

فلا يرد أن مقتضى الآيات أن كل من ادعى النبوة و اقترى على الله الكذب أهلكه الله و عاقبه في الدنيا أشد العقاب و هو منقوض ببعض مدعي النبوة من الكذابين.

و ذلك أن التهديد في الآية متوجهة إلى الرسول الصادق في رسالته لو تقول على الله و نسب إليه بعض ما ليس منه لا مطلق مدعي النبوة المفترى على الله في دعواه النبوة و إخباره عن الله تعالى.

قوله تعالى: **{وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ}** يذكرهم كرامة تقواهم و معارف المبدأ و المعاد بحقائقها، و يعرفهم درجاتهم عند الله و مقاماتهم في الآخرة و الجنة و ما هذا شأنه لا يكون تقولا و افتراء فالآية مسوقة حجة على كون القرآن منزها عن القول و الفرية.

قوله تعالى: **{وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ}** ستظهر لهم يوم الحسرة.

قوله تعالى: **{وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}** قد تقدم كلام في نظيرتي الآيتين في آخر سورة الواقعة، و السورتان متحدتان في الغرض و هو وصف يوم القيامة و متحدتان في سياق خاتمتها و هي الإقسام على حقيقة القرآن المنبئ عن يوم القيامة، و قد ختمت السورتان بكون القرآن و ما أنبأ به عن وقوع الواقعة حق اليقين ثم الأمر بتسبيح اسم الرب العظيم المنزه عن خلق العالم باطلا لا معاد فيه و عن أن يبطل المعارف الحقة التي يعطيها القرآن في أمر المبدأ و المعاد.

تم و الحمد لله.

بعض المواضيع المبحوث عنها في الكتاب

الصحيفة	نوع البحث	الموضوع	السورة
٦٠	قرآني وعقلي وتاريخي	كلام فيه إجمال القول في شق القمر	سورة القمر ٨ - ١
٧١	قرآني وروائي وعقلي	كلام في سعادة الأيام ونحوستها في فصول : ١ - في سعادة الأيام ونحوستها ٢ - في سعادة الكواكب ونحوستها ٣ - في التفاؤل والتطبير	٤٢ - ٩
٩٠	قرآني وروائي وعقلي	كلام في القدر	٥٥ - ٤٣ الجمعة
٢٦٩	قرآني وعقلي	كلام في معنى تعلم الحكمة	٨ - ١ المنافقون
٢٨٧	قرآني وتاريخي	كلام حول النفاق في صدر الإسلام	٨ - ١